الجمهـــورية الجـــزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمـــي

جامعة الأمير عبد القـــادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغـــة العربيـــة
شعبة اللغة والدراسات القرآنيـة

الرقم الترتيبي:..........

رقم التسجيل: ....

الاتجاه الإسلامي في شعر مفدي زكرياء

دراســة تحليليــة نقديــة

رســالـــة مقدمــة لنيــل شهــادة الماجستير
في الأدب العـــربي الحـــديث

من الطالـــب: إبراهيــم مرابــط

أمام اللجنــة	الاســـم واللقـــب	الرتبـــة	الجامعـــة الأصليـــة
1. الرئيـــس	الدكتور رابـــح دوب	أستاذ محاضـــر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
2. المقـــرر	الدكتور بوجمعـــة بوبعيو	أستاذ التعليم العالي	جامعة باجي مختار عنابـــة
3. العضـــو	الدكتور عمر بوقـــرورة	أستاذ محاضـــر	جامعـــة باتنـــة

المناقشـــة يـــوم: 21-03-2001 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقـــدمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقـــدمــــــة:

بعد تفكير وروية وقع اختياري على الاتجاه الإسلامي في شعر مفدي زكريا عنوانـــا لرســالتي لنيل درجة الماجستير، لأنه صور بروح إسلامية الواقع المأسوي للجزائر والأمة العربيـــة فـــي ظـــل الاحتلال الصليبي الحديث، الذي سعى إلى طمس معالم شـــخصيتها المتمـــيزة، وزرع بـــذور الشـــقاق والفرقة بين أبنائها، وإحلال قيم جديدة محل قيمها ومعتقداتها المرتبطة بأصالتها.

كما صور تطلعات الأمة إلى الحرية والانعتاق من هيمنة المســـتعمر، داعيـــا إلـــى النـــهوض بالمجتمع، والثورة من أجل استعادة المجد الضائع، وتحقيق الوثبة المنشودة، لمسايرة ركـــب الحضـــارة المعاصرة، وبناء صرح الأمة التي ينشدها الإسلام.

ومن دواعي هذا الاختيار:

– قيمة شعر مفدي زكرياء الفكرية والفنية بصفته شعرا أدى رسالته في الإصلاح والنهوض بـــالمجتمع والدعوة إلى الجهاد في سبيل رفع راية الإسلام وتحرير الأوطان من جهة، والحفاظ على أساليب اللغـــة العربية كما كانت في عهدها الأول من جهة ثانية.

– عدم وجود دراسة أكاديمية متخصصة تلم بجوانب الموضوع شكلا ومضمونا تحليلا ونقدا :

– ومن الدوافع الأخرى لهذا الاختيار، تعلقي الشديد بالشاعر منذ صغري عندمـــا كنـــت أردد أناشـــيده الحماسية مثل:

" اعصفي يا رياح " و " قسما " وراح يكبر في نفسي بمرور السنين حتى صـــرت أرى فيـــه الشـــاعر الفحل، والمجاهد الفذ المخلص لدينه ولغته وأمته، فأحببت دراسة شعره بهدف إظهار القيم المضمونيـــة والفنية، وإبراز مكانته بصفته شاعرا إسلاميا له فلسفته التي يصدر عنها في شعره المتمـــيز بالأصالـــة والوطنية.

جمعية إمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معالجة النصوص تحليلا ونقدا. وبذلك كشفت لي جوانب مهمة من حياة مفدي وشاعريته، وأعانتني في إنجاز هذه الدراسة المتواضعة.

وأمام هذا الموضوع وجدت نفسي مضطرا إلى اتباع المنهج التاريخي الوصفي تماشيا مع طبيعة المادة المكونة للموضوع وطريقة تناولها، لذلك قمت برصد شعره الإسلامي، وتتبعته خلال الفترة الممتدة ما بين 1925 م و 1977 م، للوقوف على البواعث التي ساعدت على نمو هذا الشعر.

كما استعنت بالمنهج التحليلي في دراسة النماذج الشعرية والتعمق في تحليلها ونقدها، للكشف عما تحمله من قيم مضمونية وفنية.

وفي ضوء هذا المنهج قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة ومدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة.

حددت في المقدمة موضوع البحث، وبينت دوافع اختياره، والصعوبات التي واجهتني أثناء إعداده، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

وشرحت في المدخل بإيجاز أوضاع المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الصليبي الفرنسي الحديث، وما تعرض له من محاولات المسخ والتشويه بهدف طمس معالم الشخصية الوطنية، ببعديها العربي والإسلامي، وأوضحت كيف تصدى لعدوه بقوة وشجاعة، دفاعا عن العقيدة والوطن، حتى تحقق له النصر المأمول.

أما في الفصل الأول، فقد تعرضت فيه إلى أصل الشاعر، ومولده ونشأته، والعوامل المؤثرة في شاعريته، سواء كانت بيئية، أم ثقافية، أم دينية.

وفي الفصل الثاني، أوضحت موقف الشاعر من الحضارة العربية الإسلامية، حيث أشاد بمقوماتها الأساسية، وأبرز قيمها الخالدة، وفضلها على الإنسانية جمعاء، داعيا إلى إصلاح قضايا الأمة على سنن الإسلام، حاثا على الجهاد لرد العدوان، ورفع راية الإسلام، رابطا بين ماضينا المشرق وحاضرنا التعيس، لاستخلاص العبر، وتحقيق أمل الأمة في التحرر والنهوض.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتناولت في الفصل الثالث أدوات التشكيل الشعري، فبينت مكانة اللفظية في البنية التعبيرية وأشرت إلى معجمية الشعري، وتحدثت عن تعلقه بالتراث وإحياء الكلمة العربية الفصيحة، بالعودة إلى اللفظ القراني، والعبارة القرانية، واللفظة العربية القديمة فوظفها على نحو خاص وفق ما يمليه الموقف وتحتاج إليه التجربة، وأبرزت أهم الخصائص الأسلوبية التي ميزت لغته الشعرية.

أما الصورة الشعرية فقد عرفتها وأشرت إلى طبيعتها وأنواعها عند الشاعر والتي تكاد لا تخرج عن الصورة التراثية من تشبيه واستعارة وغيرها، كما أوضحت توظيفه للرمز بمعناه الديني والاجتماعي توظيفا بسيطا لا يحتاج إلى عمق ثقافة وقدرة على التحليل، ما عدا الرمز القرآني الذي يتطلب معرفة ما يشير إليه في الاية الكريمة.

كما تعرضت إلى مفهوم الموسيقى الشعرية وطبيعتها وأنواعها، وكيف ظل الشاعر يحاكي القصيدة العربية التقليدية في طريقة بنائها، وجرسها مع محاولة الخروج عن البحور الخليلية في بعض قصائده التي أطلق عليها " الشعر الرصين ".

وانتهيت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

ولا يفوتني وقد استقام البحث على هذه الصورة، إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل، والتقدير الكبير والعرفان بالجميل إلى أستاذي المشرف الدكتور بوجمعة بوبعيو على ما أولاني به من كبير عناية، وما خصني به من حسن معاملة، وما أمدني به من نصح سديد، وتوجهات قيمة، عصمتني من التيه في أطراف الموضوع المتشابكة، وأنارت لي السبيل، وأوصلتني إلى بر الأمان.

كما أشكر الأساتذة الأفاضل الذين كان لهم سابقة إشراف على هذا البحث وهم : د.محمد مصطفى رضوان و د.أحمد دهمان، ود. محمد إبراهيم علي حسيني رضوان.

كما لا يفوتني أن أنوه بفضل كل من قدم إلي يد المساعدة من قريب أو بعيد لإنجاز هذه الدراسة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي الختام أتوجه بالشكر الخالص إلى الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقراءة فصول هذا البحث، ومناقشته، رغم مشاغلهم الكثيرة، لإفادتي بملاحظاتهم العلمية القيمة، لتصحيح جوانب النقص في عملي حتى يستقيم ويتحقق الغرض المقصود.

فإلى كل واحد منهم أسدي شكري وتقديري الخالصين.

والله ولي التوفيق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخـــــــــل

أثـــر أحـــداث العـــصـــر فـــي المجتمـــع الجـــزائري

سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وفكريا، وعقائديا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أثر أحداث العصر في المجتمع الجزائري:

ظهر الشاعر مفدي زكرياء في عصر ميزته أحداث هامة، سياسية واجتماعية واقتصادية، على الصعيدين، الدولي والوطني، كان لها الأثر الكبير في التطورات التي حصلت في العالم فيما بعد سلبا وإيجابا، ذلك أن السواد الأعظم من شعوب المعمورة كان قد خضع للسيطرة الأجنبية زمنا طويلا عانى خلاله ماسي الاستبداد ومضار الاستعباد، وذاق مرارة الجوع والعرى والظلم، وتعرض إلى مختلف الأوبئة والأمراض، وانتشار الجهل، لأن الطغاة المحتلين أفقدوه الإحساس بمعاني الحياة واستغلوه في خدمة شعوبهم وأوطانهم.

وكان في مقدمة تلك الشعوب، الشعب العربي الإسلامي، الذي تضرر أكثر من غيره بسبب الاستغلال البشع لموارده الطبيعية، وطاقاته البشرية، بحكم وفرة ثرواته، واستراتيجية موقعه بالنسبة للدول الاستعمارية.

وإذا كانت الدول الغربية قد عرفت تطورا مبكرا بفضل النهضة العلمية، فإن الشعوب المضطهدة شهدت هي الأخرى تغيرات جذرية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة انتشار الوعي لدى هذه الشعوب، وتطلع أبنائها إلى الحرية والاستقلال، وقد تسارعت الأحداث وتجمعت الأسباب، فتأزمت الأوضاع والعلاقات بين الدول أدت إلى حرب عالمية (1914-1919) ولم تكد الحرب تضع أوزارها ويتنفس الناس الصُعداء، حتى تعقّدت الأمور من جديد، وظهرت اضطرابات سياسية واجتماعية في فترة ما بين الحربين، من جراء تطرف القوميات، وبروز صعوبات اقتصادية عند الدول المنهزمة، وعدم تسوية المسائل الدولية العالقة، الأمر الذي عجل بالأزمات الخانقة، فاندلعت حرب عالمية ثانية (1939-1945)، أدت إلى مأساة إنسانية معاصرة، حيث دمّرت ما شيّدته عبقرية الإنسان عبر عصور عديدة، وأعادت تشكيل خريطة العالم من جديد بمختلف أوجهها رغم انتصار المنتصرين وانهزام المنهزمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما العالم العربي الإسلامي فلم يكن أحسن حالا من غيره، إذ عاش عمق المأساة، ودفع الثمن غاليا، في وقت لم يكن طرفا في النزاعات الدولية، ومع ذلك سُخِّرت أراضيه، وجندت الألوف من خيرة شبابه للدفاع عن الأحلاف عنوة، وتعرّض إلى محاولات المسخ والتشويه لطمس معالم شخصيته العربية الإسلامية، وسلبت فلسطين من أهلها لتمنح هبة إلى الإسرائيليين.

وأمام هذه المآسي الأليمة، شعر العرب والمسلمون بالخطر المحذق بهم، فكان رد فعلهم عن طريق انتهاج أسلوب الإصلاح، لإعداد المجتمع وتربيته تربية ملائمة، ومده بسلاح العصر، بعد أن لاحت في الأفق بوادر النهضة الحديثة في العالم الإسلامي على يد رجال الإصلاح،والجامعة الإسلامية بزعامة جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا وغيرهم كثيرون، وقد تركت هذه الحركة آثارها الواضحة في نفوس الغيورين على دينهم ووطنهم، من أبناء الأمة.

هذا إلى جانب ظهور تيار وطني تأثر في نضاله بما كان يحصل في الحركات الإصلاحية والسياسية في أوروبا، عن طريق الاختلاط بالأوروبيين في الجيش، وعلى مقاعد الدراسة، وفي النوادي العلمية والفكرية، وما كان ينتشر في الصحف هنا وهناك، وما يجري من نشاطات داخل الجمعيات والأحزاب السياسية إلخ...

وفي الجزائر استيقظ الشعب على ضجة الأحداث التي هزت العالم، فتجاوب معها تجاوبا إيجابيا، لكون العناصر الوطنية المخلصة اعتبرت بماضي تاريخها مع المستعمر، واستفادت من تجربتها معه، وأيقنت أن تحررها مرهون بإرادتها وعزيمتها، وأن المواجهة مع عدوها بالعناصر النخبوية لا طائلة من ورائها إذا لم تعضدها الجماهير الشعبية الواسعة، ولم تكن ساحة الوغى هي المدن والوهاد، والسهول والجبال.

لذا انطلقت تربي قاعدة الثورة، وتهيئ الجماهير، وتعبئ الشباب، بغرس الروح الوطنية في النفوس لمواجهة سياسة الحديد والنار، وذلك منذ مطلع القرن العشرين الذي تميزت فيه الأوضاع

المختلفة في الجزائر بميزة خاصة، أثرت في تطور الحركة الوطنية، ومهدت إلى الثورة الكبرى، وإلى الحصول على الحرية والاستقلال، والتي نلخصها فيما يلي:

أ- الأوضاع السياسية:

استعمل المحتل الفرنسي منذ حلوله بأرض الجزائر، سياسة العصا الغليظة وسيلة لإخضاع الشعب، وقبول سياسة الأمر الواقع، فنكل بمئات الألوف، وأباد الجماعات الكثيرة من الغيوريين على وطنهم وعقيدتهم ولغتهم وكرامتهم.

ورغم الوسائل القمعية التي استعملت ضد الشعب، فإنه قاوم الاحتلال بإمكانياته المحدودة طيلة فترة تواجده على أرضنا الطاهرة.

وفي العشرية الأولى من هذا القرن اعتمدت المقاومة على الضغط السياسي والإبداع الثقافي متأثرة بما يجري في العالم الحديث، من انتفاضات وثورات شعبية... " وأهم خطر للتحدي السياسي ضد السلطة الفرنسية وقع بسبب قضية التجنيد الإجباري عام 1912-تحت حماس النهضة الجزائرية وتأثير الحركة القومية العالمية، فقد تحدى الجزائريون الفرنسيين 1906-1912 على عدة جبهات وطالبوا خلال ذلك بالحقوق السياسية، والتمثيل النيابي الجاد... وإنهاء النظام الاستعماري والإقطاعي وبرنامج كاف للتعليم، وإلغاء القوانين الاستثنائية، والإبقاء على الشخصية الجزائرية " [1].

وهي مطالب تجسد بحق تطور أساليب المقاومة مع تطور الأحداث وطنيا ودوليا، فمن المطالبة بالتمتع بالحقوق الوطنية وتسيير شؤون حياتهم، وممارسة حرياتهم التي حرموا منها ما يقرب من قرن إلى المطالبة بإزالة كل مظاهر الظلم والتعسف والاستغلال البشع، للثروات والأشخاص، وتمكين المواطنين من التعليم النافع، وتحسين ظروف تمدرس أبنائهم، وإلغاء كل القوانين الرادعة للأهالي والحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية من لغة ودين وعادات وتقاليد.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983 ص200

إن الحركة الوطنية بانتهاجها العمل السياسي وسيلة ضغط على المستدمر مكنها من تحقيق تطور ملموس، برزت اثاره في العقد الثاني من القرن الماضي، سواء من حيث الانتعاش الثقافي، أو العمل النضالي. وما يؤكد هذا أن بعض المورخين ذهبوا إلى القول: " إن فترة الحرب الكونية الأولى الممتدة ما بين 1914-1919 هي أحسن الفترات في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، وصانعة قاعدتها السياسية الصلبة التي مهدت لتفجير الثورة التحريرية في نوفمبر 1954م، ذلك أن الجزائريين قد فهموا أن التنظيم السياسي، ونشر التعليم، وإيقاظ الجماهير، كان أفضل بديل عن النشاط العسكري في مفهومهم القديم، فقد تعلموا في الأحزاب السياسية الأوروبية لعبة المساومة والمناورة وتكتيك المنظمات الجماهيرية المنظمة بإحكام بدلا من ثورات عسكرية غير ناضجة وسيئة التنظيم " (1)

إن بروز الوعي الجماهيري الناجم عن مختلف التأثيرات الداخلية والخارجية، جعل الزعماء والمصلحين يميلون عن فكرة المساواة التي كان قد نادى بها البعض من قبل، إلى الانفصال عن فرنسا والمطالبة بالحرية والاستقلال التام .

ويؤكد الدكتور صالح خرفي أهمية هذه المرحلة بقوله: " الحرب العالمية الأولى تكاد تكون معلما بارزا في حياة الجزائر السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية، وهذه الأهمية لا تنبعث من الحرب ذاتها بقدر ما تفرضها عوامل سبقت الحرب أو تلتها...

فالثلاثون سنة من مستهل القرن، والتي تتوسطها الحرب، تعتبر في تاريخ الجزائر أحفل الفترات مواقف وأحداثا ... فهي الفترة التي عرفت ميلاد الصحافة العربية الوطنية، وانبعاث الحركات العلمية الإصلاحية، وفجرت التجارب السياسية الرائدة... " (2).

وهذه العوامل تكاملت فيما بينها لتدفع بالقضية الوطنية إلى البروز على سطح الأحداث، لتحقق اللحمة التامة بين أبناء الوطن من جهة، ويقرع صوتها مسامع الشعوب والأمم من جهة ثانية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) المرجع السابق، ص 434-435.
(2) المدخل الى الادب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 11.

إن تكون النوادي الثقافية والجمعيات الإصلاحية والسياسية على الساحة الوطنية في عقد العشرينات والثلاثينات ونشاطها، هو امتداد لنضال الحركة الوطنية، وتجسيد لفلسفتها الرامية إلى مناهضة المحتل، وإفشال كل مخططاته الهادفة إلى القضاء على هوية الشعب، من خلال إصدار قانون الجنسية عام 1919م، والحقوق المدنية والسياسية، ولعل أهم ما يفسر لنا نوايا الغزاة المعادية لخط الأصالة الوطنية تحديهم لمشاعر المواطنين أجمعين بمناسبة الاحتفال القرني لاحتلال الجزائر عام 1930م، حيث ورد على لسان أحد الخطباء: " إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة عام على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام" [1].

لقد كان لهذا الاحتلال أثره الإيجابي في النفوس، لأنه كشف القناع عن السياسة العدائية الاستعمارية المبيتة الهادفة إلى القضاء النهائي على قيم المجتمع، وإفراغ شخصيته من مضامينها الوطنية والقومية الأصيلة، والسعي لقطع الأوصال التي تربطه بحضارة أمته العربية الإسلامية، فاشتد الصراع وتعمقت الهوة بين المواطنين وأعدائهم الصليبيين الغزاة، ووقفت الجماهير الرافضة للسيطرة والاحتلال سدّا منيعا في وجه سياسة فرنسية الجزائر، وتمسيح أبنائها، وظهرت الأحزاب والجمعيات منادية بالحرية والاستقلال في ظل الانتماء العربي الإسلامي، وكان لهذا أثره كذلك في تحرير فكر المواطن من عقدة الاستكانة للظلم، وتحريره أيضا من كل قيد يكبله،وإمداده بشحنة من الوعي الوطني وذاك ابتداء من عام 1926م، تاريخ ظهور نجم طلبة إفريقيا الشمالية، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، التي تبنت في عملها الإصلاحي شعارها المعروف: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا، وبروز حزب الشعب في 1937م خلفا للنجم الذي طالب بالاستقلال، ودعا إلى الثورة علانية، ثم حركة انتصار الحريات الديموقراطية التي حلت محل حزب الشعب في 1939م واستمرت إلى سنة 1949م.

---

[1] محمد العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1930-1954، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1985م، ص 109.

وفي الوقت الذي كانت فيه الساحة الجزائرية تغلي، إذا بحرب كونية ثانية تهز العالم (1939 - 1945) كما سبق القول، ولم تجد فرنسا في هذه الفترة الصعبة من تاريخها الحديث بدا من مهادنة شعبنا، وترضيته بالوعود التي لم تحقق، والتأكيد له عن استعدادها للاعتراف بسيادته واستقلاله عند نهاية الحرب، ولقد اغتنمت فرصة سيطرتها على الجزائر فجندت خيرة شبابها ضمن صفوف جيشها لمواجهة النازية، وحققت حلمها بانتصار الأحلاف في سنة 1945م.

وفي الثامن ماي 1945 خرجت الجماهير الشعبية في كثير من مدننا وقرانا تشارك الأحلاف فرحة انتصارهم، وتطالب فرنسا بتحقيق وعودها نحو الجزائريين سلميا، وكان يحدوها أمل الحصول على مطالبها المشروعة، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ واجهت قواتها المسلحة الجماهير بوابل من الرصاص، أدى إلى استشهاد أكثر من 45 ألف شهيد، في كل من سطيف، وخراطة، وقالمة وغيرها، وكان لهذه الهمجية الوحشية أثرها العميق في تغيير مجرى الأحداث الوطنية، وفتحت عهدا جديدا في حياة الحركة الوطنية مع العدو.

إن مجازر 08 ماي 1945م، لم تترك أي شك لدى الساسة والمصلحين والثائرين على اختلاف اتجاهاتهم ومطالبهم السياسية، بأن الحرية غالية وأنها لا توهب، وأن الاستعمار إستدمار، وأنّ الجزائريين سواسية في نظره، وأن النضال السياسي تقزم دوره، ولن يكون الوسيلة الفعالة للتحرير مع مغتصب لا يفهم لغة الحوار السياسي بقدر ما يفهم لغة العنف وأصوات الرصاص، لذلك عليه أن يستعد للمواجهة كما يقول مفدي زكرياء [1]:

يا فَرنْسا قَدْ مضى وقْتُ العِتَابْ * وطَوَيْنَاهُ كما يُطْوى الكِتَابْ
يا فَرنْسا ..إنّ ذا يومُ الحِسَابْ * فَاسْتَعِدِّي وخُذِي مِنّا الجواب
إنّ في ثَوْرَتِنَا فَصْلَ الخطَابْ * وعَقَدْنَا العزْمَ أنْ تَحْيَا الجزائرْ
فَاشْهَدُوا [2].

[1] الامين بشيشي أناشيد للوطن، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ط1، 1981، ص11.
[2] حذف هذا المقطع من نشيد "قسما" منذ ان طبع ديوان "اللهب المقدس" في بيروت عام 1961.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هكذا كانت الأحداث الدامية نقطة بداية المواجهة الحقيقية بين الشعب وغزاته، وعامل لحمة قوية صهرت طبقات المجتمع في بوتقة واحدة، وجعلت من شتاتها صفا موحدا، وجعلتها كذلك أكثر تطرفا في الوطنية، وأشد حقدا على المحتل وصليبيته. لا سيما بعد نضج الوعي السياسي الوطني وتحمس نخبة من الباب الثائر المتحفز إلى الجهاد المقدس، الذي هو طريق الحرية والعزة والكرامة فوحدوا صفوفهم، وجمعوا شتاتهم لخوض الجهاد، يحدوهم أحد الأملين: الاستشهاد والفوز بنعيم الآخرة في حياة أبدية، أو الانتصار والفوز بالسعادة الدنيوية في ظل الحرية، فكان الجهاد، وكان أن لبّى الشعب داعي الجهاد في غرة نوفمبر 1954م.

كما كان لظهور الجامعة العربية والأمم المتحدة أثر كبير في تحريك مشاعر الوطنيين المخلصين، لإيمانهم بعدالة قضيتهم، وتوقعهم تلقي الإعانة المادية والدعم المعنوي من المجموعتين العربية والدولية.

إن الشعب حين أعلن الجهاد هان عليه كلّ غالٍ ورخيص، وكان مُوقنا أن ثمن الحرية باهض لأنه دماء الأحرار، وجماجم الشهداء، فاندفع بكل ما يملك من إمكانيات مادية ومعنوية، وقاوم الطغاة المعتدين دفاعا عن وجوده وأصالته، طيلة سبع سنوات ونصف تقريبا، ولم يعبأ بالأعمال الهمجية التي سلطت عليه، من قتل وتعذيب، وحرق وتهديم، وتخريب، وتنكيل، بالكبار والصغار، بالنساء والأطفال إلى أن أتم الله وعده، ونصر عباده المؤمنون الصادين الذين دافعوا عن دينهم، ووطنهم، وحريتهم انتصارا الله، مصداقا لقوله تعالى: " يا أيّها الذين آمنُوا إن تنْصرُوا الله ينْصرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقْدامكُمْ" [1] بعد أن ضحى الشعب بأكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء، ناهيك عن المرضى، والمعوقين والمشوهين، والأيتام، والثكالى، الذين قال الله فيهم: " مِن المُؤْمِنِين رِجالٌ صدَقُوا ما عاهَدُوا الله علَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ منْ ينْتَظِرْ وما بدّلُوا تَبْدِيلاً"[2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] سورة محمد، الآية:07

[2] سورة الأحزاب، الآية: 23

2- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

بمجرد أن أستتب الأمر للفرنسيين في الجزائر، اغتصبوا الممتلكات والأراضي الزراعية الخصبة بالقوة، ووزعوها على المعمّرين الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم، وأرغموا الأهالي على مغادرتها نحو الأحراش، والمناطق الجبلية الفقيرة والصحاري، ليتخذوها موردا لسد رمق عيش أسرهم، وقد لخّص **بيجو** قائد الحملة الاستعمارية على الجزائر هدفهم بقوله: " احتلال الجزائر بالسيف والمحراث، السيف في رقاب العرب، والمحراث في يد المستعمر الفرنسي" [1] .

إن هدف الاحتلال هو خلق وطن جديد لفائض السكان الفرنسيين والأوروبيين، وفتح سوق جديدة لبضاعتهم المصدرة إلينا.

وبالعودة إلى النصوص نتمكن من الوقوف على هذه الحقائق، يقول **جيرار** وزير الحربية الفرنسية عام 1930: " إن هذا القرار أي الفتح يرتكز على أهم الدوافع المرتبطة أوثق الارتباط بحفظ النظام الاجتماعي في فرنسا بل في أوربا، وذلك عن طريق فتح منفذ واسع لفائض السكان عندنا وتصريف منتوجات مصانعنا لقاء منتوجات أجنبية أخرى غريبة عن أرضنا ومناخنا"[2].

هكذا سعى الفرنسيون إلى الاستيلاء على ثروات البلاد، وجعلوها في يد المرتزقة لتحقيق منافع للأوروبيين، وضيقوا سبل العيش على أهل البلاد مدة قرن وربع قرن من الزمن، وأهملوا الصناعة حتى تبقى الجزائر سوقا لمنتوجات فرنسا من جهة، ومصدر خامات صناعتها من جهة أخرى.

إن السياسة الاقتصادية التي أنتجتها فرنسا في بلادنا خلال عهد الاحتلال، حولت الأغلبية الساحقة من أبناء الوطن، من سادة ملاك، إلى أذلاء فقراء مستضعفين، وجعلت من شبابها العاطل يدا عاملة رخيصة في مؤسسات ومزارع المغتصبين، وبذلك انخفض الدخل الفردي، وانعكس سلبا على

---

(1) صالح خرفي، المدخل الى الأدب الجزائري الحديث، ص15

(2) عبد الكريم بوالصفصاف، مجلة سيرتا، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع /6/ 07/ 1982، ص 27 نقلا عن ليون فيكس الجزائر حتف الاستعمار، ص06

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحياة العامة للمواطنين، فعانى شعبنا مرارة الظلم وضنك العيش، وتعرض إلى أخبث الأمراض التي أفنت الألوف من أبنائه.

لذلك اضطر الكثير من أبناء الوطن، مجبرين، إلى ترك الوطن الغالي، والهجرة إلى بلدان أوروبا والعالم، جريا وراء كسب قوتهم، وهروبا من المعاناة القاسية التي لا تطاق في بلدهم، ومع هذا كله فإن الشعب الجزائري بقي متماسكا، متلاحما، شامخا شموخ الجبال، عظيما عظمة مجد أمته، لم يتزعزع إيمانه، ولم تضعف وطنيته، ولم يشك يوما في أصالته، ولم يَحِدْ عن عقيدته التي بذلت فرنسا كل إمكانياتها للنيل منها. وبذلك فشلت في قتل هذا الشعب الأبي وقهره، وإحلال شعب آخر غريب عنه محله.

3 -الأوضاع الثقافية والدينية:

لم يكتف ساسة الحرية والعدل في فرنسا الاستعمارية بتجويع شعب كامل، وتشريده، وإنما سعوا كذلك إلى تجهيله، وسد منافذ الثقافة والفكر في وجهه، حتى لا يطل من خلالها على ما يجري في العالم، فيسعى إلى التحرر، لهذا حاربوا التعليم العربي الإسلامي في المؤسسات العمومية والخاصة، واضطهدوا لغة العقيدة، وقلصوا عدد كتاتيب تدريس القرآن، وحددوا شروط فتحها، كما ضايقوا الزوايا الهادفة التي تنير العقول، وتبثُ الوعي، وحاصروا الثقافة الوطنية الأصيلة.

إن الرسالة الحضارية ذات البعد الإنساني التي ادعت فرنسا نشرها في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، ما هي إلا صورة وهمية مشوهة لحقيقة ما كانت تقوم به في وطننا، لأن ما قدمته من تعليم ومعارف نافعة كان موجها لأبنائها، ما عدا القلة القليلة من الجزائريين، ومن شملتهم رعايتها جلّهم من أبناء الموالين لها، لإعدادهم إعدادا يلائم سياستها في الجزائر، وهو خلق جيل جديد متفرنس من أبناء الشعب يعمل على فرنسة الجزائر، ويتشبث بحضارة فرنسا، ومجدها، وتاريخها، ويدافع عن قيمها ومبادئها أشدّ من دفاع أبنائها أنفسهم، وبذلك تنسلخ الأمة عن كل ما يمت بصلة إلى الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي المجال الديني سعت فرنسا إلى " ... أن يقتصر التعليم على حفظ القرآن دون تفسيره خاصة الايات التي تدعو إلى الجهاد والتحرر وعدم الخضوع للظلم والاستبداد، أما تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها، والتاريخ العربي الإسلامي وجغرافية الوطن العربي فكان ممنوعا، وكذلك الأمر بالنسبة للأدب العربي بجميع فنونه.

لقد اتخذت فرنسا هذه التحفظات في محاصرتها للتعليم العربي، لأنها ترى أن الثقافة العربية ببعدها الإسلامي تشكل خطرا يهدد وجودها بالجزائر " [1].

وكم سعت جاهدة منذ احتلالها للجزائر إلى القضاء على كل ما له علاقة بالعقيدة، حيث هدمت بيوت الله، وحولت بعضها إلى كنائس أو إسطبلات، ومراكز استشفائية وغيرها، والتدخل في شؤونها كالإشراف على تعيين الأئمة وتوجيههم لتشويه صورة الإسلام، وقتل القرآن في النفوس نهائيا، كما عبر أحد الصليبيين الحاقدين على الإسلام بقوله: " إننا – أي الفرنسيين – جئنا إلى الجزائر لندفن القرآن لا ليحيا" [2].

من هنا يتضح جليا أن أخطر ما قام به الفرنسيون في وطننا هو محاولة طمس معالم الشخصية الوطنية وإفراغها من محتواها العربي الإسلامي، بدءا بالعقيدة، ولغة القرآن، إلى قيم المجتمع وعاداته وتقاليده التي منحته خصوصية عبر تاريخه الطويل، لأنهم أيقنوا بما لا يدع مجالا للشك عدم جدوى مساعيهم لفرنسة أبناء الأهالي وتمسيحهم ما داموا على صلة بالإسلام والتمسك بتعاليمه، لذلك لجأوا إلى ضرب الإسلام بأهله فشجعوا الطرقيين والمشعوذين على نشر البدع والخرافات، ونسبوا للإسلام ما ليس من الشريعة، فعاد المجتمع إلى شبه جاهلية، فقدس بعض الناس الأولياء وقبور الصالحين وتبرك البعض الآخر بالأوثان، كالأشجار، والحجارة وغيرها. وقد صور أحد المفكرين هذه الوضعية

---

(1) أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1956، ص 13
(2) محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، ص 109

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بقوله: " وأقسى ملامح الصورة تبدو في الجزائر، إذ كانت الحرب في ميدان العقيدة والثقافة واللغة والجنسية ووجهت ضد تاريخ الجزائر، والحضارة الجزائرية، والأمة الجزائرية"[1].

ومع بشاعة هذه الصورة واستمرارها طويلا، فإن الشعب لم ييأس، ولم تمت العقيدة في نفسه بسبب استمرار العمل الإصلاحي الفردي والجماعي، للحفاظ على كيان المجتمع متماسكا قويا بعقيدته، وظهر بشكل واضح منذ بداية القرن الماضي في ظل التحولات التي عرفها العالم كافة والجزائر خاصة وتبلور بشكل واضح وفعال مع ظهور جمعية العلماء المسلمين في سنة 1931م التي جعلت من أهدافها الإصلاحية، تنوير الشعب وإزالة ما علق بالعقيدة من الشوائب التي ألصقها بها الاستعمار وأعوانه الدجالون المنحرفون.

وحاربت كل مظاهر الانحراف، وهو عمل شاق وذا أهمية، إذ ليس من السهل إقناع الناس بالعدول عما ألفوه وصار جزءا من معتقداتهم الروحية، وقد اهتمت بالتعليم لتربية الناشئة، وتعريف الناس بتاريخهم المجيد، وحضارتهم العريقة، وأنهم شعب يختلف عن فرنسا أرضا وجنسا ولغة ودينا إدراكا منها بأن الشعوب المتعلمة واعية لا يمكن استغلالها بسهولة، وبذلك أنشأت المدارس، ووسعت الكتاتيب في المدن والأرياف عبر أنحاء الوطن، وجعلت من المساجد مؤسسات تربوية لتوعية الكبار وتربية الصغار، وتحصين الشباب من محاولات المسخ والتشويه التي تواجههم يوميا، في مدارس الفرنسيين، وفي المحيط الذي يعيشون فيه من جهة، ومحاربة الاستعمار كما يرى **ابن باديس** من جهة أخرى إذ يقول: " إني أحارب الاستعمار، لأنني أعلم وأهذب، ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجذبت على الاستعمار، وشعر في النهاية بسوء المصير" [2].

لقد بعث هذا المصلح انتعاشا ثقافيا ووعيا في المجتمع، أعاد به الحياة إلى الأمة فاستعادت الثقة بنفسها وإمكانياتها، فنفضت عنها ما تراكم عليها من مخلفات السنين لشق طريقها نحو الحرية واستعادة المجد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا، ص161.
[2] عبد الكريم بوالصفصاف، مجلة سيرتا، ع/6/7، ص 35.

الضائع.

لقد فهمت الحركة الإصلاحية بزعامتها أن احتلال الجزائر، لم يكن مجرد سيطرة سياسية أو اقتصادية واجتماعية، إنما كان يهدف إلى تدمير قومية [*] الشعب وحضارته وثقافته العربية الإسلامية... [1].

إن الشعب الجزائري لا يساوم على أصالته لأن الدين عنده كان بمثابة العمود الفقري لكل حركات التحرر ضد القوى الاستعمارية، " وكانت كلمات الجهاد، الأرض، الشرف والذود عن التقاليد العربية الإسلامية من العوامل التي أثارت حماس الشعب الذي هبّ لمقاومة الاحتلال بكل الوسائل" [2].

ولم يعتمد المصلحون على التعليم كوسيلة وحيدة لتوعية الجماهير وتثقيفها، وإنما اعتمدوا كذلك على الصحافة ذات الاتجاه الإصلاحي الوطني، كوسيلة إعلامية فعالة، فأنشئت صحف عديدة. وبالرغم من صدور قانون حرية الصحافة الذي أصدرته فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن صحفنا تعرضت إلى رقابة شديدة، وتتبع ما ينشر فيها، وقد اختفت معظم الصحف التي نُشر فيها ما يخيف العدو، ويدعو إلى يقظة الجماهير لتعي واقعها المأساوي، لتدافع عن نفسها وتسترد كرامتها المسلوبة.

" ... إن تاريخ الصحافة الوطنية في هذه الفترة هو بحق تاريخ ملحمة من أجل حرية التعبير وقول كلمة الحق مهما كانت التضحيات، ولقد لعبت دورا مشرفا في النضال الوطني في هذه الفترة [3] وربطت الموطنين إعلاميا بما يدور وطنيا ودوليا في النوادي والملتقيات الفكرية، والمنابر السياسية، ونشر الخطب والمقالات المختلفة، والقصائد الشعرية الهادفة، وغيرها، راسمة للشعب صورة المعتدي، داعية إلى العمل من أجل التخلص من مظالمه عن طريق التعبئة الشاملة، والتسلح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[*] القومية هنا بمعنى الأصالة.

[1] أحسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة القاهرة، 1988، ص 10 - 11.

[2] المرجع نفسه، ص 13.

[3] جمال قنان، مجلة المجاهد الأسبوعي، الجزائر، ع: 1354 بتاريخ 1986/07/18، ص 44.

بالعلم والمعرفة، استعدادا لمرحلة الجهاد المسلح، وقد بصرت المواطنين أيضا بأن تغيير واقعهم مرهون بإرادتهم وبها فقط، مصداقا لقوله تعالى: " إنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتّى يُغَيِّرَ ما بِأَنْفُسِهِمْ " [1].

وبذلك ساهمت القوى الواعية من أبناء الجزائر، من سياسيين، ومصلحين، ومفكرين، وأدباء وشعراء، التزموا الخط الأصيل في النهوض بالأمة نهضة سليمة، وفي ظل قيمنا العربية الإسلامية وكان في طليعة المجاهدين الشعراء **مفدي زكرياء**، شاعر الجهاد الوطني، حامل لواء التحرير باسم الوطنيّة والدّين، واكب شعره ببعده الإسلامي مرحلة النضال الوطني منذ 1925 إلى تاريخ استقلال الجزائر، والدعوة إلى تأصيل المجتمع في عهد البناء كي لا يحيد أبناؤه عن جادة الصواب، وينزلقوا في طريق المادية فيخسروا الدارين.

[1] سورة الرعد،الآية 11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـــــــل الأول

حياة الشاعر، والمــؤثرات الــفاعلة فــي شاعريته.

-حيـــاة الشاعـــــر وآثــــاره.

-المؤثرات الفاعلة في شاعريتـــه.

-مراحــــل تطـــور شاعريتـــه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ- حياة الشاعر وآثاره:

اسمه وكنيته:

عرف الشاعر بأسماء عديدة قلما عرف بها شاعر عربي آخر، لكن الاسم الحقيقي هو **زكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان**، أما اسمه العائلي أو لقبه فهو **آل الشيخ، أو الشيخ** فقط وهذا اللقب مأخوذ كما نرى من جد العائلة، وإليه نسبت[1]، وهو أحد شيوخ **بني يزقن**، وكان يترأس الاتحاد الميزابي أيام كانت تربط **وادي ميزاب** بالسلطة العثمانية المركزية معاهدة حماية، ويتمتع في الباقي باستقلاله الذاتي[2].

بالإضافة إلى هذا الاسم فقد استعار الشاعر لنفسه أسماء أخرى وقع بها قصائده التي كان ينشرها في الجزائر، وفي الخارج أحيانا، وهو أسلوب التجأ إليه معظم الكتاب والشعراء، تهربا من متابعات السلطة الاستعمارية آنذاك، ومضايقاتها لهم، كما أن مفدي أعجب ببعض هذه الأسماء لما تحمله من دلالات وطنية وأدبية وتاريخية إلخ... وهي:

أبو فراس، ديك الجن، فتى ميزاب، فتى الوادي، الفتى الوطني، فتى المغرب، ابن تومرت، وهو من أكثر وأشهر الأسماء المستعارة، حيث جعلها لقبا أدبيا له في الخمسينيات، لأن هذا الاسم كان للشاعر التونسي محمد العريبي الذي وقع به قصائده ومقالاته في الثلاثينات، بمجلة " العالم الأدبي" التونسية[3] والذي توفي عام 1946م، ولم تكن الاستعارة بمحض الصدفة، وإنما جاءت إحياء لذكرى العريبي وإكراما للصداقة التي كانت تربط بينهما، واعتزازا بمآثر هذا الجزائري المهاجر الذي كانت حياته أقصر من حلم ليلة صيف[4].

---

(1) محمد ناصر، مجلة الثقافة، الجزائر، السنة 16، العدد 93، ماي- جوان- 1986، ص97.

(2) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط2، 1989 ص08.

(3) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دار البعث قسنطينة، ط1، 1989، ص 51.

(4) محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900- 1920، الدار العربية للكتاب تونس، 1983، ص 326

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما عرف بألقاب نضالية خاصة أثناء حرب التحرير المباركة، لتغنيه بها، وتعبئته للجماهير العربية بأناشيده وقصائد الحماسية الملهبة، التي فجرت الطاقات الثورية الكامنة في نفوس المجاهدين فكانت بركانا على العدو، وهوما أهله للتربع على إمارة الشعر الثوري، فلقب بشاعر الثورة، وشاعر الوطنية والمناسبات الخطيرة، وشاعر الأناشيد الوطنية، وكان في نظري جديرا بلقب شاعر الجهاد الوطني والوحدة، بل وشاعر العروبة والإسلام في الجزائر، لأنه تغنى بالوحدة، ومجد الإسلام وتاريخ المسلمين، وأشاد بأبطال الأمة، وحماة عزها، وقادة جهادها.

أما كنيته فمفدي زكرياء، وصار هذا الاسم المركب هو الشائع عند العام والخاص. وقد أطلقه عليه أستاذه التونسي الحطاب بوشناق، أيام دراسته بتونس، وذلك تعبيرا عما كان يراه في تلميذه، من نجابة فكر، وقوة شاعرية، ولطف إحساس، وحلاوة معشر [1]، فاستحسنه زكرياء ودونه في أكثر من موضع: كبش الفدا، فداء الجزائر روحي ومالي، وطني المفدى، وسمى إحدى ابنتيه صالحة فدا.

أسـرتـه:

ينحدر **مفدي زكرياء** من أسرة كريمة النسب، محافظة، تضرب بأصولها في التاريخ، إذ" تتحدر من بني رستم الذين أسسوا **تيهرت (تيارت حاليا)**[2] في القرن الثاني للهجرة، أول دولة جزائرية ذات سيادة كاملة غير مرتبطة بتبعية لا إلى الحفصيين، ولا إلى بني زيان، دامت زهاء قرنين، تحقق على عهدها، لأول مرة في التاريخ، توحيد المغرب العربي الكبير، ونظام الاشتراكية الإسلامية" [3].

عاشت الأسرة في بني يزقن من واحة ميزاب بضواحي غرداية، وهي منطقة صحراوية تميزها عادات وتقاليد عريقة، تنتمي إلى العادات الميزابية الإسلامية، الأمر الذي جعل الأسرة محافظة

---

(1) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط2، ص 08.

(2) بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص16.

(3) المرجع نفسه، ص 16.

على عقيدتها الإسلامية التي تركت أثرها البين في حياة مفدي زكرياء، وخطت له نهج تحركه عبر السنين إلى تاريخ وفاته، وكانت النبع الأصيل الذي ارتوى منه حتى الثمالة، وسقى شجرة إبداعه وعبقريته الشعرية.

مولده ونشأته:

ولد مفدي زكرياء صباح يوم 12 جمادى الأولى سنة 1326 هـ[*] بقرية بني يزقن، ونشأ بها " بين جيرة كريمة قد استحوذت على منصة الإجلال والاحترام من بين قلوب العقلاء قديما وحديثا "[1] ولما بلغ سن الدراسة أدخله والده الكتاب على عادة أبناء القرية لحفظ القرآن الكريم، وهناك بدأ خطواته العلمية الأولى، حيث حفظ جزءا من كتاب الله، وتعلم مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي على مشايخ بلدته، وكان أبوه سليمان تاجرا، وقد اضطرته الظروف المهنية إلى التنقل بتجارته إلى عنابة، فرافقه زكرياء، وكانت البيئة الجديدة في الشمال بالنسبة إليه تختلف كلية عما ألفه في مسقط رأسه بالجنوب، سواء من حيث الطبيعة الجغرافية، أو الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولم يكن آنذاك يتجاوز السابعة من عمره ، فأتم حفظ القران، وتفتحت لديه شهية التعلم، ولو أن دراسته في هذه الفترة لم تكن منتظمة حسب رأي الباحثين، لعدم استقراره بعنابة، وكثرة تنقله بين مسقط رأسه ومكان إقامة والده، واستمر على هذه الحال إلى أن تخلى والده عن تجارته بعنابة.

دراسته في تونس :

بعد أن ترك أبوه عنابة، قرر أن يرسله للتعلّم في إحدى حواضر العلم والمعرفة آنذاك، وقد وفقه الله في عام 1922 ليكون ضمن البعثة الميزابية إلى تونس، وعبّر عن هذا الحدث زكرياء نفسه بقوله: " وفي السابعة من عمري ذهبت إلى عنابة مركز تجارة والدي، حفظه الله، ولم أزل مترددا بينها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[*] هكذا وردت بقلم الشاعر في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر. ج01، ص 150، ولمحمد ناصر رأي اخر مع الأدلة في كتابه: مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط01، ص 07.

[1] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، ط01، 1926، ص151.

وبين مسقط رأسي، حتى أذن الله للشعب الميزابي الرزين أن يلج أبواب الحياة الجديدة، ويلبي داعي الله إلى الأخذ بأسباب النهوض، فكنت من بين أفراد البعثة العلمية التي قصدت تونس، للاكتراع من مناهلها العلمية العذبة" [1]. وقد انتسب إلى عدة مؤسسات تعليمية تونسية كانت أولاها، مدرسة السلام القرانية حيث قضى بها سنتين، تلقى فيها مبادئ العربية، والعلوم الكونية، ونال بها الشهادة الابتدائية في العربية، كما درس بالمدرسة القرانية الأهلية، وتعلم مبادئ اللغة الفرنسية، ثم التحق بالمدرسة الخلدونية ودرس علوما مختلفة كالحساب، والجبر، والهندسة، والموازين، والجغرافيا، والتاريخ الإفريقي إلخ... انتقل بعدها إلى جامع الزيتونة، وفيه درس قواعد اللغة والبلاغة ولامية الأفعال في الصرف، كما درس جزءا من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، وكان يتردد في هذه الأثناء على المدرسة العليا للترجمة لحضور مسامرات الأديب التونسي الكبير العربي الكبادي، وعاد مرة أخرى إلى المدرسة الخلدونية ليتحصل منها على الشهادة الثانوية، كما درس بالصادقية، ومعهد الآداب العليا بالعطارين [2] إلخ... هذا واطلع مفدي على علم العروض والزحافات والعلل والدوائر العروضية مسترشدا بأستاذه الشاذلي خزندار [3]، إلى جانب اطلاعه الشخصي بفضل عصاميته، حيث انكب في هذه المرحلة من حياته الدراسية على مطالعة الكتب الأدبية، وتاريخ العظماء والأبطال من أبناء أمتنا العربية والإسلامية، قديمهم وحديثهم، تركت آثارها في شخصيته، ودفعت به إلى إيقاف جزء هام من شعره على تمجيد البطولات العربية الإسلامية، والإشادة بالأبطال من تاريخ الفتح الإسلامي إلى يوم وفاته.

عاد مفدي إلى وطنه بعد أربع سنوات من الدراسة في تونس يوم 15 ديسمبر سنة 1926 ليتزوج بمسقط رأسه تحقيقا لرغبة والده، وكان ذلك السبب الرئيسي لانقطاعه عن الدراسة كما يذكر

---

(1) المرجع السابق، ص150-151.

(2) بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص 16.

(3) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 151.

هو نفسه[1]، وقد رزقه الله طفلا سمّاه سليمان صلاح زكرياء، وبنتين هما: عائشة استقلال زكرياء وصالحة فدا زكرياء.

ومنذ هذا التاريخ لم تنتظم دراسته، وكان أغلب إنتاجه ينشر في بعض الصحف الوطنية، ولعله تفرغ مع إخوانه إلى العمل المقدس الذي وهب له نفسه، وهو الجهاد في سبيل الله لتحرير الوطن والدين.

شخصيته :

إن المتحدث عن شخصية مفدي زكرياء لا يكاد يجد من أين يبدأ لما لها من خصائص متميزة بحيث لم تجتمع في كثير من شعراء زمانه، فهو ذو شخصية مرموقة متعددة الجوانب والاتجاهات يمكن إرجاعها إلى مكوناتها الأساسية، من بيئة وتفاعلات اجتماعية، وسياسية، ودينية، وفكرية، شكلت في النهاية هذه الشخصية العظيمة التي يمكن حصر خصائصها فيما يلي:

1- الذكاء الفطري:

إنه مثال في قوة ذكائه، وسرعة حضور البديهة، فلقد كان أساتذته- وهو تلميذ بمدارس تونس- معجبين بذكائه الخارق، وتفوقه على أقرانه، فيكلفونه من حين لآخر بتنظيم أبيات شعرية تذهب عنهم السأم والملل، فيقوم في التوّ ويرتجل بعض الأبيات المريحة، فتلقى منهم الإعجاب والتشجيع، وكان هذا التشجيع أحد العوامل التي دفعته لكتابة الشعر في سن مبكرة، وكان شيطان شعره يزوره على غير موعد تحت تأثير الأحداث، ولم يمنحه حتى فرصة الجلوس إلى طاولة الكتابة كما يفعل غيره فالأحاسيس والمشاعر تتدفق في كل مناسبة.

ويذكر صديقه محمد قنانش، أن الشاعر حدّثه مرة عن نظم قصيدة في المنام، ثم ألقى على مسمعيه اثني عشر بيتا من قصيدة جديدة طازجة[2].

---

(1) السرجع السابق، ص 152.

(2) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص133.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وينظم أحيانا القصائد في ليلة واحدة كما فعل في النشيد الوطني " قسما " ، واستمر على هـــذه الصورة إلى أخريات أيامه، حيث نظم نشيد الأناشيد " إلياذة الجزائر " في أقل من عشرين يومـــا كمـــا يذكر، لأن الشعر يأتيه طواعية، فهو لا يفتش عن الشعر، بل الشعر هو الذي يفتش عنه، وقد ينام مـلء جفونه الشعر، كما نام المتنبي ملء جفونه شوارد اللغة:

أنامُ ملْءَ جُفوني عنْ شواردها ** ويسْهرُ الخلْقُ جرّاها ويخْتصمُ[1]

انها ميزة أساسية جعلته في مقدمة شعراء الجزائر، بل وفي مقدمة نخبة شعراء العرب المحدثين.

2-أخلاقه وعلاقاته الاجتماعية :

كان زكرياء في حياته سمح الأخلاق، خفيف الروح، حلو المعشر، تعلو محياه ابتسامة تبـــهرك بإشراقة وجهه، وإذا حدثك فإنه يطربك عذب حديثه، وحلاوة نكته، ولطافة مداعباته حتى تخاله شـخصا آخر غير الذي رأيته قبل معاشرته والجلوس إليه، بل ويجعلك تحس أنك على صداقة قديمة معه، وكـان أيضا متواضعا رغم شهرته، يحترم الناس ويضعهم منازلهم[2]، لأنه لا يحتقر فقـيرا، ولا يعبـد غنيـا يقدر في الشخص المروءة والشجاعة، والإقدام والبذل والعطاء والتعـــاون، وحـب الصالحـات مـن الأعمال والسعي في طريقها. لذلك لم يمدح أحدا إلا عند اتصافه بهذه الخصال، ولعل ما يميز علاقاتـــه بالناس هو سرعة انسجامه مع غيره، وتعلقه بأبناء وطنيه الصغير والكبير، وتألمه مما يعانيه الناس مـن بؤس وشقاء وظلم، لذلك كان ينظر إلى الحياة وإلى مستقبل أمته بعين الأمل، أحب وطنه وكتب نشـــيده بدمه.

ومن صفاته أيضا، ولوعه بالمناظرات وخاصة مناظرة الفقهاء، وفـــي الموضوعـــات الجديـــة الهادفة لأن طبعه يرفض الخوض في المهاترات السخيفة التي لا تحقق للأمة منفعة، كما يعرف بـــالتفتح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص332.

(2) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط2، ص08، وبلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد [illegible] ص133 وما بعدها.

ومناقشة جلسائه في الموضوعات المختلفة، غير أنه كثيرا ما يتشبث بآرائه إلى أبعد حد، خاصة إذا اقتنع بها مثل موقفه من الاستعمار، ومن القضايا الوطنية بعد الاستقلال، وقد كلفته الكثير من العناء والمتاعب، لأنه صريح وجُرِيء لا يعرف الالتواء إلى نفسه سبيلا، بل يقصد إلى هدفه قصدا، لا تخيفه في الله وكلمة الحق لومة لائم، فالحق منطقه، والخير سبيله.

هذا ويذكر أصدقاء الشاعر أنه سخي، كثير العطاء لا يبخل على أصدقائه، وعلى الفقراء بما يملك، فهو كريم إلى حد التهور.

كان قوي الشخصية، يعتز بنفسه وأمته، وعروبته وإسلامه، لا يقبل النقاش في ثوابت الأمة يرفض التبعية للآخرين.

وهو ما جعله يقاسي المحن والآلام منذ فتح عينيه على مأساة شعبه، ورأى أن شقاءه من شقاء شعبه، وسعادته من سعادته، فانبرى يدافع عن وطنه المحتل، وعانى ويلات العذاب الجسدي والنفسي لكنه قابل المآسي والمحن بروح المجاهد الصبور المؤمن بالله، وبالصبر مفتاح الفرج لقوله تعالى: " والعَصْرِ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إلاَّ الّذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَواصَوْا بالْحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ "(1).

من هنا كان الصبر سلاح مفدي في مواجهة المصاعب، فما من محنة تعرض لها إلا زادته قوة على قوته، وشجاعة على شجاعته، وصلابة على صلابته.

3-طموحه وعصاميته :

للشاعر طموح لا حد له، لذلك لازم أهل العلم والمعرفة والسياسة منذ شبابه، وقلد العظماء وأشاد ببطولاتهم، وحاول تجاوز فحول الشعراء بقصائده، وكان طموحه من طموح شعبه وأمته، لذلك سعى في حياته إلى نصرة الحق، ومجد القوة المؤدية إليه، ونبذ الضعف، والجبن، والخيانة، لأنها

---

(1) سورة العصر، الآيات: من 01 إلى 03.

مفسدة للطبائع، ومضرة بالوطن، ومعرقلة للطموح. كان هدفه الأسمى أن يتحرر وطنه، وتتحد شعوب أمته لتعيد عز مجدها من جديد.

وقد مثل العصامية في أروع صورها، لأن المعارف التي إستفادها من المدارس الرسمية لا تبوئه المنزلة التي نالها في الشعر العربي المعاصر، لذلك رأيناه منذ حلوله بأرض تونس انكب على مطالعة التراث العربي، وتاريخ عظماء الرجال، معتمدا على نفسه، فحصل على ثقافة غزيرة ومتنوعة، نثرا وشعرا ودينا، كانت زاده في رحلته الإبداعية، جعلت منه مكتبة متنقلة، فيها القديم والمعاصر، الأصيل والحديث، وحقق بمفرده ما لم تستطع تحقيقه جماعة من أدباء عصره، وهذا ما دفع بزميله محمد قناش إلى القول: " لعل الذين يعرفون مفدي زكرياء ... يشعرون أنه ليس فردا واحدا، وإنما مجموعة من الأشخاص تشتغل بالأدب والفن والسياسة، والاقتصاد، فهو شعلة من النشاطات والأفكار الجديدة"[1].

4-تدينه :

كان زكرياء متدينا بالإسلام، فقد شرب العقيدة مع حليب أمه رضيعا، وأدركها متجلية في مظاهر الطبيعة وجمال صنعها، شابا وكهلا، فغمره نور اليقين، وعرف بها الطريق إلى توحيد رب العالمين، وفي ذلك يقول[2]:

شَرِبْت العقيدة، حتّى الثُّمالَه   فأسْلَمْتُ وجْهِي لِربِّ الجَلاَلَه

هُو الدِّينُ يغْمُرُ أرْواحنَا   بِنُورِ اليقين، ويُرْسِي عَدالَه

ويصْنَعُ إيمانُنا أمّةً   قواما ... فتَرْجُفُ مِنْها الضّلالَه

وتجند طيلة حياته يدافع عن الإسلام، ويدعو إلى نشر قيمه السامية في المجتمع، عن طريق محاربة الآفات، ومظاهر الإلحاد والكفر، والدعوة إلى العناية بقيم الأمة، وتكوين الشباب تكوينا أصيلا وتحصينه من محاولات الغزو الصليبي الذي جند كل الوسائل، لقطع حاضر الأمة المسلمة بماضيها

---

(1) بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص 137.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص89.

وبأصالتها، سعيا منه لبعث جيل صليبي في أرض الإسلام، لكن هيهات أن يتحقق له ذلك مادام الشعب على عهد مع الله، وفيا لإسلامه، مستقيما في أخلاقه، مخلصا في جهاده، لهذا نصره الله وسينصره على أعدائه الذين يتربصون به الدوائر فيقول[1]:

وَلَوْلاَ الوفَاءُ لإِسْلاَمِنَا   لَما قَرَّرَ الشّعْبُ يوْمًا مئالَهْ

ولَوْلاَ اسْتِقَامَةُ أخْلاَقِنَا   لَما أخْلَصَ الشّعْبُ يَوْمًا نضالَه

ويَرجع أسباب فشل حملات التبشير في الجزائر، إلى شموخ الجزائريين واعتزازهم بإيمانهم وافتخارهم بإسلامهم، وطموحهم إلى نشر مبادئه بين شعوب الدنيا قاطبة، لا الذوبان فيما يبشر به هؤلاء، وهو واحد من الجزائريين المخلصين فيفخر بإسلامه[2]:

وأعْيَا المُبَشِّرُ عُمْقُ العَقيدَه   فَلَمْ تَجِدْ فِينَا المَسَاعِي الحَميدَه

فَإِيمَانُنَا شَامِخٌ كَعُلاَنَا   ونظْرتُنَا فيه ظَلّتْ بعيدَه

وأحْرَى أنْ نُبَشِّرَ فيكُمْ   بإسْلاَمِنَا، والمبَادئُ الرَّشيدَه

فالشاعر لا يعادي الديانة المسيحية المنزلة، بل يعادي المسيحية المشوهة والمحرفة ومحرفيها الذين يمدون أيديهم لتحريف الإسلام أيضا، لذلك كان موقف زكرياء واضحا في هذا الجانب، لأن " الديانات كلها مجتمعة في أصولها على توحيد الله، وحبه والرغبة في ثوابه، والخشية من عقابه، ومجتمعة على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر ... "[3].

من هنا يمكن القول: إن المتأمل في كتابات مفدي وأشعاره يقف على حقيقة لا يعتريها الشك، وهي صدق عاطفته الدينية، ورسوخ عقيدته التي ترجمتها مواقفه في أرض الواقع. ألم يقل في عام 1934

---

[1] المرجع السابق، ص 89.

[2] المرجع نفسه، ص 103.

[3] أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، 1967، ص 71.

في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا ما يؤكد ذلك: " امنت بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- نبيا ورسولا...

- الإسلام ديننا، شمال إفريقيا وطننا، العربية لغتنا ...

كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي، وقسيمْ روحي، فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي، ولا بين عربي وقبائلي،... كلهم إخواني، أحبهم وأحترمهم، وأدافع عنهم ما داموا يعملون لله وللوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه، وكل من عمل للتفرقة بين أجزاء وطني (شمال إفريقيا) أعتبره أكبر عدو لي، ولوطني، وأحاربه بكل وسيلة، ولو كان أبي الذي أنجبني أو أخي من أبي وأمي" [1].

هذا وتستوقفنا استغفارات الشاعر وابتهالاته وتوسلاته إلى المولى عز وجل، طالبا منه الصفح والغفران، وقبول توبة المخطئين المذنبين إليه، الذين غاصوا في وحل الخطيئات إلى الأذقان فيقول: [2]

فيا ربِّ، قَدْ ضاقتْ علينَا دُرُوبنا   وغُصنَا إلى أذْقانِنا في الخَطيئاتِ

فَلاَ تُخْزِنَا عَمّا أتَى سُفَهاؤنَا   ولا إثْمِ قَومٍ كذَّبُوا بالرِّسَالاتِ

أطَعْنَا وآمنّا، فَوَحِّدْ قُلُوبنَا   علَى الحَقِّ، واشْمَلْ سَعْيَنَا بالعِنَايَاتِ

ثم يرجع ما حل بالأمة من المآسي والخزي، إلى مروق أبنائها وخروجهم عن شرع الله وطاعته فيطلب من الله أن يعفو عن أمته، ولا يؤاخذها بما فعل سفهاؤها [3]:

فَإنْ تَكُ قَدْ عَذَّبْتَنَا بِذُنُوبنَا   كَفَى ما جرى، رُحْماك، رُحْماكَ يا ربِّي

ومَهْمَا تَكُنْ مِنّا الذُّنُوبُ عظِيمَةً   ألَم تَكُ يا ربِّي... أجلَّ مِنَ الذَّنْبِ

---

[1] محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط1، ص 51-52.

[2] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، مطبعة الأنباء، الرباط، 1976، ص 236.

[3] المصدر نفسه، ص 239.

هذا بعض من كثير مما تميزت به شخصية مفدي زكرياء الأنوف، المترفع عن دنايا الأعمال وسفاسف الأمور. ولعلنا نجد أكمل صورة لهذه الشخصية في تعبير أحمد توفيق المدني عن وصفه لعم الشاعر وأستاذه الشيخ صالح بن يحي، والذي أسقطه بلحيا الطاهر على شاعرنا بقوله[1]: " ... فقد كان ملكا في صورة إنسان، ما عرفت رجلا مؤمنا كإيمانه، فاضلا كفضله، متواضعا كتواضعه، مجاهدا كجهاده، له وجه مشرق، تشرق عليه شمس القلب الطاهر، فتنيره بنور الجلال والوقار، وله نفس زكية تبث إشعاعا من الإيمان واليقين إلى كل أطرافه، فما رأيت عضوا من أعضائه، إلا ورأيت فيه نوعا من تجلى الكمال المطلق، كان كلامه حكمة، وكان عمله جهادا، وكان مسعاه نفعا لأمة الإسلام... "[2].

نلمس في هذا الوصف مغالاة واضحة بلغت حد التطرف، إذ لا يمكن أن يحوز الشاعر صفات التفرد في الإيمان والفضل، والاتصاف بالكمال المطلق جزئيا أو كليا، لأنه من صفات الخالق، كما لا يمكن أن يتصف بالكمال البشري الذي هو خاصية من خصائص عباد الله المصطفين، من رسل وأنبياء، رغم ما له من سمات شخصية مميزة ترفعه عن كثير من الشعراء،وتحله محل الصدارة منهم.

نشاطه السياسي:

قبل سفر مفدي زكرياء إلى تونس لم يكن له أي احتكاك بالنشاط السياسي الوطني، لكنه " في أحضان البعثة العلمية الميزابية بتونس، تلقى دروسا في الوطنية والدين على يد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يعلمون الناشئة بأفعالهم قبل أقوالهم، ويقدمون لهم النموذج الحي بسلوكهم قبل دروسهم، من أمثال أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، وأبي اليقظان إبراهيم، ومحمد الثميني "[3]. وهم أساتذة جزائريون رافقوا البعثة العلمية.

إن زكرياء تلقى الوطنية الحقة على يد عمه الشيخ صالح بن يحي، في بيته الذي كان يلازمه، ويحتك بالشخصيات ذات الاتجاه الوطني الأصيل، من جزائريين وتونسيين التي كانت تتوافد على بيت عمه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) تأملات في إلياذة الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص43.
(2) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج01، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط02، 1988، ص156.
(3) محمد ناصر، مجلة الحياة الثقافية، تونس، عدد 32، 1994، ص24.

لمناقشة القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، فيسمع زكرياء أحاديثهم ويعي ما يدور بينهم، فيتأثر ويفتح عينيه على ما يجري في العالم العربي والإسلامي، وكان من أقوى الشخصيات تأثيرا في مفدي توجيها وعملا، هو الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، المعروف بمواقفه المتصلبة ضد الطغيان الأجنبي، وقد سجل الشاعر افتخاره بتتلمذه على هذا الزعيم الوطني المخلص، وسلك مسلكه واقتدى بثورته.

بالإضافة إلى هذا العامل المهم، هناك النشاط العلمي والفكري الذي كانت تزخر به تونس في تلك الفترة، ومكّن لمفدي أن يتصل من خلاله بأحداث العالم الإسلامي، ويتعرف على معاناة أبناء ملته، وما يجري على الساحة من نشاط إصلاحي، وسياسي فعال، للنهوض بالأمة نحو الانعتاق من قيود الذل والمهانة.

كل هذا ساهم في توجيه الشاعر وجهة وطنية خالصة، وحرك في نفسه روح الثورة والجهاد وجعله ينظر إلى مستقبل وطنه الصغير والكبير من خلالهما، اذ كانت قناعته بأن قبول الاستعمار خزي وعار، وان الجهاد هو السبيل الأوحد لإنقاد الأمة من سيطرته ومظالمه.

إن شاعرنا الوطني المتقد وطنية، والإسلامي القوي بعقيدته الإسلامية ينطلق في مجاهدة المحتل من حكم الله تعالى: " وقَاتِلُوا في سبِيلِ الله الذِّين يُقَاتِلُونَكُمْ ولاَ تَعْتَدُوا إنّ الله لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ" [1]. ويرى أن الجهاد قد حل مع هؤلاء الكفار، الذين اعتدوا على المسلمين في ديارهم، يريدون إذلالهم والاستحواذ على خيرات أوطانهم، والقضاء على عقيدتهم مصداقا لقوله تعالى: " ولَنْ تَرْضَى عنْكَ اليَهُودُ ولاَ النَّصارَى حتّى تَتَّبِعَ مِلّتَهُم... " [2].

من هنا كان لزكرياء موقف واضح وصارم مع قوى الاستعمار، يتمثل في التحدي والمواجهة بحد السلاح، وهو ما قاده إلى البحث عن ضالته في الأحزاب والجمعيات، ليجدها أخيرا في حزب

---

[1] سورة البقرة ، الاية: 190.

[2] سورة البقرة، الاية: 120.

شمال إفريقيا، حامل لواء الثورة الرافضة لشتى أساليب الإصلاح، ولعل هذا هو السبب في عدم انضمام زكرياء إلى صفوف جمعية العلماء، التي رفعت شعار الإصلاح الديني والاجتماعي في بداية نشاطها، وعدم الخوض في السياسة، بهدف خلق قاعدة شعبية واعية مسلحة بمختلف المعارف والعلوم أصيلة في منبعها، لكن زكرياء ومن حدا حدوه استعجلوا الأمور، واستغلوا جذوة الشباب المتقدة وحماسه الشديد، نتيجة تأثره بالتيارات الثورية الشرقية والغربية،وتعبئته قصد القيام بواجبه نحو وطنه.

ومع هذا فلم يكن زكرياء على قطيعة مع الجمعية، بل كان يقدر جهد رجالها الأوفياء، ويثني على شيوخها، ويفخر بجليل أعمالهم، ويحملهم الدور الكبير في توعية المجتمع، وتحسيس الناس بواقعهم الأليم، والعمل على إزالة ما علق بالدين من شوائب، وما علق بتاريخ الأمة من زيف وتحريف، وتربية الناشئة تربية وطنية أصيلة، وبعث القوة والثقة في نفوسهم

تحزّب شاعرنا لكن حزبيته ليست كحزبية غيره، لأنه جعلها وسيلة لخدمة دينه ولغته، ووطنه وأمته فلم يكن متعصبا لحزبه، بل يقف دائما مع الحق أنّى وجد، ولو خالف ذلك حزبه، ما دام يخدم الأهداف التي يناضل من أجلها، وهي استعاد مجد الجزائر، والأمة العربية الإسلامية، وتحرير الإنسان، متى وأنّى وجد، من براثن الظلم والاستغلال، والتسلط البشري.

قصته مع السجن:

بدأ زكرياء رحلة العذاب في سجون فرنسا مبكرا، يوم كان بحواضر تونس ونشر قصيدته " إلى الفرنسيين " التي أشاد فيها بجهاد أبناء الريف، وبطولاتهم ضد العدو الإسباني الذي هو عدو المسلمين جميعا، لأنه امتداد للمد الصليبي الحديث في ديار الإسلام، وظل ينشد القصيدة على كل منبر بحماس منقطع النظير، سعيا منه إلى بعث النخوة العربية الإسلامية في النفوس الجامدة، وتحريك الهمم، وشحذ عزائم الجماهير الغفيرة. فما كان من مستعمر إلا أن سجنه نصف شهر، ثم نلتقي به في صائفة 1937 يلج باب السجن من جديد، ويرجع ذلك إلى مواقفه الجريئة في تعبئة الشباب، وحثه على الثورة، للتخلص من المحتل، كما كان يشرف على جريدة الشعب ويختار ما ينشر فيها.

وفي غياهب سجن " بربروس " جادت قريحته بذرة من ذرره الخالدة، هو نشيد بربروس أو " أعصفي يا رياح" الذي تحول إلى نشيد الشهداء عم 1956 [1]. ومنذ هذا التاريخ أصبح يتردد على السجون، فما أن يخرج من زنزانة إلا ويدخل في أخرى بتهم تعددت ألوانها ودواعيها. وقد أدخل سجون فرنسا سبع مرات، تراوحت مدتها ما بين 15 يوما وثلاث سنوات، عانى فيها ويلات العذاب الجسدي والنفسي.

لقد شاهد زكرياء بعينه إعدام الشهيد **أحمد زبانا**، وأثرت الحادثة في نفسه، وأمدته بقوة الإيمان والصبر، ولم يفشل أمام التعذيب الذي مارسه ضده زبانية السجون، مثل تسليط الضوء على عينيه ليلا ونهار[2]، وما تركه من أثر على حالته الصحية، الأمر الذي فرض عليه الهروب عام 1959 إلى المغرب ثم تونس للعلاج.

ومن أهم السجون التي دخلها الشاعر وأعمقها أثرا في حياته سجن " بربروس "، وسجن " الحراش " وسجن " البرواقية ".

وكان أيام تواجده بها يستقبل نزلاءه بالترحاب والتهليل، فهم علامات نجاح الثورة ووقودها الذي لا ينطفئ إلا بالتحرر النهائي.

وقد صور حال السجناء وزبانية العذاب في قصائده التي تنبعث من أعماق الزنزانات، كما فعل ذات مرة حين رمى بورقة من ثقب باب الزنزانة إلى أصدقائه من أعضاء حزبه ألحقوا به في السجن يناجيهم فيها بقوله[3]:

يُنَاجِيكُمْ فِي السِّجْنِ قَلْبِي ووِجْدانِي   قَنَانِيش، عَبْدُ اللهِ، كَحال، حِيَاوَانِي (*)

وأهْدِي إِلَيْكُمْ مِنْ عرينِي تَحِيّةً   أَبُثُّ بِها شَوْقِي إِلَيْكُمْ وتَحْنَانِي

---

(1) بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص126.
(2) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص 44.
(3) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص 120.
(*) أصدقاء الشاعر وأعضاء في حزب الشعب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هنيئا لَكُمْ يا قادمُون ومـــرْحبا   وأهْــلا وسهْلا يا ميامين قحْطــان

لقدْ تاه مِنكُمْ برْبرُوس مُفاخِــرا   وقام على أبوابكم أسْ شيــطــان

بُيُوتٌ يُغْشِيها الــوقار كأنّهـــا   وقدْ حملتْ أروَاحكُمْ خُلْدُ رِضْوان

لم يتوقف زكرياء كغيره من المناضلين في السجون عن أداء رسالتهم النضالية، فقد شاركوا في التكوين والتوعية حسب الإمكانيات والظروف المتاحة لهم، وكانوا يمدون أيديهم إلى خارج السجون فيرسلون القصائد بأسماء مستعارة، مع أصدقاء جدد، كالحلاقين وغيرهم، من الذين يفلتون من الرقابة والتفتيش، كما كان يفعل زكرياء، فتصل القصائد والمقالات، وتحقق أهدافها، وهناك كثير من القصائد لمفدي ولدت في قعر الزنزانات في ظلمات الليالي الحالكات، من أمثال " قسما " و" الذبيح الصاعد " و" تحية العلم " التي كتبها بدمه القاني بوخز الإبر، وأهداها إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. ويشكل شعر السجون نسبة كبيرة في شعره الثوري، إذ نجد في ديوانه اللهب وحده ثلاثة عشرة قصيدة نظمها في السجن[1]، فمن ظلمات بربروس كتب مجموعة مقالات، نشرت باسم مستعار في صحف تونسية ومصرية[2].

ومن أهم شعر السجون، أناشيده " قسما "، " عشت يا علم "، " نشيد جيش التحرير"، " نشيد الشهداء"، " نشيد بربروس "، " نشيد بنت الجزائر"، " النشيد الرسمي للطلبة الجزائريين"، " نشيد العمال"، " نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى"، وهي شعر تعليمي، وحث على الجهاد والعمل المستمر.

هكذا ظل زكرياء يكتوي بنار العدو، ويتجرع عذاب الزنزانات وآلامها، واستطاع أن يدرك من خلال مشاهدته لصور إعدام أبطال الجهاد، أن المحتل دائم في الجزائر ما لم تقدم التضحيات، لأنه لا يخرج بسهولة. لذلك آل على نفسه أن يصبر صبر أجداده الأبطال في مكافحة العدو، وقد زادته ألوان التعذيب، وصور القتل والتمثيل، قوة على قوة، وأمدته ورفاقه بطاقة روحية وفكرية فجرت

---

(1) نور سليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط01، ص371 وما بعدها.
(2) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص125.

نقمتهم على عدوهم، فاستماتوا في الدفاع عن وطنهم وعقيدتهم بكل ما أوتوا من قوة، كما كانت هذه الأساليب الوحشية مصدر إلهام الشاعر ومفجّر ينبوعه الشعري استمد منها صوره ومعانيه، لرسم مسيرة الجهاد الوطني الإسلامي.

نشاطه الأدبي:

يعدّ مفدي زكرياء في سنوات ما قبل الاستقلال سفير الجزائر بدون أوراق اعتماد، حيث مثّلها في مناسبات مختلفة منها: أن جبهة التحرير الوطني أوفدته لتمثيل الجزائر في مهرجان الشعر العربي المنعقد في دمشق عام 1961، فعرّف أدباء العرب ومفكريهم بمعاناة إخوانهم الجزائريين وعزمهم على مواصلة الجهاد، إلى أن يحقق الله نصرهم، أو يستشهدوا، من خلال ما قدمه في المهرجان، كما وجدها فرصة مناسبة استطاع أن يحرك من خلالها مشاعر الإخوة في المشرق العربي لمؤازرة الجزائر بكل الوسائل. وكان لقصيدته " رسالة الشعر في الدنيا مقدسة" التي ألقاها في المهرجان أثرها في الشعراء وتناولتها وسائل الإعلام العربية في بلدان المشرق معرفة بصاحبها، وبالقضية الجزائرية العادلة وتهافتت الدعوات على زكرياء، فزار لبنان وطبع بها ديوانه " اللهب المقدس "، ثم زار القاهرة والكويت وقطر. وحتى الصحافة المغاربية أفردت صفحات للحديث عن المهرجان، وعن نجاح الشاعر، من ذلك ما أوردته جريدة الصباح التونسية: " بارحنا صديقنا شاعر الثورة الجزائرية... منذ شهور للإسهام باسم الجزائر في مهرجان الشعر العربي المنعقد في دمشق، حيث ألقي قصيدا... ثم انتقل إلى لبنان، فاستقبلته المحافل الأدبية والسياسية ... وفسحت له المجلات والصحف أعمدتها ... وبينما هو في لبنان إذا بالدعوات تنهال عليه من دنيا العرب، ترغبُ في زيارة أقطارها للاستماع إلى غريد عربي اللسان من الجزائر العربية المسلمة ... تحدث عن بطولات وكفاح الشعب العربي بالجزائر، مما ألهب حماس أشقائنا هناك وجعلهم يتسابقون إلى البذل والإعانة إلى صناديق نصرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجزائر" [1].

وفي هذه الجولات المشرقية... قام مفدي زكرياء باتصالات عديدة ببعض الفنانين العرب قصد تقديم بعض قصائده الثورية لهم، لتلحينها وغنائها... [2]، لإسماع صوت الجزائر إلى شعوب العالم، وزار أثناء هذه الرحلة العلمية الطويلة التي دامت حوالي أربعة أشهر، العراق، والسعودية وغيرها من الأقطار العربية، واتصل بشعرائها وأدبائها، وصحافييها، وساستها، وأبلغهم رسالة شعبه. إن لقاءات مفدي بالجماهير العربية وممثليها في الندوات والمحاضرات ومختلف البرامج، حققت أهدافا وبصرتهم بواقع الشعب الجزائري المسلم المضطهد، وما يريده منهم، فكان الصوت، وكان الصدى وكان مفدي سفير الجزائر بدون اعتماد. ثم عرج عائدا مرورا بالقاهرة وليبيا الشقيقتين، ثم تونس. وفي هذه السنة نفسها توفي الملك المغربي محمد الخامس، وخلفه ابنه الحسن الثاني، فقام بتمثيل الجزائر في المناسبتين.

أما بعد الاستقلال فقد خلد بقصائده الرائعة مرحلة الجهاد الوطني، وسجل افتخارات شعبه المنتصر، خلافا للانتقادات القائلة بصمت الشاعر عن فترة ما بعد 1962، وأحسن معبر عن إنتاج هذه السنوات مفدي نفسه حين يقول: " لي نشاطات أدبية متواضعة شعرا في تخليد الأحداث القومية بالمغرب العربي الكبير، والتغني بالبطولات والأبطال، والحب والجمال والجلال، وتقرأ في محاضرات أدبية بدور الثقافة بمغربنا الكبير، وبرامج في مختلف المواضيع بإذاعات كل من المغرب والجزائر وتونس.

وإني بصدد إعداد دواوين شعرية جديدة... وبصدد تنسيق كتاب في أربع مجلدات عن تاريخ الأدب العربي بالجزائر من الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا، ومجموعة من الشعر الشعبي الجزائري في

---

[1] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص45-46 ، نقلا عن جريدة الصباح التونسية، عدد 2932 بتاريخ 1962/01/11م.

[2] المرجع نفسه، ص46.

مختلف ألوانه وأغراضه مع دراسة تحليلية، وكتاب عن تاريخ الصحافة العربية بالجزائر... "[1].

إذا كان المجتمع لم يطلع على إبداع الشاعر خلال هذه الحقبة من تاريخ الأدب الجزائري فليس الذنب ذنبه، بل ذنب من سعى لقطع طريق إيصاله إليه؛ لأنه كان دوما يوجه إنتاجه نحو الصحف الوطنية اليومية والأسبوعية فتختفي في الأدراج، بل وقد ضُيّق عليه الخناق لمواقفه الجريئة في نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية للجزائر، والأمة العربية والإسلامية، سعيا منه للعودة بالأمة إلى أصالتها، والاغتراف من نبعها الصافي سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وأحسن مثال عن المضايقة ما حدث له في ملتقى تلمسان للفكر الإسلامي بالجزائر عام 1975م، حيث حرم من إلقاء قصيدته المعدة لهذا المؤتمر، وتسلل خفية إلى المغرب[2].

هكذا يتضح لنا أن الشاعر لم يصمت، بل كان ما رآه الآخرون صمتا هو في الواقع وقفات تأملية في ماضي الجزائر وحاضرها، وتطلعا لمستقبلها المشرق، إنه كما عرفناه الشاعر المفعم بالحيوية والنشاط الخلاق في مجالات الحياة الوطنية والقومية. وكيف لا، وهو الذي ضحى بشبابه وشيخوخته، وما بينهما في سبيل تحرر بلاده، وهي تعيش في أعماقه، يحبها إلى درجة العبادة كما عبر عنها هو في أكثر من موضع. هذا إلى جانب مشاركاته الإيجابية في مؤتمرات الفطر الإسلامي بإبداعاته الرائعة، وبمناقشاته المفيدة.

موقفه من النهضة الأدبية والفنية :

يُقرّ الشاعر بوجود ملامح نهضوية في المجال الأدبي، لكن لا وجود لنهضة بالمعنى الحقيقي لأنها مجرد محاولات لم تجد طريقها بعد لتحقيق النهضة المأمولة، فهي مستمدة سواء في أشكالها أم في أغلب مضامينها من واقع غير واقعنا، فيها التقليد الأعمى لأدباء الغرب وشعرائه، ما عدا بعض الشعراء والكتاب، وهم قلة يواجهون محاولات التمييع الفكري وقتل الكلمة الهادفة، المتشبثين بقيم

---

[1] بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص38.

[2] المرجع نفسه، ص182.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المجتمع الإسلامي ودينهم الحنيف، ما عدا هؤلاء فإن البقية الباقية تتسم " بالمراهقة الفكرية المطعمة بالإلحاد والمسممة بالشك والحيرة، وعدم الثقة بالنفس، تأثرا بنزاعات بعض المثقفين – الحركيين – الذين ما انفكوا يعملون على تحريف الذهنية الشابة عن صميم تراثها، وعميق أصالتها من حيث العقيدة والتفكير، ويعملون على تمييع المقومات العربية بتمييع الكلمة العربية شعرا ونثرا كنقطة انطلاق للاستغناء عنها وإبدالها باللغة الدارجة" [1].

وفي ذلك يصرخ الشاعر عاليا مندداً بهذه السلوكات داعيا إلى العناية بالشباب وتحصينه من كل ما يشوه أصالته: [2]

دَعُـوا الأمْجَـادَ تحتَضِـنُ الشَّبَابـا   وتُوقِـظُ في ضميرِهِمُ الصَّوَابَا

وتَنْسِـفُ مِنْ مَـدارِكِهِمْ شُكُوكَـا   وتَكْسَـحُ عنْ عُقُولِـهِم الضَّبَابَا

ولاَ تَدعُـوا الشَّبِيبَـةَ لابْـنِ آوى   فَقَـدْ أغْرَى الضَّيَاعُ بِهِ الذِّئَابَا

فالشاعر يريدها نهضة أدبية أصيلة، نابعة من واقعنا، لا شرقية ولا غربية، متفتحة على الأدب العالمي الهادف، الذي يربي أمة، ويطور حضارة، قوامها العلم والأخلاق.

وكان أمله كبيرا في جيل الشباب، لأنه مناط آمال الأمة في النهوض بها من كبوتها، وبعث الحركة الدؤوبة في مجتمعهم، لتغيير واقعهم الأليم، إلى واقع أفضل.

كما كان مولعا بالفن منذ شبابه، يستمع إلى الأغاني، ويعجب بالموسيقى، وتعرّف على كثير من الفنانين واختلط بهم في الجزائر والعالم العربي، من أمثال عبد الرحمن عزيز، ووردة الجزائرية، وأم كلثوم وغيرهم. ويرى ضرورة ارتباط نهضة الأدب بنهضة الفن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المرجع السابق، ص39.

(2) مفدي زكرياء ديوان من وحي الأطلس، مطبعة الأنباء، الرباط، 1976، ص143.

وخلال رحلته المشرقية عام 1961، اتصل بكثير من الفنانين العرب أمثال أم كلثوم، ومحمد فوزي ملحن نشيد " قسما "، وفائزة أحمد ... إلخ .

وقد استقبلته أم كلثوم استقبالا بالغ الحفاوة كما يقول هو، قائلة له: " أهلا وسهلا بك شاعرا ومرحبا بك ثائرا في أرضي وبلدي الجزائر العربية ملهمة الأجيال، ومعلمة البطولات، وصانعة التاريخ، وسأكون أسهمت إسهاما متواضعا في معركة العرب بالجزائر إذا ما غنيت معتزة فخورة مقاطع نختارها معا من ديوان اللهب المقدس" [1].

هكذا يتحول كل ما له علاقة بحياة الشاعر إلى وسيلة فعالة لخدمة قضيته الكبرى، قضية تحرير شعبه، فلا قيمة لشعر، أو أدب، أو فن، أو علم، لا تنتفع به أمته، لأن للفن دوره الفعال في هذا ما دام يعبر عن حقيقة هذه الأمة ومطامحها.

ونظرا لما للفن من قيمة في حياة المجتمع، نرجح أن يكون ذلك هو السبب الرئيسي في اختيار الشاعر إقامة مشروعه التجاري بتونس، دارا للسينما.

هذا ولم يكن اختلاطه بالحياة الفنية مقتصرا على الغناء والطرب، بل امتد ليشمل أنواعا أخرى كالمسرح مثلا. فقد تعرف منذ الأربعينات على أعلام المسرح عندنا في الجزائر، واحتك بهم عن قرب، وأحبهم، أمثال عميد المسرح الجزائري محي الدين باشطارزي، لما لهم من أثر في النفوس بما يقدمونه من أعمال فنية هادفة.

علاقته بوسائل الإعلام:

كان مفدي المناضل والشاعر، يتغنى بالحرية، ويسعى لإشعال نار الثورة في ربوع الوطن ويبحث عن كسب الدعم المادي والمعنوي من شعوب المعمورة، وكان لصوته أبلغ الأثر في نفوس الجماهير، خاصة في وطنيه الصغير والكبير، لما لاقاه من سهولة عن طريق وسائل الإعلام المختلفة

---

[1] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص47 . نقلا عن جريدة الصباح التونسية، عدد 2953 بتاريخ 1962/02/02م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التي مكنته من تبليغ رسالته الشعرية إلى أبناء أمته، وإلى دعاة الحرية والسلام، لأنه منذ حلوله بأرض تونس واندماجه في البيئة الجديدة سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية، واحتكاكه بمختلف التيارات السائدة في الساحة، وتأثره بما يجري في بلده والعالم العربي الإسلامي من أحداث، ارتبط بالصحافة لإيمانه بدورها الفعال في توعية الجماهير، وتعبئتها لخوض الجهاد الوطني الذي ينتظرها، وشغفته حبا منذ خطواته الأولى في ميدان الإبداع الفني يوم نشرت له الجريدتان التونسيتان "لسان الشعب" و"الصواب" أولى قصائده التي خلد فيها نضال الريفيين، وأشاد بأبطالها المجاهدين، وفي طليعتهم الزعيم "عبد الكريم الخطابي" وذلك عام 1925م. ثم تلقفتها جريدتا: "اللواء" و"الأخبار" المصريتان وقد قدمها مصطفى كامل لجريدته "اللواء" بإعجاب كبير على أنها لطفل جزائري لم يبلغ الحلم، يتدفق وطنية وأصالة[1]، وهي شهادة تدل على مدى تمسك هذا المجتمع بوطنه ودينه...

وكانت هذه القصيدة بداية الشهرة والتألق لشاعرنا، من ذلك توليه الإشراف على تقديم برنامج "حديث الصباح" في الإذاعة التونسية، تناول فيه التعريف بعظماء رجال المغرب العربي في مجال الأدب والفكر...

إن ولوع مفدي بالصحافة في هذه الفترة من عمره جعله ينكب على الصحف العربية الواردة من المشرق العربي، يلتهم ما في صفحاتها من أخبار، ورؤى ومواقف لإخوانه العرب والمسلمين... وكثيرا ما يشترك مع بعض أصدقائه في مناقشتها، من أمثال رمضان حمود، وأبي القاسم الشابي وغيرهما، ويستخلصون خير ما فيها لمصلحة وطنهم وأمتهم.

من هنا نقول: إن العائد إلى شعر مفدي في العشرينات والثلاثينات المنشور سواء في دواوينه، أو في الدوريات، يأخذ صورة واضحة عن اتجاهه ومواقفه الحقيقية الأصيلة، لأن أغلب إنتاجه نشر فوق صفحاتها.

---

[1] محمد ناصر، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع/32، 1984، ص26.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلى جانب ما ذكر، فقد اشتغل الشاعر بجريدة الإذاعة التونسية، وجريدتي البرلمان والشعب الجزائريتين، كما أشرف على مجلة " الوفاق " لسان حال طلبة البعثة إلى تونس، خصصت للمنافسات الفكرية وتدريب الأقلام الشابة، لفسح المجال للمواهب القادرة على الإبداع، لشق طريقها نحو العلا.

وكان مفدي في هذه الفترة متحمسا لحركة الإصلاح الوطني، يساندها بما جادت به قريحته ويقف في وجه المناهضين للعمل الإصلاحي الوطني، يدل على ذلك إنتاجه الغزير الذي كان يثري به صحف شيخة أبي اليقظان، حيث يؤازره ويناصره، ويعترف له بفضل الأستاذية والتوجيه في الحياة[1] إضافة إلى مساهماته في مختلف الصحف الإصلاحية كجريدة المرصاد لصاحبها لعبابسة الأخضري[*] الذي دعاه ذات مرة إلى المشاركة بقلمه في المعركة القائمة حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنتقد منهجها الإصلاحي، في شكل مقالات تنشر على صفحات الجريدة، فأجابه مفدي: بأن نفسه أبية لا تقبل الانحطاط إلى هذا الدرك من الانحطاط الفكري والأخلاقي، مفضلا أن تكون الكتابة فيما يفيد الأمة ويخدم مستقبل أبنائها، لا فيما يقسمها ويشتتها ويعمق الهوة بين الإخوة الأشقاء، فيقول: " إني فضلت أن تولي وجهك نحو الأبحاث الحيوية الحقة، وأن تستخدم مواهبك الطيبة في النهوض بأمتك إلى تأسيس المعاهد العلمية، والمدارس الحرة، لتثقيف عقول أبنائنا.. إلى إنشاء النوادي الأدبية لربط التعارف بين عائلة الأدباء المشتتة هنا وهناك ... إلى مقاومة الأخطار الاجتماعية التي تهدد قوميتنا وديننا الإسلامي المجيد... "[2].

وفي عام 1933 أسس الشاعر رفقة أصدقائه أعضاء" جمعية الوفاق " " مجلة الحياة " شغل فيها منصب رئاسة تحريرها.

---

[1] محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص12.

[*] صدرت الجريدة عام 1931 لصاحبها لعبابسة الأخضري، وصاحب امتيازها محمد الشريف جوكلاري، فرنسي الجنسية، مسلم إصلاحي، وطني النزعة، استغل المصلحون حصانته بسبب جنسيته.

[2] محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية 1847م - 1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 120، وجريدة المرصاد، الجزائر، ع/29 (1932/12/21).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها: " حرّى بالشعب الجزائري الكريم الذي يتحفز اليوم إلى نهضة جديدة صادقة، أن تكون بين يديه صحافة حرة بمعناها الحقيقي يناجي بها الحياة من مختلف جهاتها، ويتخذها لوحا مقدما يرسم فيه كل ماله من أمل وألم ونعيم... "[1].

إنّ أهداف الجريدة كانت علمية وأدبية وأخلاقية لبناء المجتمع الأصيل، المتطلع إلى الرقي نحو المعالي لمسايرة روح العصر، ولعل أفضل ما نسوقه هنا، هو ما ورد في منشور صاحب الجريدة قبل صدور العدد الأول منها و الذي يقول فيه: " الحياة، وهي لسان حال المفكرين بشمال إفريقيا... إن جريدتنا علمية، وأدبية، واقتصادية، وأخلاقية جامعة، أسست لتعمل على هدم كل ما شادته أيدي الجهل والتفريط، والكسل، وعلى إزالة كل ما يحول بين مسلمي هذه البلاد، وبين رقيها العلمي، والأدبي والاقتصادي... هي ملك مشاع بين جميع المتنورين الذي يحملون فكرتنا، ويسعون مثلنا فيما يحيي ما اندثر من مجد غابر، مع إضافة ما يلزم أن يضاف إليه من محاسن العصر، شعارها: الإخلاص في العمل لله، والسعي لصالح الوطن، رائدها الصدق، دعامتها التفكير الحرّ، والعلم الصحيح، حزبها الحق، مبدؤها الصراحة." [2].

وفي عام 1937م ترأس مفدي جريدة الشعب، وهي لسان حال حزب الشعب والحركة الوطنية المسلمة في الجزائر العربية، وقد سجل فوق عنوان الجريدة: إرادة الشعب من ارادة الله، وإرادة الله لا تقاوم.

وعند خروجه من السجن عام 1959، وهروبه إلى المغرب، فتونس، استمر في مواصلة تبليغ رسالته، فشارك بنثره وشعره في جريدة المجاهد وغيرها من الصحف التونسية، وإذا كان قد قدر له أن يبقى داخل الحدود المغاربية بجسده، فقد استطاع أن يوصل صوته إلى الأقطار العربية في الشرق عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، المكتوبة والمسموعة، فنشرت له جريدة الحياة اللبنانية، والصحف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المرجع السابق، ص136 وجريدة الحياة الجزائر ع/01 (1933/04/01).
(2) يحي الشيخ صالح ، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص 43، المنشور موقع من ابي سعيد عدون مدير جريدة الحياة الجزائر ، قبل صدور العدد الأول في 1933م.

المصرية والسورية وغيرها، كما أذيعت قصائده من برنامج صوت العرب من القاهرة. ولهذا كان سفيرا لشعبه بين أقطار أمته، تشعّ نبراته بمعاني الأصالة والإباء، يحمل إلى إخوانه هناك آلام وطموح إخوانهم هنا في أرض الجزائر، على أمل اللقاء في يوم عيد الجزائر.

والحقيقة أن تونس بيئة وثقافة وصحافة، كانت من أكبر العوامل المشجعة والدافعة لمفدي زكرياء طيلة حياته. فكان هذا الإبداع، وكانت هذه العظمة، وفي ذلك يقول محمد ناصر: " والحق أن تونس بصحافتها ونواديها وأدبائها ومسئوليها قد قدمت لمفدي زكرياء في جميع مراحل حياته النضالية والثورية ما لم يجده في غيرها تقديرا وإجلالا وتكريما، ومن يعد إلى جريدة الزهرة والنهضة، وتونس والشباب، والفكر، والصباح، يلمس بحق كيف كان يحل من دوائرها الثقافية محلا عظيما، وكيف كانت تربطه بأدبائها الكبار من أمثال أبي القاسم الشابي، ومحمود بورقيبة، وبيرم التونسي، ومحمد العريبي والحبيب شيبوب، وغيرهم صداقات حميمة ... "[1].

نشاطه المهني :

تردد مفدي وهو صغير على متجر والده، ومارس التجارة على عادة بني عمومته الميزابيين الذين يمتهنون التجارة حرفتهم المفضلة، فتأثر بها وأحبها، يبدو ذلك من خلال نظرته إلى العمل التجاري خاصة بعد رجوعه من دراسته بتونس عام 1926م، إذ بنى حلمه على تحقيق السعادة عن طريق الثراء والغنى الذين يكون مصدرهما التجارة[2]، وهي بالفعل نظرة من عايش التجار واحتك بهم، وشاركهم عمليا في نشاطهم.

مارس العمل التجاري في فترة ما قبل الثورة وأثناء الحرب وبعدها، وتنوعت أنشطته: فمن عامل أجير في محلات تجارية مختلفة بقسنطينة والجزائر العاصمة، إلى حلاب، إلى تاجر أقمشة متنقل، لكنه فشل ولم يحالفه طعم النجاح في تجارته. وفي ذلك يقول حواس بري: " وفي تلك الفترات التي كان يقضيها

---

(1) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص21.

(2) محمد ناصر، مجلة الثقافة، الجزائر، السنة 16 العدد 93، ماي/ جوان 1986، ص101.

خارج السجن (أيام الثورة) يشتغل بالتجارة، إلا أنه لم يذق طعم النجاح فيها أبدا، وهذا الإخفاق يظل مشكلة تستدعي النظر... سيما إذا عرفنا أن المجتمع الميزابي مجتمع تجارة بالدرجة الأولى... نرجح أن مفدي لم يشتغل بالتجارة حبا فيها وإنما ... يريد من خلالها أن يبعد الأنظار عنه ليعمل في الساحة مطمئن البال..." [1].

إن هذا التبرير يحتاج إلى مناقشة، لأن حرفة التجارة لازمت الشاعر في حياته بعد رحيل المحتل وحصول الجزائر على استقلالها، ولم يعد هناك ما يدعو للخوف كما يرى حواس بري.

لكن الذي يجب أن أؤكده هو أن النجاح غير مضمون ليس لزكرياء فقط، بل لأي إنسان في أية حرفة يختارها، إذ قد يحالفه النجاح أو يتعثر، غير أن زكرياء لم يمنعه فشله في تجارته من الارتباط القوي بالأدب والنضال الدائم بالقول والفعل.

وفي فجر الاستقلال عاد إلى وطنه وأقام بالعاصمة حيث مقر سكنه، وارتبط من جديد بحرفته القديمة الجديدة، حيث فتح مكتبا للخدمات التجارية والإدارية، لكن الظروف الخاصة التي عرفتها البلاد آنذاك جعلته يختار تونس مقرا لإقامته. ووجد في هذا البلد الأمان، ووجد من الأشقاء من يقدر جهده الأدبي، وينزله المنزلة اللائقة به، فقدموا إليه مساعدة مالية عن طريق قرض استثمار بنكي استغله في شراء قاعة للعرض السينمائي، ودامت إقامته بتونس إلى غاية عام 1969م حيث انتقل إلى المملكة المغربية بعد حصوله على رخصة لفتح مدرسة للتعليم الثانوي الحر هناك. غير أن إقامته بالمغرب لم تمنعه من التنقل في ربوع المغرب الكبير، ووطنه الموحد المحبوب، شاديا كالبلبل الغريد، جامعا بين المهنة والأدب، والسياسة، مقربا بين البلدان المغاربية، منوها بجهود أبنائها المخلصين، عاملا بفعالية في مختلف الأنشطة الفكرية والسياسية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة عين شمس، مصر، ص98.

وفاته:

قام عام 1973م بأداء فريضة الحج صحبة زوجته، وواصل نشاطه إلى عام 1977م حيث عاد يوم 10 أوت 1977 إلى تونس من رحلة قام بها إلى أوروبا، ولم تمض إلا بضعة أيام حتى شعر بآلام جهة قلبه، فزار أحد الأطباء فأعطاه أدوية مضادة للغازات، لكن الموت لم يمهله طويلا فتوقف قلبه يوم 17 أوت 1977م.

وتناقلت خبر الوفاة الصحف التونسية والوطنية والعربية، وأعربت تونس والمغرب عن نيتها في دفنه تحت الظلال، أو فوق الأطلس، اللذين سجل بهما أفراح شعبه الكبير وأتراحه، لكن الجزائر فضلت أن يواري جثمانه في تراب مسقط رأسه بـ "بني يزقن " من أرض وطنه الطاهرة، والذي كتب نشيده الرسمي بريشة غمسها في قلبه، وورد جباله ووهاده، ووديانه ونواديه صداه على مدى نصف قرن وارتسمت صورته في مخيلة كل وطني مخلص ضحى من أجل استقلاله وتقدمه.

وقبل أن ينقل جثمانه إلى غرداية، أبّنه رفاق الدرب في الأدب والجهاد، وشخصيات رسمية من البلدان المغاربية، على رأسهم وزير تونس للثقافة آنذاك الشاذلي القليبي، كما أبّنه صديقه الحبيب شيبوب بقصيدة شعرية.

آثاره:

لم يجد الشاعر متسعا من الوقت لجمع آثاره، كغيره من الأدباء، لأن رسالته كانت أعظم، فهو الكاتب، والشاعر، والمناضل، وقد أدرك قبل وفاته ثقل الرسالة، كما أدركها في عز شبابه، فشد العزم على إنجاز مشاريع يختم بها رحلة الحياة، وهذا بعد أن تتيسر له الظروف المناسبة المادية والزمنية وتتمثل هذه الآمال في:

أ- إعداد دواوينه الشعرية للطبع، بما فيها تلك التي ذكرها في اللهب المقدس.

ب- مجموعة من الشعر الشعبي الجزائري.

ت- كتاب تاريخ ميزاب بأسلوب جديد.

ث- تاريخ الصحافة العربية في الجزائر.

ج- مذكرات نضاله إلى 1962.

ح- إعداد أغاني عربية تستمد من أصالتنا وقيمنا.

خ- إنجاز مؤلف عن النهضة الأدبية في البلدان المغاربية.

د- تنسيق كتاب في أربع مجلدات عن تاريخ الأدب الجزائري منذ الفتح الإسلامي.

ويذكر صديقه قنانش، أن للشاعر مشروعا ثقافيا ضخما في شكل مركب بالمملكة المغربية يتربع على عشرات الهكتارات، والذي أسند إلى إحدى الشركات الألمانية لإنجازه، بعد أن تمت كل الإجراءات ووفرت الإمكانيات، ولم يبق سوى شروع الشركة المذكورة في الإنجاز.[1]

هذا ونشير إلى أن الشاعر ترك لنا إنتاجا أدبيا غزيرا نثرا وشعرا، كان غاية في التعبير عن أحاسيسه ورؤاه في كل القضايا الوطنية والإنسانية، وقد وضعنا أيدينا على جل شعره المطبوع والمبثوث في الدوريات الوطنية والعربية منذ العشرينات، والتي نوردها مرتبة زمنيا حسب ظهورها مطبوعة:

1- ديوان اللهب المقدس 1961.

2- ديوان تحت ظلال الزيتون 1965.

3- ديوان إلياذة الجزائر 1972.

4- ديوان من وحي الأطلس 1976.

5- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة 1984.

وهذا الكتاب الأخير يمثل مجموعة القصائد الشعرية المتناثرة هنا وهناك، في الصحف والمجلات الوطنية والعربية كما سبق، وقد تفضل بالبحث عنها وجمعها فضيلة الدكتور محمد ناصر جزاه الله

[1] بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص48 و 136 و137.

خيرا في الدارين، إلى جانب الدواوين السالفة الذكر، فقد ذكر الشاعر أن له دواوين أخرى لم تطبع بعد مثل: الخافق المعذب، ديوان انطلاقة، أهازيج الزحف المقدس، ... إلخ.لكنها قد تكون مجرد مشاريع كان ينوي إعدادها لم تر النور إلى حد الساعة[1].

أما عن مؤلفاته النثرية فلم نعثر له سوى على نصوص متناثرة في المؤلفات والصحف، مع أنه يذكر في مرات كثيرة عناوين لمؤلفات نثرية أنجزها بمفرده، أو بالاشتراك مع أدباء آخرين[2] مثل: نحو مجتمع أفضل، سبع سنوات في سجون فرنسا، حواء المغرب الكبير في معركة التحرير، إلخ ... ولعلها تكون هي الأخرى عبارة عن مشاريع كان ينوي إنجازها.

والمتأمل في قائمة الكتب النثرية التي عددها الشاعر في أكثر من مناسبة ترشحه أن يكون ناثرا أكثر منه شاعرا، لكن الواقع أثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك أن زكرياء شاعرا فحلا، خَلَّدَ بشعره لا بنثره، وبدأ رحلته الأدبية بقصيدته القومية الأصيلة " إلى الريفيين " التي أضفى عليها من نور الإسلام وإشراقته ما ختم به حياته في إلياذته التي مجد بها تاريخ أمته وعزتها، فخلّد بها خلودها مع الدهر .

ب- المؤثرات الفاعلة في شاعريته:

تكونت شاعرية زكرياء كما تتكون شاعرية غيره من الشعراء، وتبلورت نتيجة تفاعله مع المؤثرات الخارجية المختلفة، من بيئة طبيعية، وظروف سياسية واجتماعية ودينية وغيرها، والتي كان لها أبلغ الأثر في تفجير طاقاته الشعرية الكامنة في أعماقه، وفيما يلي تمحيص لهذه المؤثرات:

أ- أثر البيئة الأصلية : ولد زكرياء وترعرع في وادي ميزاب في أحضان أسرة محافظة تدين بالإسلام، تنحدر من السلالة الرستمية التي يعود إليها الفضل في تأسيس أول دولة إسلامية بالجزائر وكان هذا الانتماء مصدر فخر واعتزاز له، إذ جعله يشعر بأن دماء ابن رستم تملأ حناياه، وتلهبه عزةً

---

[1] المرجع السابق، ص21 وما بعدها.

[2] بلحيا الطاهر، تأملات في إلياذة الجزائر، ص48-49.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نفسه، وإن هذا الأصل الطيب طهر طبعه فاهتدى بنور الإسلام الذي ارتضته سلالته دينا لها عبر الأجيال الإسلامية المتعاقبة، فأنار نفسه وأذهب عنه رجسه، وفي ذلك يقول: [1]

دمــاءُ أبــي رَسَمْــنَ مــا الحنايا   صــوارخ، يُلهبــن عـــزة نفســي

وعــرقُ الأصــالةِ طَــهّرَ طَبْعِــي   ونُــورُ الــهدايةِ أذْهــبَ رِجْسِــي [2]

لقد استقى زكرياء ثقافته العربية الإسلامية من أسرته ومحيطه الميزابي في طفولته، فتأثر بالعادات والتقاليد والأخلاق الإسلامية في بيئته الصغيرة، ثم راحت معارفه تتسع كلما احتك بغيره في الكتاتيب والمدارس والمدن الجزائرية من غرداية إلى عنابة، خاصة وأن أولى خطواته كانت في كتاب مسقط رأسه إذ حفظ بها جزءا من كتاب الله تعالى، وتعلم مبادئ اللغة العربية والفقه، ثم أتم حفظ القرآن بمدينة عنابة حيث كانت تجارة والده.

وكان لميزاب مكانة خاصة عند زكرياء جعلته يضفي عليه طابع القدسية لأنه منبع عزه ومسقط رأسه، ومفجر أحاسيسه ومشاعره الملتهبة، ولأنه كذلك مكان إقامة والديه الكريميين، ومرتع صباه وشبابه، وكيف لا يقدسه وإليه يعود الفضل في اكتساب معارفه الأساسية، ورسم أحلامه الجميلة التي حببت إليه الحياة، ليقبل عليها إقبال النحل على الشهد. ويرسم أحاسيسه هذه بريشته الشاعرية تجاه وادي ميزاب فيقول: [3]

تَقَــدَّسَ واديــكَ، منبــعُ عــزّي   ومسقــطُ رأســي، والــهامُ حِــسي

وربــضُ أبــي... ومــرابع أُمّي   ومغنــى صبــاي، وأحــلامُ عُرْسِــي

ولم يكن ميزاب إلا حرفا في لوح الجلال الذي ارتسم في مخيلة الشاعر وملأ قلبه، وجزءا من وطنه الجميل الغالي الذي فجر فيه معاني الحب والإخلاص والتضحية في سبيله، فلأجله عصر النجوم

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص35.

[2] تأثر بقوله تعالى: "إنما يُريدُ الله ليُذهب عنكمُ الرِّجْس أهل البيْت ويُطهِّركُمْ تطْهيرا"، سورة الأحزاب، الآية: 33.

[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وصاغ الشوادي، وأرسل شعرا يسرق خطى الثائرين يوم نادى بساح الفدا منادي الجهاد، بل لقد تعدّت أناشيده المدوية قعر السجون، فتردد صداها في الفضاء الفسيح مع كل طائر، وكانت هذه السجون، وما لاقاه فيها من ألوان العذاب مصدر إلهامه، وقوة شاعريته، وفي ذلك يقول: [1]

وتخطّى قعر السُّجُون نشيدي   طائراً في الفضاء مع كُلّ طائر

أنا. منْ فيْض وحْيها ... سر إلها   ميّ .. ولولا العذابُ ما كُنْتُ شاعر[*]

قِمّة الشّعْر هاهنا نبْغ الـها   مي، ومنْ هنا تنبّأ شاعر

إن وطن الشاعر بمكوناته الطبيعية والسياسية والاجتماعية أوحى إليه بهذه الطاقة من المشاعر الخلاقة فجادت قريحته بدرر من القصائد، في مقدمتها " إلياذة الجزائر " التي صدع بها الدنيا في فخر واعتزاز، بل وفوق هذا كان يوقع بألحان صدره خطى المجاهدين في قمم الجبال، فخلد شعره بخلود الثورة التحريرية التي أذكى لهيبها فكر الشاعر فيقول:[2]

بلادي، وقفْتُ لذكْراك شعْري   فخلّد مجْدك في الكوْن ذكْري

وألهمْتني فصدعْتُ الدُّنا   بإلياذتي في اعتزاز، وفخْر

وكُنْتُ أوقّع في الشّاهقا   ت، خُطى الثّائرين، بألحان صدْري

فخلّد قُدْسُ اللّهيب بياني   وأذْكى لهيبُ الجزائر فكْري

وقد اعتبر حسن فتح الباب أن الثورة هي الينبوع المتفجر في شعره، وهي قضيته الأساسية التي أوقف عليها حياته وفنه[3].

إن معاناة الشاعر هي معاناة المجموع، فقضاياه هي قضاياهم، لذلك نجده يتفاعل مع أحداث وطنه.

---

(1) مفدي زكرياء، مجلة الثقافة، الجزائر، ع/29 بتاريخ أكتوبر -نوفمبر 1975.
(*) شاعرْ، خبر كان منصوب، سكّن للضرورة الشعرية.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص115.
(3) بلقاسم بن عبد الله. مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص 55.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الجزائر بطبيعتها الساحرة، ومناظرها الخلابة، وواقعها السياسي والاجتماعي والثقافي الأليم، كلها شكلت العالم الداخلي للشاعر، ففجرت بركانه الشعري إعجابا تارة، ورفضا وثورة تارة أخرى، فصور طبيعة بلاده كأجمل ما يكون التصوير، إذ جعل قدرة الله متجلية في كل منظر توحي بالتفرد في الخلق، بل إن التأمل فيها طريق إلى الإيمان بالخالق، كما خلّد أمجاد وطنه وأمته من عهد آدم إلى اليوم، وواكب مسيرة جهاد شعبه بالكلمة الثائرة الملتهبة، وناشد الوحدة بأسمى معانيها، وتغنى بها طيلة حياته، بل صارت جزءا من عقيدته، وفي حبها سما فنّه الشعري، فاستمع إليه يقول:[1]

أنَا مَنْ غنَيْتُ بالوحْدة عمْري   وسما في حبّها فنّي وشعْري

لأن الوحدة قوة والفرقة ضعف، وديننا الحنيف يدعو إلى القوّة ونبذ الضعف في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا)[2] منطلقا من أن عقيدتنا في الوجود وحدانية الله سبحانه وتعالى.

هكذا كانت البيئة الأصلية للشاعر من العوامل الفعالة في تكوين شاعريته، فأمدته بالأسس القاعدية لثقافته وفكره وفنه، والتي تبلورت نتيجة تفاعلها مع مؤثرات أخرى.

2- المؤثرات البيئية الأخرى :

كانت بدايات تكوين شاعريته في الجزائر، وتطورت في أرض تونس نتيجة الظروف الثقافية والاجتماعية والنشاط السياسي، وتعامله بفعالية مع مختلف الأنشطة، واحتك برجال الدّين والسياسة فتأثر بهم، وتكوّن هذا التكوين الأصيل الذي كان له أثره في حياته ونضاله، حيث كان لجو البعثة الطلابية إلى مدارس تونس دوره الكبير في بلورة فكره، لأن النشأة العربية الإسلامية الأصيلة التي نشأه بها مشايخه قد تركت في نفسه أبعد الآثار، ورسخت في أعماقه حب الإسلام والعربية والوطن وكرهت إليه من يحاول المس بهذه المقدّسات أيا كان، لا سيما وأن أولئك المشايخ كانوا يقدمون

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص170.

[2] سورة آل عمران، الآية: 103.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النموذج العملي لتلامذتهم .. إذ كانوا يجلسون إليهم في محاضرات وندوات تدور كلها حول ترسيخ معاني الاعتزاز بالدين الإسلامي والشخصية الوطنية، والعمل على تحرير الوطن [1]، وفي هذا المجال يقول: "درست على هؤلاء دروسا دينية، وأخرى في الوطنية والتضحية في سبيل الوطن العزيز والأمة المجيدة" [2].

كما كان الاحتكاك بزعماء السياسة أمثال عمه الشيخ صالح بن يحي، والزعيم الثعالبي وغيرهم، إلى جانب الجو السياسي والوطني العام في تونس المتمثل في مجابهة المستعمر، وحضوره المكثف في اللقاءات والنوادي الأدبية والفكرية، وارتباطه بالصحافة ووسائل الإعلام، أثرت في تكوين هذه الشاعرية العظيمة.

كما لا نغفل أثر تنقلاته ورحلاته إلى الأقطار العربية، مغربها ومشرقها، في شاعريته، لقد حلّق زكرياء عاليا عندما صور لنا مدينة الرباط المغربية الرائعة وأثرها في نفسه، حيث فجرت فيه أحاسيسه، فها هو الإلهام يسمو به، ولولا العقيدة تغمر قلبه لحسبه تنزيلا من ربّ العالمين فيقول:[3]

وسما بي الإلهامُ فيك(*) وإنّهُ   لولا التُّقى لحسِبْتُه تنزِيلا

إن رابطة الدم والعقيدة التي تربطه ببني قومه في المشرق والمغرب كانت مصدر إلهامه كذلك، وينبوعا متدفقا ألهمه فصاحته وبلاغته، بل إن شعره من دمه فجّره وعبّه بمأساتنا الفردية والجماعية التي عاناها حسيا ووجدانيا فيقول[4]:

وملْءُ عُروقي، صارخٌ دمُ يعربٍ   فألهمتني ينبُوعُ يعْربٍ، تبياني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص09.
[2] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص151.
[3] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص 48.
(*) الضمير يعود على مدينة الرباط المغربية.
[4] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص320.

3- أساتذته:

مما لا شك فيه أن المشرب الأول للشاعر كان على يد معلميه وأساتذته في الكتّاب بمسقط رأسه، أو بمختلف المدارس التي تتلمذ على مشايخها في الجزائر وتونس، فارتوي من ينبوعها الصافي، فأكسبته هذه الثقافة الدينية والفكرية التي كان أثرها قويا في فكره، جعلته يعتز بأصالته وتراثه العربي الإسلامي.ويصدر عنه في شعره وكتاباته، لأن هذا التراث يمثل بحق الوجه المشرق للحضارة الإسلامية، ورغم تشرب زكرياء لمعاني القرآن والتأثر القوي به، منذ عهد الكتّاب، فقد أحبّ اللغة والأدب العربي أيضا لتأثره بأساتذته خاصة في تونس، لأنهم حبّبوا إلى نفسه تُراث أمته، وتركوا فيه أثرا للكلمة الحارة، من أمثال عمه الشيخ صالح، والثعالبي، والعربي الكبادي، وغيرهم كثيرون تركوا بصماتهم في شاعريته.

4- أثر الشخصية الإسلامية:

إذا كان لهؤلاء الأساتذة فضل كبير في ثقافة زكرياء وبناء شخصيته، فقد أولع بحب عظماء الرجال، ويأتي في مقدمتهم الرجل الأعظم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته والتابعون من رجال الدعوة والجهاد والأبطال، أمثال عمر وخالد وعقبة وغيرهم، لجهادهم من أجل إحلال الحق وإبطال الباطل، ونشر رسالة العدل والسلام، فما هو بين الخميلات يستلهم المعاني السامية من كتاب الله، ويشرب حب المصطفى من منابعها الأصيلة الصافية، فتكونت في وجدانه هذه الطاقة الحيّة من المشاعر المتفجرة في أعماقه، لتخرج إلى الواقع شعرا لا يرتقي إليه شعر غيره، لأن منبعه كتاب الله وسيرة رسوله الأعظم فيقول[1]:

وبيْـن الخميلاَتِ الحوالمِ شَاعِرٌ   غدَا مِنْ كِتَابِ اللهِ يَسْتَلْهِمُ الصُّحُفَا

وينْهلُ نِنْ حبِّ الـرّسُولِ وآلهِ   منَابِـعَ لا ينفَـكُ يُشْبِعُها رشْـفَا

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص89.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فيأتي بما لم تستطع رفاقه كأنّ له من كل فاتحة حرقا

ولم يكن ولوعه بالشخصية الإسلامية متوقفا على عهدها الأول، بل إنه ارتبط بأقطاب الحركة الإسلامية الحديثة في الجزائر والعالم الإسلامي، سواء عن طريق الاتصال المباشر أو الاطلاع الواسع على أفكارهم ومؤلفاتهم فتأثر بهم، أمثال محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وابن باديس والإبراهيمي، وعلال الفاسي، ومحمد الخامس، وإبراهيم أطفيش، وكان صديقا لمولود قاسم الذي ساهم بقسط وافر إلى جانب عثمان الكعاك في ظهور إلياذة الجزائر، وقد أشاد بهم وخلد وجودهم. هذا ويعتبر البعض عدم انضمامه إلى جمعية العلماء بأنه معاد لأهدافها، والحقيقة أن ذلك يرجع إلى عدم اقتناعه بمنهجها السياسي المبني على المهادنة والسلم والملاينة مع الاستعمار، في حين يؤمن هو بالثورة كوسيلة للتغيير ليس إلا، وما يفسر وجهة نظرنا هذه، أن الشاعر كان شديد الإعجاب بجمعية العلماء حيث أشاد بدورها الثقافي والتربوي الهادف، وقد أكد أن حزبه يتفق مع الجمعية في الفكرة ويختلف معها في الوسيلة. كما اتصل بكثير من علماء الإسلام وفقهائه، وتوطدت علاقاته بالكثير منهم عندما كان يحضر ملتقيات الفكر الإسلامي، والتي كانت تنعقد في الجزائر بعد الاستقلال، ولعلها كانت إحدى العوامل القوية في تخليد مجد الجزائر بأغنيته " إلياذة الجزائر " التي هي قلادة عقد ما أبدعته شاعريته، وقد أنشدها في إحدى الملتقيات بصوته منها قوله:[1]

ويا مُلتقى فِكْرِ إسلامنا ومجْلَى قَداسةِ إيماننا

ويا منبع النُور منْ وحْينا وبُرْجَ أصالةِ إشْعاعِنا

هذه الملتقيات التي أنارت عقول شبابنا، وأمدتهم بالفكر الإسلامي السليم، الذي غايته سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

---

[1] مفدي زكرياء. إلياذة الجزائر، ص111.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5-أثر التراث العربي الإسلامي:

لا يمكن الحديث عن شعر زكرياء الإسلامي دون إبراز أثر الموروث العربي الإسلامي فيه لأنه مصدر أصوله الفكرية والفنية، فقد فتح عينيه على هذا التراث، ونهل منه حتى استقام فكره ونضجت شاعريته، وارتبط به مدى الحياة، كما ارتبط بعقيدته التي جعلها فوق كل الروابط انطلاقا من " المسلم أخو المسلم "، ومن خرج على ذلك فليس بقريب، حتى ولو كان ابن الأب والأم في نظره. هذا وكرس زكرياء نضاله الفكري والأدبي للدفاع عن الإسلام وقضايا الأمة وتراثها، ويأتي في مقدمتها القرآن الكريم الذي أمده بطاقة فكرية كبيرة، وبأسلوب لغوي بليغ، وهو ما يجعلنا نقف عند هذا المصدر لنرى كيف استفاد منه الشاعر وأين تجلت آثاره في فكره ولغته.

أ- أثر القرآن الكريم في شاعريته :

كان القرآن الكريم من أقوى المصادر وأغزر الينابيع التي ارتوى منها مفدي زكرياء، ومن أقوى المؤثرات في شاعريته بكل مكوناتها، وظهر ذلك جليا في شعره شكلا ومضمونا، بحيث نلمس هذا الأثر في معظم قصائده على اختلاف أغراضها كثرة أو قلة حسب المناسبة، وما تتطلبه من معان وأساليب وأخيلة وموسيقى، بسبب مدارسته للقرآن الكريم وحفظه لمجمل آياته منذ صغره، في بلده على أيدي مشايخ الكتاتيب القرآنية، قبل أن يسافر إلى تونس في البعثة الميزابية لينهل من مدارسها ويحتك هناك برجال الدين والسياسة والفكر، فاتسعت مداركه، وتأثر بكل ذلك وخاصة القرآن الكريم فعانقت معانيه روح الشاعر، وعلقت ألفاظه وعباراته بلسانه، وصوره وأخيلته بتفكيره، فجاءت معظم أشعاره صدى لهذه العناصر ومرآة عاكسة لها، زادتها التجربة وشدة المعاناة عمقا، فارتفعت العاطفة وارتفع معها الصدق الأخلاقي والفني درجات متفاوتة حسب الموضوع والمناسبة[1].

فكم من قصيدة تتضح بمعاني القرآن الكريم، وتنطق بأسلوبه، لأنه المصدر القوي، الذي أمده بسر الشاعرية، وصنع عظمته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] يحياوي الطاهر،البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص49.

فكم من قصيدة تنضح بمعاني القرآن الكريم، وتنطق بأسلوبه، لأنه المصدر القوي، الذي أمده بهذه الشاعرية، وصنع عظمته.

إن أصالته الشعرية لا تتجلى في التأثر بالمضامين فقط، بل تتجلى كذلك في العبارات والألفاظ والصور، وطريقة توظيفها بما يحقق الغاية المقصودة.

- **توظيف المفردة القرآنية:**

غمس مفدي زكرياء ريشته في واقع أمته الإسلامية، فانعكس ذلك الواقع في شعره، فكان صورة لمعاناة أبنائها، وقد استخدم لغة شعرية استمدها من أسلوب القرآن، فارتبط معجمه الشعري باللفظ القرآني والعبارة القرآنية، فاستعملها استعمالا مكثفا وعلى نحو خاص يناسب طبيعة الموقف من قضايا مجتمعه، لأن " المبدع الحقيقي هو الذي يقرأ الواقع الراهن أو الماضي والتراث ويعارض هذا بالحلم وموقفه السلبي من الواقع برؤية المتناقضات مستولدا الجديد "[1]، لأن الرؤية الفنية للواقع في الشعر تتطلب نوعا خاصا من التعامل مع المعجم الذي اختاره الشاعر، ومع الأبنية اللغوية والتراكيب المختلفة، حتى يتحقق شرط الفن في التعبير عن التجربة، إلى جانب الموقف الملتزم للشاعر[2].

لذلك يجد المتصفح لأشعاره كمًّا هائلا من العبارات والألفاظ القرآنية وظفها توظيفا يخدم موضوعاته ويعكس حالته النفسية ورؤاه نحو هذا الواقع.

ففي التوسل والاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم يوظف ألفاظ القرآن الكريم مبنى ومعنى كما في قوله:[3]

فَلاَ تُشْمِتِ الأعْــداءَ فِينا، فَإِنَّنا عهِدْنَاكَ لاَ تَرْضَى لأُمتِكَ الخَسْفَا[4]

ويسِّرْ إِلَى الحُسْنَى، نُفُوسًا ضَعِيفَةً وفَتِّحْ قُلُوبًا لِلْهدى، لَمْ تَزَلْ غُلْفَا [5]

---

(1) خالدة سعيد، حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط02 ، 1982، ص14.

(2) عز الدين اسماعيل، الشعر المعاصر في اليمن، الرؤية والفن، دار العودة، بيروت، ط02، 1986، ص 255.

(3) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص235.

(4) استمدها من قوله تعالى: " فخسفنا به وبداره الأرض " سورة القصص، الآية: 81.

(5) استمدها من قوله تعالى: " وقالوا قلوبنا غلفٌ بلْ لعنهمْ اللهُ بكفْرهمْ فقليلا ما يؤمنون " سورة البقرة، الآية: 88.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يطلب من الرسول ألا يشفي أعداءنا فينا، بل يشفع للأمة عند الله علّه يرفع مقته وغضبه عنها، وأن يهدي الضالين، ويفتح قلوبهم المغلقة إلى الإيمان.

يستغل مفدي زكرياء ألفاظ القرآن وما تحمله من دلالات، وما توحي به من معان، فيصبها في وجدانه فتتفجر في أعماقه موحية بدلالاتها الجديدة من خلال الربط بين الماضي والحاضر، ومعايشة الأحداث لاستشراف المستقبل، من ذلك ما أبرزه من خلال تعريفه للجهاد حين رد على الانهزاميين الذين كانت تدفعهم المكابرة لطعن الثورة الجزائرية من خلف بقوله[1]:

ليس الجهاد، زعامة وثنية ... إن الجهاد شجاعة ونظام

ضاق الخناق، على دعاة هزيمة ... زلت بهم في الثورة الأقدام

وتناثرت تلك الهياكل وانطوت ... وتهاوت الأنصاب والأزلام

فقد وظف لفظي: الأنصاب والأزلام اللتين ذكرتا في القرآن الكريم للدلالة على ما يتسم به أولئك الانهزاميون من صفات القبح والذمامة، فهم رجس من عمل الشيطان، وقد أمر الله عباده بالاجتناب عنه لتحاشي مخاطره.

لقد شبه صورة اندثار هؤلاء بصورة اندثار تلك العادات الجاهلية الممثلة في السلوكات المنحرفة والمذكورة بالأنصاب والأزلام التي حاربها الإسلام وقضى عليها.

إن مفدي يصوغ تجربته في نسيج شعري من خلال التصرف في اللغة بقدرة ومهارة كبيرتين تمكنانه من نقل تجربته إلى الآخرين والتأثير فيهم.

- **توظيف التعبير القرآني:**

فمن توظيف اللفظ إلى توظيف العبارة لفظا ومعنى، في سياق تعبيري يخدم النص الشعري وينقل إلينا ذلك النموذج الصادق من تجربة الشاعر، والذي لا يمكن أن ينفصل عن مشاعرنا النفسية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص47.

وقوانا العقلية، لذلك فإن العبارة الشعرية عنده تنساب في سياق رائع، كما في قوله وهو يصف طبيعة الجزائر الخلابة:[1]

وسبّح لله ما في السماوات والأرض[2] مثل شقائق شفا

وهو تضمين صريح للآية القرآنية لفظا ومعنى، توحي بتخصيص الخالق بالعبادة والتسبيح والتقديس لقوله تعالى: " وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون "[3].

وقوله أيضا: " يسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم "[4].

ويعطي صورة حية حين يشخص جبال شفا، ويجعل لها شقائق تبتسم وتذكر اسم الله، إيمانا به وتعبدا وتقديسا لعظمته.

وفي تهنئة أهل الريف بسبب تلبيتهم لنداء الجهاد ضد المعتدي الإسباني يرغب المجاهدين في الجهاد، ويمنيهم بالنصر الموعود من خلال أسلوب المحاورة مع جبريل الذي رفّ بأجنحته في سماء المعركة قائلا: [5]

أجبريلُ هلّلْ بأبي السطفرْ وكبِّرْ وخطَّ جليل الخبرْ

ورتّلْ على الجيش: " إن تنصروا الله ينصركم "[6] ببلوغ الوطرْ

إنه يلتمس من جبريل عين الوحي أن يبشر الشعب بآيات النصر الموعود، وينقله خبرا سارا، ويرتله على مسامع المجاهدين وعد الله إليهم، فهو ناصرهم ما داموا في طريق الحق ينصرون كلمة الله ويحاربون أهل الشرك والضلال.

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص[illegible].
[2] سورة الحديد، الآية: 01.
[3] سورة الذاريات، الآية: 56.
[4] سورة الإسراء، الآية: 44.
[5] مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب، تونس بتاريخ 06 ماي 1925.
[6] سورة محمد، الآية: 07.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال واصفا ما حل بفلسطين المغتصبة على لسانها: (1)

وفي سكْرة، ضيعوا عــزتي   ولــمْ يغْــن عنّي سلْطانيـــــه

فأقْتصُّ منْ (قوْمِ مُوسى) غدا   وآخـــذُهُمْ أخْـــــذةً رابيـــه

لقد ضاعت لغفلة أهلها من جهة، واتكالهم على غيرهم الذين لم يفيدوهم من جهة أخرى، لكنها ستعتمد على شعبها وتقتص من عدوها مستقبلا. وإذا لم تسعفها اليوم قوتها، فإن غدا بإذن الله قريب، بعد أن تستجمع القوة ويجند الشعب المظلوم، وستحقق هذه الأماني عندما يتمسك الشعب بحبل الله يقول:(2)

فإنْ تنْصُرُوا اللهَ، ينْصُرْكُمْ   ويُنْجِـــزْ أمانيكُمُ الــــغالِيةْ

فقد ضمّن الأبيات السابقة عبارات قرآنية، أو بعض آيات الذكر الحكيم شكلا ومضمونا: لَمْ يُغْنِ عنّي سُلْطَانيه(3)، آخِذَةً رابيه(4)، فإن تنصروا الله ينصركم(5).

وحين وصف الخونة المأجورين الذين فقدوا إيمانهم بعقيدتهم وأخلاقهم ووطنيتهم، وباعوا ضمائرهم الميتة، طموحا للكراسي والمجد المزعوم، شبههم بأهل عاد الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية، فصاروا كأعجاز نخل خاوية، لم يبق لهم في الحياة وجود سوى الذكر السيئ بقوله: (6)

ومنْ خائِرين كأعْجازِ نَخْلٍ (7)   ضمائِرُهُمْ في المزادِ، رقيقه

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص341 344.

(2) المصدر السابق، ص349.

(3) اقتبسها من قوله تعالى: " ما أغْنى عنّي ماليه، هلك عنّي سلْطانيه " سورة الحاقة، الآيتان: 28-29.

(4) اقتبسها من قوله تعالى واصفا ما حلّ بآل فرعون: " وجاء فرْعونُ ومنْ قبْلَهُ والمُوتفِكاتُ بالخاطِئة. فعصوْا رسُول ربِّهِمْ فأخَذَهُمْ أخْذةً رابِيةً " سورة الحاقة الآيتان: 09-10.

(5) استمدها من قوله تعالى: " يا أيُّها الذين آمنوا إنْ تنْصُرُوا الله ينْصُرْكُمْ ويُثبِّتْ أقْدامكُمْ " سورة محمد، الآية: 07.

(6) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 28.

(7) اقتباس من قوله تعالى: " وأمّا عادٌ فأهْلِكوا بريحٍ صرْصرٍ عاتِيةٍ، سخّرها عليْهِمْ سبْع ليالٍ وثمانِيةَ أيّامٍ حُسُومًا فترى القوْمَ فِيها صرْعى كأنّهُمْ أعْجازُ نخْلٍ خاوِيةٍ، فهلْ ترى لهُمْ منْ باقِيةٍ " سورة الحاقة، الآيات: من 05 إلى 08.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أي وصف يليق بهؤلاء أكثر من هذا الوصف؟ وأية حياة مذلة وخزي كهذه الحياة التي ماتت فيها ضمائر التائهين ولم تعدلها مكانة في سوق الضمائر والقيم.

وبالمقابل صور شدة تمسك الشعب الجزائري بوطنه، وإيمانه بالله ناصر الحق، وميسر أحوال المسلمين بعد العسر بقوله: [1]

ويقرأ في التنزيل، عند صلاته ... بأنك بعد العسر، تغمره يسرا[2]

تأثرا بما ورد ذكره في سورة الانشراح، فالشعب مؤمن بقضاء الله وقدره، يفوض أمره لله، مع العمل الجاد لامتلاك وسائل التغيير الإيجابي، التي يدعو إليها ديننا الحنيف، لأن الخالق أخبرنا بأنه لا يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا.

ولقد استطاع هذا الشعب المسلم أن يغير فعلا ما به، وأن يحمل راية الجهاد، ليحقق النصر بعد أكثر من سبع سنوات، وبعد تضحيات جسيمة.

مدح زكرياء الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ونهجه الاشتراكي كنظام سياسي واجتماعي واقتصادي، حقق به نمو تونس وتقدمها وازدهارها، نظام وجد له زكرياء مكانه في القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي، وقد رمز لهذ الاشتراكية الإسلامية باللون الأبيض، وهو نقيض الشيوعية الحمراء فيقول[3]:

مِنْ بُنَاةِ المجدِ، إلاّ أنَّهُ ... أدْهَشَ البانِينَ فيما أبْدَعا

فاشْتِراكيتُهُ البيْضاءُ: " أنَّ ... لَيْس للإنْسانِ إلاّ ما سَعَى"[4]

هي صورة العظيم الذي يبني مجد أمته، فقد أدهش المختصين في إدارة نظام دواليب الحكم في وطنه ليضمن لشعبه الأمن والأمان، والاستقرار، ولم يتجسد ذلك إلا بانتهاج سياسة واضحة في مجال العمل

---

(1) مفدي زكرياء ، ديوان اللهب المقدس، ص309.

(2) اقتبسها من قوله تعالى: " فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا " سورة الانشراح، الآيتان: 5 و6.

(3) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص 96.

(4) تضمين للآية: 39 من سورة النجم معنى ومبنى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذ لا مجال في حكمه للمتواكلين، المتقاعسين، ولا ضياع لحق المستحقين، وبذلك حقق سياسة نظام الدولة الإسلامية في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. فالشاعر هنا لا يكتفي بالتعبير عن هذا المعنى بالرمز أو الإشارة، بل يعمد فوق ذلك إلى توضيح فكرته بتضمين الآية القرآنية فتصبح هي نفسها الشطر الثاني من البيت، وجزءا أساسيا في البنية التعبيرية. وبذلك يستغل ما في الآية الكريمة، من إقناع يجري مجرى المثل، ومن تصوير يجسد المعنى المراد، كل ذلك في عبارات ذات رنة موسيقية لذيذة [1].

ومن تضميناته ما ورد في دعوته الموجهة لإصلاح ذات البين، وجمع شمل الجزائريين، ليحل بهم رضى الله، فيرفع عنهم غضبه، ويجنبهم المآسي، فإذا استقاموا وأخلصوا عملهم لله، وأصلحوا ذات بينهم فإنه يرضى عنهم. فما عليه إلا الاستجابة لندائه، لذلك يخاطبهم بلغة الناصح الأمين فيقول:[2]

أصلِحُوا ذَات بيْنِكُمْ[3]، واستَقيمُوا   إنْ فَعلتُمْ: سَيجْعَلُ اللهُ أمْرًا.

ويبرز تضمين الآيات في قصائد عديدة، من ذلك قوله في وصف زلزال الأصنام [*] سنة 1954 رادا سببه إلى غضب الله على أهلها لفجورهم وارتكابهم المعاصي والآثام [4]:

هُو الإثْـمُ، زلْــزَل زلْزالَــها   فـزُلْزِلَتِ الأرضُ، زِلْزالَــها

وحــمّلَها الــنّاسُ أثْقالَهُــمْ   فَأخرجتِ الأرْضُ، أثْقالَهَــا

ألا إنّ إبْليـــس أوْحى لَكُــمْ   ألا إنّ رَبّــك، أوْحـــى لها!

إنك تلاحظ هذا التضمين لآيات سورة الزلزلة، حتى أنه يكاد ينقل البني التعبيرية بمضامينها مع بعض التصرف البسيط الذي يناسب الموقف الذي يرمي إليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص127.
(2) مفدي زكرياء ديوان اللهب المقدس، ص283.
(3) تضمين بعض قوله تعالى: " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بيْنِكُمْ " سورة الأنفال، الآية: 01.
(*) الأصنام: مدينة تقع غرب الجزائر العاصمة، تسمى حاليا (الشلف) تعرضت إلى زلزال عنيف عام 1954، ثم ضربها مرة أخرى في 1980م، ترك خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات.
(4) مفدي زكرياء ديوان اللهب المقدس، ص 273-274.

من خلال هذا التوظيف الرائع للجملة القرآنية نقف على حقيقة، وهي أنّ كلمات القرآن صافحت سمع شاعرنا، وأن نورها قد لامس روحه وطبعها بمعانيها السامية، فامتلأ قلبه إيمانا، واستقام تعبيره، وحل بيان القرآن السحري عقدة لسانه، لأنه لا يحيط به إنس ولا جان، فارتقى أسلوبه إلى هذا المستوى الذي نلحظه، ونضجت أفكاره، واتسعت آفاق تصوره، وجاءت ألفاظه وعباراته سهلة الفهم قوية الأداء والتأثير بتركيبها ومدلولاتها العظيمة.

غير أن الملاحظة التي نسجلها على هذا التوظيف المكثف للقرآن الكريم ألفاظا وعبارات ومداليل في أشعار مفدي، قد تعيق فهم المتلقي الذي لا يحفظ آيات القرآن، الأمر الذي يضطره إلى العودة إلى الهوامش، أو المصادر التي توضح معاني الآيات، وأحيانا أسباب النزول، أو الأحداث التاريخية، وما قد يتشابه من الأحداث والأسباب أو يختلف، كما في قوله على لسان أحمد زبانا، وهو يقف أمام المقصلة في ذلك المشهد الرهيب الخاشع، حين يستسلم للقضاء والقدر، ويواجه الموت المحتوم، في أسلوب هامس، وعبارات حزينة تشع بمعاني التضحية والرضى، مادام الموت في سبيل المبدأ الأسمى الذي وهب له حياته، وهو تحرير شعبه من ذل العبودية والقهر الصليبي الحديث: [1].

واقْضِ يا مَوْتُ فيَّ مَا أنْتَ قَاضِ	أنَا رَاضٍ، إنْ عاشَ شَعْبِي سعيدًا
" أنَا إنْ مِتُّ، فالجَزَائِرُ تَحْيَا،	حُرَّةً، مُسْتَقِلَّةً، لَنْ تَبِيدَا

إن الشطر الأول من البيت الأول مقتبس من الآية القرآنية التي جاءت مصورة لموقف السحرة من فرعون، الذي سخرهم لِيَتَحَدَّوْا معجزة النبي موسى عليه السلام، فانهزموا أمامه، وتيقنوا أنه نبيٌّ مرسل حقًّا، فآمنوا به، متحدّين طغيان ملئهم في إصرار، بقولهم: " قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والذي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ومَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيْرٌ وأَبْقَى " [2].

[1] مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص 10.
[2] سورة طه، الآيتان: 72-73.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن المتأمل في هذا التوظيف يقف على حقيقة، هي أن الشّاعر أراد أن يربط بين موقفين لأمتين متباعدتين في الزمان والمكان، الأولى هي تحدي السحرة لفرعون المتجبر وإيمانهم بما هو حق، رغم تهديده لهم بالصلب في جذوع النخل، وبين إصرار زبانا وهو رمز الجزائريين المسلمين المصريين على مواجهة قوى الشر والعدوان الفرنسي، في تحدٍّ وشموخ، وإشعال نار الحقد في قلوبهم. والعلاقة بين الموقفين هي استحالة قتل الإيمان في قلوب المؤمنين بالقضايا التي يحيون بها ومن أجلها.

إن مفدي مولع بمثل هذه التضمينات التي يجد فيها المتلقي روحَ الشاعر وما يختلج في وجدانه من شدة غليان وتأجج نفس، غيورة على دينها، ساعية إلى جمع شمل أبناء مجتمعها، مهددة متوعدة كل من يقف في طريق وحدتها وجهادها المقدس، فقد خلقنا إخوة، تربطنا روابط الدم والعقيدة والوطن والمصير المشترك، وكنا يوما سادة الدّنيا كلها، وكان محمد رسول البشرية منا، فَـهلاّكًا لِمَنْ أرادَ تَفْرِقَتِنَا فيقول:[1]

خُلِقْنَا بحكم الهوى إخْوةً ... فَتَبَّتْ يدَا كلِّ منْ فرّقَا

خلقنا لهذا الورى سادةً ... ونجمُ الهدى عِنْدَنَا أشْرَقَا

لا عصبية، ولا عنصرية في هذا التوظيف، لأنه مستوحي من القرآن الكريم، " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، تَأْمُرُون بالمَعْرُوفِ وتَنْهوْن عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُون باللهِ "[2]، وأن الرسول الأعظم (ص) عربي وهو رسول الله إلى الناس أجمعين، أبيضهم وأسودهم. فالتضمين ظاهر في البيت الأول، وهو مستوحي من قوله تعالى: " تَبَّتْ يَدَا أبِي لَهَب وتَبَّ مَا أغْنَى عَنْهُ مَالَهُ ومَا كَسَبَ "[3]. فالآية نزلت في حق أبي لهب الذي وقف في وجه الدعوة الإسلامية وآذى الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما مفدي فقد أظهر قدرته الإبداعية من خلال توليد المعاني عن طريق الصياغة الشعرية، فقد ضمن البيت بعض الآية، في صياغة انسجمت انسجاما تاما مع ما كان يهدف إلى تصويره، وهو وحدة

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة تونس الفتاة، ع/ 25/12/1936.
(2) سورة ال عمران، الاية: 110.
(3) سورة المسد، الايتان: 01-02.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الأمة التي تعرضت إلى محاولات التمزيق، والتشتيت، والإبادة، مبرزا موقفه من الوحدة كعامل قوة في مواجهة التحديات المفروضة على الأمة، مهددا ومتوعدا كل من يكيد لها، مستعملا الصيغة التي وردت في شأن أبي لهب، لتشابه الموقفين، وذلك في تدفق شعوري صارم، وإيقاع مناسب للدلالة على هذا التدفق من المشاعر والأحاسيس النابعة من وجدانه.

إن مفدي كثيرا ما يستمد ألفاظه وعباراته من التراث العربي الإسلامي وخاصة القرآن، ويبعث فيها حياة جديدة، ويوظفها توظيفا فنيا يجعل منها طاقة إيحائية تعبر عن مضامين الحياة المعاصرة، يربط بينها وبين ماضي التراث خيط التواصل الذي يقرب الصورتين، أو يباعد بينهما، بالتقابل والتشابه أو بالتضاد.

إن سيطرة الروح الإسلامية على حياة مفدي زكرياء جعلته يرتبط بالعبارة القرآنية كما سبق القول، فمن توظيفه للألفاظ إلى توظيف المعاني التي يستمد منها روح المادة الشعرية، فمثلا نجده عندما صور جرائم الصليبيين في ثورة الجزائر الكبرى، كرمي الناس في نهر السين بفرنسا، ودفنهم أحياء في المناجم وغيرها من الجرائم، فجّرت الحقد في نفوس الناس، فانتقموا من العدو، لأن هذه الجرائم ترفضها ديانتهم المسيحية ولا تقبل بها أبدا، وفي ذلك يقول[1]:

سَلِ السِّينَ كَمْ قَذَفُوا مِن ضَحَايَا؟ وكَمْ صَنَعُوا المُذْهِلَ المستَحِيلاَ(*)

أكد حكم الشريعة الإسلامية في الدفاع عن النفس، والأخذ بالثأر، والاقتصاص من المعتدين، لأن في القصاص حياة لأولى الألباب كما حدثنا القرآن الكريم:[2]

وَسَلْ في المَنَاجِمِ كَمْ مِنْ قَتِيلِ أهَالُوا عَلَيْهِ التُّرَابَ الثَّقِيلاَ
هُوَ الحِقْدُ طَيَّرَ صَبْرَ الرِّصَاص، فأَلْهَبَ مِنْهُ القَصَاصُ الفَتِيلاَ
وأغْضَبَ عِيسَى ورَاعَ الصَّلِيب فَنَاشَدْنَاهُ أنْ نَرُدَّ الدَّخِيلاَ

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص79.
(*) إشارة إلى جرائم المستعمر الفرنسي ضد الجزائريين، في مظاهرات باريس في 1961/12/11.
[2] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص79.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي يتأمل الأبيات، يستوحي المعنى القرآني الوارد في موضوع الثأر، إذ جعلته الشريعة حقا في المجتمع، ليأخذ المظلوم حقه من ظالمه، إذا لم يعف عنه، لقوله تعالى: " ولَكُمْ في القصاصِ حياةٌ يَا أُولِي الألْبابِ لَعَلَّكُمْ تتَّقُون " [1]. فقد وظف الشاعر الآية بما يناسب موضوعه الجهادي، واختار الألفاظ التي تلائم المعنى، وتبرز ما في الأبيات من حرارة العاطفة، وتأجج النفس، لأن الشاعر عاش المأساة وعاناها وجدانيا، فاندمج فيها جسدا وروحا، وعبر عنها بكلماته النارية التي مازالت تلهب مشاعر الجزائريين إلى اليوم، خاصة وأن شعبنا المسلم اعتبر الحرب صليبية جديدة في الجزائر، هدفها قبر الإسلام، وإبادة أهله في عصر الحريات وحقوق الإنسان.

ويستمر مفدي زكرياء في توظيف المعاني القرآنية على طريقته في الوعظ والإرشاد، مستغلا كل وسائل التأثير لتحريك مشاعر الأغنياء وحثهم على التضامن،ى ليجودوا ببعض مالهم في سبيل الله وفي المشاريع الخيرية، ويحذرهم في الوقت نفسه من البخل والشح، مبرزا نتائج البخل السلبية في المجتمع فيقول: [2]

مَـنْ يكنُزِ الـمالَ [3]لَمْ يُسْعدْ بِهِ وطَنًا ... ويَلُمِّهِ فَـهْو في الأمْـواتِ، مَـعْدُودُ

جُودُوا بِهِ، قَـبْلَ أنْ تُكْوَى الجِباهُ[4]بِهِ ... المَالُ يَفْنَى، ويَبْقَى الفَضْلُ والـجُودُ

لا يجد حافظ القرآن الكريم صعوبة في الوقوف على المعاني القرآنية في البيتين.

هكذا يستمد مفدي زكرياء أسلوبه وأفكاره من كتاب الله المعجز، فتأتي أشعاره صورة لعاطفته الإسلامية، المتدفقة بمعاني الورع والتقوى، يزينها الأسلوب المتميز بالعذوبة والإشراقة. والتصوير الرائع، وقد استطاع بموهبته الشعرية أن يستفيد في نقل مشاعره من هذه اللغة المتميزة بموسيقاها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] سورة البقرة، الآية: 179.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص271.

[3] و[4] مستوحاة من معنى الآية: " والذين يكنِزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ، يوْمَ يُحْمى عليْها في نارِ جهنَّمَ فتُكْوى بها جباهُهُم وجنوبُهُم وظهورُهم هذا ما كنزْتُمْ لأنفُسِكُمْ فذوقُوا ما كنْتُم تكنِزُون " سورة التوبة الآيتان: 34، 35.

ودلالاتها الفنية، والتصويرية[1] كما يقول د. محمد ناصر.

ولم يقف زكرياء عند توظيف القرآن الكريم فقط، بل ضمن قصائده بعضا من الهدى النبوي الشريف بصورة أقل، فقد دعا العرب والمسلمين إلى الوحدة ليقوى صفهم، ويصعب على عدوهم ابتلاعهم، مبرزا أثر الفرقة والتشتت في ضعف الأمة، فلم يجد أفضل من دعوة الرسول في حديثه المعروف والجاري مجرى المثل، وذلك بلغة الواعظ الناصح، وفي تصوير رائع أبرز من خلاله الفرق الدقيق بين الصورتين: صورة الوحدة مصدر القوة، والفرقة مصدر الضعف فيقول:[2]

عَقِيدَتُنَا فِي الوَرَى (وِحْدَةٌ) وأَسْمَى العَقَائِدِ وَحْدَانِيَه

(مُحَمَّدٌ) أَبْقَى لَنَا، عِبْرَةً مِن (الذِّئْبِ، والغَنَمِ القَاصِيَه)[3]

يتعامل مفدي زكرياء مع اللغة عند توظيفه للموروث الإسلامي بطريقة فنية، ومهارة فائقة تجعل منه يبدع صورا جديدة، انطلاقا من رؤية ذاتية تثير وتدهش المتلقي، لأنه لا يتعامل مع اللغة الشعرية بوصفها أداة تعبير أو تبليغ فقط بل وأداة خلق أيضا.

إن المعاني التي يختارها مفدي، والألفاظ التي يستعملها متأثرا إلى حد كبير بالألفاظ الإسلامية التي يتداولها الشعراء المسلمون في أشعارهم، بل ويسموا سموا ظاهرا ويكاد يكون فريدا بين أقرانه في توظيف لغة القرآن الكريم، فهو " يأتي في طليعة الشعراء الذين يجدون في لغة القرآن وألفاظه وتعابيره سلاحا حادا في " ثورة الشعر ". ومن يطالع دواوينه تصادفه طائفة غير محدودة من ألفاظ القرآن الكريم، استطاع الشاعر أن يوظفها توظيفا قويا ، جعلها تنسجم والغرض الذي يريده.

من خلال وقوفنا على ما سبق من شعر زكرياء الإسلامي، يتبين لنا أن ألفاظه تابعة لعاطفته، متأثرة بالموضوع الشعري الذي يتناوله، فهي تارة عذبة رقيقة، سهلة الفهم، قريبة من القلب، تنساب معانيها

---

[1] مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص11.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص349.

[3] أخذها من قول الرسول (ص): "... فعليكُمْ بالجَماعَة، فإنّمَا يَأكُل الذِّئبُ مِنَ الغَنَم القَاصِيَة " من كتاب: الحافظ المنذري، " الترغيب والترهيب" من الحديث الشريف، ج01، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، (د-ت)، ص 221.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

انسيابا، تشع بدلالاتها جوا روحيا خاشعا، يناسب الموقف الشعوري كقوله[1]:

فتح السجمان إلى الإله طريقه   فتعمق الإيمان والتوحيدا

وقوله كذلك[2]:

والدين إن الدين أعظم عدة   فبدونه تغدو الشعوب هباء

تتسم ألفاظ الأبيات بالسلاسة، والرقة والعذوبة، أوردها في سبك قوي، وإيقاع هادئ، وأسلوب تقريري مباشر. ولعل أبرز ما يؤكد لنا رقة هذه الألفاظ، ومبلغ تأثيرها في النفس تضرعه إلى الله تائبا إليه طالبا العفو والغفران منه في قوله:[3]

أتوب إليك (بإلياذتي)   عساها تكفر كل ذنوبي

كما نجد له ألفاظا أخرى تتسم بالفخامة والجزالة والقوة، مع متانة السبك، وقوة الإيقاع، تبعا للموقف المعبر عنه، ويستخدم هذه الألفاظ في القصائد التي تتجلى فيها المواقف البطولية، كقصائد الفخر والجهاد وغيرها، لتعبئة الشعور الإسلامي، قصد التجنيد العام للمواطنين، للدفاع عن أوطانهم وعقيدتهم، وحياتهم، وكرامتهم، كقوله على لسان فلسطين، وهي تعاتب أبناء العروبة المتخاذلين في حقها، ثائرة ضد موقفهم السلبي منها: [4]

فلو كان لي، أمر تدبيرها   لما احترت في أمرها، ثانيه

وكنت الجزائر في زحفها   وحققت- بالشعب -آماليه

وخلدت (حطين) في مقدسي   وجددت غزوة (انطاكيه)

وجندت من (خالد بن الوليد)   (وسعد بن وقاص) أبطاليه

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص123.

[2] مفدي زكرياء، جريدة الأمة، الجزائرية، ع43 ، بتاريخ 1935/09/24.

[3] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص240.

[4] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 342-343.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنك وأنت تتأمل هذه الألفاظ تلاحظ مدى قوتها في رسم تلك الصور الملتهبة المتفجرة، التي تهز النفس هزّا عنيفا، فتحرك فيها كل معاني التحدي والصمود، وتجعل من الأبيات انتفاضة عارمة محتدمة.

إنها ألفاظ موحية مشحونة بطاقات وجدانية كبيرة، مؤثرة بما تحمله من دلالات عميقة عمق المأساة التي يعانيها أبناء الأمة.

من هنا نخلص إلى القول: إن مفدي زكرياء أراد من خلال هذا التوظيف أن يثبت لنا سمو لغة القرآن الكريم على كل لغة، سواء في بناها التعبيرية المعجزة، أو في مضامينها السامية، ورنتها الموسيقية المشحونة بشعاليل نورانية سماوية، أو بصورها البديعية التي تترك آثارا مسحورة تخلب الألباب وتسكن القلوب، وتحرك النفوس، لذلك علقت معاني القرآن وصوره بفكره وروحه، وقومت أساليبه لسانه، حتى أنه ليصعب في كثير من المواضع على غير العارفين بالقران الكريم كما سبق القول التمييز بين لغة الشاعر، والعبارة القرآنية، وعليه لا تستغرب أمام هذا الحب الجارف للقرآن، أن يتأثر به زكرياء إلى أبعد حدود التأثر، ويترك بصماته في شاعريته، إذ صار يوظفه بصورة عفوية توظيفا كبيرا بلغ حدّ التضمين والاقتباس، والذي طبع معجمه الشعري بطابع مميز.

ب- استفادته من التراث الأدبي:

إن جو البعثة في تونس، ومنهج الدراسة المتبعة هناك والأوضاع السياسية والاجتماعية للعالم العربي والإسلامي آنذاك، كانت دافعا قويا مكنت الشاعر من الإطلاع على التراث العربي الإسلامي من خلال ما يلقي، ويعرض وينشر في مختلف وسائل الاتصال، فأتاح له ذلك كله فرصة الوقوف على خباياه، والتزود بكنوزه، وكان من الشعراء الجزائريين الذين " أقروا تأثرهم وإعجابهم بروائع الشعر العربي، والشعراء العرب القدامى والمحدثين، ولا دهشة إذا ما تأملنا واقع الثقافة الجزائرية واللغة العربية والدين الإسلامي آنذاك، والعزلة المضروبة على بلادنا في محاولة من المستعمر لإفراغ شعبنا

ووطننا من كل مقوماته الحضارية " [1]. ومن الشعراء الذين تأثر بهم في العصر العباسي، المتنبي، الذي قلده، وضمن قصائده بعض أشعاره مثل قوله:[2]

إنـي بلوتـك في ضيق، وفي سعـة   وذقـت كأسك، لا حقد ولا حنق
أنـام ملء عيوني، غبطـة ورضى   علـى صياصيك، لا هم ولا قلق

فهو متأثر بقول المتنبي المعروف باعتداده وفخره الذاتي، وتمكنه لناصية اللغة: [3]

أنـام ملء جفوني، عـن شـواردها   ويسهـر القـوم جـراها ويختصم

والحقيقة التي لا تخفى على أحد هنا، أن تصوير المتنبي أكثر براعة ودقة وإصابة وجمالا من تصوير مفدي زكرياء.

كما نلمس روح المتنبي وأنفاسه وحماسه المنقد اعتزازا وفخرا بعروبته وإسلامه، وانتمائه الحضاري في كثير من قصائد زكرياء. وهذا دليل على ما لهذه الشخصية العربية الإسلامية النعظيمة من بليغ الأثر في شاعريته، فهو لم يكتف باستلهام المعاني والصور والموسيقى منه، وإنما راح يجاري المتنبي في نظم قصائده بحرا وقافية كذلك مستخدما البنى التعبيرية نفسها التي استعملها المتنبي واقتباس بعض الأشطر وتضمينها قصائده كما في قصيدته " تباركت شهرا بالبشائر طافحا " في مدح الحبيب بورقيبة وتهنئته بمناسبة عيد الفطر المبارك [4]:

وناديـت بالشعب الـوفي إلى الفـدا   فعـربد زهـوا موجه المتلاطم
وكيـف يجافي الـنصر نسرا مجنحا   (خوافيه) شعب، والحبيب (القوادم)
وينشـر فـوق الشعب خيرا ونـعمة   (كما نثرت فوق العروس الدراهم)

---

[1] الطاهر يحياوي ومحمد توامي، شعراء وملامح، ص59.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 21.

[3] أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص332.

[4] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهي تقليد ومجاراة لقصيدة " على قدر أهل العزم " للمتنبي والتي يقول فيها [1]

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج السنايا حولها متلاطم

ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم

نثرتهم فوق الأحيدب كله ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

يبدو تفوق مفدي زكرياء في تصوير أفضال الزعيم التونسي على شعبه في البيت الثالث، إذ جعل طرفي التشبيه متناسبين، المشبه في الشطر الأول، والمشبه به في الشطر الثاني، والمتمثلين في نثر الخير والنعمة وما يصحبه من أثر حسن في النفوس، تناسبه صورة نثر الدراهم على العروس فكلاهما مصدر فرح وسرور، بخلاف ما يمثله طرفا التشبيه في صورة المتنبي، حيث يمثل الجزء الأول مشهدا دراميا دمويا مفزعا في حين يمثل الثاني الأفراح والمسرات.

أما في البيتين الأولين فيبدو تفوق المتنبي وتبدو قدرته الفائقة في رسم المشاهد المعبر عنها، فالألفاظ والعبارات أكثر دلالة ودقة وقوة عند المتنبي، موج المنايا حولها متلاطم، ضممت جناحيهم على القلب ضمة، تموت الخوافي تحتها والقوادم.

ما نلاحظه من خلال هذه الأبيات وغيرها، أن مفدي زكرياء تملكته روح العظمة والاعتزاز والقوة التي تميز بها المتنبي، وصارت سمة بارزة في شعره.

وللبحتري أيضا أثره البين في حياة مفدي وشاعريته، فقد أولع بشعره كما أولع بشعر المتنبي وقلده في نظم قصائده واستعمال بعض تعابيره وألفاظه ورويه كما في سينيته " ابن زيدون بين العظمة والحب، " والتي جاءت على صورة وصف إيوان كسرى للبحتري، وزنا، وقافية، ورويا، أو كقوله في عينيته " اقرأ كتابك " يصور توحد الشعب الجزائري وصموده في وجه الزمان متحديا العقبات[2]:

---

[1] أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص385 وما بعدها.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص59

فلكم تصارع والزمان، فلم يجد   فيه الزمان –وقد توحد– مطمعا

وهو متأثر في ذلك بقول البحتري من قصيدة " ملكت عنان الهجر " التي يعاتب فيها الحارثي[1]:

أغار على ما بيننا أن يناله   لسان عدو لم يجد فيه مطمعا

فالتأثر واضح إلى حد توظيف العبارات الجاهزة مثل: لم يجد فيه مطمعا.

هذا وقد استفاد مفدي من صفاء لغة البحتري، وجمال عباراته، ودقة تصويره.

ويظهر التراث مجسدا في تأثره بالسابقين كذلك من خلال مواقفه الرافضة للمسالمة مع العدو والسعي إلى امتلاك القوة الرادعة بدل الأساليب السياسية التي لا جدوى من ورائها فيقول:[2]

السيف، أصدق لهجة من أحرف   كتبت، فكان بيانها: الإبهام

والنار، أصدق حجة، فاكتب بها   ما شئت تصعق عندها الأحلام

إن الصحائف، للصفائح أمرها   والحبر حرب، والكلام كلام

والحق، والرشاش إن نطقا معا   عنت الوجوه، وخرت الأصنام !

والزرع أخرج في الجزائر شطأه   فمضى، وهب إلى الحصاد كرام

يبدو في الأبيات تأثر الشاعر بالتراث واضحا في جانبين، الأول بأبي تمام في قصيدته فتح عمورية التي مطلعها: [3]

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

فالتأثر ظاهر في الشكل والمضمون، إذ كان سيف أبي تمام حاسما مع عدوه، ومكذبا للمشعوذين، وكان سيف زكرياء، صارما مع الأساليب السياسية المتبعة مع الشعوب المضطهدة.

---

[1] أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري، ديوان البحتري، المجلد الثاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 321.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 42-43.

[3] أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الديوان الكامل، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1، 1968، ص 14.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما الثاني فيبدو جليا في تأثره بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه، فعنت الوجوه مأخوذة من قوله تعالى:"وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ "[1]. والزرع أخرج في الجزائر شطأة، مأخوذة من الآية : " كزرعٍ أخرج شطأه فآزره" [2].

وما يسجل على الشاعر في هذا المقطع هو إسرافه في التكلف الذي أثقل العبارة، وأفقدها روحها الشعري، بالإضافة إلى دورانه في فلك القصيدة التقليدية، حيث نقلنا إلى عصر بعيد عن عصرنا زمانا ومكانا وتقدما علميا عن طريق توظيف ألفاظ وعبارات لم تعد لها قيمة في ميدان القتال كاستعماله السيف وسيلة للقتال بدل الأسلحة المعاصرة الفتاكة، لكنه كان حريصا على بعث الأساليب العربية والنسج على منوال الأجداد إيمانا منه بأن ذلك يعد جزءا من حركة البعث الشاملة للتراث العربي الإسلامي.

وللشعر الأندلسي أيضا مكانته عند مفدي، فهاهو يطل علينا بنونيته الرائعة " أفي السموات عرش أنت تنشده " يرثي فيها الملك المغربي محمد الخامس ويجاري نونية ابن زيدون " أضحى التنائي " [3].

ما كُنْتُ أحسبُ أنّي في دياركُم يومًا، سأشهدُ – بعد العيد- تأبينا

ولا علمتُ بأن الدهر عندكم من بعد ما سرّنا حينا، سيُبكينا

فهو متأثر بقول ابن زيدون:[4]

إنّ الزمانَ الذي مازال يضحكُنا أُنسا بقُربِهِمُ، قد عاد يُبكينا

والمتصفح لسعر الشاعر يلمس كثيرا من مظاهر التأثر عند زكرياء.

---

[1] سورة طه، الآية 111.

[2] سورة الفتح، الآية: 29.

[3] مفدي زكرياء، ديوان، من وحي الأطلس، ص 21.

[4] أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي، ديوان ابن زيدون، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979 ص10.

كما تأثر بأبي فراس الحمداني وغيره من شعرائنا القدماء، الذين رأى فيهم الأصالة، والتحلي بروح الشجاعة والقوة والبطولة، فكانوا مثله الأعلى، وتركوا بصماتهم في شاعريته.

هكذا اتجه زكرياء نحو كتب التراث يلتهمها، ويستجمع خير ما في نفائسها، يمزجها مع الأحداث ويصبها في قوالب فنية هادفة.

ثم عرج على الأدب العربي الحديث شعره ونثره، وتشرب الإنتاج الإحيائي العربي ممثلا في زعمائه على رأسهم محمود سامي البارودي، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم في مصر، ومعروف الرصافي في العراق، وغيرهم من الذين أخذوا على عاتقهم بعث التراث العربي القديم بطرق تناسب العصر، مع الحفاظ على المقومات الدينية واللغوية للأدب العربي، وخاصة الشعر.

والعائد إلى شعر مفدي زكرياء يجد الكثير من مظاهر التأثر والتضمين لشعر رواد المدرسة الإحيائية العربية في العصر الحديث. ويذهب الهادي السنوسي إلى القول: " من منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ أن انتهت الحرب الكبرى على آثار مدرسة إسماعيل صبري، حافظ إبراهيم وأحمد شوقي، وطه حسين، وأحمد أمين، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ومحمد عبده، ومن التف حوله من أمثال رشيد رضا[1] ".

هذا إلى جانب تأثره بمعاصريه، أمثال صديقه رمضان محمود، وأبي القاسم الشابي، الذين أرادوا تأسيس مدرسة شعرية عربية في شمال إفريقيا، لولا أن يد القدر لا تمهل، إذ مات رمضان محمود سنة 1927 وتبعه الشابي سنة 1932، ولم يبق إلا مفدي زكرياء بمفرده.

ومن مظاهر تأثره بالشابي قوله:[2]

وقالت لي الكائنات: لماذا أتيتم ؟؟ فقلنا: لنبني الهرم ! !!

فالتأثر ظاهر في العبارة قالت لي الكائنات لفظا ومعنى يقول الشابي: [3]

---

[1] شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص150.

[2] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص110.

[3] أبو القاسم الشابي، ديوان أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر، تونس، (د ت)، ص236.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كذلك تسالت لي السكائنات وحدثتي روحها المستتر

ويقول في قصيدته " فلسطين على الصليب " [1]

وأهويت بالفأس: أذرو الجذوع وأسحق بالنعل ثعبانيه

وهو كذلك متأثر بقول الشابي:[2]

أيها الشعب! ليتني كنت حطابا فأهوي على الجذوع بفأسي

هكذا يظل التراث معلما من معالم شعر مفدي الكبرى، لأنه كان يراه المنطلق والأساس لكل بناء ولذلك اهتم بأعلامه الأدباء، والمؤرخين، والسياسيين، **وبمواقفهم التاريخية، وجعلها منطلقا له في تناول** القضايا الوطنية والقومية، لذلك وجدناه يحمل حملات شعواء على أولئك الذين لهم مواقفهم العدائية المعروفة من التراث وأنصاره.

وما يمكن أن نشير إليه في هذا الموضوع، هو أن المتتبع لشعر مفدي زكرياء على كثرته يقف على كثير من مظاهر التأثر بالشعراء العرب المحافظين، القدماء منهم والمحدثين، سواء في قوالبهم الشعرية، أو في لغتهم، وأساليبهم، وصورهم، اقتباسا وتضمينا، خاصة أولئك الذين تحملوا عبء رسالة الدفاع عن العقيدة وحرية الوطن، فيجد في شعره تهويلات المتنبي وأبي فراس الحمداني، وصور البحتري وتعابير أبي تمام، ورقة ابن زيدون، وأسلوب الشابي، وعاطفة رمضان محمود، ولغة شوقي ووطنيته ودفاعه عن العروبة والإسلام، وربط المفاهيم الإسلامية بقضايا الإصلاح واليقظة والنضال والتحرر لبث معاني القوة والثورة والطموح في النفوس[3] الجامدة، لتفعيلها في مختلف جوانب الحياة، لأن علاقته بالتراث الشعري العربي علاقة عقائدية، إذ صار شبح التراث جاثما فوق ملكته الخالقة عن طريق اللغة والفكر والشعور كما يرى غالي شكري[4].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص342.

(2) مفدي زكرياء، المرجع نفسه، ص342

(3) نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1983، ص97.

(4) شعرنا الحديث إلى أين؟ دار الآفاق، بيروت، ط02، 1978، ص[illegible].

6 –أثر الثورة الجزائرية في شاعريته :

كانت ثورة نوفمبر 1954 مؤثرا فاعلا في شاعرية مفدي زكرياء ومصدر إلهامه، بل إن صرخه شهيد الحرية والحق وتكبيره للصلاة مستقبلا المقصلة تضحية في سبيل عقيدته ووطنه، توقد شعر الخلود في نفس الشاعر فيصرخ عاليا: [1].

سَمِعَ الذَّبِيحُ (بِبَرْبَرُوس) فَأَيْقَظَتْ   صَرَخَاتُهُ، شِعْرَ الخُلُودِ فَلَعْلَعَا

ورَآهُ كَبَّرَ للصَّلاَةِ، مُهَلِّلا   فِي مَذْبَحِ الشُّهَدَا فَقَامَ مُسَمِّعًا

فالشهيد مصدر تفجر قريحة الشاعر وتحويله إلى جهاز تسجيل وتبليغ رسالة الشهيد ليسمع من ضعف سمعه من جهة، ويذكي روح الفداء والتضحية في سبيل عزّة الإسلام والوطن من جهة أخرى.

7 –أثر الهجرة في تفجير طاقته الشعرية:

أسهمت الهجرة في تفتح عبقرية زكرياء، لأنها جعلته أشد حبا لوطنه وشعبه، فاقترب منهما أكثر روحيا، والتصق بهما وجدانيا رغم البعد الجسدي، وبذلك أذكت الهجرة شعوره، ووسعت خياله ولولاها لقل شعره، وجمد فكره، وصار بليدا كبعض الناس، بل الأكثر من ذلك، أن يصبح في يوم من الأيام يردد مذاهب ليست من أصالته، ولا من قيم مجتمعه العربي الإسلامي، دون فهم لمبادئها، كترديد الببغاء للأصوات دون وعي منها لما تقوله، فاستمع إليه يرد على لائميه، ويبين لهم سبب تفضيله الإقامة خارج وطنه بقوله [2]:

وقالوا: هجرت ربوع البلاد   وهمت مع الشعرِ في كل وادي[3]

أجل... قَدْ بَعُدتُ لأزْدَادَ قُرْبًا   ويلهبُ حبُّ بلادي فُؤادي!

ولو لا التنقُّلُ يُذكَى شُعُوري   ويرهِفُ حسّي ويبلُو [4] رشادي

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 65

(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص117.

(3) تأثر بقوله تعالى: (والشُّعراءُ يتبعُهُمُ الغاوُون، ألمْ تر أنَّهُم في كلّ وادٍ يَهيمُونَ وأنَّهُمْ يقُولونَ ما لا يفعلُونَ)، سورة الشعراء، الآيات من 242–226.

(4) استمدها من قوله تعالى: (ولنبلُونَّكُمْ حتى نعلمَ المجاهدين منكُمْ والصَّابرينَ ونبلو أخبَاركُمْ)، سورة محمد الآية: 31

لغــاضَن [1] معينــي، وأجبــل فــكْري   وعِشْــتُ بليــدًا كبَعْــض العبَاد!

وصــــرْتُ أردّدُ كــالببغــــا   ءِ، مَـذَاهِبَ لم تـكُ صُنْعَ بـلادي!

إلى جانب المؤثرات المذكورة، فإن العصامية أدت دورها في شاعريته، فهو التلميذ والأستاذ، لأنه كان مثال المجتهدين، اختار الطريق الصعب عن طواعية، ولم يشعر بالملل يتسرب إلى نفسه، بل كانت له غاية، هي تحرير الجزائر وبناء صرح مجدها من جديد. لذلك اعتمد على نفسه في مواجهة الحياة رافضا أسلوب الاتكال على الغير، والبحث عن الحلول السهلة، وهذا منذ شبابه إلى تاريخ وفاته، لذا نراه يقول عن شاعريته: " وأما الشعر فأنا فيه أستاذ نفسي، غير أنني أعرض بضاعتي على أساتذتي ... ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الخضراء العبقري الشاذلي خزندار. ولي اطلاع شخصي على العروض والموازين. ولقد شغفت حبا بالآداب طفلا وبتاريخ الأبطال من عظماء الأوطان[2].

8 - أثر الاتجاهات الأدبية في شعره:

الدارس لشعر زكرياء يقف على ملامح بعض الاتجاهات الأدبية الحديثة التي كان لها أثرها البيّن في شاعريته، أهمها ما يلي:

أ- الكلاسيكية:

عرّف أحمد بدوي الكلاسيكية العربية أو الإتباعية كما يسميها البعض، بأنها " صوغ الأفكار والأحاسيس في أساليب عربية تقليدية " [3] وهي محاكاة الأقدمين، وقد أملتها الظروف السياسية المتولدة عن الاستعمار، الذي حارب الشخصية العربية الإسلامية من خلال محاربة لغة العقيدة، وقد نظم الشعراء الجزائريون المحافظون منذ ظهور مدرسة الإحيائيين، على النمط القديم، والتزموا عمود

---

(1) استمدها من قوله تعالى: (وقيل يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماءُ اقلعي وغيض الماءُ وقضي الأمْرُ)، سورة هود الآية: 43.

(2) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص151.

(3) نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، مطابع ألف باء، دمشق، 1980، ص 38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشعر للتعبير عن معاناتهم، ورفضوا كل جديد، ورأوه مخالفا لأصالتهم، ومن بين هؤلاء الشعراء مفدي زكرياء، الذي حافظ على هيكل القصيدة العربية المعروفة في الشعر الإحيائي، مع التزام القالب الشعري، والبناء الهرمي أحيانا، وتغييره أحيانا أخرى.

وبإطلالة سريعة على شعره، الذي يكاد يصنف معظمه تحت هذا الاتجاه، يتضح لنا ذلك جليا بما فيه الشعر الوطني.

ففي قصيدة " قف للعروبة حييها بسكرة " يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة يبرز فيها انشراحه، معرجا على ذكر الأمجاد الماضية، والتطلع إلى استعادتها بقوله[1]:

كذا يطيب الجنى ولتشد ألسحان   وليصنع آثارنا في الترب قحطان

وليسمع الدهر آباء لنا درجوا   أنا سنبلغ في العليا كما كانوا

ليصل بعدها إلى الغرض المقصود، وهو تحية بسكرة والإشادة بمفاخر أبنائها المسلمين الصادقين المخلصين، الذين ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية، وناصروا الإسلام ومن تربطهم بهم أخوة الدين إذ لولاهم لما قامت الحضارة في الأندلس، وتلمسان وغيرهما[2]:

قِفْ للعُرُوبَةِ حَيِّيهَا بِبِسْكَرَةَ   وارقُصْ لَهَا طَرَبًا، والقَلْبُ وَلْهَانُ

لَوْلاَ " بِسْكَرَة " ما ازْدَانَتْ بقُرْطُبَة   حَضَارَةٌ ، لاَ، ولاَ كانَتْ تِلِمْسَانُ

لله فِتْيَةُ صِدْقٍ، سَادَةٌ نُجُبٌ   حُرُّ الضَّمَائِرِ، فَعَّالُونَ، فُرْسَانُ

تَآزَرُوا بإخَاءٍ في نُهُوضِهِمْ   شِعَارُهُمْ: " كُلُّنَا في الله إخْوَانُ "

لينهي القصيدة بالحث على فعل الخير، وتنوير العقول بالمعارف، وإنفاق المال على أهله.

تأثر زكرياء بمدرسة الإحياء وسار على دربها في نظم قصائده، لأنه آمن بأن لهذه المدرسة دورا " لا ينكر في إحياء الكلمة العربية الفصيحة، وإعادة الأسلوب العربي الفصيح إلى ما كان عليه في العصور

---

[1] و [2] مفدي زكرياء، جريدة النور، ع12، (01-12-1931).

التي خلت، إلا أن هذه الميزة التي تسجل لمدرسة الإحياء قد لا تخلو من عيب في الوقت نفسه، إذا وضعنا في الاعتبار ذلك التقيد بشكل القصيدة التراثية، وعدم الخروج عنها، الذي لزمه بعض الشعراء المحافظين، إن الانسياق وراء الكلمة المعجمية، وتطبيقها على عصرنا قد تؤدي إلى تأخر الشعر وليس إلى تقدمه، وذلك لاعتبارات عدة، ولاختلاف النظرة إلى الحياة، وما طرأ من تطور فكري واجتماعي في العصر الحديث...

ومهما يكن من أمر فإن مدرسة البعث والإحياء د ركزت على بعث القصيدة القديمة... من جديد... في إطار القديم الذي ينبع من التراث أصلا[1] .

لذلك فالقصيدة الكلاسيكية عند مفدي حديثة في مضامينها، معبرة عن تجربة حية صهرتها المعاناة، ألفاظها وعباراتها تحمل معانيها ودلالاتها الشائعة لدى العامة تسهيلا للفهم، لأن الشاعر لا يخاطب فئة دون غيرها، بل هو صاحب رسالة، غايته إفهام الجماهير الواسعة، والتأثير فيها لتشاركه تجربته وتتفاعل معها.

وقد يثور الشاعر على المقدمة الطللية ليستعيظ عنها بجمال الطبيعة، كما فعل في تصوير مدينة فاس المغربية من قصيدة " أنا في الحب ما بكم مثل ما بي " في عيد الشباب[2]:

أَنَا مَا لي، وللهوَى والتَّصابي   والليالي المُرنّحات الطرابِ

أوَ ما ضِقْنَ بالفَراشاتِ كَاسَا   تِي، فَأهرَقْتَ مَا بِهَا مِنْ شَرابِ

وبِلاَدٌ جُذورها مِنْ جُذورِي   وتُرابٌ ذرَاتُهُ مِنْ تُرابِي

كُلَّمَا جِئْتُ فَاسَ أسْتَلْهِمُ الوحْ   يَ مِن النَّهْرِ، أَلْهمَتْنِي الرَّوَابي

ثم ينتقل إلى الغرض المراد، وهكذا إلى نهاية القصيدة على عادة الشعراء الإتباعيين.

فَهنيئًا جلالَةَ الحسنِ الثَّا   نِي، بشعْب الوفا، وعِيدِ الشَّبابِ

---

(1) بوجمعة بوبعيو، موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبولو، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا ط01، 1995، ص44-45.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص65 وما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وصلاة على النبيّ الذي قد جلّ منهُ انتسابكم وانتسابي

والقصيدة عنده تضم غرضا أو أكثر حسب ضغط المناسبة، لأن الشعر عنده إلهام وعفوية لا صناعة، وقد عبر بنفسه عن التزامه بالشعر العربي الكلاسيكي في مقدمة ديوان " اللهب المقدس " حيث يقول: " لم أعن في اللهب المقدس بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية... وقد لا يجد عشاق ما يسمونه بالشعر الجديد ما يشبع غرائزهم... ولكن سيجد فيه رواد " التجديد الرصين" ما يدعم عقيدتهم، في أن عمود الشعر العربي – غير المغموز النسب- يبقى شامخا أمام أي تجديد، في التعبير والتفكير في حدود الشخصية الذاتية " للغة صمدت في وجه الزمن" [1].

ويعتبر مفدي من الشعراء الجزائريين الذين استلهموا مواضيعهم من الحوادث الكبرى للوطن والأمة فخلد أمجادها وأبطالها الذين صنعوا البطولات عبر تاريخها الطويل، وهي سمات الكلاسيكية العربية.

والدارس لشعر زكرياء يكاد لا يجد نفسه خارج الشعر العربي القديم، سواء من حيث بناء القصيدة، أو قوة عباراتها وجزالة ألفاظها وموسيقاها، وتضميناته واقتباساته من التراث، دينا، ولغة، وأدبا، وفكرا.

وهو من الذين أعادوا للغة العربية قوتها الوظيفية بعد أن حاول الاستعمار الفرنسي القضاء عليها وأحل لغته محلها.. لهذا " يعتبره جمهور المثقفين باللغة العربية من عباقرة الشعر نفسه الطويل وإمكانياته الفنية الكبيرة. رفض الشعر الحر وأعلن انتماءه للشعر الكلاسيكي... وذلك لما يتمتع به من قدرة لغوية متينة وتصميم قوي في عقيدته... يكتب شعره بإيمان عميق، وبالتزام صادق نزيه، وبدون هذا الإيمان يصبح الشاعر مجرد ببغاء يردد الشعارات السياسية، وهذا ما يرفضه الشاعر مفدي زكرياء " [2].

ما يمكن قوله في هذا الجانب، أن كلاسيكية مفدي زكرياء ليست محاكاة كلية للأقدمين، إنما التزم عمود الشعر وأوزان الخليل منهجا، وأبدع في المضامين الشعرية، والنسيج اللغوي، وبهذا الصدد يقول أحد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص04.
(2) بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص75.

الباحثين: " مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية ومدون أحداثها، في شعره إبداع في الصوغ، امتاز به على اكثر أقرانه..." [1].

من هنا نجد أن الكلاسيكية عنده ليست مرحلة محددة في شعره ظهرت ثم تخلص منها، لكنها ظاهرة طبعت كثيرا من شعره المتأخر أيضا، رغم التطور الحاصل في شاعريته، لأنه التزم خط الأصالة في فكره ولغته، ودافع عنها. وواجه كل أنواع محاولات التدمير الداخلي والخارجي، التي تعرض لها مجتمعه خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية.

ب – الرومانسية:

ظهرت هذه النزعة بصورة واضحة في شعر مفدي زكرياء المبكر خلال فترة شبابه، إذ فتح عينيه على عالم مأزوم، عانى من ويلات الحرب الكونية الأولى، ووجد مجتمعه الجزائري يتخبط في مأساته في ظل التسلط الاستعماري، والكبت العام للحريات، والجمود الفكري، فانطوى الشعراء على أنفسهم يعيشون المأساة، وفضلوا دنيا الأحلام، فهم فيها بين الأمل واليأس، فارين من واقعهم الأليم، إلى واقع الخيال. ولم يختلف مفدي عن غيره من الرومانسيين في رفض الواقع، فامتلأت نفسه بمختلف مشاعر الرفض للاحتلال الأجنبي الصليبي للجزائر المسلمة، لأن الفرنسيين مسخوا الحياة، وكمموا الأفواه وازدادت في عهدهم وتحت تسلطهم حدة الفقر والبؤس[2]، لذلك كانت رومانسيته مثل رومانسية غيره من الشعراء الوطنيين، إنها تألم شاعر لمأساة شعب، وبكاء فرد من شقاء مجموع، ومن ثم فهي لا تتصف بالهروب، ولا بالأنانية، وإنما هي رومانسية وطنية كهذه الرومانسية التي عرف بها زميله رمضان محمود في الجزائر، وصديقه الشابي في تونس، يمكن وصفها بأنها اتجاه فني نابع عن واقع معاش. هذا الاتجاه الذي يرى بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا صادقا عن إحساس الإنسان وعواطفه

---

(1) – المرجع السابق، ص88.
(2) بوجمعة بوبعيو، موازنة بين شعراء المهجر وجماعة أبولو، ص136.

ولا يرى عيبا في أن يعبر الشاعر عن آلامه الذاتية إن كان صدق الإحساس وعمق الانفعال هو الذي يدفعه إلى ذلك " (1).

ونقف عند المقطوعة الشعرية الآتية التي أوردها في أسلوب رومانسي مؤثر، عبر فيها عن أحاسيسه إزاء أيام السعادة والهناء الماضية، وصور من خلالها مأساة الحاضر الأليم: (2)

رَتَعْنَا زَمَاناً في أرائكِ عِزَّةٍ   نَعُبُّ نَعِيمَ الدَّهْرِ مِنْ كَأْسِهِ عَبَّا

ونَمْرَحُ فِي ظِلِّ السَّعَادَةِ وَارِفًا   نَشَاوِي كَأَنَّ الدَّهْرَ وَاعَدَنَا حُبَّا

ويَا تَعْسَ مأْسَاةٍ تُمَثِّلُ بَيْنَنَا   مَنَاظِرَ يَذْوِي دُونَها أحدٌ كَرْبا

ألا لَيْتَ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ نَحْوَ أعْصُرٍ   بِهَا الحَقُّ حَقٌّ لا نِفَاقًا ولا كِذْبا

فالأبيات نبع من خاطره الصافي، فيها لوعة وحنين جارف إلى أيام العز، وألم وحسرة وتمزق أحشاء من تقلب الأيام، وانتكاس الأحلام، وضياع المجد، ومع ذلك يبقى يشدّه إلى هذا المجد خيط الأمل، الذي لا يتحقق إلا بالجد والتضحية، وتكسير الجمود واقتحام المصاعب، وامتلاك العلوم.

ويسبح الشاعر في عالم الرومانسية الحالم، حين يناجي عزيزته رفيقة وحشته في السجن، التي بث إليها شكواه وألمه، لأنها مؤنسه الذي ينصت إليه، ولا يؤذيه، فيناجيها بأسلوب شاعري رقيق ينفطر له القلب، كما ناجى أبو فراس حمامته من قبل(3):

رَفِيقَتِي فِي شَقَائِي   حَلِيفَتِي فِي سِقَامِي

قَسِيمَتِي فِي نَعِيمِي   شَرِيكَتِي فِي طَعَامِي

نَامِي عَزِيزَةُ (*) نَامِي

رَوَّحْتِ فِي السِّجْنِ بَالِي   وكُنْتِ نُورَ ظَلامِي

(1) محمد ناصر: مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص35.
(2) مفدي زكرياء، مجلة الشهاب، الجزائر، ع57 (20-09-1926م)
(3) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص186.
(*) عزيزة هي القطة التي كان يتسلى بها داخل السجن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فأنت فوق السبرايا تتوجيين اختـرامي

نامي عزيزة تأسي

لقد عاف واقعه، واشتد تطلعه إلى ما يريح نفسه، فكانت قطته أحسن أنيس له داخل الزنزانة، ولقد بلغت مداها التأثيري عندما لامست قلبه وهيجت جرح فؤاده بتذكيره بمن يحب.

والحب يفعل في وجدان الشاعر فعلته، ويسمو بروحه إلى عالم المثل، فيوقف شعره عليه عندما يتعلق بالحبيب الغالي الذي أوقف عليه حياته وجهاده، فيهمس في نغمة حزينة باكية [1]:

الحُبُّ أرقَنِي واليأسُ أضْنَانِي والبَيْنُ ضاعَفَ آلامِي وأحزاني

والرّوحُ في حُبِّ لَيْلاَيَ استَحَالَ إلَى دمْعٍ، فَأمْطَرَهُ شِعْرِي ووجْداني

فأنت ترى لوعة الحب المشتعلة في وجدان الشاعر، يرسمها أحاسيس ومشاعر، كما يرسمها الرسام بريشته، فيضفي عليها أصباغه لتعطي المنظر المستوحى منها، فهو حزين أضناه الحب واستحالت خمرته المسكرة إلى دمع فيركن إلى الطبيعة يبثها لوعته، فتصغي إلى أنينه بكل شوق، على عادة الرومانسيين حتى يشتاق السامع إلى معرفة حبيبته التي هام بها، فيفصح عنها "إنها الجزائر": [2].

رِفْقًا بِلاَدِي! فأنْتِ الكَوْنُ أجْمَعُهُ لَوْلاَكِ، كُنْتُ بِلاَدِي هَالِكًا فَانِي

"لكِ الفُؤادُ وما فِي الجِسْمِ مِنْ رَمَقٍ ومِنْ دِماءٍ، ومِنْ رُوحٍ، وجُثْمَانِ(*)".

فحبه إذن ليس حسيا، بل هو مزيج من معانٍ صوفية فلسفية، فحب الوطن بالنسبة إليه كحب الله، فلا حياة له ما لم يتحرر وطنه الإسلامي، لذلك تراه لا يستسلم لمشاعره كالرومانسيين، بل يجعل نفسه الغالية فداء له. وإذا تناول الطبيعة ومظاهرها، لا يؤلهها بالعبادة والتقديس، لأنها لم تصبح عنده

---

(1) محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص152.

(2) المرجع نفسه، ص152.

(*) البيت للشهيد البطل المصري مصطفى كامل طلب من زكرياء تضمينه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

" مصدرا للإلهام ومرتعا للجمال، كما هي عند الشعراء الرومانسيين، وإنما تصبير طبيعة تأثره ثورات الإنسان الجزائري يومئذ !(1) " فيقول: (2)

اعْصِفِي يَا رِيَاح وَاقْصِفِي يَا رُعُودْ

واثْخَنِي يَا جِرَاحْ واحْدِقِي يَا قُيُود

نَحْنُ قَوْمٌ أُبَاةْ

لَيْسَ فينا جبانْ

قَدْ سئمْنَا الحياةْ

في الشَقَا والهوان

لاَ نَمَلُّ الكِفَاحْ لا نَمَلّ الجِهادْ

في سبيلِ البِلادْ

يربط الشاعر ثورته النفسية بثورة الطبيعة لهدم هذا الواقع، وبناء واقع آخر على أنقاضه، فليحدث ما يحدث، تجري الدماء وديانا، يكبل الأبطال، يسجن الأحرار... إلخ: (3).

يَا دَمُ شَرْشِرْ .. واثْخَنِي يا جِرَاحْ يا غِلُ صَرْصِرْ .. واحْدِقِي يَا قُيُودْ

يَا سِجْنُ إزْخَرْ ..بِجُنُودِ الكِفَاحْ فَأَنْتَ يَا سِجْنُ طَرِيقُ الخُلُودْ..!!

هكذا تتعاطف مشاعر مفدي زكرياء مع مظاهر الطبيعة وتتناغم معها، وتلتحم بها لتصبح قوة مفجرة للطاقات الوطنية المؤمنة، رافضة للواقع المفروض عليها من الطغاة، لتكسير الأغلال، وتحرير الشعب من العبودية والاستعمار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) حواس بري، شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة عين شمس، القاهرة، 1987، ص13.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص84.
(3) مفدي زكرياء، المصدر نفسه، ص88.

ج- الواقعية:

الواقعية كمذهب فلسفي جاءت في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، كرد فعل على الرومانسية التي تمجد الخيال والأحلام، وترفض الواقع، نتيجة ظهور الروح العلمية، وارتبطت بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الغربي، لأنها تطالب الحقيقة والواقع الملموسين[1]، ثم امتدت إلى الأدب، واختصت بالقصة والرواية، وبلغ تأثيرها الشعر، وقد تأثر أدباؤنا وشعراؤنا بهذا الاتجاه، مع اختلافهم في النظرة إليه، إذ نهجوا لأنفسهم منهجا خاصا يختلف عن منهج الغربيين استوحوه من واقعهم السياسي والاجتماعي لمعالجة القضايا التي تتخبط فيها أمتهم، فنقلوا الواقع بكل صدق وصوروا مآسيهم ودعوا إلى واقع أفضل. وقد برزت الواقعية في شعر مفدي زكرياء الإصلاحي منذ الثلاثينات واستمرت معه فيما بعد، ذلك أن الفترة اتسمت بظهور نوع من الوعي السياسي في المجتمع الجزائري، فوعى الناس واقعهم المرير، وفي طليعتهم رجال الإصلاح والسياسة آنذاك، الذين عاشوا المعاناة الحقيقية في ظل الاستعمار، وذاقوا العذاب الجسدي والنفسي.

هذه المعاناة حولت إحساسهم الفردي بالمأساة إلى إحساس بمأساة أمتهم. وأدركوا عن وعي أن خلاصهم لا يكون إلا بخلاص الجماعة. وقد التزم مفدي زكرياء هذا الموقف في مسيرته النضالية فالإنسان عنده ليس فردا مستقلا بذاته، وإنما هو جزء من مجتمع، يشكل ماضيا وحاضرا ومستقبلا لذلك اهتم به وجعل الدفاع عنه ضد الظلم والطغيان قضيته الكبرى في مراحل حياته الإصلاحية والثورية، ففي قصيدة بعنوان: " فهذا فؤادي وهذي يدي " التي جادت بها قريحته عام 1932م، صور لنا بواقعية حال مجتمعه الذي سيطر عليه الجمود الفكري والجهل، وانتشار مختلف الأمراض الاجتماعية، والانحرافات الخطيرة التي تضر عقيدته ووطنه فيقول: [2]

وَلَيْلُ الجهالاَتِ أوْدى بِنَا   إلى المَوْتِ، قَسْرًا ولمْ نَلْحَدِ

---

[1] صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، ص06 و13 وما بعدها.

[2] مفدي زكرياء، جريدة النور، ع 26 جويلية 1932.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فما إنْ ترى غيرَ داعِ الضَّلالِ فمنْ ذي نفاقٍ ومنْ مُلْحِدِ

ومنْ عاكفينَ على الموبقاتِ ومنْ ضارعينَ إلى الجلْمَدِ

ومنْ علماءَ أضاعُوا الصلاةَ فحاقَ بهمْ مكرُ الأبدي

ومنْ أغنياءَ استحلُّوا الزكاةَ، فغُلُّوا عنِ الخيْرِ في صفَدِ

وآلافُ نشءٍ لمسحِ الحذاءِ على كُلِّ مزبلةٍ شُرّدِ

فمتى تقوم لهذا المجتمع قائمة، والمصائب تفرقه، والجهل يلف أبناءه الذين يتسابقون إلى المنكرات، يطبع النفاق علاقاتهم، وحتى العلماء رسل الأمة تركوا الصلاة عماد الدين، وامتنع الأغنياء عن دفع الزكاة إلى أصحابها مما زاد في تشرد الأبناء.

وبعد هذا التصوير المحسوس لمعاناة الشعب، يعبر عن موقفه الرافض لهذا الوضع، ويدعو الشباب إلى النهوض بالأمة، والثورة على التخلف وكسر أغلال الجمود، والسعي لامتلاك وسائل الحضارة بالعودة إلى التمسك بالقيم الإسلامية وتحصيل المعارف والعلوم النافعة: [1]

شبابَ الجزائرِ، هلْ نهضةٌ تُنيرُ دُجى يومِنا الأسْودِ ؟

إلى م الرِّضا بمعيشةِ ضنْكٍ إلى م الحياةُ على نكَدِ ؟

شبابَ الجزائرِ، هُبُّوا سِرا عًا إلى المُكْرماتِ، إلى المَحْمَدِ !

فَعُبُّوا نميرَ المعارفِ عبّا منَ المنهلِ الصّافي المَوْرِدِ !

وفي لفتة سريعة يوضح الشاعر أن هذا الواقع من صنع الاستعمار، ولا يمكن تغييره إلا برحيله عنه لأن عمليات الإصلاح لا تثمر ما دام العدو قائما، ومادامت جذوة الجهاد قد اتقدت في النفوس المؤمنة التي كرهت المظالم المسلطة على الشعب من قبل المحتل، فها هو يصرخ في وجه الاستعمار، مفتخرا بجدودنا الأبطال، رافضا العبودية، مهددا بالثورة لأخذ الحق المسلوب فيقول: [2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة النور، ع 26 جويلية 1932.

(2) مفدي زكرياء، جريدة الامة، الجزائر، ع 137 بتاريخ (19-09-1936)

نحـنُ قـوْمٌ ، جُـدُودُنَا ملكوا الدُّنيا   فـهيْهات أن نـعيشَ عبيـدا

يا فـرنْسا لا تـجهلينـا فـإنَّا   قـد نـهضْنَا فـلا نُـطيقُ الـرّكـودا

قـدْ كـرهْنَا حـياة ظـلم وجُـور   وسئـمْنـا الـخراب والـتّبْديدا

إن غيرة مفدي على وطنه وحماسه الفياض دفعه إلى التعبير عن قضايا شعبه، بكل صدق وواقعية محمسا الجماهير، داعيا إلى الجهاد لتحرير بلادهم من الطغاة، الذين حرموهم من حقهم في الحياة، وفي التعلم، وسدوا في وجوههم منافذ الثقافة والفكر ليسهل التحكم فيهم، لذلك اختاروا ساحة الوغى مهدا لكتابة عزهم ومجد أمتهم (1) :

فـاذْكُـرُوا الـثّورة فـي أقسامكُـمْ   إنّ ساحـات الـوغى (كالمعهـد)

واقـرأُوا فيها كـتاب الـشهدآ   فهـو وحْـيُ الله، فـي معتقـدي

صور لنا الشاعر مفدي زكرياء مشاعره تجاه واقعه بكل أمانة وصدق، لأن الإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المجنح، وحسب هذا الشعر أن ينبع من التصور الإسلامي للحياة كما يقول محمد سيد محمد (2) .

ويحدد مفدي غاية الجهاد في كونه وثبة على الذل والهوان واقتلاع شجرة الظلم في الجزائر من أصلها، وقد كان جهادا إسلاميا يضلله نصر الله: (3)

وثَبْنَـا، ورُوحُ الـشّعْبِ تُذكِـي عُرُقَنَا   وسِـرْنَا، ورُوحُ الله تَـغْمُرُنَا رِفْـقَا

وثُـرْنَا، على دُنْيا الـهوان، تَـدُكُّها   ورُحْـنَا نَـهُدُّ الـظُّلم نَصْعَقُهُ صعْقَا

فالمتأمل في شعر مفدي يجد هذه الواقعية المناضلة " لأنها تضع ساقيها على أديم حقيقي وتقف موقفا تقدميا واضحا من القضايا المطروحة. وبدل الأبطال الوهميين... تصور أبطالا حقيقيين يقاومون... فالشعب هو البطل الذي لا تقهر له إرادة مهما عرض له من الضعف، كما أن العدو واضح المعالم

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 197.

(2) المسؤولية الإعلامية في الإسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط02، 1986، ص106.

(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس ، ص199.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبينه وبين الشعب خط فاصل لا يتفسخ، واضح ببعده المحلي (الوطني) والعالمي وهزيمته آتية لا ريب فيها " [1] ، وفي ذلك يقول: [2] :

دَولَـــةُ الـظُّلْمِ للـــزوال، إذَا مــا   أصْبَحَ الـحرُّ للـطَّغَامِ مـسـودا

أوقف مفدي زكرياء جل شعره على بلده، فكان انعكاسا لتطلعات أبنائـــه وآمالـــهم، وتاريخـا صادقـا لمراحل انبعاثه وثورته وبنائه، فكان دائما متصلا بالحياة الواقعية، مستلهما مادته من الـتراث العربـي الإسلامي الأصيل، تراث شعبنا، وقد اتسم بالوضوح في الأفكار، والسهولة في الأسلوب، لأنـــه شـعر هادف يحمل قضية، ويناضل من أجلها. وبهذا كان مفدي زكرياء " من الذين أخرجوا الشعر الجزائـري من التقليد، وألبسوه ثوب الواقعية، فقد اتخذ من الواقع النضالي أرضية لفنه وشعره . أما فيمـا يتعلـق بالأسلوب فإنه التزم عمود الشعر العربي، وأجاد السبك ، وشعره يكاد أن يملك وحدة الموضوع، وقـد ساعده في ذلك ملكته اللغوية والانطباع " [3] .

هكذا كان لهذه المؤثرات فعلها القوي في شاعرية زكرياء التي تدفقت وأثمرت عطاء شـعريا غزيـرا أثرى الساحة الشعرية العربية الحديثة. وقد ظهر أثر الإسلام في شعره، حيث لا تخلو جل قصائده مـن هذا الأثر مشكلا بذلك اتجاها متميزا نلمس فيه الروح الإسلامية واضحة تسري في مضامينه الشـعرية وأسلوب القرآن وبلاغته وصورة تطبع معجمه الشعري وأخيلته في شتى الأغراض التي تناولها، بمـا في ذلك الأغراض التقليدية منها:

أ- الغرض السياسي:

أوقف مفدى جزءا كبيرا من شعره على خدمة القضايا الجوهرية لوطنه وأمته كما سبق القـول، فقـد تغنى بوطنيته شابا ويافعا وشيخا، وناضل بشعره في مرحلة الإصلاح والاسـتنهاض فـي الثلاثينـات والأربعينات. ودعا إلى التغيير الجذري لأوضاع المجتمع، فكانت أساليبه وعباراتـه تتضـح بمعـاني

---

[1] الطاهر الهامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر ، 1985، ص139-140.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص16.
[3] أحمد دوغان، مجلة الفيصل، المملكة العربية السعودية، ديسمبر 1986 ع 114/ص113.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الثورة والغليان، في وقت كان البعض يطالب بالحلول السلمية، والتفاوض مع الاستعمار. كان مفدي بمثابة مراسل صحفي، فهو يسجل الأحداث الوطنية والقومية، ويعلق عليها، ويمجد بطولة المجاهدين ويشيد بالأبطال المغاور أحفاد عقبة، وحسان، وطارق، الذين وقفوا ضد قوى الظلم، ووهبوا أنفسهم فداء لتحررهم من نير العبودية والاستغلال الاستيطاني الصليبي. وحين نعود إلى إنتاجه المبكر نجد هذه النزعة في أعماقه، كما في قصيدته " إلى الريفيين " التي اتضحت لنا فيها مواقفه، كما اتضحت لنا فيها أيضا تلك الروح الإسلامية والقومية المتدفقة من كل بيت من أبياتها، لأنها امتداد للمنظور الإسلامى الشامل لكل الحركات الوطنية والإصلاحية خلال مرحلة النهضة التي واجهت هذا الاحتلال الصليبي، الذي جند كل إمكانياته لمحو آثار الإسلام من نفوس أبناء الجزائر[1]. فها هو يذكر أبناء وطنه وأمته من خلال مخاطبة الريفيين وتذكيرهم بأجدادهم الأبطال، ناشري الإسلام، وفاتحي البلدان لبعث النخوة العربية فيهم، وإلهاب مشاعرهم لبذل المزيد من التضحيات، لاستعادة حريتهم المسلوبة[2]:

هنيئًا بني الرّيفِ قد فتحت ... لكم، جنة الخلدِ من يبتدر ؟

(بني الريف) ليست سوى جولة ... على الغيم ثم بطيب المقر

أجيبوا أجيبوا نداء الضمير ! ... ودعوة عظم رميم نخر

فكم تحت ذاك الثرى من رفات ... تطالبكم حقها المحتكر

وكم تحت ذي الأرض من ... مسلم لنصرتكم، وله منتظر

و " عقبة " فاتح إفريقيا ... و " حسان " من بعده قد زأر...

و " طارق " أذاك و " ابن نصير " ... بأندلس سعيهم مشتهر

أليسوا سوى بشر مثلنا ... وقد فتحوا العالم المكتهر

أليسوا بذلك ألقوا دروسا ... لأجيالنا من عظيم [illegible]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) محمد ناصر، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع32، 1984، ص. 26.

(2) مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب التونسية، تونس بتاريخ 06/05/1925.

يلهب مفدي زكرياء بهذه الأبيات مشاعر الوطنيين المؤمنين برسالة الجهاد، فماذا ينقصهم للدفاع عن حرمة أوطانهم، واستعادة مكانتهم التي ضاعت منهم ؟ أليست تضحية قادة الفتح الإسلامي، أمثال: خالد بن الوليد، وعمر، وعقبة، وحسان، وموسى، وطارق بن زياد، دروسا لهم يستلهمون منها العبر ؟

ثم يربط ذلك بواقع الجزائر المأساوي، المتمثل في سياسة الفرنسة والإدماج التي يسعى المستعمر لتنفيذها بكل الوسائل، فيدعو إلى الوقوف في طريقها، ويجعل نفسه فداء الجزائر، فها هو يصيح عام 1936 :[1]

فـداءُ الـجزائرِ رُوحـي ومـالـي   ألا فـي سبيـل الـحريّه

فليحيا (حـزب الاستقلال)   و نجـم شـمال إفـريقية

فـلسْنا نـرضي الامتـزَاجا   ولـسْنا نـرضَى الـتّجنيسا !

ولـسنا نـرضى الإنْـدِماجا   ولا نَـرتَدُّ: فَـرنْسِيسَا

رضيـنا بالإسـلام تـاجًا   كـفى جـهال تـدنيسًا !

إنه يصور لنا مأساة شعبه بكل صدق، لأنه عاناها، واقعيا ووجدانيا، واكتوى بنارها، فطفح شعره فيها لهبا، ودعوته إلى الجهاد نابعة من صميم عقيدته الإسلامية، فكيف لا وشعبه عربي مسلم، لن يقبل بغير العروبة انتماء، والإسلام دينا.

وتلهبك قصائده وأناشيده الوطنية الثورية التي تفجرت في سجون الاستعمار **(سجن البرواقية)** وتلقتها الأسماع، ورددتها الحناجر في الجبال والسهول، والوهاد، مصورا بشاعريته المتدفقة مرحلة من مأساة شعبنا، وإصرار أبنائه على التضحية لأخذ حقوقهم، وكان لأول نوفمبر وقفة مع التاريخ، إذ وضع حدا لكل ما من شأنه أن يوقف زحف الشعب نحو انعتاقه، فقد اختار الإيمان مصدرا، والجهاد وسيلة، وهزأ بما دونهما، وفرضت الثورة نفسها على الساحة الدولية، وأسمعت الجميع ما قاله الإمام المسلم المصلح محمد عبده: " إن ثورة المستعمرات لا ترجع إلى أن فرنسا مسيحية، فلو أسلمت الأمة

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 104-105.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرنسية بأسرها. ثم كانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد في الجزائر ومدغشقر، لما أحبها أهل المستعمرات ولا مالوا إليها " [1]، لهذا كان الشاعر صارما في مواقفه مع الاستعمار، متبعا أسلوب القوة في عملية التغيير للواقع الجزائري العربي الإسلامي.

وأعظم إنتاج مفدي زكرياء، تضمه صفحات دواوينه، وخاصة اللهب المقدس، ونكاد نجزم بوجود هذه الروح الوطنية في كل قصائده مهما كان غرضها ومناسبة نظمها.. وأن قصائده دائما تطفح بالمعاني الإسلامية، من ذلك أنه شبه ليلة أول نوفمبر بليلة القدر،لما أحدثته كل منهما في التغيير الجذري لحياة المسلمين في مواجهة روح الكفر والطغيان، وقد أعان الله شعب الجزائر في جهاده كما أعان أهل بدر بالملائكة الاختيار، مستجيبا لدعوته بالنصر على عدوه.

واكب مفدي النضال الوطني منذ الثلاثينات، وتعلق بالجزائر، وازداد تعلقه بها بعد الاستقلال، في وقت لم يطب له المقام بها لظروف معينة، فاختار التنقل بين تونس والمغرب، ومع ذلك فقد خلّد أمجادها وإنجازاتها.

هكذا تحولت وطنية شاعرنا من الثورة على المستعمر إلى ثورة البناء والتشييد، ومن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، هذه الروح المتأججة بالوطنية ترى في الوطن مصدر الإيمان، فكل مظهر من مظاهر الجزائر رمز لوحدانية الخالق، ودليل قدرته، وإشراقة ايمان في قلب زكرياء، ولعل أجمل ما نختم به الحديث عن هذا الغرض، هو إلياذة الجزائر الخالدة " أم الأناشيد الوطنية " التي تغنى فيها بمجد الجزائر عبر الأزمنة، راسما طريق المستقبل؛ لكونها تسجيل لحياة أمة، وجهاد شعب، وأصالة ثورة، وإشراقة أمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج01، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط03، 1982، ص 352.

2– المـــــــدح :

اعتدنا التوقف في شعر المدائح عند التملق والاستجداء، والمدح الكاذب الذي لا يصـــدر عـن صـــدق عاطفة، ينظمه صاحبه تقربا وزلفى، قصد تحقيق مآرب لدى الممدوح الذي يوصف بأجمل الصفـــات، وإضفاء طابع القدسية عليه أحيانا، من كرم، وسماحة خلـق، وكـثرة عطـاء، وحكمـة وسـداد رأي وشجاعة وقوة بطش، إلخ. أما الممدوح عند شاعرنا فهو بطل، أو قائد قدم من الأعمال البطولية الجليلـة ما حقه المدح، كدفاعه عن أمته العربية المسلمة ضد المعتدين الذين استولوا عليها، ودمروا حضارتـها.

إن استنطاق النصوص الشعرية يجعلنا نقف على حقيقة المديح ودوافعه عند مفدي زكرياء، الذي ينفـي عن نفسه المدح بقوله[1] :

أَنَـا إِنْ كُـنْتُ فـي الـقَرِيضِ أَمِيرًا   أَبَـدًا فِي الـمَدِيحِ مَا قُلْتُ شِـعْرًا

والمقصود بالمديح الوارد في البيت هو المديح الكاذب، أما المديح الصادق النابع عن تجربته الشـعرية الحية المخلدة للقيم الروحية والوطنية والقومية فهي اعتراف بفضل من بذلوا بسخاء أرواحهم في سـبيل الحرية[2].

لذلك وضع الناس منازلهم، ومدحهم بما فيهم، ويعشق الشاعر الوحدة ويرى كل منـاضل فـي سـبيلها عظيما، إذ لا نهضة لأمتنا بدون وحدة، فيتجه في خلوة صوفية إلى رسول الله، طالبا منه نصرة أمير المؤمنين ليحقق للمغرب العربي وحدته، ويجعل مدح الملك من مدح الرسول، لأنـه مقيـد بسلوكه عامل في سبيل نصرة الدين، رغم معاول الهدم الداخلية والخارجية، فيقول:[3]

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص280.
[2] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس من ص 35 إلى 38.
[3] مفدي زكرياء، المصدر نفسه، ص235.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذا قـــام في الإسلام يبني أخو الحجى رأيـــت دُعـــاة الهدم في إثــره ألْفـــا

وحقّــق رســول الله، وحــدة مــغرب وخلّصَهُ ممن عــاث في أرضه عَسْفَا

ووفق أميـــر الـــمؤمنين وآلـــه وشــعبًا كــريمًا حــول قائــده التفا

مــدحناه لما أن مــدحنـــاك، إنـــنا رأينــاه عــنْ منهاجكم لم يَحِدْ طرفا

ومــن يقتـده فالـمصطفى في سلوكه مــدحناه عــدلا، لا ريــاءً ولا زُلْفَى

ويــرد الشاعــر بأسلــوب هــادئ علــى مــن صنفــوه ضمـــن شعـــراء المــدح المتملقيــن، ناكـــرا عليهـم جـحـــودهـم لصنــاع البطــــولات وبنـــاة مجـــد الأمــــة، الذيـــــن مدحهـــم الله، ورماهـــــم بالطيـــــش، وخبـــث النـــوايـــا فيـقــول:[1]

قالــوا مدحْتَ رجال الحُكمِ، قلتُ لهـمْ: مــن كان للـشعب خــلاقا مدحناهُ !

أو كـــان للـــوحدة الــكبرى بــمغربنا يبنـــي على الــبرّ والتّقوى عَشِقْنَاهُ !

إنـــه مقتنـــع بمـــدائحــه، واقتناعـــه نابـــع مـــن إيمانـــه العميـــق برسالتـــه وقـــد عبـــر بنفســـه فـــي مقدمتـــــه ديـــوان " **تحــت ظـــلال الزيتـــون** " عـــن مضامين قصائده قائلا: " قد يعتبره بعض ذوي العقــد سفرًا لا يعدو أن يكــون ديـــوان

[1] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص 110.

أمداح، وباقات زهور تنثر على الأقلام، وجوابي لهؤلاء وأولئك: إنه كل ما تظنون - في كبرياء واعتزاز- مادمت في (حصانة) من إيماني وإيمان (كلماتي)... ومادام هذا يجعلني أسمو بمديحي إلى حيز (الوصف الصادق)، وأمرُّ مرّ الكرام على دنيا (الروتين الباهت) إلى دنيا (الشعراء الناس...)[1].

إلا أن شعر المديح عنده لا يخلو من بعض المبالغات، كما في أشعاره الثورية التي عودنا بها ودفعت المتشككين إلى تأويلات لا يقبلها صدق إيمان الشاعر وتفانيه في خدمة العقيدة، التي شربها منذ ولادته[2].

غرض الغزل: لم يبتعد زكرياء بشعره الغزلي عما يتفق مع فطرة الكون لتحقيق هذه الحياة، تماشيا مع عقيدة التوحيد، وتوجيهات علماء الإسلام، الذين لم يحرموا التعبير عن هذا النوع من المشاعر إذا نبع من روح مؤمنة بخالقها، ملتزمة بحدود الشريعة الإسلامية كما يوضح محمد قطب بقوله: " وهذه العواطف ليست حراما في نظر الإسلام، عواطف الإعجاب والحب وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك، وإنما الحكم عليها هو الحكم على كل عمل آخر وكل شعور، الحكم المستمد من الناموس، هل تؤدي الدور الذي يتفق مع فطرة الكون أم تنحرف عن الطريق؟ فأما إن كانت هذه العواطف... تهدف إلى تحقيق هدف الحياة... فهي طبيعية متمشية مع الناموس، والحديث عنها ووصفها وإبرازها في صورة فنية جميلة موحية، جزء من مهمة الفن الإسلامي الأصيل. وأما إذا كانت عبثا... فهي ليست جزءا من مهمة الفن، لأنها ليست جزءا من ناموس الحياة " [3].

لم ينهج مفدي في هذا الغرض نهج الأقدمين، وإنما مزج فيه الوطنية بالنزعة الذاتية، فأنت تراه يلتهب صبابة لحبيبته التي تنعكس فيها صورة الجزائر وحبها، أو تكون هي الجزائر نفسها، والتي يحبها حب تقديس لا يضاهيه حب سوى حب الله، لأن كل منظر فيها دليل قدرة وتفرد بالخلق والربوبية فلا كفر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المصدر السابق. دس، ص.م.
(2) المصدر نفسه، ص164.
(3) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، د-ت

في ذلك فيقول[1]:

يا لائمي في هواها، إنها قبس، ... من الجزائرِ، والأمثالُ تنطبقُ

بنتَ الجزائرِ... أهوى فيكِ طلعتها ... فكل ما فيك من أوصافها خلقُ

أحبها مثل حبِّ الله، أعبدها ... آمنتُ بالله، لا كفرٌ ولا نزق

أرضُ الجزائر في إفريقيا قدسٌ ... رحابُها، من رحاب الخلد، إن صدقوا

يتضح لنا من خلال هذه الأبيات أن مفدي استعاض عن التغزل بالمرأة غزلا آخر هو الغزل الوطني ظنا منه أنه يحميه من إرهاب المستعمر [2] من جهة، ومن جهة ثانية استجاب لنداء زميله رمضان حمود الداعي إلى التغزل بالوطن بدل المرأة، وهو بهذا يجسد عمق الروح الوطنية ممتزجة بالدين خاصة عندما يؤرقه الحب، ويتبعه اليأس، وتزيده الهجرة ألما إلى ألمه فيتفجر بركان شعره[3]:

الحبُّ أرّقني، واليأسُ أضْنَاني ... والبيْنُ ضاعفَ آلامي وأحزاني

والرّوح في حبّ ليلاي استحال إلى ... دمع، فأمطره شعري ووجداني

ثم يفصح عن الحبيبة التي تعلق قلبه بها، وحولت حياته آلاما وأحزانا لبعده عنها وهو لا يطيق فراقها جسدا أو روحا لحظة من الزمن، فإذا هي "**الجزائر**" فيخاطبها خطاب المتيم الولهان، مبرزا قيمتها في نفسه قائلا [4]: رفقا بلادي: فأنت الكون أجمعه ... لولاك، كنت بلادي هالكا فاني

" لك الحياة فجودي بالوصال، فما ... أحلى وصالك في قلبي ووجداني"(*)

بالوقوف عند الأبيات نلمس هذا العشق الصادق النابع من عاطفة جياشة لا خداع فيها، فأين نعثر على مثل هذا الولهان الذي أوقف حياته على وطنه من دم، ولحم، وعظم، وروح وجثة؟ أي حب كهذا؟ وأي

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص26.

[2] أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الاداب، ط02، 1977، ص80.

[3] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص152.

[4] المرجع نفسه، ص153.

(*)طلب شهيد الوطنية المصري، مصطفى كامل، من مفدي أن يضمن قصيدته هذا البيت، فاستجاب له، لأنه كان شديد الإعجاب بحياة الشاعر الوطني العظيم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومثال يتوق إليه المحب كهذا الذي يحلو في قلب الشاعر ووجدانه بعد المشاق التي كابدها والتضحيات الجسام التي قدمها في سبيل تحقيقه؟

هكذا نقلنا مفدي نقلة جديدة من غرض الغزل المعتاد، إلى غزل جديد تجلت فيه المعاني السامية للإيمان والوطنية الحقة، فالتحمت عنده الذات بالوطنين التحام الجسد بالروح، وكان حبه لوطنه فوق كل حب بعد حب الله، لذلك نراه يقف أمام مظاهر طبيعة الجزائر وقفة الصوفي المتأمل المتعبد فتسرى به روحه لتتخطى الجمال الحسي لتلك المناظر إلى جمال الله المطلق، فيراه بقلبه الخاشع بعد أن رأى انعكاس صورته في المظاهر الحسية، فينغمر الإيمان قلبه، ويطهر روحه، لأن هذا الحب الصوفي يعطي المرء طاقة روحية هائلة، وبصيرة حادة، ومقدرة رائعة على التحكم في الشهوات وتطويع الجسم لإرادة الروح[1] .

وفي قصيدة " خفقة فؤاد" يزداد ولوعه، ويقترب من الحبيب، ويذوق طعم الهوى، فإذا هو لذيذ الطعم مر تجرعه، فيلتمس العطف والحنان، لأنه كلف بماضيه وعزته والتضحية في سبيله[2]:

بِلادِي، بلادي! ما ألَذّ الهوى !وما أمرّ كؤوس الحب ممتزجا سُمَا

ومذ فتحتْ عيني المدامعُ أبصرتْ هواكِ فلا عاراً عليها ولا لَوْمَا

وعانقت أغصان الفضائلِ والنّهى وحبّ الضحايا في سبيل العلا قُدما

فحب الجزائر صار دينا لأمثال مفدي الوطنيين الأصلاء، فهم حماتها المدافعون عنها في السراء والضراء، وحين البأس.

---

[1] محي الدين عميمور، جريدة النصر، قسنطينة، الجزائر، ع5947 (1993/1/3).
[2] مفدي زكرياء، جريدة المغرب، الجزائر، ع 13 بتاريخ 20-08-1930م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتطل علينا صوفية الشاعر في هذا الغرض من خلال الأبيات التالية، التي تؤكد صوفية حبه، ودليل إشراق نور قلبه العامر بالإيمان بخالقه، وراحة نفسه التائبة إلى ربها[1]:

مازلتُ أنعمُ بالشباب، ولم أزلْ   في الحبّ، أطمحُ أن أكون عميدا

وإذا عشقتُ، فشاعرٌ مُتصوِّفٌ   ما صاغ ربُّك قلبَه جلمودا

فتح الجمالُ إلى الإله طريقهُ   فتعمَّقَ الإيمان والتوحيدا

هذه الصوفية يؤكدها مفدي نفسه في قصيدته " معلقة الأربعين "، حين يصف حبه للعاهل المغربي بأنه تصوف لا مدح تملق، ليختم القصيدة بالتأكيد على أنه هو الطريق المستقيم لمعرفة الله [2]:

وحُبِّي فيك صُوفيٌّ سليمٌ   لوجه الله، لا أرْجُو ثوابا

ولولا الحبِّ، ما أدْركتُ ربِّي   ولا حاولتُ مِن ربي اقترابا

الزهدوالتصوف:

التصوف هو استغراق العبد في العبادة وتقوى الله، تغيب معه الروح عن عالمِ الواقع إلى العالم العلوي فينشغل المرء عن متاع الدنيا. ويعود تاريخ ظهور هذا الغرض إلى ما بعد العصر الراشدي كرد فعل لشيوع المجون واللهو في المجتمع الإسلامي، وظهر الأدب الصوفي مواكبا لهذا التيار، لأنه نبع من نفوس صافية، زهدت في الدنيا ومغرياتها، وتطلعت إلى الملكوت الأعلى لتتعلق بالذات الإلهية.

ومن الشعراء الجزائريين الذين تناولوا هذا الغرض، مفدي زكرياء، ولو أنه " لم يكن صوفيا بالمعنى الشيخي للتصوف، بل كان متصوفا في تقواه غير زاهد في الحياة، ولا متخفف من تكاليفها، وهو في تصوفه ينطلق من عقيدته التوحيدية مستلهما معانيه من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نورِه كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْبَاحٌ، المِصْبَاحُ في زُجَاجةٍ، الزُّجاجةُ كأنّها كوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبارَكَةٍ " [3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص123.
[2] المصدر نفسه، ص64.
[3] سورة النور، الآية: 35.

وقوله أيضا: " هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " [1]. وفي تصويره لمناظر الطبيعة الفتانة، يسبح بحمد الله حين يسبح في الجمال يعشقه عشق المتصوفة لينفتح قلبه فيغمره نور الإيمان، ويزداد توحيده لله عمقا.

إذا عشق فعشقه صوفي فتح له طريق الإيمان الحقيقي لا التقليدي الوراثي.

وفي قصيدة " يا قاهر الظلم" يؤكد أن الإيمان اليقيني بالله كان سببه محاسن خلقه، وبديع صنعه، لأنه لا يصدر إلا من كامل لا يعتريه النقص، فيقول[2]:

وفي الهيامِ بِصُنْعِ اللهِ، كم خَلُصَتْ مِنّا العقيدةُ في حُبِّ الكَمالاتِ
(من كان يزعُمُ أنّ الحُبَّ معْصِيَةٌ) فالحبُّ أقْدَسُ أنْواعِ العِبَاداتِ !

فالحب المقصود هو الحب المتسامي بالروح، الكابح لجوامح الشهوات في الإنسان النابع من عقيدة التوحيد، مثل حب الله والوطن، وحب الخير والسلام، وحب الزوجة والأولاد، وصالح الأعمال، وهو الحب الذي ملأ قلب زكرياء فقدسه، معتبرا إياه من أقدس أنواع العبادات.

الهجاء:

لم يتبع فيه طرق الأقدمين، لأنه لا يتناسب مع نفسه المتعالية، وإنما جعل من هجائه نقدا اجتماعيا هادفا، كشف فيه أصحاب النفوس الخبيثة الذين أزرى بهم الطمع، وخانهم الضمير، فألصق بهم صفة العار، لتفاهتهم من جهة، وخطرهم على الأمة من جهة أخرى، فهم يبيعونها بلقمة ملوثة، فيصفهم قائلا[3]:

وفي القومِ، من باع الضمير بلقمةٍ ملوثةٍ بالعارِ، والعملة الصفراء!

ثم نراه في مكان آخر يسلط لسانه على المفسدين الملحدين، الذين يفتخرون بإلحادهم وطعنهم في

---

(1) سورة الحديد، الآية: 03.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص145.
(3) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص120.

الدين والقيم التي لا يقوم المجتمع المسلم إلا عليها، معتقدين أن ذلك من دواعي التقدم، فهم في ضلالهم يعمهون[1]، مخالفين بذلك قوله تعالى: "... ولكنّ الله حبّبَ إليكُم الإيمانَ وزيّنَهُ في قُلُوبِكُم وكرّهَ إليكُمْ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعصيان " [2]، ويعاكسون ناموس الحياة، إذ لا حياة لمجتمع المسلمين في ظل الإلحاد وغياب القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام.

ويصب مفدي جام غضبه على أولائك الذين كانوا وسيلة طيعة في أيدي عدو الإسلام، فطعنوا أمتهم باسم الدين، لادعائهم الإسلام والعمل لهداية الناس، وهم في الواقع معاول هدم وتدمير. ثم يدعو بالهلاك لأشباه الرجال الذين لا يحركون ساكنا، ولا يقفون في وجه دعاة الهدم.

وينتصر الشاعر لدعاة الإصلاح الديني والاجتماعي الفعال الهادف، الذي يقوده علماء الإصلاح، لكنه يستمر في كشف أوجه الشر الجهلة المندسين في الصفوف، غايتهم الطعن في الدين، وخداع الناس بالمظاهر، وفي ذلك يقول:[3]

لطموا الدّين والكرامةَ والعلم، بخِزْيٍ وقَحةٍ وعِنَادِ
سدّدوا ضِدّ شرْعةِ الله كابو سًا أليما وضدّ كلّ سَدادِ
وانطَووا تحت هيْكَلِ الدّين ظُلْمًا فَغَدا الدّينُ عنهم في ابتعَادِ

ومفدي أبيّ لا يقبل الظلم، شريف، شجاع، يكره الخبث والجبن والعملاء، لأنهم يشيعون الخراب والقتل في البلاد، وينتقد رجال السياسة وفي طليعتهم قادة الاستعمار، كما فعل مع ديغول أيام حكمه متّهما إياه بالجنون والطيش تارة، والعجز في إدارة السياسة تارة أخرى[4]، فهو رجل حقير الشأن خسيس الأصل عديم الخلق، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا، فكيف يمكن أن نثق فيه ليمنحنا حريتنا المسلوبة؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المصدر السابق، ص128.
(2) سورة الحجرات، الآية: 07.
(3) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع 62 بتاريخ 23-12-1927.
(4) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص312-313.

الرثاء:

إذا كان الرثاء هو البكاء على الأموات، ومدحهم بما اتصفوا به في حياتهم، من خصال سامية كالمروءة، والشجاعة والإقدام، والكرم، وغيرها، فعند مفدي يتجاوز هذا ليسمو برثائه إلى تخليد الزعماء والأبطال، ذلك أنك لم تقف له على بكاء أو نحيب كما في رثاء غيره من الشعراء، بل تلمس فيه استمرارية وأصالة الأمة كما يقول حواس بري.

يقول في رثاء عبد الخالق الطريس المغربي[1]:

أبُكاءٌ؟... وللسماء تعالَى   فاصطفاه سُبحانه وتعالَى

نحنُ قومٌ –أن يندب الناسُ موتا   هُم– أقمنا للخالدين احتفالاَ

كم تفانيتَ في هوى الوطن الغالي   تُلاقي الخُطوبَ والأهوالاَ

وتجنَّدت للعروبةِ والإسْـ   ـلامِ، ترْعى الهدى، وتغزو الضّلالاَ

فرثاؤه نابع من إيمانه، فلم البكاء على من اصطفاه الله لجواره، بعد أداء رسالته؟ إن المسلمين قوم يعدّون العدّة للقاء ربهم بما يقدمون من فضائل الأعمال في حياتهم، وما وقوفهم على موتاهم إلا لتتكشف لهم العظات، ويزدادوا إيمانا على إيمانهم بأن الموت هو الحقيقة والنهاية التي لا بد منها وسيبعث بعده الناس في يوم تشخص فيه الأبصار: " وتَضعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حملَها وتَرى النَّاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارى " [2].

والموت بهذا المعنى عند المسلمين نقلة من دار الفناء إلى دار الخلود والبقاء، لذلك فهم يخلدون ميتهم ماداموا راضيين عن أخلاقه وأعماله، ودفاعه عن عقيدته ووطنه بما يستوجبه حكم الله وحكمته في الخلق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص71-72.

[2] سورة الحج، الآية: 02.

ورثاء القادة والأبطال في شعر مفدي زكرياء له مسحة قدسية يتقرب فيها إلى الله بالتعبد والذكر والتبتل إليه بأسمى معاني التقديس، فيقول مخاطبا روح السلطان محمد الخامس[1]:

أمـــانا أميـــر المـــؤمنين، فلا بكـــا   ولا زغـــرات بالـــــرثا تتصــــــعد

ولكـــن تسابيـــح وصـــــدق ابتـــهالة   وشعلـــة حـــب فـــي الحشي تتوقد

ومفدي كما عهدنا في أغراضه الأخرى لا يوقف شعره إلا على الذين يراهم صورة لذاته، في عقيدتـــه ووطنيته، وتطلعه لمعالجة قضايا أمته.

من ذلك رثاؤه لمحمد الطاهر بن عاشور العلامة والمفسر التونسي الكبير في ذكرى وفاته الأربعيـــن[2] والزعيم المغربي الكبير علال الفاسي، فيضفي عليه من جلال العلماء سمة المجد والخلود، فـــهو ثقـــة واطمئنان عما قدم في حياته، كما قدم غيره من فقهاء الأمة، ورجال إصلاح حالها، مثل محمـــد عبـــده وابن باديس، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد إقبال، وغيرهم، فاختارت نفسه تلك النفوس أنيسا فـــي دار الخلد التي انتظرته ليلتحق بها.

لقد كانت نفسه عظيمة عظمة هذه الأمة المسلمة التي أوقد فيها شعلة الجهاد، وكون أبطالا أفذاذا أهـــلا لمواصلة حمل الرسالة فيقول[3]:

عـــلال... يا عـــارجا طمئنان في ثقة   مما زرعـــت، وما ترويـــه أجيـــال

فـــهل دعـــاك (جمـــال الـــدين) تؤنسه   أم ذاب شـــوقا إلـــى لقيـــاك إقبـــال

أم لم يـــزل (عبـــده) يرجوك في لهف   فخـــف ركبـــك، واستهواك ترحال؟

أم (ابـــن باديـــس) والأهـــداف واحدة   قـــد هـــدهدته إلى رؤيـــاك آمـــال؟

فالأبطال، والعلماء، والمجاهدون، أصحاب رسالة، وموتهم استشهاد.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص35-36.
(2) المصدر نفسه، ص 73 وما بعدها.
(3) مفدي زكرياء، المصدر نفسه، ص128.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونلحظ في غرض الرثاء كيف يحول الشاعر الفجيعة إلى إحساس بالواقع، وبعث الحمية في النفوس، للنضال في سبيل رقي الأمة وصنع أمجادها.

وفي نعي الأديب التونسي الكبير التبادي يشيد بدوره الفعال في مجال الفكر والإبداع، وإعداد النشء الصالح ليتحمل مسؤولية البناء، وتطوير المجتمع، مخاطبا إياه بقوله[1]:

ولكم كنت تلهم الفكر روحا   كلما حاول الضفادع وأدا

وتعد النشء الجديد ليبني   في غد، صرح عزه، فاستعدا

الوصف:

تناول مفدي أغراض الشعر المختلفة كما سبق قديمها وحديثها، فصور أحاسيسه ومشاعره نحو الحياة وفق التصور الإسلامي للكون والحياة، ووقف عند مظاهر الطبيعة فانبهر بجمالها الذي هو من جمال خالقها، فكانت مصدر إلهام شاعريته، وكانت صورة دقيقة موحية طافحة بمعاني الإعجاب، فتعبد بوصفه، فهو إذا تحدث عن الجزائر فهي مطلع المعجزات وحجة الله في خلقه، وأنها صورة من صور دلائل القدرة التي تسبح بحمده[2]. ثم أنه يرى الجزائر من أبدع ما خلق الله من الطبيعة، وهي دليل قدرته التي لا تشبهها قدرة، فهي جنة تغار منها الجنان فتحسدها، وكانت مفجر ينبوع شعر مفدي[3]:

جزائر، يا بدعة الفاطر   ويا روعة الصانع القادر

ويا جنة غار منها الجنان   وأشغله الغيب بالحاضر

وفي وصفه لمنطقة المدية قرب الجزائر العاصمة وغاباتها، يشبهها بتربع السلطان على العرش بتاجه المطرز في أبهة ووقار، فجمالها خارق للعادة، فالصورة الفنية رائعة تدل على سعة خيال الشاعر وقدرته على التشخيص، وانتقاء الألفاظ والعبارات للتعبير عن الأجواء الساحرة التي شاهدها ونالت

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص218.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص19-20.
(3) المصدر نفسه، ص33.

إعجابه، ولم يكن وصف الشاعر لهذه المظاهر من باب العبث، بل إن الطبيعة خلقت لحكمة أرادها الله وعليه فهي مصدر ايمان وإلهام، وقوة، فهي ليست جامدة، بل متحركة، ثائرة، مثل نفسية الشاعر، فتمد المجاهدين بقوة العزيمة لتفجير الثورة وتحرير أنفسهم، وتحقيق الغاية من جهادهم، فانصت إليه يقول:[1]

ومنها استمدّ المُجاهدُ عزمَا   فراع الدّنا بالعجيبِ العُجاب

وفَجّر ثورته من لَظَاهَا   وسار على هديهَا في الغِلابِ

فهو يستغرق في الطبيعة، ويحيا بقلبه ووجدانه في مظاهرها المختلفة، يبعث فيها الحركة والحياة فتمده بمعاني القوة والعزيمة والصبر... إلخ. هكذا كان شعر مفدي سجلا تاريخيا لوطنه، وصورة ناطقة لطبيعة وقيم أهله الخلقية والاجتماعية، التي هي قيمه النابعة من أصالتهم في بيئتهم العربية الإسلامية فقد تعلموا الصدق من راعي المواشي، والصبر من صبر الجمال[2].

الوصف عند مفدي زكرياء ليس غرضا مستقلا قائما بذاته، وإنما يوجد في كل قطعة شعرية، فحين يمدح أو يرثي، أو يفخر، أو يتغزل، أو يتزهد ... إلخ فهو يصف، وفي وصفه يكون مبهورا بجمال الطبيعة، لأنه يرى فيها جمال الله وجلاله، فالتأمل فيها عبادة، تزيده قربا من الله، وتعلقا به، (أفلا يَنْظُرُونَ إلى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[3] .

فالنظر المتأمل في ملكوت الله، والوقوف على عجيب صنعه في الأرض والسماء، دليل قاطع على وجود الخالق المتقن لصنعه (الذي بيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[4]، وهو يستغني بذاته عن البحث في المجالات الفلسفية، والنظريات العلمية، لأنه أقوى منها دليلا وقطعية[5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المصدر السابق، ص 30.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص33-34.
(3) سورة الغاشية، الايات من 17 إلى 20.
(4) سورة الملك، الاية: 01.
(5) أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، ص31.

الشوق والحنين:

إن الشاعر إنسان تنتابه المشاعر الإنسانية، فيتأثر كما يتأثر غيره، فيخرجها عبرات أو زفرات، تلـــهفا واشتياقا إلى حبيب أو قريب، أو وطن سليب، باعدت بينهما الظروف، وربطـــت بينـــهما الأحاســيس والمآسي، فانظر إليه يخاطبم أرض بلده، ويصور اشتياقه وحنينه إليها قائلا[1]:

جــزائر... مهما باعـد الــخطب بيننا تباكــرني النجوى، وتهفو بي الذكرى

حنينـــي إلى (الــقصباء) هاج مدامعي وشـــوقي إلى (بلكور) أفقدني الصبرا

فقد اشتاق إلى وطنه ومدينته حيا حيا، لأن رابطتي الوطن والإيمان أقوى من أيـــة رابطـــة، فمنـــاظر الجزائر كانت طريق الشاعر إلى إدراك الله عن يقين، حيث عرفت الوحدانية إلى قلبه سبيلها لم يحتـــج معه إلى نظرية عالم، أو ارشاد واعظ، فهي ناطقة قائمة بذاتها، تبصرها العين، ويدركها العقل ويخشـــع لجليل صنعها القلب، فيسبح بحمد خالقه[2].

يحن زكرياء إلى ماضيه، وأصالته، وأمجاد أمته، وشهامة أبطال الجهاد في موطنيه الصغـــير والكبـــير وإلى الحرية والتطلع إلى مستقبل أفضل للجزائر والأمة العربية والإســـلامية، وإلـــى انتصـــار الحـــق والفضيلة اليوم وغدا هنا وهناك.

هكذا لم يكن مفدي زكرياء في هذه الأغراض ذاتيا محضا، ولا موضوعيا محضا، بل كان معبرا عـــن نفسه ومجتمعه في الآن نفسه، تعبيرا صادقا وواقعيا وأصيلا، مزج فيه الفن بالعقيدة، والعقيدة بالوطنيـــة الأمر الذي جعله يجسد الروح الإسلامية في مضامينه الشعرية عبر مراحل حياته الفنية.

مراحل تطورشاعريته:

تكونت شاعرية مفدي زكرياء وتطورت تدريجيا كتطور شاعرية غيره، وتميزت بسمات خاصة عـــبر مراحلها المختلفة طبعت إنتاجه الشعري الغزير، وهذه المراحل هي:

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص314.

[2] المصدر نفسه، ص328.

أ- المرحلة الذاتية:

وهي الفترة الممتدة من 1925-1931 حسب الإنتاج الشعري المتوفر بين أيدينا، والذي كانت باكورته قصيدة في رثاء " كبش الفدا " بمناسبة عيد الأضحى سنة 1925 متأثرا بمذهب أبـي العلا المعري وضاعت القصيدة ولم يتذكر الشاعر منها إلا المطلع وبيتا آخر وهما: (1)

لهفي على شاةٍ قد قُيّدت للذبح وهي نقية الأردان

استضعفوك، فلذّ لحمكِ عِندهم هلا استلذّوا لحم ليثٍ ثاني

نجد في البيتين ذاتية الشاعر المتأثرة، بما آلت إليه هذه الشاة، وهي القيد الموثق، ثم الذّبح للتلذذ بطعم لحمها، لا لشيء في نظره، إلا لأنها ضعيفة لا تقوى على رد الاعتداء والظلم، فهل يستطيع هؤلاء فعل ذلك مع الذي يملك قوة حماية نفسه؟

إن هذه الذاتية الفردية ترتبط بذاتية الآخرين، فصورة الشاة صورة للفرد المسلم الضعيف في المجتمع الجزائري أمام قوة ظالمة مستبدة، استضعف كما استضعفت هذه الشاة في يوم النحر، فقيدت على مرأى الجميع وذبحت وأكلت في نشوة الجميع.

إن مفدي لم يختلف عن الشعراء الآخرين في بداياتهم الشعرية، فقد راح يبحث عن ذاته في شعره يتلمس طريق النبوغ والعظمة والشهرة، شهر الوطنيين المؤمنين بوطنيتهم، وعقيدتهم، وقوميتهم، فتعثر وأصاب.

ومن المؤكد أن أولى قصائده التي أدخلته عالم الشهرة هي القصيدة القومية التي مجد فيها جهاد المسلمين الريفيين بزعامة المجاهد عبد الكريم الخطابي عام 1925م. وبحكم تواجده في تونس فقد روجت له الصحافة التونسية بنشرها للقصيدة، كما روجت لها الصحف العربية، وفي مقدمتها، اللواء والأخبار المصريتان، وقد علق عليها محرر اللواء بقوله: إن الشباب الجزائري لم يبلغ الحلم تنم عن أصالته[2].

---

(1) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء شاعر مجد ثورة، ص16.
(2) محمد ناصر، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع32/1984، ص26.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مَن هنا بدأ شاعرنا يشق طريقه نحو الرفعة، وكانت القصيدة وطنية وقومية، عبرت عن أحاسيسه ومشاعره ذات النبع الإسلامي الأصيل، ففيها وجه إلى المجاهدين سلامه وتحيته، مهنئا لهم فوزهم ومبشرا إياهم بالجنّة: [1]

سَلامٌ (بني الريف) مِنْ مُهجٍ   تَكَادُ تطيرُ ولا تَصْطَبِرْ

هَنيئًا بني الريف قد فُتِحَتْ   لكم، جنّةُ الخُلْدِ مَنْ يبْتَدِرُ ؟

وهي مشاعر صادقة نابعة من قلب رجل مؤمن يعز الإسلام ويرجو النصر للمسلمين.

إن نفوس المجاهدين الريفيين الذين لا حد لطموحهم هي صورة لنفسية مفدي وطموحه، فهي لا ترضى بالدّون ولا بالذل، وتعتبر الرّضى بهما كفرا مادام المؤمن يملك قوة الإيمان والعزيمة لتحقيق غايته في الحياة فيقول:[2]

ونفس تُظَلُّ بتاجِ الجَلالِ   وتأبى لها غير هام القمرْ

تنادي بصوت الشهاقة: تاالله   من يرضى بالذلِ يومًا كَفَرْ

نظر الشاعر من علٍ فبدا له مشهد أمته الغافلة النائمة، فأخذته الحسرة، وحدّد لنفسه طريق العمل وجعل لشعره هدفا هو خدمة قضاياها انطلاقا من ذاته، إذ لا قيمة للذات الفردية ما لم تقدم لمجتمعه نفعا. ولعل الذات الوجدانية لشاعرنا تطل علينا من خلال قصيدة " لك الحياة " حين أرقه حب المسلم العفيف الصادق لوطنه، وضاعف البعد عنه آلامه وأحزانه، لأن المسلم الحقيقي هو الذي يحب وطنه ويتفانى في خدمته، والتضحية من أجله[3]:

الحُبُّ أرّقني، واليأسُ أضناني   والبينُ ضاعف آلامي وأحزاني

ومن خلال الذات الوجدانية المتحسرة تارة، المتأججة أخرى ينطلق صوته المدوّي، معلنا انفجار ينبوع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) و(2) مفدي زكرياء، لسان الشعب التونسية، تونس، عدد 06 ماي 1925.

(3) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص152.

شعره عنده، فتتناغم أنات القلوب ويردد الكون صداها[1]:

هو الشّعرُ آياتُ النّبوغ تفجّرتْ بكاساته البيضاءِ، فناولها الخَلْقا

إن المتتبع لشعر مفدي يجد ذاتيته في كل قصيدة، لأنه نبع من قلبه الفياض، المتدفق بالمشاعر الإنسانية الحقة، فهو كثير الاعتزاز بشاعريته، وشخصيته، وأصالته العربية الإسلامية، كما أن له شعرا ذاتيا في الإخوانيات والهوى[2].

هذا وذكر الشاعر نفسه، أنه ينوي طبع ديوان الخافق المعذب، وهو الشعر الذاتي، لكن لم يظهر إلى اليوم.

وقد تميزت هذه المرحلة عنده بالبحث عن الذات، والتطلع إلى الشهرة والنبوغ، فاتسم شعره بالوضوح في القصد، والواقعية في الطرّح، والبساطة في التعبير، وقصر الخيال على عادة المبتدئين، مع سلامة لغته وأصالة فكره.

2- مرحلة البعث الوطني:

وهي المرحلة الاستنهاضية التي تشمل الفترة من 1931 إلى أول نوفمبر 1954م، وقد اصطلحت على تسميتها بهذا الاسم، لأن مسيرة النضال الوطني في ظل الحركة الوطنية عرفت منذ بداية الثلاثينات تطورا واضحا، حيث خرجت من السرية إلى العمل الميداني الجهري، للنهوض بالأمة، وهو رد فعل إيجابي على الاحتفالات القرنية للاحتلال الفرنسي لأرض الجزائر المسلمة، والتي رفع فيها ساسة فرنسا وزعماء كنائسها شعار التحدي للإسلام في أرضه، ولعل أحسن دليل على ذلك قول أحد المسؤولين الفرنسيين آنذاك: " إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا للجزائر ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام "[3].

---

(1) المصدر السابق، ص157.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، من 204 إلى 231.
(3) محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، ص 109.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا إلى جانب ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحية، ونشاط حزب نجم إفريقيا الشمالية الذي طالب بالاستقلال الوطني.

لقد كان للحركة الوطنية ورجال الإصلاح دور إيجابي في تحسيس الأمة الجزائرية بواقعها الأليم، وتعبئتها للدفاع عن حريتها، واسترداد عزتها وكرامتها المداسة تحت أقدام الصليبية الحاقدة وتذكيرها بأمجادها، وبأبطال الإسلام، من خالد، إلى عقبة، إلى طارق، الذين أعزوا الإسلام فأعزهم الله به، وأعز أوطانهم. وقد واكب الأدباء والشعراء المرحلة الاستنهاضية، من بينهم مفدي زكرياء الذي واكب هذا التطور بالنضال، وبالكلمة الواعية، من خلال انضمامه إلى اتحاد طلاب شمال إفريقيا وإلى حزب النجم ونضاله فيه، واحتكاكه بزعماء الحركة الوطنية في كل من الجزائر وتونس، واتصاله إعلاميا بما يجري في العالم العربي والإسلامي عن طريق الصحف الوطنية والعربية، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه فيه مؤلف توفيق المدني "كتاب الجزائر " عام 1931م[1] ودراسة عن حياة مصطفى كامل، وجهاده للاحتلال الإنجليزي لمصر من قبل[2]، والعمل الصحفي حيث عمل في الشعب لسان حال حزب الشعب، وفي جريدة الحياة التي شغل رئاسة تحريرها عام 1933.

وأفضل معبر عن هذه المرحلة هو استنطاق النصوص الشعرية كقوله في قصيدته الرائعة " قف للعروبة حييها ببسكرة " [3]:

وليسمع الدّهر آباء لنا درجوا   أنّا سنبلغ في العليا كما كانوا

بنخوةٍ في عروق ملؤها شممٌ   وعزّةٌ في دمٍ يذكيه إيمان

قومٌ أعالون، أمجادٌ جحاجحة   كانوا هم الروح والإسلامُ جثمانُ

الذاهبون ضحايا عن بلادهم   لجنّةٍ ملؤها روحٌ وريحانُ

الذائدون عن الأوطان تدفعهم   روحٌ من العزْم لا يثنيه مرْتانْ

---

(1) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء، شاعر مجد ثورة، ص77.

(2) محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة ط02، ص10.

(3) مفدي زكرياء، جريدة الثورة، الجزائر، ع12 بتاريخ 01-12-1961.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صلّى الإله على أرواحهم وسقى   ذاك الأديم وإن داسته أزمانْ

فالمتأمل في الأبيات يدرك الدور الهادف لشعر مفدي الاستنهاضي، فهو يذكر الناس بمجد أمتهم وشهامة آبائهم وأجدادهم، حملة رسالة الإسلام الحضارية، التي عمت الشرق والغرب، في وقت كانت الأمم في جاهلية جهلاء، وفي ظلام دامس، وقد استطاعت حضارة الإسلام أن تنير حياة الإنسانية جمعاء، ثم يذكرهم بأن الآباء والأجداد لم يبلغوا هذا المجد بالتقاعس والتواكل، وإنما بلغوه بالعمل والتضحية. لقد كان الإيمان مصدر قوتهم، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم للذود عن أوطانهم وعقيدتهم، وقد نصرهم الله على أعدائهم، فمن استشهد منهم كان مقامه جنة الرضوان.

إن هذا التذكير بماضي الأمة وشهامة عظمائها، وسيلة لبعث النخوة والشهامة في نفوس أبناء الأمة الجزائرية المسلمة الحديثة، المتمسكة بأصالتها، للنهوض بها من غفلتها، للدفاع عن وطنها لينال الشعب إحدى الحسنيين: الاستقلال وسعادته، أم الاستشهاد ونعيمه.

ثم ينتقل الشاعر إلى المفاخرة بأبناء الجزائر القدماء، مبرزا دورهم الفعّال في هذا المجال مشيدا بما اتصفوا به من الخصال الحميدة التي حث عليها ديننا، كالشجاعة، والشهامة، والإخلاص في العمل، والصدق في القول والفعل، والتآخي في الله، والتي بوأتهم هذه المكانة المرموقة، ثم يلتفت إلى من بأيديهم أمر الشعب الجزائري فينكر عليهم جمودهم وسكوتهم، ويدعوهم إلى العمل لإيقاظ الجماهير وتوعيتها بدورها الجهادي، لتحرير وطنها المستلب، واستعادة شخصيتها الضائعة، وترك التأسف والتألم، والأحزان، لأن الوطن لا يسترد إلاّ بالقوة، ذلك أنّ الآباء حققوا ذاك المجد العظيم بهذه الصفات.

بعدها يتوجه إلى شباب اليوم داعيا إياه إلى الاقتداء بهم، والنهوض من غفلته لحماية البلاد، وترك الحزن والبكاء جانبا، فيقول:[1]

هـل يقظـةٌ منكـم تحـيَ البلادُ بها   أم حـظُّنا، الـدّهرُ، أنَّاتٌ وأشْـجانُ

---

[1] مفدي زكرياء، جريدة النور، الجزائر، ع12 بتاريخ 01-12-1931.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أشاد برجال الإصلاح ونوه بمجهوداتهم، فقد اعتبر شعر أبي اليقظان هادفا بناءا، ذكرنا بمجد الإسلام في عهوده الأولى يوم أعلن الجهاد في وجه الإلحاد لنشر شريعة الله في ربوع الأرض، وأشاد بدور أبي اليقظان الإصلاحي لإرشاد الأمة وحماية دينها من التحريف، وصيانتها مما يدبر لها لمسخها وتشويه أصالتها.

وحين انبرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للإصلاح الديني والاجتماعي رغم تباين نظرتيهما في الوسيلة، فقد كان مفدي مؤمنا بسمو رسالتها ونبلها وتكاملها مع العمل السياسي في إنارة العقول وإزالة الشوائب العالقة بالدين، فهاهو يدعو إلى الالتفاف حولها:(1)

وقوما لجمعية العلما   قيام الحجيج إلى المعشر

ألمّا بإيوانها ساعة   وعوجا على الطيّبِ المعتّري

ويمتد طموح الشاعر في نهضة الشعوب العربية والإفريقية لإزالة كابوس الظلم الجاثم عليها فيصرخ بأعلى صوته على منبر اتحاد طلاب إفريقيا:(2)

نهوضًا بني الشّرق الكرام ورحمة   لذلة أوطان تدق كأوتاد

نهُوضًا بني إفريقيا من سيادتِكم   فإنّ عيون الحادثات بمرصادِ

إن المتتبع لشعر مفدي يلاحظ تطوره مع تطور الأحداث السياسية الوطنية، فقد تحول من طالب حق مؤمن بوطنيته، إلى مناضل سياسي في حزب نجم شمال إفريقيا، وعضو فعال في اتحاد طلبة شمال إفريقيا، فمناضل مسؤول في حزب الشعب، وواكب هذه النقلة السياسية أدبيا، فكان شاعر الوطنية وشاعر الحزب، فهاهو في عام 1936م يصعد من أسلوبه النضالي، ليجعل من نفسه فداء للوطن وشعله في طريق الحرية(3):

فِداءُ الجزائرِ رُوحي ومالي   ألاَ في سبيلِ الحريّةِ

(1) مفدي زكرياء، جريدة المرصاد، الجزائر، ع20، جانفي 1932.
(2) مفدي زكرياء، جريدة النور، الجزائر، ع 48 بتاريخ 30 أوت 1932.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص104.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد انطلق شاعرنا في تحديد هذا الموقف انطلاقا من عقيدته الراسخة بوجوب مجاهدة الكفار بالأموال والأنفس، لأن تحرير الوطن هو تحرير الإسلام مما حيك ويحاك ضده، عقيدة ولغة، وما الحزبية عنده إلا وسيلة لتحقيق النصر على أعداء أمتنا المسلمة.

ثم يصرخ عاليا فيتردد صداه عبر أنحاء العالم العربي والإسلامي يسمع الشعوب أنين إخوانه المسلمين المضطهدين في الجزائر، المعرضين إلى أبشع أنواع المسخ والتشويه، رغم صمودهم في الدفاع عن قيمهم، لبعث الحمية العربية الإسلامية في نفوس أبناء الأمة، لمساندتها في جهادها ضد الصايبية الحديثة فيقول:[1]

أيها الشعبُ والجزائر تشكُو   في ثنايا الضلوع داء عُضالا

وتنادي بَنِي العُروبةِ (وامغــ   تصيماه) قد أحكموا الاغتيالا

سطّروا حولها برامج للمســ   ـخ، وحطوا على فناها الرّحالا

وبمناسبة تدشين دار طلبة جمعية العلماء المسلمين بقسنطينة عام 1953، ألقى الشاعر قصيدة حيا فيها هذا العمل الجليل، معبرا عن موقفه من العمل السياسي، حاثا الشباب على الجهاد لأجل استرجاع السيادة المفقودة في وطنه[2]:

وما السياسة، ضربٌ فوق مائدة   إن السياسةَ، إنشاءٌ وتجديدُ

يا نشأةَ العلمِ لا تُقعدْ بكُم هِممٌ   عن الجهادِ، فإنّ الوقتَ محدودُ! !

كونوا الخلاص لشعب، لا نصيبَ لهُ   ممّنْ يُعذّبهُ، إلاّ المواعيدُ

وحطّمُوا القيدَ(*)، والأغلالَ، إنّ لهُ   فَمًا وجسمًا: فَمُوْصُودٌ، ومَصْفُودٌ

إن المتتبع لشعر هذه المرحلة يلمس بوضوح التطور الحاصل في مضامين قصائده وأسلوبه، تماشيا مع تطور الأوضاع السياسية والفكرية، فقد صعد من لهجته تجاه المحتل، إذ دعا شعبه إلى النهوض من

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة الشباب التونسية، ع 1937/03/5م.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 267 و 270.

(*) دعوة صريحة من الشاعر إلى الجهاد ضد العدو الفرنسي في الجزائر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غفلته والثورة على العدو، كما ارتقت لغته وظهر بعض التنوع في نظام بناء قصائده كقصيدة " اعصفي يا رياح "، وإن كان هذا التطور لم يخرجه عن النطاق الذي دارت في فلكه القصيدة التقليدية، ولم يرق أسلوبه إلى الحد الذي بلغه في المراحل اللاحقة.

3- مرحلة الثورة التحريرية الكبرى:

وهي الفترة التي تغطي سنوات الجهاد الوطني من أول نوفمبر 1954م إلى 05 جويلية 1962م والتي كانت عاملا قويا في تفجير قريحة شاعرنا، فجادت بدرر من القصائد الخالدة، خلدت الثورة وخلدت قائلها، بل كانت صفحة خالدة من جهاد شعبنا ضد قوى الظلم والطغيان.

اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954م " ليلة القدر الكبرى، كما سماها مفدي زكرياء، فكان لكل رجل ولكل امرأة ولكل ولد حظه من الجهاد، ومن البديهي أن يتحدث شعراؤنا عن هذه الليلة المشهودة المنذرة بزوال الاستعمار على الدوام "[1]، وكان مفدي زكرياء في مقدمة هؤلاء الشعراء[2].

عبر الشاعر عن فرحته يوم أن رأى الرصاص يحل محل الخطاب السياسي العقيم، وساعة الانتقام تقترب قائلا[3]:

نطق الرصاص، فما يباح كلام !   وجرى القصاص، فما يتاح ملام !

واكب مفدي مرحلة الثورة التحريرية بشعره، فكان يلهب مشاعر المواطنين بأشعاره البركانية التي تحمل مشاعره وأحاسيسه نحو وطنه السليب، وما تعانيه أمته من قهر، وإذلال، وهي تقاوم ببسالة ودون أن تعبأ بما يسلطه عليها عدوها. فهاهو " زبانة " يصرخ وهو يعلو المقصلة في تحد وشموخ[4]:

اشنقوني، فلست أخشى حبالا   واصلبوني، فلست أخشى حديدا

ما أعظم الإنسان حين يدافع عن الحق ! وما أهون غيره حين يريد بعمله باطلا ! لذلك كان هدف الجزائريين هو استعادة كرامتهم ومجدهم الضائع، وليس الخبز واللباس، لأنه لو كان الأمر كذلك

---

(1) محمد عمرو الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د-ت)، ص324.
(2) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء شاعر مجد ثورة، ص81.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص42
(4) المصدر نفسه، ص07.

لسهّل إغراؤهم، لكنهم طلاب حق، لا دعاة باطل، وهنا يصعّد الشاعر نغمته ليؤكد بما لا يصبو إليه الشك أن لغة القنابل هي وسيلة إسماع صوت الحق، وأن لهيب نيران الثورة أحسن لوائح ترفع أمام ناكري حق الشعوب المضطهدة المتطلعة إلى الحرية والاستقلال[1]:

لغـةُ الـقنابل، في الـبيان فصيحـةٌ ... وُضعـت لِمنْ في مـسمعه صَمَـامُ

والـحقُّ والـرّشاشُ إن نطقـا مـعًا ... عنـتِ الـوُجُوهُ، وخرّتِ الأصْـنامُ

وأمام تلاعبات الاستعمار ومحاولاته تكسير ثورة الشعب، وتنظيم استفتاء شعبي لتقرير مصيره، أجابه الشاعر بأن الشعب فصل في الموضوع يوم اقترع على مشروعيه الجهاد، في فاتح نوفمبر 1954م ولم يعد بحاجة إلى اقتراع جديد، إلا بانتزاع استقلاله من عدوه بقوة سلاحه[2]:

شـعبُ الـجزائرِ، قالَ في استفتائِـه ... لا ! ! لـن أبيحَ من الجزائر إصبعا..

واخـتار يـوم (الاقتـراع) نُفمبـرًا ... فمضـى، وصمّمَ أن يثور، ويقـرعا

أي استفتاء، وأية إرادة شعب يحترمها العدو، وهو الذي نشر الخراب والدمار؟ وجعل في كل بقعة من الجزائر صورة الرعب، ومأساة الإنسان المعاصر؟ كل ذلك بقوته المادية، فكيف يمنح حرية تعبير الشعب، ويحترم إرادته في الاستقلال، والتحرر، إذا لم يكن بقوة إيمانه وعدّته وعتاده؟

وينتقد جمعية الأمم المتحدة التي تنتصر للقوي على الضعيف، وبذلك لم تحقق الغاية التي أسست من أجلها، وإنما أصبحت سوقا يباع فيها حق الشعوب الضعيفة للمحتكرين، والنّصابين، فيقول: [3]

ومـالهم نسبـوا للـعدل مـجتمعا ... أمـر الـضّعاف به في كفّ مقتدرِ؟

سـوقٌ، يُـباع ويُشـرى، في معابرها ... حـقُّ الـشّعوب، لنصّابٍ، ومُحتكرِ !

ومادام الأمر كذلك فلا سلم ولا مسالمة مع العدو حتى يأخذ الشعب حقه المسلوب، ويعيد للوطن عزته التي ترضيه دون سواها.

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص44.
(2) المصدر نفسه، ص67.
(3) مفدي زكرياء، المصدر نفسه، ص141.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وحين رسم الأهداف التي ثار الشعب من أجلها وعقد العزم على تحقيقها إن آجلا أو عاجلا، يتوجه بخطابه العنيف الذي تنضح كل كلمة منه بالغليان والتأجج، لتميد الأرض، وتصعق السماء، ويزداد لهيب النيران، وتتدفق وديان الدماء، وتنفجر أصوات الرعود لتصل الأنجم فتسحق العدو، وتتطهر الأرض المسلسة من الصليبية الحاقدة، ومن أعداء الأمة العربية الإسلامية قاطبة[1]:

يا أرضُ ميدي، واصْعقي يا سما   يا نارْ زيدي، وادفقي يا دمآ

لا يقتصر الجهاد عند مفدي على الجزائر، بل يجب أن يكون شاملا للأمة العربية والإسلامية، التي يجب أن تكون متضامنة تضامنا أخويا كما يقره الإسلام. لذلك فقد " حولت الثورة التحريرية الجزائرية التضامن المغربي إلى تلاحم رائع، وجعلت من التراب التونسي والتراب المغربي ثرى مقدسا تعطره دماء الشهداء... كما تعززت الثورة الجزائرية بالأشقاء العرب الذين ساندوها بالتأييد في الميدانين السياسي والعسكري، مما أعطى التضامن العربي الإسلامي وجها ناصعا مشرقا... " [2].

وأيام ثورة التحرير كانت أشعاره الوطنية، ما أن تخرج للوجود حتى يتلقفها الثوار والطلبة والعمال، لا لشيء إلا لأنها أشعار تعبر عما يجيش بنفوسهم من آمال وشوق إلى الحرية، وتطلع إلى الاستقلال فكانت عبارة عن قذائف، يقذف بها العدو، فيزداد بركان الثورة لهيبا[3].

أوقف مفدي حياته وجل شعره في سبيل القضية الوطنية، فالثورة بمآسيها وآلامها، وجراحها، هي نبع شاعريته، ومفجر قريحته، وتعد هذه المرحلة أخصب مراحل حياته عطاء وشاعرية، لأنه لم يكتب للمناسبة العابرة، بل عاش الأحداث بكل خفقات قلبه، وحمل الفكرة عقيدة، وشعر بآلام الجماهير ومعاناتهم، فكان تصويره للمأساة شاملا، وموقفه من المحتل واضحا، وتصميمه صارما. فهو لا يهادنه ولا يلاطفه " فالاستعمار هو الاستعمار، وإن تغيرت مظاهره وأنظمة حكمه، وهذا الموقف هو الذي جعل من مفدي خطا متميزا في مسيرة السياسة الوطنية، وصوتا متفردا بين أصوات الشعراء

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص245.
(2) محمد ناصر، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع 32 – 1984م، ص 34.
(3) الطاهر جغادر، مجلة الآداب، جامعة عنابة، 1982، ص67.

الجزائريين، وجعله في الوقت نفسه عرضة للآلام والمعاناة والملاحقة والسجن "[1] منذ بداية نضاله السياسي في حزب نجم شمال إفريقيا، واتحاد طلبة إفريقيا، وحزب الشعب، إلى تاريخ إعلان الاستقلال الوطني.

وقد تميزت هذه الفترة بالنضج السياسي والفكري، وبغزارة الإنتاج، وقوة الإبداع، لأنه بالرغم من سهولة أسلوبه وحسية صوره وواقعيتها إلى حد التصوير السينمائي أحيانا، استطاع ببراعته الفنية وقدرته في استخدام العبارة الشعرية المؤثرة التي تبعث الحماس في النفوس، أن يستولي على عقول وقلوب ملايين الجزائريين والعرب، وينقل إليهم تجربته، ويفجر في أعماقهم أحاسيسهم التي تحولت إلى ثورة على المعتدي.

كانت مرحلة الثورة التحريرية عند مفدي ثورة سياسية وعسكرية وفكرية، وفنية، تولد عنها ما أسماه " الشعر الرصين " الذي نزع فيه نحو التجديد، لكنه كان محدودا لشدة تمسكه بنظام القصيدة التقليدية وجريه وراء المضمون، ووسائل تبليغه إلى الجماهير.

4- مرحلة التأصيل: *(1962-1977)*

حِرْصُ مفدي على أصالة الجزائر جعله منذ العشرينيات وفيا لها، يعبئ الجماهير، ويدعو للحفاظ على قيم مجتمعه، ويحث الشباب على النضال لتحرير البلاد، ومع أن شاعرنا التزم الخط الأصيل منذ شبابه وخلال مراحل حياته، فقد ركز جهده في مرحلة الاستقلال على الأصالة أكثر من سابقاتها، لأنه يؤمن بأن نهضة البلاد لا تقوم ولا تقوى إلا إذا قامت على أسس قوية تستمدها من أصالة هذا الشعب

(1) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص40.

[illegible]

لصانع مفتاح الحياة بجد   عن سابقيه قلائد ازدهاء

لو لم يكن للعلم أعظم حرمة   ما كان علم آدم الأسماء[2]

ورأى أن الحرية التي لا تبنى على القيم الخلقية المستمدة من تعاليم ديننا الحنيف، لا قيمة لها في مجتمع إسلامي، لذلك تراه يدعو الشباب إلى تربية النفوس على هدى القرآن والسنة، لتحقيق الإنسانية المسؤولة والمجتمع الفاضل، فيقول:[3]

سيروا على سنن الجدود وشيدوا   فوق المجرة للخلود بناء

ربوا نفوسكم على خلق الهدى   إن شئتم حرية وعلاء

والدين، إن الدين أعظم عدة   فبدونه تغدو الشعوب هباء

فالدين إذا مصدر القيم الخلقية في مجتمعنا، وكان دستوره (القرآن) مصدر إلهام مفدي زكرياء، ومن الأكيد أن تركيزه على الدين نابع من قناعته بأن " الدين لصلته الوثيقة بالحضارة الإنسانية كإنتاج للإنسان ممثل لإنسانيته، ولصلته الوثيقة أيضا بالحرية الفردية كعامل من عوامل التحرير والتخليص من سيادة الشهوة والأنانية... هو مصدر أصيل في بناء الحضارة من جانب، وفي اكتساب الحرية الفردية من جانب آخر.. أي.. يسهم الإسلام بمبادئه وتوجيهه في قيام الحضارة الإنسانية، ومظاهرها في سلوك الأفراد وتكوين المجتمع الحر، في بقائه عن طريق تحقق القيم العليا في العلاقات بين الأفراد فيه." [4].

إن الشعر عند مفدي نبع من روحه، وسجل حافل لمراحل حياته... وقف في وجه الأفكار الاشتراكية

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة الأمة، الجزائر، ع 43 بتاريخ 24 سبتمبر 1935.

(2) مستمدة من قوله تعالى: " وعلم آدم الأسماء كلها " سورة البقرة، الآية: 31.

(3) مفدي زكرياء، جريدة الأمة، ع 43 (24-09-1935).

(4) [illegible] الفكر [illegible]، ط2، 1974، ص 40.

في الجزائر [1] ورآها دخيلة على الأمة، لأنها لم تنبع من عقيدتنا، بل كان يتطلع إلى أن تستمد هذه الأفكار من قيمنا الإسلامية دون تبعية لأحد، مادمنا في غنى عنها، ويرسم بريشته الشاعرية صورة لما يسعى إليه النظام في تونس، إذ لم يكن مدينا في أفكاره لا إلى الشرق ولا إلى الغرب[2] :

لم يكن فيه مدينًا، لا ولا كان فيه عالةً أو تُبَّعا!

فاشتراكيته البيضاءُ: " أن ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى "

ويشرب الشاعر الإيمان عن ثقة من شجرة الأجداد الممتدة بجذورها في التاريخ الحضاري للأمة الثابت أصلها والتي تؤتي الإنسانية أكلها كل حين: فيراها منبع الاشتراكية الحقيقية التي يرضاها المجتمع فيقول[3]

آمنتُ بالله مثل الناس عن ثقةٍ وبما روتْهُ عن الأجدادِ أزْمانُ

هنا الأصالةُ في صلْبٍ وفي رحمٍ هنَا القراراتُ تدبيرٌ ورُجْحانُ

هنا اشتراكيةُ من صلبِ واقعِنا تُشادُ مِنْ وحْيِهَا للسّلمِ أركانُ

إن تمسك الجزائريين بالإسلام منذ الفتح الإسلامي كان سبب قوتهم وصمودهم أمام محاولات المسخ والتشويه التي تعرضوا لها إثر الغزو الصليبي الغربي القديم والحديث، ووقف الشعب في كل مرة شامخا كالطود العظيم. ولعل موقف الكردينال لافيجري سنة 1867 أحسن دليل على أهداف الصليبيين في الجزائر، وفي إفريقيا كلها إذ يقول: " يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهدا لأمة مسيحية كريمة وأن نضيء أرجاءها بنور مدنية وحيها الإنجيل، وأن نربط مصير إفريقيا بحياة الشعوب المسيحية! تلك هي رسالتها الإلهية" [4]. واستمر العمل في هذا الاتجاه، وفي عهد الاستقلال أخذت التيارات المختلفة تتجاذب الشباب الجزائري المسلم يمينا وشمالا، مما جعل ذوي الغيرة من أبناء هذا الوطن يحملون المشعل، داعين إلى العودة بالشباب إلى أصله ليرتوي من نبعه الصافي، مؤمنين بأن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص357.
(2) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص96.
(3) مفدي زكرياء، المعرفة الجزائرية، عدد ثاني/ جوان/ 1964.
(4) بسام العسلي، جبهة التحرير الوطني الجزائرية، دار النفائس، بيروت، ط02، 1986، ص123.

" الإسلام في الجزائر أصل وما سواه دخيل، وهيهات أن يقوى الدخيل قوة الأصيل الذي شربته النفوس، وطالبت بتشريعه العقول " [1]: لأن الشباب عماد الأمة في حاضرها، ورجاء غدها المأمول.

من هناك يطلق مفدي العنان لقريحته الشعرية لترسم صورة هذا الشباب المتأصل المأمول الذي لم يؤثر فيه نعيق الغربان المعاصرة الداعية إلى العصرنة في ضوء الفكر الإلحادي: [2]

إذا ذكر الشباب... رأيت فيه رجاء غد ... إذا قرأ الحسابا
وأشرب من عقيدته معينا وألهم من أصالته اللبابا
وعن ماضيه لم يقطع طريقا ويلتحق المظاهر والسرابا

ولقطع الطريق أمام تغريب المجتمع الجزائري وتصليبه، لا بد من العناية بشبابه، ومده بسلاح العصر ليبقى متمسكا بأصالته، في إطار شخصيته العربية الإسلامية، ليصمد أمام عواصف الإلحاد والتنصير التي تحاول كسر شجرته، ليتظلل بشجرتها، ويتلذذ بثمرتها.

وكانت مأساة الإنسان المسلم المعاصر من هذا القبيل، إذ انبهر بمدنية الغرب فاقتفى أثره، وظل طريقه لأنه التحق بقافلة غير قافلته، بل ولم يقف عند هذا الحد لأننا كما يقول محمد عادل الهاشمي: " فارقنا الأصالة في كثير من ديار الإسلام حين أخذنا... العلوم والآداب والفنون، ومناشط الحياة من وجهة نظر غير إسلامية، وهذا ما شتت تصور الإنسان المعاصر ومزق أفكاره، فانقسم الناس إلى شيع وأحزاب فكرية متناحرة، وهو أحوج إلى الفكرة الواحدة الموحدة " [3].

لذلك نجد الشاعر يرفع صوته عاليا داعيا أبناء الوطن إلى الأخذ بيد الشباب ليجتاز المرحلة بسلام ويحط في الشاطئ بأمان، وعدم تركه فريسة لابن آوى الآدمي ليخرب عقولهم، ويفسد عليهم عقيدتهم فيقول: [4]

بناة المجد ... لا تكلوا لفوضى شبابا، عقله اضحى يبابا
خذوا بيد الشباب وجنبوه مذاهب شوهت فيه الإهابا

---

(1) حواس بري، شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة عين شمس، 1987، ص179.
(2) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص227.
(3) الإنسان في الأدب الإسلامي المعاصر، ص89.
(4) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص: 227

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويحمل مفدي زكرياء المسؤولية للمجتمع، وولاة أمره، لأنهم انحرفوا عن الأهداف، وصرفوا الاهتمام عن غيرهم في الجزائر وفلسطين، وفي العالم العربي والإسلامي فتمكنوا من المسلمين، ومكنوا لأفكارهم فعشعشت في عقول أبنائهم: [1]

انحرفنا عن مدى أهدافنا   وصرفنا عن سوانا الاهتماما

إن في الإسلام ما يهدي الورى   في المتاهات وما يرسي النظاما

ويرد على أولئك الذين يرون أن الإسلام دين تخلف انطلاقا من واقع المسلمين اليوم، ليخدروا الشباب ويبعدوهم عن جادة الصواب. ويؤكد لهم أن الإسلام ليس كذلك، بل هو دين حضارة وتقدم متى التزم بمبادئه المسلمون، فقد سبق أن بنى حضارة دان ومازال يدين لها العالم كله، لما تحمله من قيم روحية واجتماعية وسياسية عالية، وليس إسلام الزيف الذي صوروه لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول: [2]

ولم يكن الإسلام، ما قد عهدتم   وما زوروا فيه، وخانوا وما خنا

ولكنما الإسلام دين حضارة   يواكبنا إشعاعه أينما سرنا

والشاعر حين يتحدث عن الأصالة يربطها بكل جوانب الإنسان، الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية فهي كل متكامل، تعبر عن شخصية الأمة، وعن حقيقة الوجود كما يقول محمد قطب [3]، لذلك يثور على شعراء الجدّة والعصرنة، ويرى أن شعرهم ضرب للأصالة الفنية في الشعر العربي، ويدعو إلى رفضه[4]:

سفراء الشعر من وحي الدمآ   شرّفوا الوحْيَ وفاءً والتزاما

وارفُضُوا شعر (الخنافيس) الذي   صوّبُوهُ للأصالات سهاما

هكذا حدد الشاعر موقفه من أعداء الأصالة في الدين واللغة والفكر والأدب والفن، فهو يرى أنهم يريدون طعن شخصية الأمة في دينها، ولغتها، وحياتها، لذلك نجده يلوح في كل اتجاه، ويدعو إلى سد

---

(1) مفدي زكرياء، مجلة الأصالة، الجزائر عدد 13-07-1975 ص59.
(2) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص158 و 159.
(3) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص176.
(4) مفدي زكرياء، مجلة الأصالة، الجزائر ع 13-07-1975، ص59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المنافذ في وجوههم، وهو حيوية ونشاط لم تفتر له همة، مادام مجاهدا في سبيل تأصيل مجتمعه للعودة به إلى عز حضارته.

ولم يكن الشاعر مناهضا للحداثة التي تنبع من ذاتيّة الفرد، أو الأمة والتي لا تشوبها شائبة، أو انقياد لذاتية الآخرين بحيث تصبح فيما بعد أداة تدمير لذاتية الأمة[1]، ولذا وجه نصيحته إلى أبناء وطنه يدعوهم فيها إلى التوفيق بين الأصالة والتفتح، وذلك بتحصين شخصيتهم، والانتفاع بالعلوم والمعارف التي تساعدهم في نهضتهم الحديثة، وعدم الانطواء على الذات بقوله: " نصيحتي لشباب الجزائر المتطلع إلى غدٍ أفضل،أن يأخذ بعين الاعتبار مقومات ذاتيته العريقة، كمخطط لتحولاته الفكرية والاقتصادية والسياسية، وإلا ظلّ كالمنبت لا أرض قطع، ولا ظهرا أبقى. وأن يعتبر كل من يحاول تحريفه عن هذا الدرب بقية من رواسب الاستعمار الذي انسحب عن الأرض وعشعش في بعض الأمخاخ المدخولة أو امتداد للطابور الخامس الهدام... وثراتنا العربي هو رصيدنا في حرب البقاء فإذا أضعنا هذا التراث أعلنا الإفلاس، وتعرضنا للتصفية النهائية التي تدفع بنا لهاوية الذوبان والخراب "[2]

ورغم ما حل بالأمة وما عرفته من انحرافات كما يرى الشاعر، وما تعرضت له من محاولات الطمس لشخصيتها على مختلف الأصعدة ، مازالت عقيدة الإسلام راسخة لم تتزعزع في نفوس المؤمنين بها ولم ينحرفوا، بل اجتهدوا وأصابوا، لذلك نراه يزف إلى قبر رسول الله مع زائره برقيبة خبر أصالة هذا الشعب وتمسكه الشديد والدائم بعقيدته: [3]

وقف بجوار المصطفى يا حبيبه   وأبلغه: أنَا مسلمون، كما كنَا
نجدّد دنيانا على ضوء ديننا   فلم نختصر -فيما شرعت- ولا زدنا
لم نبتدعْ فيه... ولم نغلُ مثلما   غلا فيه قومٌ، لا نُقيمُ لهم وزْنَا

---
(1) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص 76 وما بعدها.
(2) بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكرياء شاعر مجد ثورة، ص40.
(3) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص153.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولــم نغلــق البـــابَ الــذي قد فتحتَه   ولـــم ننكـــر الـــتفكير فيه ولا الذهنا

من خلال هذا المقطع الصوفي المؤثر نستشف معالم الشاعر الباطنية ومدى تمسكه بإســـلامه لأنه دين الحياة، ودين الخلود، لا يحده الزمان ولا المكان، فهو خالد ما شاء ربك له أن يخلد، وهي لفتة من الشاعر إلى أن دين الله هو الأقوم، وما على الإنسان الظلوم الجهول إلا أن يذعن لسلطانه ويستجيب لأمره، وليجتهد ما طاب له الاجتهاد، مادام يصدر عن روح مؤمنة بخالقها، مهتديـــة بـــهدي المصطفى. ويبلغ مفدي ذروته في التذمر والسخط إلى درجة ينفي معها عـــن أبنـــاء وطنـــه الرجولـــة والشهامة التي عرفوا بها، بسبب مواقفهم السلبية نحو ما يجري في البـــلاد؛ مـــن تدمـــير للشـــخصية الوطنية،وإفساد المجتمع من كل جوانبه، يصل حدًا من التصوير يعاف معه الحياة فـــي هـــذا الوطـــن المتعفن، لما ألَم برجاله من خزي وعار، لولا وجود المركز الإسلامي الذي يشع بنوره، ويصمد أمـــام العقبات برجاله ووجود شباب متعطشين يرتوون من نبعه الصافي الشافي لداء القلوب، فيقول متفجـــرا كالبركان نقمة على أعداء الأصالة، دون أن يبالي بما يلحقه من عواقب، جراء هذا الموقـــف الجـــريء كما لم يبال بذلك أيام الثورة لشدة حبه لوطنه وإخلاصه لدينه وشعبه [1] :

ألا أيـــنَ الـــرجولةُ... يا لقـــومي ؟   ألا أيـــن الـــضميرُ؟؟ وأيـــن غـــابا

ولـــولا مـــركـــزُ الإســـــلام حـــولي   وفيـــه عـــزائـــمٌ تغـــزو الـــصعابا

وفيـــه شبيبـــةٌ تمـــحُو الـــــخطايا   وفيـــه جحافـــلٌ تحـــدو الـــركابا

لعفْـــتُ دُناكُـــمُ... وطلبـــتُ مـــوتًا   ولـــم ألبـــس بها خِـــزْيًا وعـــابا

ا يمكن أن أشير إليه في هذه المرحلة، هو أن مفدي زكرياء بلغ قمة شـــاعريته فكـــرا وفنـــا جادت خلالها قريحته بدرر من القصائد الشعرية الهادفة إلى تنشئة الجيل الجديد تنشئة سليمة، والسيـــر

(1) محمد ناصر ، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط(02)، ص228.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالمجتمع في طريق الأصالة والتقدم، ختم بها حياته الفنية. ومن أعظم هذهالدرر الخالدة تمجيدا لتاريخ الجزائر وحضارتها عبر القرون مطولته " إلياذة الجزائر " التي أحلته مكانا مرموقا بين شعراء العربية الكبار في العصر الحديث.

هكذا نخلص في نهاية هذا الفصل إلى أن مفدي زكرياء نشأ نشأة إسلامية وتفاعل مع أحداث عصره وثقافة أمته الأصيلة تفاعلا إيجابيا، حيث صارت مصدر إلهامه ومفجر شاعريته لأكثر من نصف قرن وظهر أثر التراث واضحا في شعره خاصة القرآن الكريم الذي استلهم منه روح الدين الإسلامي وجوهره، وفصاحة لغته وصوره ورموزه.

ويعد مفدي من أكثر الشعراء العرب المحدثين تعبيرا عن حال الجزائر المسلمة، والمحرك لأحداثها والموجه للجماهير، والمدافع عن أصالتها وشخصيتها، وانتمائها الحضاري، فقد ربط الأحداث الماضية للأمة بواقعنا المعيش، لأخذ العبر وبعث النخوة في النفوس.

حارب الاستعمار بالسلاح والقلم، ووقف في وجه الكفرة والمبشرين ودعاة الإلحاد الشيوعي، ودعا إلى العودة بالمجتمع إلى أصالته. لذلك جاء شعره صورة صادقة لهذا الواقع، طافحا بالروح الوطنية والمعاني الإسلامية السامية، وقد اتسم بالوضوح في المعاني مع عظمة الأفكار، وحسن البناء، وسلامة اللغة، وقوة الأداء، وسهولة الإدراك، إلى حد السطحية والبساطة أحيانا، لأنه شعر الجماهير يحمل قضاياهم، لا شعر فن كما يقول هو نفسه في ديوانه اللهب المقدس.

الفصل الثاني

تمجيد الحضارة العربية الإسلامية

أ- الإشادة بمقومات الحضارة العربية الإسلامية في مجالات:

- العقيدة والعبادات
- الأخلاق والمعاملات
- العلوم والفنون

ب- الدعوة إلى الإسلام وتحرير الأوطان

- إبراز قيم الإسلام والدعوة إلى إصلاح قضايا المجتمع.
- الدعوة إلى الوحدة لتحقيق أهداف الأمة
- الدعوة إلى الجهاد لرفع راية الإسلام وتحرير الأوطان
- تمجيد البطولة العربية الإسلامية، والإشادة بتضحيات الشهداء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :

تمجيد الحضارة العربية الإسلامية:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعد الحضارة تجسيدا لعبقرية الإنسان وفكره، وإبداعاته، وتفاعلاته مع محيطه القريب والبعيد تفاعلا إيجابيا أو سلبيا، وتأثيره فيه، وتأثره به، بصورة تجعل هذا التأثير ينعكس على مختلف جوانب الحياة، روحيا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا... ومن هنا يكون الاهتمام بتاريخ الحضارة اهتماما بهذا الكائن الإنساني، وما أبدعه من قدرات وإمكانات لتذليل مصاعب الحياة، وتيسيرها لضمان بقائه واستمراره في ظل التقدم الذي ينشده.

ولا شك أن أية حضارة لا تنطلق من فراغ، إذ هي استمرار وتواصل لحضارات ولت، بعد أن سادت فترة من الزمن في أمة من أمم الأرض، وتركت آثارها المادية والمعنوية باقية، فهي أشبه ما تكون بنبتة حية، تنبت وتنمو وتزهر، ثم تيبس بعد أن تترك بذراتها التي تحمل روح البقاء والاستمرار، وفي هذا المجال يقول أحد المفكرين: " ما من حضارة ازدهرت في أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب إلا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارة خارجية وفدت عليها "[1].

لذا يمكن القول، بأن الحضارة التي تضمن لنفسها البقاء والدوام هي تلك التي تترك آثارها القوية في حياة الناس، بما تغرسه في النفوس من قيم عظيمة تسمو بالإنسان سموا يوصله إلى درجة الإنسانية وتمنحه صفة الكائن المفضل الذي ارتضاه الله ليكون خليفة في الأرض، يعمرها ويؤدي رسالته فيها.

---

[1] أنيس الأبيض، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1994، ص24.

لقوله تعالى يخاطب نبيه داود عليه السلام: " يا داود إنّا جعلْناك خليفةً في الأرْض فاحْكُمْ بيــن النّــاسِ بالحقِّ ولا تتّبعْ الهوى " [1].

والحضارة العربية الإسلامية جديرة بهذا البقاء لما تحمله من مبادئ وقيم سامية تنظـم للأمــة حياتــها وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض، وبخالقهم في الحياة الدنيا، تهيئهم للحياة الأخرى بعد مماتهم، فهي لـم تهمل منجزات حضارات الأمم المتعاقبة التي سبقتها، بل أخذت ما هو إيجابي منها وطورته تماشيا مـع عقيدة التوحيد الربانية، وأهملت ما كان سلبيا وينافي شريعة الإسلام ومصلحة الأمة.

ذلك أن المسلمين اهتموا بمختلف العلوم والفنون،فأبدعوا في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والآداب وفنون الزراعة،وغيرها مما له علاقة بحياتهم،وهي التي صارت فيما بعد قاعدة أساسية لبناء حضـــارة الغرب الحديثة كما يشير مصطفى الرافعي بقوله: " إن حضارة العرب هــي التــي فتحـت لأوروبــا المعارف العلمية والأدبية والفلسفية التي كانت تجهلها،ودونوها،وظلوا أساتذة لها طوال ستة قرون " [2].

ثم إن أفول نجم الحضارة العربية الإسلامية لا يعني موت الإسلام واستسلام المسلمين، بل إن علمــاءهم ومفكريهم راحوا يستجمعون قواهم، ويبحثون عن مصادر القوة فيهم، لبعث النخوة في نفوس أبناء الأمــة فلم يجدوا أفضل من العودة إلى ماضيهم المجيد، الحافل بالبطولات والأمجاد، يستلهمون منــه العــبر لإعادة تثبيتها في نفوس الجيل الحاضر، ليعتد بأجداده الأوائل، ويستعيد ثقته بنفسه و[illegible] وقــوة عقيدته، وسلامة مبادئها، وبالتالي رفض الهزيمة، والثورة على واقعه الأليم، وذلك من خلال شحن هــذا الجيل بطاقات إيمانية خلاقة، وكان في مقدمة من تحملوا رسالة الدفاع عن الإسلام، وإبراز ما جاءت به الحضارة الإسلامية من خير عميم البشرية جمعاء، رجال الدعوة وزعماء الإصلاح حماة العقيدة وكــان في طليعتهم شعراء الدعوة الإسلامية، منهم مفدي زكرياء الذي تحمل عبء رسالة الدفاع عن الإســلام والإشادة بحضارته في الجزائر وبلاد المسلمين، فقد اتجه نحو الحضارة الإسلاميـــة، يشيــد بعطائــه

---

(1) سورة ص، الاية: 26.

(2) حضارة العربي في العصور الإسلامية الزاهرة، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1978، ص16.

ويمجد بناتها عبر القرون، ويهتف بالإسلام الذي صنعها، وبالأمة التي حملتها إلى النـــاس جميعـــا دون تمييز أو اصطفاء، فأخرجت المؤمنين من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإســـلام ومن بداوة الأخلاق والسلوك، إلى حضارة القيم وإنسانيــــة الإنسان [1] كما تصدّى لأعــــداء العقيـدة والأمة وذلك من خلال محورين أساسين هما:

أولا: الإشادة بمقومات الحضارة الإسلامية.

أ – العقيدة والعبادات:

أ– عقيدة التوحيد:

أبرز مفدي زكرياء مزايا الدين الإسلامي ونوّه به على غــــرار شــعراء الاتجــاه الإســـلامي المحافظ، فأشاد بنظامه الحضاري في مختلف مجالات الحياة، وتناول الحضارة الإسلامية في جوانبـــها المادية والمعنوية انطلاقا من العقيدة الإسلامية الصحيحة، كونها رباط روحي يوحد شعور الناس نحـــو هدف أسمى هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، لأن الاعتقاد بوحدانية الله في الإسلام قاعدة الأساس في البناء الحضاري للأمة، لذلك نرى مفدي زكرياء يشيد بعقيدة التوحيد، وبقوة إيمان المســـلمين بخالقــهم والذين انطبعت في نفوسهم عبادة الواحد الأحد، وصارت صفة مميزة لحياتهم فيقول:[2]

رُحْمَــى لشَعْـــبِ أبــيّ، مِنْ خَلاَئقهِ　　أن ليــسَ يُعْبــدُ في محرابه وثَـــنُ

فهي صورة حية لتعلق الجزائريين بدينهم وبخالقهم، وإيمانهم القوي به، لأن الإيمان بالله نور يشع فـــي نفوس المؤمنين الخيرة، فيزيل عنها ظلام الظلم، والجهالة، ويبعدها عن كل شر وضلالة [3].

آمن الشعب الجزائري بعقيدة التوحيد، وتمسك بالإسلام منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا إلى اليوم رغم محاولات أعدائه القضاء عليه في دياره، مسخرين كل الوسائل الممكنة، لكنهم فشلوا على مدى قـــرون

---

[1] نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، الهيئة المصرية العامة، ط01، 1990، ص169.

[2] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص134.

[3] عبد الحميد مهدي، ركائز الحضارة في الإسلام، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د–ت، ص22.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طويلة، أمام صلابة وقوة إيمان هذا الشعب المسلم وشموخه، وفي ذلك يقول مفدي زكرياء مصورا هذا الموقف:[1]

وأعيا المبشرَ عُمقُ العقيدة   فلم تجدْ فينا المساعي الحميده

فحسبُ المبشر قرنٌ ونصف   تجارب للزّيغ كانت مُفيده !

فإيماننا شامخٌ كغلاننا   ونظْرتنا فيه ظلّتْ بعيده

وأحرى أن نُبشّر فيكم   بإسلامنا والمبادئ الرشيده

إن المبشرين أرادوا أن يجعلوا من أبناء الجزائريين مسيحيين، عن طريق غرس عقيدتهم في النفوس بالوسائل التربوية الفعالة، ومع أنهم لم يفلحوا لكنهم لم ييأسوا طيلة قرن ونصف، لأن الإيمان القوي المبني على يقين لا تزعزعه الهزات، ولا تقلع جذوره العواصف، بل لقد كان هدف المسلمين تنوير أعداء الإسلام بنور الإيمان، ونشر مبادئه السامية في مجتمعاتهم الضالة عن شرع الله.

ولكم عانى المسلمون لقاء تمسكهم بدينهم، ويلات النفي، والتعذيب، والحرمان، والتهجير، والقتل، لكن لم يزدهم ذلك إلا صبرا وإصرارا وقوة عزيمة، وإخلاصا ووفاء لدينهم ووطنهم.

وفي ذلك يقول: [2]

فلا النفيُ، ولا التعذيب، أوهن عزْمنا   ونحن الألى من هدّ إيماننا الصّخرا

فالإصرار على المقاومة والتحدّي بهذه الروح المشحونة بطاقة إيمانية خلاقة كفيل أن يجعل المسلمين قادرين على تهديم الصخور الصلبة بقوة إيمانهم، ويأخذون حقهم من عدوهم، ويحمون عقيدتهم بأنفسهم. وبهذا التوحيد ارتفع شأن الإنسان المؤمن، وسمت قيمته، إذ صار لا يخضع إلا للواحد الأحد[3].

وإذا كانت الشريعة الإسلامية هي مصدر قوة المسلمين ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فإن من واجبهم أن يقيموا مراكز إشاع الفكر الإسلامي في كل بقاع الدنيا: من مساجد، ومدارس، وكتاتيب قرآنية

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص103.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص119.
(3) نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص210.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومؤسسات جامعية، وعقد الملتقيات ورعايتها لتحقيق هدفها المنشود؛ وهو نشر عقيدة التوحيد وعدل الإسلام وسماحته بين الناس، وتبصيرهم بما في كتاب الله من منافع، لذلك يخاطب مفدي زكرياء أولي الأمر، داعيا إياهم إلى صيانة العقيدة، ودستورها القرآن الكريم قائلا:

مراكز شيّدُوها وازْرعُوها   بصدرِ الشعب تكتسحُ الرّحابا

ومن إشراقةِ الإسلامِ صُونُوا   بِساحتِها العقيدة والكتابا

فهو لا يشيد هنا بما أدته العقيدة ماضيا، بل وصلها بالحاضر لتثمر في المستقبل، إنه يريد أن تزرع ولكن على غير عادة الزرع، لأن حقلها هو صدور المؤمنين.

وما يلاحظ على البيتين خلوهما من المعنى الشعري، لأنك تحس فيهما روح الإمام الواعظ، والمصلح المرشد، لا روح الشاعر، على الرغم من سموّ الأفكار التي يدعو إلى تحقيقها وجلالها.

إن الاعتقاد بوحدانية الله، والتفكير فيه، والبحث عن الأدلة المنطقية، والآراء الفلسفية، للإهداء إلى الحقيقة اليقينية أمور متعبة، وقد يعتريها نقص، لكن الوصول إليها عند مفدي بسيط لا يحتاج إلى وقت أو جهد، إذ بمجرد أن يرفع المرء بصره إلى ما يحيط به من عجائب صنع الله في الكون، وفي مظاهر طبيعة الجزائر، يزول عنه كل لبس، وتتجلى أمامه حقيقة الخالق المتفرد في خلقه، الذي يعجز عنه البناءون ويخر له سجدًا المبدعون، فيقول: [1]

أفي رُؤيَةِ الله فِكرُكَ حائرٌ   وتَذْهَلُ عن وجْهِهِ في الجزائرْ ؟

هل هناك صورة أبدع من هذه الصورة ؟! ودليل أقوى من هذا الدليل؟ لقد قطع الشك وأزال حيرة العقلاء الذين يستخدمون عقولهم فيما خلقت من أجله، إذ وجهنا ربُنا إلى أعمال فكرنا وعقولنا للتعرف على حقائق الكون، وعلى ما يحيط بنا، لمعرفته والانتفاع به، في قوله تعالى: " تبارك الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عملاً وهو العزيزُ الغفورُ

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص23.

الذي خلق سبْع سموات طباقا ما ترى في خلْق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى منْ فُطُورٍ ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلِبْ إليك البصرُ حاسئا وهو حسيرٌ ولقدْ زيّنّا السّماء الدّنيا بمصـــابيح وجعلْنَاهـــا رُجُومًا للشّياطين " (1).

إن آيات الله مجسدة في هذا الكون الفسيح، وفي هذا الانسجام التام بيـــن عنـاصره المثـيرة للدهشـة والإعجاب، رغم إيمان المؤمنين وحيرة المتشككين، وإلحاد الملحدين، فمن يكون باني هـــذا الوجـود، والمتحكم فيه ومدبر كل أمر فيه بمقدار ؟ وما دليل وجوده ؟ إلى غير ذلك من الأفكار الفلسفية التي قـد لا تشفي الغليل، فجاء جواب الشاعر شاملا جامعا جازما، قاطعا للشك، من خلال إبراز آثار الخـــالق المتجلية في الطبيعة التي تحيط بنا، وتدركها بحواسنا يوميا، فالله ملء هذا الكون وحتى الإنسان نفســه فهو دليل وجوده إذن، فليتأمل المرء نفسه ليدرك وجود الله وقدرته على الخلــق كمــا قــال إســماعيل صبري(2):

تـــعالــــى الله لا يـــعلــــــــمُ كنْـــه اللـــه إنســـــــــانُ.
أتبْحــــــثُ عنــــه فــــــي وادٍ ومنــــه الــــكونُ مــــلآنُ
أتُنكـــــــــره ؟ وأنـــت عليـــه لـــــو فكّـــــرْت بُرْهـــانُ

هي حقيقة يعرفها المؤمنون العالمون العاقلون، وينكر لها الملحدون الجهلة الضالون.

من هذا يمكن القول بأن التبصر بإمعان فيما أبدع الله في الجزائر من صنع ودقة أحكام، طريـــق إلـــى الاعتقاد بوحدانية الله وعدم الإشراك به، لذلك يقول(3):

بِـــــلادِي، عــرفتُ الله فـــي قسَماتِها وآمنْــــتُ أنّ الله ليــس لهُ ثانِــــي

ويسترسل الشاعر على هذا المنوال في إبراز عظمة الله تعالى، من خلال مناظر الطبيعة الساحرة التي

(1) سورة الملك، الآيات من 01 إلى 03.
(2) ديوان إسماعيل صبري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – 1938، ص194.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص328.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توحي بتفرده في الوجود، وأحقيته بالعبادة والتقديس[1].

لم تقتصر عقيدة الإيمان وعبادة المولى عز وجل على البشر، بل حتى الطبيعة كذلك تحمد الله على جميل صنعه، وتسبح بحمده، مصداقا لقوله تعالى: " وإنْ مِنْ شيء إلاّ يُسبّحُ بِحمْدِه ولَكِنْ لا تفْقهُون تَسْبِيحَهُمْ " [2].

ويرسم للجزائر صورة رائعة تعكس بصدق مشاعره نحو وطنه وخالقه، فيقول[3]:

جزائـــــرُ، يا بدعـــةَ الفاطِـــرِ   ويا روعـــةَ الصانـــعِ القادرِ

ما أروعه من شعر سمت فيه الفكرة، ورقت العبارة، وعذب اللفظ، وجمل الإيقاع، وامتزج فيه حب الوطن بالإيمان، فغمر هذه الروح التي شربت العقيدة حتى الثمالة، وامتلأت بحب الله تعالى فاستسلمت له دون غيره.

ولم تعد المعجزة عند مفدي زكرياء محصورة فيما جاءت به الرسل في عصورها الماضية وإنما لكل عصر ومصر معجزاته الباقية، يقف عليها الإنسان العاقل من خلال مظاهر الطبيعة لذلك فالمتأمل في أرض الجزائر بجمالها ومناظرها الخلابة يدرك بعقله الثاقب أنها حجج الله ومعجزاته للبشر، فاستمع إليه يقول:[4]

جزائـــرُ يا مطْلَـــع المعجـــزاتِ   ويا حجّـــةَ الله فـــي الكائنـــات
ويا تـــربةً تـــاهَ فيـــها الـــجلالُ   فتاهـــتْ بها الـــقممُ الـــشامخات
وألقـــى النـــهايـــةَ فيـــها الـــجمالُ   فَهِـــمـــنا بأســـرارها الـــفاتنـــات

هكذا ينقل الشاعر بصره من منظر إلى منظر، فتبدو له المناظر واضحة المعالم، فيها آثار

[1] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص164- ديوان اللهب المقدس، ص264، والياذة الجزائر، ص31
[2] سورة الإسراء، الآية 44.
[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 20.
[4] مفدي زكرياء، ...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخالق المبدع الذي لا يدانيه صانع في صنعه في الأرض ولا في السماء، فيمتلئ قلبه إيمانا، وما يزيده يقينا أن بصمات الخالق المبدع في كل مكان حلّ به الشاعر، وتأمل مناظره، فلاحظ معجزاته فيها.

وظف مفدي كل ما وقع تحت بصره من مظاهر الطبيعة توظيفا تلاءم مع عقيدة التوحيد الربانية التي آمن بها، فكانت دليل إيمانه وإيمان المسلمين وإخلاصهم لله، والدفاع عن الإسلام.

وقد أشار محمد عبده إلى أن الإسلام يقرر " أن الإنسان قادر على الوصول إلى معرفة الله بالعقل وهو يستند في دعوته للاعتقاد بوجود الله ووحدانيته، إلى استنهاض العقل البشري، وتوجيهه إلى النظرة في الكون واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود، عالما حكيما قادرا على كل شيء..."[1].

و" أن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة، واستنهضه للنظر في الخلق والتأمل فيما في الكون من آيات تدل على قوة الله وحكمته، وأن يتدبر فيها ليصل إلى معرفة الله" [2].

وفي رسمه لمظاهر الجمال في الطبيعة الذي هو صورة من الجمال المطلق، ينزع نزعة المتصوفة في إبراز فكرة التّجلّي:[3]

عرجنا، ننافخ بإينام ضُحَا   كأنّا اغتصبْنا لها مانِ صرْحا [4]
كأنّ الإله الجميلَ تجلّى [5]   فأغرق بإيْنام حُسنا وأوحَى! !

هذا الجمال الذي أغرق منطقة بإينام الجميلة فكساها حلّة من الحسن لا يشبهه حسن، هو تجلّي المولى

---

[1] طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط02، 1992، ص 23.
[2] محمد عبده، رسالة التوحيد، دار الفكر، بيروت، د-ت، ص 20.
[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص26.
[4] استمدها من قوله تعالى: " وقال فرعونُ يا هامانُ ابن لي صرْحًا " سورة غافر، الآية: 36.
[5] استمدها من قوله تعالى: " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا " سورة الأعراف، الآية 143.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جلت قدرته، غير أن المفارقة كبيرة بين ما يقصده الشاعر، وما يذهب إليه المتصوفة، فهم يرون " أن الله يظهر في صور المخلوقات التي هي رموز للذات الإلهية وإن تعددت أسماؤها، أو هي صور يبدو فيها الجمال المطلق، وهذا هو جوهر وحدة الوجود " [1] .

في حين يرى مفدي زكرياء، أن الله المنزه عن كل صفة لا تليق بمقامه لا يظهر بصورة من الصور الحسية التي تجعله يشغل حيزا من الزمان أو المكان، إنما يظهر في مخلوقاته من خلال آثاره المجسدة في الطبيعة، وتدركها الحواس، والتي هي أدلة على وجوده وقدرته.

لذلك " فالذي يرى الله في الموجودات وأنه روح الكون، لا شك أنه لا يفرق بين دين وآخر وكل الأديان هدفها التوحيد... " [2]. كما أن التأمل في بديع صنع الله عبادة وتبتل، فهو مصدر تعمير قلوب المؤمنين بنور اليقين، لذلك فهو لا يذكر في عبادة أو دعاء إلا واستهل الذكر ببديع صنعه وجمال خلقه[3]:

إلهي، إن ذكرتك في صلاتي ... فباسم بديع صنعك استهل

وإن أذكر جمالك في البرايا ... بوجهك في بلادي استدل

ويتبع الشاعر هذا الجمال الذي هو من جمال الله ونوره العلوي الذي يملأ نفسه، فتنتشي به لأنه لم يعبد الله رهبة من عذابه، أو رغبة في ثوابه، بل فوق هذه وتلك حبا فيه، واعترافا بما له عليه من فضائل ونعم، فهو أجل من أن يشكر، وأعلى من أن يعبد ويقدس، فالجمال هو مصدر هذا الحب ورسوخ هذا الإيمان.

- إن توظيف الطبيعة في الشعر ليس أمرا جديدا، بل كانت مادة الشعراء قديما وحديثا، خاصة عند الرومانسيين، فهي ملاذهم، يلجأون إليها هروبا من واقعهم، لكن شاعرنا يوظف عناصرها توظيفا يتماشى وعقيدة التوحيد، فهي وسائل بناء، ودلائل ايمان، ومن ثم فاللجوء إليها ليس استسلاما وهروبا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص302.
(2) المرجع نفسه، ص303.
(3) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص92.

من واقع مترد، بقدر ما هو تسخير لها خدمة للإنسان في دنياه وأخراه، بل هو الذي فتح لـــه الطريــق ليعمق إيمانه بخالقه ويزداد توحيده له وحده[1] :

فتـح الـجمالُ إلى الإلـهِ طـــريقَه   فتعمـق الإيـــمان والتـــوحيـــدا

وتسامــت الــصلوات في وجــدانـــه   فسطعن فـــي (سبط النبي) عقـــودا

فالجمال الإلهي يغمر روح الشاعر المتصوف، لأن التصوف " كمجاهدة للنفس يقتضي معنـــى الكمـــال والعظمة لما يرمي إليه المتصوف من ترفع عن الدنيا وتطلع إلى الأخلاق السامية " [2].

وما يمكن ان نشير إليه هنا أن " أهم مميزات الصوفية، الحب الإلهي الذي يسمو بالمتصوف إلى معرفة الله، والعاطفة فيه ليست عاطفة ناشئة عن خوف أو رهبة، بل إنها حب إلهي شـــديد، يربـــط الإنســـان بالله"[3] وفي نشوة هذا الحب تتدفق المعاني الروحية في صور رائعة الجمال، تسمو بالشاعر إلى مرتبـــة المتصوف المتعبد، الذي يرتبط بالله ولا ينقطع عن الحياة الدنيا، مصداقا لقوله تعالى: " وابْتَغِ فيما أتَـــاكَ اللهُ الدّارَ الآخرةَ، ولا تنسَ نَصيبَكَ من الدُّنيا "[4]، فهو خليفة الله في أرضه يحيا فيها ويســـخرها لنفعـــه ويحافظ عليها، ويتأمل ما فيها، ويتدبره بعقله الرشيد، للاهتداء به إلى الطريق المستقيم، وما أكثر ما في هذا الوطن من آثار بصمات الخالق المبدع التي تسمو بالمتأمل فيها إلى درجة التقديس الذي هـــو مـــن خصوصية الرب وحده، لا سيما وأن ما فيها من صور الجمال شبيه بجنان الخلد.

هكذا جعل مفدي من مظاهر الطبيعة مصدر شاعريته، ودليل إيمان ومحراب عبادة، يلجأ إليـــها وقت الشدة والرخاء، يتأمل جمالها، وبديع صنعها، فتمتزج عنده مشاعر المحبة للخالق بحب الوطن، وقد ربط الحديث عن العقيدة، بالمعنى الشامل للعبادة، ولم يربطها بالشعائر التعبدية وحدها، لأن طلب العلم والعمل به، والسعي في الأرض، وتدبر آيات الله في الكون، والدعوة إلى تماســـك المجتمـــع وتوحـــده

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص123.

(2) محمد الصغير بناني، مجلة الثقافة، الجزائر، السنة 16، العدد 93، ص 07.

(3) مصطفى الرافعي، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، ص 188.

(4) سورة القصص، الآية: 77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونشر الأخلاق الفاضلة، والتصدي لأعداء الأمة، هي من صميم الإسلام وعقيدة التوحيد لأن " الارتباط بين العقيدة ومقتضياتها الأخلاقية هو القيمة الحضارية الجوهرية في هذا الدين التي تجعل المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، مهما يكن نصيبه ضئيلا من العمارة المادية للأرض وتجعل العقيدة في هذا الدين هي جوهر الحضارة، بما يُشيع منها ويرتبط بها من قيم وأخلاق[1].

وفي غمرة هذا التصوير للجمال الإلهي الذي هو مصدر كل جمال، يسبح الشاعر في فضاءات الحب العظيم إلى درجة العشق والذوبان أمام كل جمال على عادة المتصوفة، فقلبه قد صاغه الخالق للهوى وأوقفه عليه:[2]

لواعجُ صبٍّ لا تبين، ولا تخفَى   وشُعلةُ حبٍّ لا تلين ولا تطفَى

لها من جمال المصطفى وجلالِهِ   إلى الكون ما أبدَى الكتاب وما أخفى

في البيتين تصوير للواعج الحب التي تلهب مشاعر مفدي وتبرز تعلقه بالجمال الإلهي، والنور المحمدي ينبوع شاعريته العظيمة، غير أنه لم يُوفق في نقل هذا الإحساس بسبب الصياغة التعبيرية السطحية التي تخلو من الإيحاء، إضافة إلى حرف الروي الذي يستثقل على النطق والسماع، فلا يحدث ذلك النغم الموسيقي المؤثر.

ويربط هذا الحب بعقيدته التوحيدية لأنه أساس إدراكه لله بقوله[3]:

ولولا الحبُّ ما أدركتُ ربّي   ولا حاولتُ من ربّي اقترابَا

هكذا يجعل الحب عبادة لا معصية، مادام يحقق غاية الفرد والجماعة المسلمة.

تبدو الأبيات منسجمة وروح الشاعر في الوعظ والإرشاد الديني لتثبيت العقيدة في النفوس بواسطة المزاوجة بين العاطفة الدينية وأسلوب المنطق المعتمد على الحجة العقلية والدليل المادي

(1) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مكتبة رحاب، الجزائر، ط02، د-ت، ص177.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص234.

(3) المصدر نفسه، ص64.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للتصدي إلى أعداء العقيدة، خاصة وأن الشعب الجزائري تعرض خلال محنته الطويلة مع الاحتلال الفرنسي إلى تدمير شامل على مستوى العقيدة والقيم والعلاقات، والتي لخصها الباحث التونسي عثمان الكعاك عام 1956 بقوله: " إن محنة الجزائر أشد المحن، والحرب لم تتقطع (1830-1956م)، إن الحرب لم تكن حربا في الأجسام بل كانت حربا في العقيدة قام بها (لا فيجري) وشيعة الأباء البيض وغير البيض حربا على الثقافة الإسلامية " [1].

من هنا يمكن القول: إن مفدي زكرياء، عشق الجمال عشق المتصوفة، فكان طريقه إلى اليقين، لأنه دليل التفرد في الخلق، والإتقان في الصنع، ورأي في الحب عبادة مادام يحقق غاية الفرد والجماعة وفق التصور الإسلامي للكون والحياة.

***- الدعاء والتوسل:**

الدعاء الصالح عبادة أوجبها الله تعالى ودل عليها في كتابه العزيز، وألزم نفسه الاستجابة لصاحبها بقوله: " وقالَ ربُّكُمْ ادْعوني استَجِبْ لكُمْ، إنَّ الذّين يستكبِرُونَ عَنْ عِبادتي سيدخُلُون جهنّمَ داخِرِينَ " [2]

وهو يرتبط بعقيدة التوحيد، يسعى صاحبه إلى الطمع في صفح أو مغفرة، أو رجاء في أمل يصبو إلى تحقيقه في حياته أو بعد مماته، وهو ما جسده مفدي زكرياء في شعره، حيث وقف عند هذه النفس البشرية وسبر أغوارها، فإذا هي مذنبة مخطئة، كما هي طائعة، تائبة، مستغفرة، فيقول:[3]

فَيَا ربِّ قد ضاقتْ علينا درُوبُنَا ... وغُصنَا إلى أذقانِنَا في الخَطيئَات

فلا تُخْزِنَا[4] عمَّا أتى سُفَهاؤُنَا ... ولا إثْمَ قومٌ كذَّبُوا بالرِّسالات

أطعْنَا وآمنَّا فوحِّدْ قُلُوبَنَا ... علَى الحقِّ واشْمِلْ سعْيَنَا بالعِنَايَات

---

(1) أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص155.

(2) سورة غافر، الآية: 60.

(3) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص236.

(4) استمدها من قوله تعالى: " ربّنا وآتنا ما وعدّتنا على رُسلِك، ولا تُخْزِنا يوم القيامةِ إنّكَ لا تُخلِفُ الميعاد " سورة آل عمران، الآية: 194.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذلك هو إحساس المؤمن التائب الصادق، لأنه رأى أخطاءه ماثلة في سلوكاته، وأثرها السلبي في بيئته، فوعى مقدار خطورته وضاقت به ساحات الدنيا الفسيحة، وأصابه الندم، فلم يجد ملجأ إلا عند رب العالمين، فراح يدعوه ويستغفره، ويتوسل إليه، ويقدم من جليل الأعمال ما يبرهن على توبته توبة نصوحا تكفيرا للذنب، وخدمة للإسلام ، كتخليد مجد الجزائر عبر تاريخها القديم والحديث، وبطولات رجالها، في ألفيته " إلياذة الجزائر " فيقول [1]:

فيا ربِّ قد أغرقتني ذنوبي   وأنتَ العليمُ بما في الغيوب

أتوبُ إليك بإلياذتي   عساها تُكفِّرُ كلَّ ذنوبي

وعلى هذا النحو تستمر مشاعره الصوفية في تدفق، حتى تبلغ مداها في نفسه المضطربة فيستشعر الهدوء والطمأنينة وراحة النفس، خاصة عندما يوقن أن الله يغفر الذنوب جميعا، وأنه يعفو عن المسرفين، فيعلن الطاعة المطلقة له، والتصديق بما حملته رسالة الإسلام، لأن وعد الله حق، وأنه لا يخلف الميعاد، لذلك يتجه إليه بالخطاب ملتمسا منه ستر العيوب وتيسير النفوس الضعيفة إلى الحسنى وملء القلوب الخاوية بنور الإسلام فيقول[2]:

أطِعنا[3] وصدَّقنا وواعِدْتَ سيِّدِي   وأنتَ الذي في الوعدِ إن نَكَثُوا أوْفَى

فلا تُشْمِتِ الأعداء فينا فإنّنا   عَهِدْنَاك لا ترْضَى لأمّتك الخَسْفَا

ويسِّر إلى الحُسنى نُفوسا ضعيفةً   وفتِّحْ قلوبًا للهدى، لمْ تزلْ غُلْفَا

وتنساب معاني الاسترحام والتوبة في أبيات مفدي، فتستوقفنا تلك العواطف الرقيقة، والمشاعر السامية التي تثير في النفس مشاعر الإيمان ومعاني الخشوع والتقوى للخالق، خاصة عند الملمات كرثاء

---

(1) مفدي زكريا ، ألياذة الجزائر، ص 114.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص235.

(3) استمد المعنى من قوله تعالى: " وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير " سورة البقرة، الآية: 255.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأعزاء وذوي الفضل.

وقد تعدّدت أنواع الدعاء والتوسلات عنده حسب المواقف، فمن إغراق في الذنب وطلب الصفح، إلى معاناة المذلة والشقاء والتعاسة، إلى الحب الإلهي الصوفي، إلى الاستعانة والاستنجاد بالله لرفع ما حل بالمسلمين ومقدساتهم وقت عجزهم عن دفع الظلم ومواجهة التحديات المفروضة عليهم كما حدث مع المسجد الأقصى، إذ صوّر انكسار المسلمين وعجزهم التام عن حماية حرمة بيت المقدس من سيطرة اليهود وفسادهم تصويرا يثير الشفقة والرحمة، من خلال هذا التوسل والاستنجاد الذي يسري في هذه العبارات المسترسلة. ثم يصعّد النغمة إلى درجة التوتر حين يلتمس بعث معركة حطين أو بدر لتطهير القدس وتحرير قبلة الله من عبث اليهود ومكرهم، ويكون النصر فيها للمسلمين كما كان يوم بدر، ذلك أن الله نصر المسلمين وهم أذلة فيقول[1]:

ومَنْ للقُدسِ غيرُك يا إلهي؟ ألمْ تَكُ مَنْ إذَا خَذَلُوا أجابَا ؟

ومَن للمسجد الأقصى، إذا ما شكاكَ المسجدُ الأقصى المُصَابَا ؟

فأينَ ابنُ الوليد -لها- وسعد؟ ومن بالقادسية عنك نابا ؟

فدع (حطين) تُبعثُ من جديدٍ فتترك (حائط المبكى) يبابا

وكُن للمسلمينَ كيومِ بدرٍ وواكبْ جُنْدَكَ الأُسْدَ الغِضَابا

هكذا يعمل مفدي على إثارة هذه العاطفة المشوبة بالإيمان العميق، الطامعة في الاستجابة لدعائها لبعث الهمم في النفوس لاحتواء القضية والدفاع عن مقدسات الأمة، وتخليصها من أعدائها.

إذا كان المسلمون في غفلة وقعود عن بيت المقدس وما أصابه من إساءة لحرمته فليس الأمر كذلك في مناطق أخرى من بلدان العالم الإسلامي، إذ توجد شعوب ترفض الخنوع والإذلال، وتدافع عن كرامتها

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص62-63.

وتحافظ على عقيدتها ومقدساتها، وتجعل نفوسها مرقاة للدفاع عنها لإعادة المجد الضائع، وبلوغ أعلى درجاته فتتسابق في مسبح الدماء للتبرع بالأرواح، واثقة بالله، آملة في نصره، مادام هذا الشعب يجاهد في سبيل الحقّ، ويقف في وجه الباطل.

ويستغرق في هذه الابتهالات الصوفية راجيا قبولها مستخدما كل العناصر الملائمة لتحقيق غايته لانقاذ الأمة من الهلاك، وحمايتها من التشتت والذويان، وتجسيد لحمة الأمة وتماسك أفرادها جميعا.

وينهج نهج المتصوفة في أورادهم متأثرا بأصحاب الطرق الصوفية ومن المريدين الذين يتوسل إلى الله عن طريقهم، فهم الذين ارتضوا له الطريق القويم، وأناروا قلبه بذلك النور الرباني الذي يغشاه وأشربوه حب الله والتوبة إليه، ولولا ذاك الشيخ لما كان له أن يدرك الله مبدع الكون ومصوره.

والشاعر لا يختلف في هذا المنحى عن المتصوفة في تصوير الأولياء من حيث نسج القصيدة إذ يبدأها كما يبدأ المتصوفة وينهاها كما ينهونها، غير أن الشيء الملفت للانتباه أن الشاعر يقترب في تصويره للأولياء والشيوخ كثيرا إلى النموذج الإسلامي للأولياء الذين مدحهم القرآن الكريم وأثنى عليهم لتقواهم وجليل أعمالهم، لا لشعوذتهم وانحرافهم. ثم يتوسل إلى الشيخ الشاذلي أن يشفع لهم حتى تسعد الأمة ويجتمع شملها، وتضمد جراحها، كما يتشفع بالرسول الأعظم لتحقيق نصر المؤمنين، وتطهير مقدسات الإسلام مما أصابها من عنت العابثين في جميع بلدان المسلمين[1].

***- صلة عقيدة التوحيد بمن أوجب الله الإيمان بهم:**

الإيمان بالله وعدم الشرك به أساس عقيدة المسلم، والإسلام هو الطاعة والاستسلام للخالق بتحقيق ما أوجبه وترك ما نهى عنه في رسائله السماوية التي جاءت على لسان رسله الذين اصطفاهم لتبليغها، وقد أعلمنا جل شأنه أن إيمان المؤمن لا يكتمل إلا إذا آمن بمن ورد ذكرهم في القرآن الكريم

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص239.

بقوله: " يا أيُّها الذين آمنوا آمنوا باللهِ ورسُولِهِ والكتَابِ الذي نزّل على رسُولِهِ والكتاب الذي أُنزل من قبْل ومن يكْفُرْ باللهِ وملائِكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيدًا " (1).

تناول مفدي زكرياء هذا الموضوع في شعره حيث أبرز قيمة كل عنصر وربطه بما يجري في الواقع كعادته في توظيف التراث توظيفا إيجابيا يخدم أمته، ويسعى بها نحو الانعتاق والتحرير وتحقيق الأمل المنشود.

***-الإيمان بالملائكة:**

فالإيمان بالملائكة عنده جزء من عقيدة المسلم لا يكتمل إيمانه إلا به، فهم رسل الله إلى أنبيائه وجنود مسومون يناصرون المسلمين في معاركهم ضد الكفر والطغيان متى وأين وجدوا كما حدث في الحرب التحريرية في الجزائر (*).

فقد صوّر جيش التحرير الوطني في معركته ضد المحتل الفرنسي تحدوه ملائكة الله مسومون لنصرة أبطال المعركة طلاب الحق رغم قلتهم وضخامة جيش العدو، كما حدث في غزوة بدر عندما أرسل الله ملائكة مسومين لنصرة الجيش الإسلامي وتمكينه من عدوه فيقول(2):

جيشٌ إلى النصرِ تَحْدوهُ ملائكةٌ مُسوَّمون بِموْجِ الموتِ يندفِقُ

ولم يكن إيمانه بالملائكة مجرد اعتقاد أو تلفظ، بل آمن برسالة الأنبياء ووظفها بما يتماشى وروح الدعوة الإسلامية، إذ لكل مخلوق رسالة يؤديها وفق توجيه رباني، ولحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى.

ولم يقف الشاعر عند هذه الصورة الجزئية للمعركة في الجزائر، جيش يقابل جيشٌ تحدوه الملائكة، بل رسم دائرة أوسع للمعركة، وتلاحم جنود الخفاء التي أنزلها الله تدعيما للجيش، وتقوية لصفوف المجاهدين، ملائكة فواتك في طليعتها الروح الأمين جبريل عليه السلام كما تنزّل في ليلة القدر بإذن الله.

---

(1) سورة النساء، الآية: 136.

(*) ثورة نوفمبر ضد الاحتلال الفرنسي (من 1-11-1954م إلى 05-07-1962م).

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص27.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتكبر الصورة وتتسع حين يصور الروح الأمين في إحلاله بأرض المعركة معجبا ببسالة المجاهدين يهيب ببطولاتهم، لأنهم آمنوا بالجهاد وسيلة لتحقيق النصر الذي وعدهم الله به كما وعد أبطال بدر[1]:

ملائـكٌ بالفواتِـكِ نـازلاتٌ بـإذنِ الله أرسـلَها خِطَابـا

تنـزّلَ رُوحُـها مـن كـلّ أمـرٍ[2] بأحـرار الـجزائـر، قـد أهَابَـا

ولم يكن نزول جبريل نزول الزائرين، بل نزول المكلفين بالأمر العظيم، كما نزل في ليلة القدر المباركة بالقرآن الكريم، وكما نزلت الملائكة لتكون في صف المجاهدين في غزوة بدر، والرسول قائدهم في المعركة يشجع المجاهدين ويدفعهم إلى الأمام، ويرفع جبريل صوته لبعث روح الحماس والتضحية في نفوس الأبطال ليزدادوا شجاعة وإقداما.

فالحديث عن الملائكة عند مفدي له أكثر من دلالة، فهو جزء من العقيدة، يؤدي إلى تربية الفرد على الفضائل والأخلاق الكريمة، والاتصاف بما يدفع المسلمين إلى فعل الخيرات وترك الشرور والموبقات كما أن الإيمان بالملائكة هو إيمان بمخلوقات لا يبصرها الإنسان، وهي دليل قدرة الله، تقود النفس المؤمنة إلى مجالات إيمانية تزيد في توقير الله وتعظيمه وإجلاله[3].

***-الإيمان بالكتب السماوية:**

أما الإيمان بالكتب السماوية فهو من العقيدة الإسلامية، والغاية من ذلك هي العمل بما فيها من مبادئ وقيم وتوجيهات، ارتضاها الله لنا لنسير عليها ونحقق بها هدف وجودنا كخير أمة أخرجت للناس.

من هذا المنطق يرى الشاعر أن الإيمان بالكتب كل متكامل لا تجزئة فيه، فهي منزلة إلى البشرية جمعاء، فلا يمكن الإيمان ببعض والكفر ببعضها كما فعل اليهود والنصارى، لقوله تعالى: " وإذا قيل لَهُمْ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) المصدر نفسه، ص31.
(2) استمدها من قوله تعالى: " تنزلُ الملائكةُ والروح فيها بإذْن ربِّهمْ من كلّ أمْر" سورة القدر، الآية: 04.
(3) حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط01، 1989، ص72 وما بعدها.

آمِنُوا بما أنْزِل الله قالُوا نؤمِنُ بما أُنْزِل علَيْنا، ويكْفرُون بما وراءهُ وهـــو الحــقُ مُــصدّقًا لمــا معَـــهُمْ "(1).

وإذا كانت للكتب السماوية هذه القيمة العظيمة في مضامينها، وسمو معانيها ومبادئها التي تمثل دســتور الإسلام ومصدر تشريعاته وقوانينه، فقد أشاد بها الشاعر ونوّه بأعمال الرجال الساهرين عليها. فها هـو يشيد بوزارة الشؤون الدينية الجزائرية التي اهتمت بالقرآن الكريم، وأعادت له الاعتبار بقوله(2):

رعَــى اللهُ فــي العامليــن الــوزاره ... أعــادتْ لِعلــم الـكتابِ وقـــاره

فكــم ظــل يشكُــو الكتــابُ عُقــوقًا ... ويلعَــنُ مــن يَطْمِســُون منَـــاره

وكَــمْ وصمــوه بعُقــمٍ، وقالــــوا ... تجــاوزه اليــوم ركــبُ الحضــاره

فالشاعر نقل إلينا أحاسيسه بأسلوب مؤثر يعبر عن إيمان صادق بالقرآن الكريم، والتقدير الشديد للساهرين عليه، والرغبة الملحة في التصدي لأعداء الإسلام، المستهينين بالقرآن، الجاهلين بمضامينـــه وأحكامه.

ومع وضوح الأسلوب وتقريريته ومباشرته، إلا أنك تقف على حسن تنسيق العبارات وترتيبها وترابطها واختيار رويها المناسب الذي يعطي إيقاعا ينساب بين الضلوع انسيابا هادئا ليصل الفؤاد ويفجّر ما فيــه من أحاسيس ومشاعر إسلامية: وقارهْ، منارهْ، الحضارهْ، الطهارهْ، فمن الوقار ومن الجمال والجلال إلى المنارة ورمز الإشعاع لإضاء طريق الضالين، إلى الحضارة مصدر إسعاد البشر، إلى معـــاني النقـــاوة والطهارة. أي معانٍ كهذه التي يتصف بها كتاب الله ؟.

ويذهب الشاعر بعيدا في تعلقه بالقرآن الكريم، حين يرى المحافظة عليــه، وتعليمــه للأجيــال فرض على المسلمين جميعا، يأتي في مقدمتهم أولى أمورهم، من علماء، ومعلمين، مصلحين وزعمـــاء سياسيين.

(1) سورة البقرة، الآية: 90.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص113.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

***- الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام:**

الإيمان بأنبياء الله ورسله وجه آخر من وجوه الإيمان، وركن من أركانه، وأجر إيمان المؤمنين بالرسل أجمعين عظيم لقوله تعالى: " والذين آمنوا باللهِ ورسُلِهِ ولمْ يُفرّقُوا بينَ أحدٍ مِنهُمْ أُولَئِكَ سَوفَ نُؤتيهم أُجُورَهُمْ "[1].

وقد عبر الشاعر عن هذا الإيمان تعبيرا صادقا يوحي بتعلقه بأصحاب الرسائل المنزلة، إذ لا فرق بين هذا وذلك، فهم جميعا إخوة وهداة للبشرية، مبشرين ومنذرين لتثبيت الإيمان في النفوس الحائرة، وجمع المسلمين على الحق والدّين، وعن ذلك يقول[2]:

وعيسَى، ومُوسى والنبيُّ محمد أشقاء، لا يُخفُون حِقْدًا ولا ضَغْنَا

تعانق فيه مسجدٌ وكنيسةٌ (نواقيسها) وقَعْنَ (آذانه) لحنَا،،،

وقُلْ لرجالِ (الفرس) لا فَرْقَ بيننا فلا تقطعُوا أرحامَنا ... أنتم مِنَّا...

ويصور موقف الإسلام من الديانات السماوية فنراه يحترمها، ويحترم أماكنها المقدسة في بلاد الإسلام انطلاقا من الإيمان بالرسل أجمعين، ثم يبرز علاقات الديانات ببعضها، ونهج الرسل في تبليغ رسالات ربهم لتنظيم مجتمعاتهم، فهذا النبي محمد يصاهر عيسى عن طريق **مارية** القبطية ويلتقيان في سبيل نصرة الحق، والدعوة إلى تحقيق مرضاة الله، وهذا النبي موسى يلتقي بهما في الدعوة إلى الأخوة والتحاب، ونبذ التباغض، إلى غير ذلك من الروابط التي تجمع رسل الله جميعا.

---

[1] سورة النساء، الآية: 152.

[2] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص150.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

***- الإيمان بالموت والبعث والقضاء والقدر:**

ومن باب الإيمان بالموت والبعث والقضاء خيره وشره، فقد صوّر مفدي بروح إسلامية الموت وانتقال الإنسان إلى الدار الآخرة، باعتماد صورة الشهيد البطل "**أحمد زبانا**" الذي عاد إلى ربه في أوبة أبدية، راضيا بجهاده، مرضيا عنه، حاملا معاني المجد، شهيدا في سبيل الحق والوطن والدين.

وهو في ذلك يربط حديثه عن الأخوة بحديثه عن الدنيا لأنها طريق إليها، ومن ثم فهو يدعو إلى الحياة والتمكن من أسبابها قبل الرحيل، لتحقيق حكمة الله من تعمير الأرض، ومن خلال هذا الموقف يذم أولئك الذين لا يسعون في طريق الحياة، ولا يدافعون عن مقدسات الأمة وحياضها ويعتبرهم موتى في حياتهم، في وقت يكون الأموات أحياء في قبورهم مثل الشهيد "**أحمد زبانا**".

ففي قصيدة "**أغادير الشهيدة**" يصور الموت وقد طوى أبناءها، لكنه في الوقت نفسه عبد طريق الحياة وأنارها للمنتصرين، وضمن الخلود في نعيم الخلد للشهداء في معركة الجهاد، الذين تتصاعد أرواحهم طاهرة إلى الملكوت الأعلى، كما تصاعدت من قبل نفوس المجاهدين، من الصحابة والتابعين، وأبطال الجهاد الإسلامي عبر تاريخه الطويل فيقول[1] :

وإذا المـوتُ طوى أبناءَها إنما المَوتُ طريقُ الحياة

فاتركوها تتصاعد للسّمآ ودعُوها تستَرِحْ في الخالِدات

وإذا كان موت الأبطال في سبيل الحق والواجب طريق الحياة، فهم قربان هذا الشعب، وصانعوا مجده وهم أحق كذلك بالاستراحة والخلود في دار الهناء.

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص169.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكما وقف مفدي عند اليوم الآخر من موت وبعث ونشور، فقد وقف عند الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره كجزء هام من عقيدة المؤمن، إذ لا يحدث حادث إلا بتقدير من خالق الكون، وما يصيب الإنسان من خير أو شر إلا بتقديره كذلك، لقوله تعالى: " قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا " [1].

ولنا في شعره أكثر من محطة تستوقفنا في هذا الموضوع، فهو ينظر إلى الإيمان بالقضاء والقدر على أنه " حافز داخلي يدفع بالمؤمن نحو الفضائل والمثل العليا،وتحفزه نحو الإيجابية والخير وفي الوقت نفسه تنعكس على سلوكه الاستقامة،وعلى خلقه العلو والنبل، وعلى عمله الصلاح والفلاح. كل ذلك يعود بالخير والفائدة عاجلا أو آجلاعلى سعادة ورفاه وخير الإنسانية في تقدمها وحضارتها "[2].

يسلم الشاعر بأن انطلاق الثورة الجزائرية المباركة كان قضاء وقدرا من الله كي ينتصر هذا الشعب على ظالمه العدو الصليبي، مادام يملك إرادة قوية، وتصميما على النصر فيقول[3]:

نطق الرصاصُ، فما يُباحُ كَلامُ! وجرى القصاص، فما يباحُ ملامُ !

وقضى الزّمانُ، فلا مردٌّ لحكمه وجرى القضاء، وتمّتِ الأحكامُ..

استوحى هذا المعنى من القرآن الكريم متأثرا بمدلول الآية الكريمة: " إذا قَضَى أمرًا فإنّما يقولُ له كُنْ فيكُونْ " [4].

وقد أبدع فيها معنى ولفظا وصورة، حيث صُبَّ تجربته الشعرية وإيمانه العميق بالقضاء والقدر في إطار تعبيري، متناسق، ينم عن قوة شاعريته، وقدرة على حسن توظيف اللغة، فالإيمان بالقضاء والقدر لا يعني عند الشاعر السلبية أو الاتكال والقعود اعتقادا بأن ما هو مقدر سيحصل، بل لا بدّ من السعي وبذل الجهد، والتضحية مع الصبر، والرضى بعد ذلك بما يحدث، إن مسّه خير فلا يمنع، وإن مسّه شر

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] سورة التوبة، الآية: 51.
[2] حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، ص89.
[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص42.
[4] سورة آل عمران، الآية: 47.

فلا يجزع، وفي ذلك يقول[1] :

فليسَ الفـلاحُ بنقـر الـدفـــوف   ودعـوى الضريح وخـط الزّبـرْ

بـل النّصـر في السعــي والاتحـاد   لنيـل المنــى ودوام النّظـــر

وصـبـر وحـزم وعــزم إلـى الـ   ـعـلا ورضــى بالقضـا والقــدر

وتتجلى هذه الصورة الإيمانية عند الشاعر في أكثر من موضع، خاصة عند تصوير الخطـوب والملمات، والمآتم، والأهوال التي حلت بمجتمعه، وتتزايد من يوم لآخر، ولعل أفضل تصوير للإيمـان بالقضاء والقدر والتسليم به، ما ورد على لسان البطل الشهيد **"أحمـد زبانـا"** عندما اقتيـد إلـى المقصلة في شموخ واعتزاز بجهاده وتحدٍّ للعدو[2]:

واقـضِ يا موتُ فـيَّ ما أنـتَ قاضٍ   أنـا راضٍ، إن عـاشَ شعبي سعيدَا

وهو اقتباس من القرآن الكريم " فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إنما تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِـرَ لَنَا خَطَايَانَا " [3].

ولعلك تلاحظ كيف يمزج الشاعر بين الصور ليبدع صورة جامعة لمضامين تلك الصور، فـي سياق تعبيري متآلف: كرسمه لطرفي الصورة في شطر البيت الأول ممثلا بمشـهد المـوت الحزيـن المحتوم الذي لا يخطئ الإنسان: " أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُّشَـيَّدَةٍ " [4]، مـع التسليم التام والرضى بما هو مقدّر.

أما في الطرف الثاني ففيه إشراقة أمل، وبذلك ربط بين التسليم بالقضاء والقدر، والجهاد مـن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب التونسية، بتاريخ 06-05-1925.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص10.
[3] سورة طه، الآيتان: 72-73.
[4] سورة النساء، الآية: 78.

أجل الحياة وتأدية الرسالتين الدينية والوطنية؛ لأن القضاء والقدر مساير لحياتنا، حالّ بكلّ أعمالنا حين نخلص النية ونعمل بروح مؤمنة بالله وقضائه وقدره، فنؤدي ما علينا ونترك ما لله لله، كما في قوله يمدح زواج الأميرين المغربيين(1):

عُطِّرَ الكونُ بالخيرْ زُفَّتْ الشّمسُ إلى القمرْ

بارك الله لحمةً صنَعَتْهَا يدُ القدَرْ

في الدعاء، مدح وتقرب من العائلة الملكية، إلا أنه لا يخلو من روح إيمانية بقدر الله، وهذا الاعتقاد مسلم به في المجتمع الجزائري، إذ يعتبر الناس الزواج من هذا الباب، ويطلقون عليه (المكتوب)، أي ما كتبه الله عنده وقدره من رجل أو امرأة للآخر يحصل.

من هنا يكون الإيمان بالقضاء والقدر تربية روحية ونفسية، وإعداد سلوكي، يجعل المؤمن بالعقيدة الإسلامية وقضاء الله، إنسانا قويا الشكيمة، إيجابيا في حياته اليومية، من غير وهن ولا جزع إن حلّت به مصيبة، أو ألمت به كارثة، أو نزلت عليه نازلة، لأنه يعلم أن ذلك مقدر من خالقه، فيصبر لينال أجر الدنيا والآخرة، وبذلك يصير الإنسان سويا في تفكيره، مخلصا في عمله، غزيرا في إنتاجه الذي يستمر ولا يتوقف(2).

ب-العبادات:

العبادة هي إفراد الله بالربوبية، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية، وتطبيق ما أمر به، والابتعاد عما نهى عنه، وهي رباط روحي بين العبد وخالقه، جامع لمشاعر العابدين نحو المخصوص بالعبادة والتقديس ومحقق اللحمة بين جميع المؤمنين، والحديث عنها وعن أثرها في حياة المسلمين من باب الإيمان الصحيح، لأن عبادة الله هي الهدف الأساسي من خلق الجن والإنس، كما ورد ذلك في القرآن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص174.
(2) حسن رمضان، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، ص89.

الكريم: " وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْس إلاّ ليَعْبُدُوني " [1]، كما أنها تربية كاملة تعد المؤمن للحياة الدنيا السعيدة، وفي الوقت نفسه تعدّه للآخرة[2].

لذلك نراه حين يصور المؤمن وهو يؤدي فريضة الصلاة، أو الزكاة، أو صوم رمضان، أو حج بيت الله، يعطي البعد الحقيقي لهذه العبادات في مختلف جوانبها: الروحية، والاجتماعية، والاقتصادية والأخلاقية... كونها نظام حياة دنيوي يحقق به المجتمع الإسلامي نهضته، ويرسى قواعد حضارته، ولا يجعل من هذه العبارات طقوسا وشعائر تقام دون فائدة ترجى، لأن ذلك يخالف حكمة الله من فرضها وتحديد أهدافها وغاياتها.

إننا لا نقف على قصائد ومطولات خصصها مفدي للحديث عن العبادات بفرائضها وسننها، ومستحباتها، وإنما نقف على أبيات أو مقطوعات من قصائد، يصور فيها جانبا من هذه العبادة أو تلك موازنا بين ما تتضمنه من قيم، وما ترمي إليه من أهداف، وما يجري في واقع الحياة اليومية للمسلمين، تعبيرا عن موقفه الرافض لسلبية المجتمعات الإسلامية، داعيا المسلمين إلى امتلاك سلاح نهضتهم للالتحاق بركب الحضارة والتقدم.

وقد جعل من بيوت الله مصادر إشعاع الأمة، تزيل الغشاوة عن عقول أبنائها وقلوبهم، وتقوى إيمانهم، وتسمو بهم بين الأمم، وتنير طريقهم نحو المستقبل فيقول:[3]

تسامت مصادر إشعاعنا ... تدْعَمُ خالِصَ إيماننا...

مساجدٌ للهدى في كل فجٍّ ... تُنير السّبيل لأجيالِنا

وجامعُ كتشاوة المستعاد، ... أما انفك رمزا لإجلالنا ؟

---

[1] - سورة الذاريات، الآية: 56.

[2] - حسن رمضان: مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، ص: 91.

[3] - مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، ص: 91.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالمسجد ملتقى المسلمين، وناديهم، ورمز عقيدتهم، ومحقق وحدتهم، يلتقــون فيــه، يــؤدون صلاتــهم ويتدارسون شؤون حياتهم، ويعالجون مشاكلهم.

في الأبيات اعتزاز، وفخر بما تشع به دور العبادة اليوم من القيم السامية، وإشادة بما أدته من دور فعال في ترسيخ قيم الإسلام في المجتمع منذ أربعة عشر قرنا.

ومع سلامة اللغة، ورقة العبارة، نلاحظ فيها سطحية ومباشرة نتيجة خلوها من الإيحاء الذي ينفخ فـــي القصيدة روحها الشعري، ويسمو بها فنيا، لأن الشاعر يجري وراء توصيل أفكاره، فلم يجد أفضل مــن المباشرة القريبة من أذهان عامة المخاطبين.

ومن خلال حديثه عن رسالة المسجد في المجتمع الإسلامي بيّن أثر الصلاة فـــي النفــس، لأن المؤمن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم، يقوم فيها أعماله، ويخنع لربه، يطلب العفـــو والمغفرة، ويقرأ آيات القرآن في صلاته، فيسترشد بما تدعو إليه، فيزداد إيمانا على إيمـــان، وتقــوى على تقوى، وقد جسّم ذلك في تصوير حي لمشهد من جهاد الجزائريين، ضد الاستعمار الفرنسي، ومـــا اتسموا به من صمود وشدة وصبرٍ آملين أن يفرج الله كربتهم، ويغمرهم بعد العسر يسرا كما وعدهـــم في القرآن الكريم[1]:

ويقــرأ في التّنزيـلِ، عنـدَ صلاتِـهِ   بأنّـك بعدَ العســرِ، تغمُــرُهُ يُسْرًا[2]

إن الصلاة عند شاعرنا ليست شعيرة تؤدى فحسب، بل هي إلى جانب ذلـــك معـــانٍ ســـامية، وعلاقات روحية، واجتماعية، وأخلاقية، يبني على أساسها المجتمع الفاضل الذي أراده الإســلام المتمثل في أمة الصلاة التي كانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكــر

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص309.

(2) اقتبسها من قوله تعالى: " فإنّ مع العُسرِ يُسرا، إنّ مع العُسرِ يُسرا " سورة الانشراح، الآيتان: 5 و 6.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما صورها رب العالمين في قوله: " كُنتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُون بِالمَعْرُوف، وَتنْهون عَنِ المُنْكَـرِ وَتُؤمِنُون باللهِ " [1].

لذلك وظّف مفدي هذه المعاني لإبراز الوجه المشرق للإسلام، وما يحمله من مبادئ وقيم نبيلة تنظم حياة المجتمعات، رادا على الدعوات الهدامة التي تلصق كل تأخر للمسلمين بدينهم.

والزكاة من باب العبادات كذلك وقد لفِت الإسلام نظر الإنسان من خلال أحكامه وتشريعاته إلى أهمية الزكاة كقوة مادية ومعنوية للفرد والمجتمع في آن واحدٍ، فهي رابطة قوية بين المؤمنين لما يتحلّى به المزكّي الصادق، من عطف، ومودة، ورحمة بالناس، خاصة وأنه يقدمها عن طيبة نفس واعتقاد صادق بأن هذا المال مال الله، وأن للفقراء والمساكين حقًّا فيه لتحسين أحوالهم، ورفع مستواهم المادي ليعم الرخاء مجتمعهم[2]. وقد صوره الشاعر بأنه ادخار في مصرف الله تعالى، داعيا الناس إلى هذا الربح المضمون بقوله[3]:

والربح- يا ناسُ – مضمنٌ، ومدَّخَـرٌ في مصرف الله، لا في (البنك) مرصودُ

وفريضة الصيام لا يعبر عنها كركن من أركان العقيدة، بل يقف منها عند ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ليربط بين ما حدث فيها، وما حدث في ليلة أول نوفمبر 1954 بالجزائر، لكونهما تماثلتا في الأهداف والنتائج، وإذا كان يوم انتصار بدر حققه مجاهدون تحفهم ملائكة الله، وهو يوم مشهود في تاريخ الإسلام، وبداية تغيير جذري في حياة المجتمع وانتصار على الشرك، والضلال فإن أول نوفمبر كان نقطة تحول في تاريخ الجزائر الحديث مهّدَ لانتصار كبير حققه المجاهدون بفضل جهادهم، وصبرهم.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: 110.
[2] حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، ص117.
[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص271.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من هنا يرتفع صوت الشاعر مخاطبا نوفمبر الجزائر[1]:

دعَـا التاريـــخُ ليلـــك فاستجابـا   (نوفمبــر !) هل وفّيْتَ لنا النّصابا ؟

وهل سمِـع المجيبُ نـداء شعـــبِ   فكانـتْ ليلـةُ القـدرِ الجوابَــا ؟

نلمس في البيتين روح الثورة التي تحمل روح الشاعر الثائرة للتعبير عن موقفه جسدتها قوة العبارة مع أن ليلة القدر تحتاج إلى روح خاشعة تناسب موقف العبادة الذي يحتاج إلى العبارة الرقيقة، والموسيقى الهادئة.

هكذا يوظف مفدي كل ماله علاقة بأركان الفرائض، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، توظيفا إيجابيا حيث لم يجعل من العبادة شعائر تعبدية فحسب، وإنما يربطها بواقع الأمة الإسلامية المأساوي وتضحيات رجالها، قصد إثارة الهمم، لتحقيق الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي صيانة حرمة المسلمين وتحرير أوطانهم، وتحقيق شرع الله في أرضه.

***- المدائح النبوية:**

المدائح النبوية(*)من الموضوعات التي لها ارتباط بالشعائر التعبدية، لأنها تعني بشخصية المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وسيرته، فتعدد مآثره وتنوه بمحاسن أخلاقه، وبدعوته التي أرادها الله أن تكون للناس نورا يهتدون به، وأوجب علينا طاعته، وتطبيق أوامره بقوله: " ومَا أَتَاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ، وما نَهَاكُمْ عنهُ فانتَهُوا "[2]. لأنه (ص) "مَا يَنْطِقُ عَنِ الهوَى، إِنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحى "[3].

وقد ظهر المديح النبوي مع ظهور الإسلام على يد حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر الدعوة الإسلامية الذي أشاد بروح الدين الجديد، الذي جاء به محمد (ص)، وهجاء المشركين بكفرهم وضلالهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص30.

(*) المديح النبوي، يشمل غرضي: المدح والرثاء المعروفين، لأن الرسول ملازم لحياة المؤمنين، حال بقلوبهم لا يفارقها، بينما الرثاء في غير هذا الموضوع تعداد لمناقب الموتى، يطبعه التفجع، والحزن، والحسرة.

(2) سورة الحشر، الآية: 07.

(3) سورة النجم، الآية: 04.

ثم شهد هذا الغرض تطورا واضحا مع تطور الأحداث عبر القرون إلى يومنا هذا. فمن الدفاع عن الدعوة في بداية أمرها، إلى سرد قصصي لحياة الرسول، إلى بيان مزايا الشريعة، وتصوير كفاح الرسول، والتركيز على جهاده، وإحياء الروح الإسلامية لمعالجة قضايا المجتمع الإسلامي، عن طريق استنهاض المسلمين وبعث النخوة فيهم، من خلال أحداث السيرة النبوية[1].

ربط مفدي زكرياء الحديث عن السيرة النبوية بأحداث واقع أمته في الجزائر وبلاد المسلمين اليوم، فقد صوّر مولد الرسول في ربيع الأول بأنه بشرى خير عمت الدنيا، وأن الله اختاره لهذه الرسالة العظيمة التي أنار بها العقول، وطهّر النفوس، وأزاح الظلم، والهوان عن المظلومين، وحقق العدل والمساواة بين البشر، وحرر المجتمعات من تسلط حكم المستبدين، فحولها إلى أمة قوام نظامها السياسي الشورى في الأمر واتخاذ القرار، فقال[2]:

يا ربيعًا، ملْءَ العالمَ بُشْرى   يا وليدًا أودع الأكوان سرّا

يا نبيًا، بثَّ فيكَ الغيبُ أمرا   فصدعتَ الغيبَ، والأفلاك حيرى

وأنرتَ العقلَ، والأحلامُ سكرى   وأزحتَ الظلمَ، والويلات تتْرَى

وجعلتَ الأمرَ بين الناس شورى   ليس فيهم ذِمَمٌ في الحيِّ تُشْرَى

ليس فيهم قيصر(*) يبغي وكسرى(**)

فتصوير ظهور الرسول بهذا الدين الجديد، وكيف " حرّر الإنسان من ظلم القياصرة وسيطرتهم، هي فكرة حديثة في الربط بين مدح الرسول ورسالته الإنسانية السامية... "[3]، لأنه صوره بما يستحقه

(1) نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري الحافظ، ص195.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص237.
(*) لقب لملوك الروم قديما.
(**) لقب لملوك الفرس قديما.
(3) عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص95.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من تعظيم وتبجيل، فهو خير للإنسانية جمعاء التي ظلت السبيل، فجانبها الحق والخير والعدل[1].

ومن هذا المنطلق ربط بين ذكرى مولد النبي والاحتفال بتدشين دار الطلبة بقسنطينة، مركز الإشعاع العلمي، والنور الإسلامي؛ لأنها دار أسست على التقوى لتربية النشء تربية إسلامية، تنير عقولهم، وتمدهم بالعلوم والمعارف، لإعادة بناء نهضتهم من جديد، لتحقيق رسالة الدعوة المحمدية الخالدة[2]:

هـذا احتفـالٌ بطـه، أم بناشئـة   من هـدي طـه، لها ديـن وتوحيدُ
محمـد في ربيـع الكونِ، مـولدُه   وبيتكـم في ربيـع الدهـرِ مولـودُ

في البيتين عاطفة إسلامية صادقة،مفعمة بالحب لرسول الله ولآثار رسالته في الأمة، ممتزجة بحب العلم ومؤسسات نشره، وقد انعكست هذه العاطفة على الصور التعبيرية،فجاءت الألفاظ دقيقة، سهلة معبرة عن المعاني، مؤثرة بدلالتها اللغوية، زادها الإيقاع الموسيقي جمالا وقوة إيحاء.

إذا كانت هذه هي رسالة محمد (ص) جاءت لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فإن المسلمين قد احتووا قيمها ومبادئها فكان إيمانهم ثورة على جهالتهم وضلالهم، مسترشدين بعقولهم التي لا تناقض شريعة الإسلام، ساعين في طريق العدل والحق وتأصيل المجتمع، يحدوهم الإيمان الصحيح والتصديق بالرسالة، وكان ذلك من أسباب انتصارهم على أعدائهم، ولنا في ذلك أكثر من دليل، وفي أكثر من موطن إسلامي، وفي مقدمتها بلدان المغرب العربي، فيلتفت إلى الرسول (ص) مادحا في أسلوب ميزه التصريع الذي أضفى على الأبيات مسحة من الجمال التشكيلي، إلى جانب سمو المعاني قائلا[3]:

يا رسـولاً، بـكَ حطّمْنـا الضلالـه   واهتديـنا، فعصفنـا بالجهالـه

---

[1] أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، ص 65.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص250.

[3] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص237.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اعتمدنـا العقـل، نستوحـي جلالـه وعرفنـا الله نستقصـي جمالـه

ورأينـا الرفـقَ بالخلـقِ عدالـه وعريقَ الأصل مَنْ يدّعي الأصالـه

ثم آمنـا، وصدّقنـا الرّسالـه فانتصرنـا مُـذْ تفيّأنـا ظِلالـه

وبئـال البيـتِ خلّدنـا احتفالـه

إلى جانب مدح الرسول بأخلاقه وجهاده فقد ربط هذا المدح أيضا بالتوسل والدعاء، والاستشفاع، طالبا إصلاح أوضاع الأمة ومساعدتها على النهوض من كبوتها، كما ربط بين مدحه للرسول (ص) وتصوير الأماكن المقدسة للمسلمين، كمكة أو القدس أو المدينة أو غيرها، لأن الحديث عنها هو حديث عن صاحب الرسالة الخالدة.

لم يكن هدف مفدي تصوير حياة الرسول (ص) وإبراز صفاته وأعماله، والتقرب به إلى الله فحسب، وإنما للاستفادة كذلك من العبر المستخلصة من حياته، لبعث الحياة في النفوس الميتة.

من هنا نقول: إن مديحه لم يكن لمجرد التغني بمبادئ الرسول وآثاره الخالدة في حياة البشر، بل كان ينتهز فرصة مديحه (ص) فيعمل على إيقاظ النائم الرازح تحت نير العبودية والاستعمار، رابطا المفاهيم الدينية بقضايا المجتمع، داعيا إلى استنهاض الهمم لمعالجة الواقع الذي ابتعد عما في جوهر الدين الإسلامي الحنيف، إذ صار الدين بعيدا عن منابعه الصافية، فاختلط بالخرافات والبدع التي نسجها الجهل والاستعمار، لذلك يكون علاج هذا الفساد عن طريق العودة إلى الاقتداء بسيرة الرسول (ص) وجهاده، وأخلاقه قولا وفعلا، وليس مجرد التغني بفضائله وصفاته الخلقية النبيلة[1].

هكذا يستسلم مفدي التاريخ الحضاري للأمة الإسلامية ليأخذ منه العبر لصنع دوافع التقدم لمجتمعه، وبذلك ينهض ويزدهر، ليلتحق بالركب الحضاري المعاصر.

كما مدح الصحابة والتابعين الذين شيّدوا الحضارة الإسلامية على أساس من الآخاء والعدل والحرية

---

[1] نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1983، ص97.

والمساواة، فوقف مرحبا بأبناء العمومة العرب الفاتحين، الذين حملوا إلى الجزائر وإفريقيا والعالم رسالة السماء، وفي مقدمتهم البطل المغوار عقبة بن نافع الفهري، فاتح شمال إفريقيا، وباني جامع القيروان المعلم الحضاري الخالد، في المغرب العربي الذي صار مركز إشعاع إسلامي ينير الكون بضيائه، وفي ذلك يقول[1]:

فأهـــلاً وسهـــلا بأبنـــاء عَـــمٍّ   نزلتُـــم جزائرنـــا فاتحينـــا

ومرحـــى لعقبـــة فـــي أرضنـــا   ينيـــر الحِجـــى ويُشيـــع اليقينـــا

ويُعلـــي الصوامـــع، في القيـــروا   نِ، ويرفعُـــها للدفـــاع حُصونـــا

إن الشاعر تجاوز مدح الصحابي عقبة بن نافع كصحابي إلى مدح أفعاله وتضحياته من أجل الإسلام فأشاد بمكانته وأخلاقه، وعدله في إدارة شؤون الأمة.

وفي تصويره لبطولات أبناء الريف ضد أعدائهم يذكرهم بأن ما يتصفون به هو من صفات أبطال الفتح الإسلامي الذين أسسوا الحضارة الإسلامية، التي امتدت من الصين شرقا إلى أوربا غربا.

والإشادة بهذه البطولات هي بعث العزة في نفوس شباب المسلمين للدفاع عن أنفسهم لاستعادة ما ضاعَ من مجدهم.

لقد ذابت روح الشاعر حبا في الصحابة الفاتحين لما كانوا يتصفون به من معاني البطولة والفداء ، من أجل نشر مبادئ الإسلام، وإقامة الدولة الإسلامية، واشتياقه إلى تحقيق مثل هذه الصفات في الخلف الصالح، وهي دعوة صريحة إلى الاقتداء بالصحابة في مناصرة الإسلام ونشره بين الناس والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر ، ص43.

وكأني بالشعب الجزائري في ثورته الكبرى يسمع هذه الدعوة، ويتردد صداها في جبال بلاده ووهادها وسهولها، فيقفوا أثر عقبة في النضال هازئا بالمستحيل، بعزائم تفل الحديد.

وعلى غرار مدحه للرسول وصحبه، مدح آل البيت ومن انتسب إليه قديما وحديثا؛ لأنه فرع من مدح الرسول (ص)، ولم يكن مدحه على عادة شعراء المديح، إنما تجاوز فيه مدح الأشخاص إلى مدح الصفات التي تحلهم محل الإجلال والتقدير، فهم من العلويين المنتسبين إلى بيت النبوة، يتصفون بالقيم الخلقية النبيلة التي هي قيم الرسول وأخلاقه، وكان انتسابهم إلى بيت النبي تشريفا لهم من الله تعالى الذي أراد لهم العزة والسؤدد، فأعزّ بهم الإسلام ووطّد بهم أركان الإيمان، فقال[1]:

فــرعٌ مــن العلوييــــن الذيــن هُمُو   للمــكرمــاتٍ دعامــاتٌ وأركـــانُ

الله شــرفَ في الدنيـــا منابِتَكُــــمْ   ومِنكــم اعتــزَّ إســـلامٌ وإيمـــانُ

لم يكتف بمدح الحكام بهذا النسب، وإنما امتد مدحه ليشمل شعب المغرب بأكمله، مادام عرشه ضاربا بجذوره وأصوله في بيت النبي (ص)[2].

وينطلق في قصيدته معجزة الرجال بروح مؤمنة بدور الرجال العظماء الذين صنعوا مجد الأمة أولئك الأشراف الذين يستحقون الشكر والتقدير أمثال الملك فيصل بن عبد العزيز فيغمره حمدا لدوره الفعال في حماية المقدسات الإسلامية، والدفاع عن المسلمين، كما ينحني ليقبل الأماكن التي تنقل فوقها الرسول (ص) ويشم تربة أرض صناع المعالي فيقول[3]:

ذَرونـــي أغمُـــرُ الأشــراف حمــدًا   وأُســدِي الشكرَ من صقلوا خيالـــي

ومن أثَــرِ الرســولِ أشــمُّ تربــا   وألثــم أرض صنّـــاع المعالِـــي

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص 225.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص108.
[3] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص 102.

فمن خلال عرضه لصفات آل البيت، يوظفهم توظيفا إيجابيا يحقق به أغراض الأمة، فها هـو يتجه إلى سبط النبي حاثا إياه على التوسط لهذا الشعب لدى جده لائذا به من الفرقة التي حلـت بأمتـه ليجمعهم صفا واحدا، ويحقق وحدة المغرب اليوم التي هي طريق إلى وحدة المسلمين غدا.

وهنا تبرز الروح العربية الإسلامية التي فعلت فعلها في الشاعر، كما يبرز تعلقه بالأسرة المالكة سـليلة بيت الرسول (ص)، وطموحه إلى لمّ شمل الأمة، للوقوف في وجه عدوها المشترك فيقول[1]:

سـلْ لنَا جـدَّكَ، يا سبـط النبـي حسـنٌ، أنـت امتـداد لـلأب

لُـذْ بـه... يجمـع شتـاتَ العـربِ ويُحقّـق وحـدةً فـي المغـربِ

سار مفدي في مدح الرسول وآل البيت على عادة الشعراء مادحي الرسول، فقد وصف أخلاقهم ونبلهم، وتوسل بهم مستنجدا وطالبا العون، والنصر، لكن مدحه لهم كان بالدّين وقيمه، وليس بالكرم والشـجاعة وغيرها.

ولعل ذلك يعود في رأيي إلى المعين الثقافي الذي استقى منه الشاعر أفكاره، كما استقى منـه أدواتـه الفنية.

هكذا كان مفدي يشيد بالرسول (ص) وما يتصل به من جميع الجوانب، صحابة، أهـل البيت أماكن مقدسة، عظماء الأمة... ، في تعبير شعري رقيق العبارة، تسري فيه روح إيمانيـة عميقة، تخلق فينا عاطفة إسلامية قوية توجهنا نحو الخير والرشاد على نهج سيد الخلق، لنصلح أمرنا، ونغير واقعنا حتى يغير الله ما بنا، لأن الله " لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ " [2].

---

[1] مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص238.

[2] سورة الرعد، الآية: 11.

2 – الأخلاق والمعاملات:

وفي مجال الأخلاق والمعاملات أشاد مفدي بشريعة الإسلام ومجّد قيمها الفاضلة التي تركت أثرها في حياة المجتمع بما هداهم إليه الإسلام من حسن الأخلاق والرحمة والعدل والمساواة، لأن رسالة محمد (ص) قد بُنِيَت على الأخلاق، فقد خاطبه ربه بقوله: " وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ " [1].

لذلك صور مفدي الإسلام وهو يفصح عن مبادئه بنفسه قائلا[2]:

ألسْتُ أنا من جئتُ للناس رحمةً ... " وكم عبرة فيمن تقدم للتالي "

نزلتُ وكان الناسُ فوضى ومالهم ... سوى غدرِ أفّاكٍ وخِدعَةِ دجّالِ

نزلتُ وكان الناسُ أعداءً شيعًا ... وهم بين دهْريٍ، وعابدِ تِمثّالِ

فأطلعت فيهم ذلك الكوكب الذي ... سما ساطعا فيهم بأنوار وأفضالِ

بسِطتُ جناح العطف عدْلا ورحمةً ... وقيدتُ تاجَ العالَمِينَ بإجلالِ

ذلك الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، فغمر الناس بنوره، وتربى المجتمع، وعرف الناس الاطمئنان والاستقرار والنظام، بعد الفوضى والاضطراب، وجمع كلمتهم على التقوى، والطاعة، والمحبة، ووحّد صفّهم، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا، بعد أن كانوا مشتتين، متعادين، متباعدين متباغضين لأن الإسلام لم ينزل لجماعة دون أخرى، ولوطن دون آخر، إنما كان رسالة الله للإنسانية جمعاء حاضرها ومستقبلها، لذلك تخلّق المسلمون بهذه الصفات وتعاملوا بها في حياتهم، فهم يصلون الأرحام التي أريد لها أن تقطع بقطع أسبابها، كإقامة الحدود بين أبناء الأمة الواحدة، سعيا لقطع الصلة وزرع بذور الشقاق بين أبنائها، كما أنهم لا يتسمون بالعنصرية في تعاملهم، فالمسلمون إخوة، أبيضهم وأسودهم غنيهم وفقيرهم، وفارق اللون هو سياسة استعمارية هدفها تشتيت شمل الأمة وأضعافها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) سورة القلم، الآية: 04.
(2) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص153.

فلا علاقة للإسلام والمسلمين بها، فهم جميعا من آدم، وآدم من تراب، تجمعهم عقيدة التوحيد وتوحدهم الأهداف التي رسمها لهم الإسلام.

هذه أمة الإسلام، تشبعت بمبادئه، وجاهدت في سبيل نشره، فمضت تبني مجدها، وتحقق عزتها وأقامت حضارة إنسانية رائدة عم عدلها المجتمعات، لأن الإسلام " ... أمر بالعدل في جميع صوره وأمر بالإحسان في جميع صوره... ونهى عن الظلم في جميع صوره،... ونهى عن الفحشاء والمنكر في جميع صورهما... " [1].

وبهذه العاطفة الإسلامية القوية نحو تصوير القيم الحضارية تتدفق شاعرية مفدي[2]:

ومضتْ للخلودِ، والمجدِ، تبني   منذُ ثارتْ، تحطّمُ الأوثانا

ملأتْ هذه العوالِمَ، عدْلا   وسلامًا، ورحمةً، وأمانا

وأفاضتْ، على النفوس، شعاعا   ظلّ يكسو أرجاءها، إيمانا

وأقرّتْ رسالة الله في الأرْ   ضِ، وراحتْ تُعلّمُ الإنسانَا

الإسلام دين الفضائل الإنسانية، وقد صوّر الشاعر كيف كان الإسلام دائما " يتغنّى بهذه الفضائل ويدعو إليها، فالأخوة البشرية ركن وطيد من أركانه، والعدالة معلم بارز من معالمه الشامخة والحرية سمة مشرقة من سماته السمحة، والحب شذًى حلو يعطّر مبادئه ومقاييسه الخالدة والرحمة صفة حميدة تخضد شوكة الأقوياء، وتعضد قضية الضعفاء المغلوبين... والدين حرب على الإباحية والانحلال والاستهتار... والدين هو الفيصل بين الحاكم والمحكوم، والدولة والدولة، والإنسان وأخيه الإنسان " [3].

---

(1) محمد البهي ، الدين والحضارة الإنسانية، ص154.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص176 و 177.
(3) نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالأخوة مبدأ أساسي في الإسلام، تمحو الفوارق بين الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم، وتؤلف بينهم، باعتبارهم أمة واحدة، بدليل قوله تعالى: " إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " [1]، وهذه الأخوة طريق إلى المحبة بين البشر، لذلك خاطب مفدي الجزائر ملهمة الإنسان، ومفجّرة عبقريته، مشيدا بالدور الخلقي الذي قام به أهلها فكانوا رسل أخلاق ومحبة، ومعلمين للإنسانية من خلال تلاحمهم وتوادهم وتراحمهم.

يقول مفدي[2]:

وألهمتِ إنسانَ هذا الزمان، فكان بأخلاقنا مومنا

وعلّمتِ آدم حبَّ أخيه عساه يسير على هدينا

فالأخوة الصادقة أساس الاتحاد، والتعاون، والتكافل، والتضامن بين الناس، بل أساس بناء المجتمع الإسلامي الفاضل، لكونها تحقق المحبة التي هي أصل العلاقات المثمرة في المجتمع الإنساني، وقد ربطها الإسلام بالإيمان بل جعلها دليلا عليه[3].

وقد وجد الشاعر في حرب التحرير الكبرى في 1954 عاملا قويا وطد أواصر الأخوة والمحبة بين جميع الجزائريين، إلى جانب العوامل الأخرى، من لغة، وعروبة، وتاريخ، ودين، زادتها قوة ومتانة[4].

هذه المحبة التي كانت أساس المصداقية بين الحاكم والمحكوم، فلا استبداد ولا قمع، فالأمر شورى بين الناس تحقيقا لقوله تعالى: "وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" [5].

ذلك ما تجسد في سياسة عبد الرحمن بن رستم الجزائري الذي أقام دولة ذاع صيتها وتجاوزت حضارة الشرق، فكانت بغداد عبارة عن ظل للدولة الرستمية في الجزائر لما حققته من

---

(1) سورة الحجرات، الآية10.

(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص22.

(3) فتحي الدريني، مجلة الأصالة، الجزائر، عدد 13، مارس/أفريل 1973، ص 48.

(4) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص283.

(5) سورة الشورى، الآية: 38.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقدم كبير، في العلوم، والفنون، وتسيير شؤون الدولة، فاستمع إليه يقول[1]:

وهـــالَ ابـنُ رستم أن لا نسـود ونبنـــي كيانـــا لنـا مستقبـــلا

فقـام بتاهـــرت يعلـــي اللـــوا ء، ويرســي نظامـا، وينشـر فضلا

يوجـه حكــم البــلاد الشــــرا ة، يوحـي الشريعـة حقـا وعـدلا

ويجعـل أمـر الجماعـــة شـورى وحــق انتخـاب الإمامـة فصـــلا

لأن الشورى إشراك الناس في تسيير شؤونهم، فتجعلـــهم متعـــاونين متحـــابين، لا متنـــافرين متعادين، فتزداد العلاقات بين الرعية والراعي متانة، والثقة قوة، فتكثر الخيرات، ويعم الرخاء واليســـر حياة الأمة، فتسمو مكانتها بين الأمم.

كما صور العدل في أسمى معانيه التي استلهمها من القرآن الكريم الذي أوصى بـــالعدل بيـن الناس لتحقيق مبدأ المساواة بين أفراد الرعية، ليجعل الجميع يشعرون بالاطمئنان فيتماسكون ويتآزرون لحماية كيان المجتمع، ويوفرون عوامل تقدمه وازدهاره لقوله تعالى: "وَإِذَا حَكَمْتُـــمْ بَيْـنَ النَّـاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ " [2].

وينظر مفدي إلى الحق على أنه صفة حميدة مجّدها الإسلام ودعا إليها، وجعلـها منجـاة مـن الخسران، فالانتصار له أمر واجب، لأن الله يحّق الحق بأمره.

ويقف في وجه الذين لا يناصرون الحق، ولا يصرخون في وجه الفساد، بل ويدعو إلى قطـــع اللسان الذي لا ينطق بالحق، وحرقه بالنار، فيقول[3]:

ولسانـــا، في الحـــق أخرس لم يصـــ رخ بوجـــه الفســـاد: ضع فيه جمرا

كما نوه بالإسلام الذي جاء بهذه القيم الخلقية وجسدها ميدانيا، فكان أن رعى البشرية، وأزاح عنها الظلم بشتى أنواعه، فكان رحمة بالضعفاء.

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص44.
(2) سورة النساء، الآية: 58.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص282

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي تعميق روح الإخاء والتضامن بين الشعوب الإسلامية يشيد بالدور الإيجابي للأتراك في الجزائر، الذين آزروا شعبنا ضد أعدائه، لأنهم أجدر بالثناء والتقدير والاعتراف بالجميل.

إن الأخوة الإسلامية التي تجمع المسلمين جميعا سواء في الجزائر، أو في تونس، أو مصر، أو تركيا، أو غيرها من بلاد المسلمين تتجسد في مبادئ الإسلام وقيمه، كما ذكر ابن باديس في رسالة تعزية تركيا في وفاة رئيسها " مصطفى أتاتورك " بقوله: " ... وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة، التي لنا فيها حفدة، وأخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل، وترى شخصها دائما ماثلا فيما تركت لها من مساجد، ومعاهد للدين الشريف، والشرع الجليل... "[1].

ويرد مفدي زكرياء ما حدث بين المسلمين إلى عوامل التفرقة التي زرعها أعداء الإسلام بينهم ويذكر في الوقت نفسه، بالعوامل التي تجمع المسلمين وتزيح الأحقاد المغروسة في النفوس، فهم إخوة في الإسلام، تشهد على ذلك المساجد المتواجدة في أنحاء تركيا، والتي يذكر فيها اسم الله، غير أن المفارقة واضحة بين الذين درسوا الإسلام بإمعان وطبقوا توجيهاته وأحكامه فتقدموا، وبين من فهموا الدين فهما خاطئا فانحرفوا، فيقول[2]:

وإن زرع الأحقادَ فينا سماسرةٌ ... فنحن على عهد الأخوّة مازلنا
مساجدُ (إسطمبول) عنا وعنكم ... شواهدُ صِدقٍ، لم تحيدو وما حدنا
وإسلامنا إسلامكم، غير أننا ... وقفنا على أسراره، فتقدمنا
ولم يكن الإسلامُ، ما قدْ عهدتم ... وما زوّروا فيه، وخانوا وما خنّا
ولكنما الإسلامُ دين حضارة ... يواكبنا إشعاعه أينما سرنا

وفي تصوير التعامل الإنساني يبرز لنا الصفات الإسلامية الجليلة التي جعلها الجزائريون أساس

(1) عبد الحميد بن باديس، مجلة الشعاب، الجزائر، الجزء 09 مجلد 1938/14، ص134.
(2) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص158 وما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علاقاتهم مع غيرهم، لأن روح الإسلام يتلاءم مع المذهب الإنساني، فالعرب المسلمون عندما انتقلوا في الأمصار يفتحون البلدان، وينشرون الإسلام لم يحملوا إلى شعوب المعمورة روح الحقد والكراهية والظلم، وإنما حملوا إليهم المعاني السامية التي جاءت بها شريعة الإسلام، من عدل، وتسامح، وتواد ورحمة، وتعاطف، ومحبة، وتعاون، وتعاملوا بها حتى مع من صار لهم عدوا، كما حدث لهم مع الفرنسيين عندما حلت بهم الأزمة، وجاع شعبهم فساعدوه من باب الكرم ورعاية الإنسان، لأن الرسول (ص) كان يرعى النصارى، لكنهم خفروا الذمام، وخانوا الأمانة، وغدروا بشعبنا فاحتلوه بدل أن يردوا له الجميل، فثار مفدي يندد بأخلاق الفرنسيين ومخالفتهم لدينهم وللإسلام، ويشيد بمعاملات الجزائريين ويمجد أخلاقهم[1]:

وجاءت فرنسا... فكنّا كراما   وكنّا الأولى يطعمون الطعاما !

فأبطرتهم قمحُنَا الذهبيُّ   وكم تُبطِرُ الصدقاتُ اللئاما[*]

وأوحى له [**] قمحنا غزونَا   فأطلق هذِي القموح سهاما

وصبّ النفايات، في أرضنا   وخان المسيحَ، وأغرى التواما

هكذا تحول حسن معاملة الجزائريين للمسيحيين الجيران إلى داء دفين نخر جسم الأمة عشرات السنين.

وكان المسلمون في تعاملهم مع المسيحيين واليهود وغيرهم يحافظون على تعاليم الإسلام، ويطبقونها لأنهم يؤمنون بالأنبياء جميعا، ولأن الإيمان بهم جزء من العقيدة، فهم رسل الله هداة البشرية، دعاة خير ومحبة وسلام، لتحقيق المثل التي جاءت بها رسالاتهم.

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص53.

(*) ديون القمح التي لم تسددها فرنسا، زيادة على الديون النقدية.

(**) الضمير يعود على ملك فرنسا شارل العاشر.

وفي ذلك يقول مفدي[1]:

أولئكَ آبــاؤنــا، منـــذُ عيســـــى وكـــان محمــد[*] صـهــرا لعيســى

وأهــوى على البغــي، يــذرو الجذو ع، ويغـــرس في الجبـــروت الفؤوسا

وحـــذر آدم ظلـــــــم أخيـــه وســوى الحظـــوظ، وأعلى الرؤوسا

بهذه الأخلاق، وهذه السماحة واللطف في المعاملات شق المسلمون طريقهم نحو تحقيق حضارة شامخة لأن رسالة الإسلام، رسالة إنسانية نبيلة تهدف إلى رعاية الذمام، ونجدة المستغيث، والـــتزام الصــدق والوفاء، والمحبة في التعامل بين الفرد والآخر، وبين الجماعة والجماعة، وفي هذا المعنى يشيد مفــدي زكرياء بالشعب العربي المغاربي المسلم الذي تجسدت فيه هذه الخلال[2]:

جــلَّ هذا الشعــبُ... مـــا أروعـــه علــم الإنســان، أن يرعـــى الذماما

هكــذا أخلاقنـــا فـــي مغـــــربٍ (وحــدوي) بالمبـــــادئ تتسامـــى

هكـــذا عـــودنــــا إيماننــــا أن نـــرى النجــدة فـــرضا ولزامـــا

هكــذا علمنــــا إســـلامنــــا أن نـــرى الإســلام حبـــا ووئامـــا

وينظر إلى الإنسانية نظرة إسلامية شاملة، لا نظرة هؤلاء الذين أقاموا للحرية والعدالـــة تمـــاثيل فـــي ساحات عواصمهم في حين تخالف أعمالهم شعاراتهم، إذ هم مستبدون، ظالمون، مجرمون، لا يرعــون حقوق الإنسان، وهي حقيقة تاريخية، إذ أن التاريخ أثبت صدق هذه الممارسات ضد الإنســـانية، كمـــا حدث في خراطة، وسطيف، وقالمة، بالجزائر عام 1945م، وفي 20 أوت 1955 بسكيكدة، وغيرها كثير.

وحين نظر مفدي إلى واقع الأمة، ورأى فساد أخلاق بعض الناس، ومخالفتهم لشرع الله إذ راح الظلـــم ينتشر، والفساد يسود، والكذب، والنفاق يحل محل الصدق،والغدر محل الوفاء،عاد إلى ماضيه يلوذ به

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص42.
(*) عن طريق زوجته " مارية القبطية "
(2) مفدي زكرياء، مجلة الأصالة، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، العدد 13، مارس، أفريل 1973.

من حال أمته المتردي، فرسم صورة مشرقة لذاك الماضي، حيث يعلو الحق، ويندك الباطل، وتاق إلى تجسيد ذلك الماضي في حياة أمته اليوم، لذا نراه يدعو إلى الثورة على هذه الأوضاع، ويحفز الهمم لإعادة ما ضاع من مجد المسلمين، وجمع قلوبهم على تقوى الله وطاعته، وتحقيق سعادة المجتمع فيقول[1]:

ألا ليتَ هلْ من عودة نحو أعصر ... بها الحقُ حقٌ، لا نفاقا ولا كذبا

ويا ليتَ شِعري هل نرى بسمائنا ... بوارق ماضٍ كان فيه النهى قطبا

وكرّهني في الناس غدر وخِدعةٌ ... وزورٌ، وتمويه، وظلمُ ذوي القربى

وأندبُ أقواما قضى الجهلُ نحبهم ... وإن لم توارهم يدُ اللاحدِ التربا

وأنهِضُ هماتٍ إلى المجد أصبحت ... قلوبهم غلفا، وأموالهم سلبا

عسى تنفع الذكرى نفوسا أبيةً ... فتأخذ بالحسنى ولا ترتضي سبا

هذه بعض القيم الإسلامية السامية في الأخلاق والمعاملات التي أشادها بها مفدي زكرياء، ومجد آثارها في المجتمع، كونها أطلقت العقول، وحررت الأفهام ووحدت بين أبناء الأمة، فصاروا إخوة متحابين متراحمين، متعاونين... وبذلك استطاعوا أن يفتحوا أمصار الدنيا، وينتصروا على أعدائهم. وكعادة مفدي ربط ماضي أمته المشرق بحاضرها المتردي قصد استخلاص العبر، لتحقيق النهضة المأمولة.

العلوم والفنون:

التنويه بالعلوم والفنون وإبراز آثارها الخالدة هو جزء من الإشادة بالحضارة الإسلامية، لأن العلم مقوم أساسي فيها، وفريضة على المسلمين لقوله تعالى: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ "[2]، كما قدر دور العلماء ورفع منزلتهم درجات لقوله تعالى: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ "[3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، مجلة الشهاب، ع/57 (1926/09/20م).
[2] سورة العلق، الآيات: من 01 إلى 05.
[3] سورة المجادلة، الآية: 11.

فهم رسل العلم يعلمون الناس خير ما يعلمونه فيكشفون لهم غوامض المعارف، ويرشدونهم إلى الحقائق العلمية التي تنفعهم في دنياهم وآخرتهم.

من هنا يرتفع صوت مفدي عاليا مبرزا دور المعلم، حاثا على إجلال رسالته، والانحناء له تقديرا وعرفانا لما يقدمه من نفع لأمته وللإنسانية، وإيفائه حق التبجيل الذي هو جدير به فيقول[1]:

ومن الذي ينفي رسالة مُصلحٍ -ما انفك يصنع- بالحفاظ عقولا

ومن الذي لا ينحني لمعلم كشف الغموض، وأرشد الضليلا

وهو هنا متأثر بأمير الشعراء العرب أحمد شوقي في مدحه للمعلم، حين دعا إلى تكريمه، وتوفيته قدر ما يستحق على عمله، من تقدير وتبجيل، لأن المعلم كاد أن يكون رسولا، لما يتصف به من أخلاق تربوية عالية، وإعداد النشء إعدادا سليما، فهو مناط أمل الأمة[2]:

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني ويُنشئ أنفسا وعقولا ؟

ومن خلال تمجيده لرسالة المعلم يشيد بدور العلم ومراكز إشعاعه في الجزائر وفي بلاد المسلمين في عصورها الذهبية، حيث كان الاهتمام بالعلم وإجلال العلماء، وتقديم يد المساعدة والعون إليهم كبيرا وبذلك صارت المعاهد والمدارس منارات تزخر بعلمها وفضلها على البشرية.

وتفتحت عبقريات أبناء الأمة فصاروا رواد نهضتها، وقادة الإنسانية ومعلميها فيقول[3]:

ذكرنا بسيرتا(*)نفوسا أبيه ذكرنا بها الأعصر الذهبيه

معاهد تزخرُ علما وفضلاً وتلهم روادَها العبقريه

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص48.
(2) أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، ج1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د-ت، ص180.
(3) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص93.
(*)سيرتا: مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه المعاهد تمكن الشباب من تحصيل المعارف التي تؤهله ليلج أبواب الحضارة ويبعث مجد وطنه من جديد، خاصة وأن مدينة قسنطينة قد عرفت عبر تاريخها بمدينة العلم وتدل عليه المدارس والمعاهد والمؤسسات العلمية التي مازالت قائمة إلى اليوم تشع بنور العلم والمعرفة على من حولها فتنير العقول والأفهام. من بينها دار الطلبة التي صورها بإيمان عميق، حيث جعلها هي أمل الأمة؛ لأنها مبنية على التقوى يظللها نصر من الله، وقد ربط بين هذه الأحاسيس وما يوحي به الحدث الذي هو في واقع الأمر حدثان عظيمان: أولها تدشين دار الطلبة، وثانيهما مصادفة هذا اليوم لذكرى المولد النبوي الشريف الذي له مكانة خاصة في نفوس المسلمين عامة، والجزائريين الذين تعرضت شخصيتهم لمحاولة المسخ والتشويه خاصة من هنا كانت المناسبة عظيمة، لأن الحدثين وجهان لعملة واحدة؛ فالرسول (ص) نور يستضاء به، والدار دار علم وتوحيد، أسست على تقوى من الله لنشر مبادئ الإسلام، وإرساء دعائم الحضارة الإنسانية التي دعا إليها الرسول، وعمل لأجلها وبها، تحقيقا لأهداف رسالة الإسلام لذلك كان مولد الحدثين مهمين في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد ساق الشاعر هذه المعاني في أسلوب غلب عليه الطابع الإنشائي، استطاع من خلاله أن ينقل إلينا تجربته لمعايشة الحدث فقال[1]:

يـا دارُ، أنتِ على التقوى، مؤسّسـةٌ — مبنـاكِ بالطّهرِ، مرصوصٌ ومشدود

يـا دار، حُمِّلـتِ آمالَ البلادِ، ففـي — أحشائـكِ اليـومَ، أشبـالٌ صناديـدُ

" دارَ بـن باديـسَ " في سُرتا يظللها — نصـرٌ، ألا إن نصـرَ اللهِ، موعـودُ

هـذا احتفـال بطـه، أم بناشئـةٍ — من هـدْي طـه، لها ديـنٌ وتوحيدُ

محمـدٌ، في ربيـع الكـونِ، مولـدُه — وبيتُكُـمْ، في ربيـع الدهـرِ، مولودُ

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص269.

هكذا كانت قسنطينة بمراكزها العلمية معلما بارزا من معالم الحضارة العربية الإسلامية في الجزائر، التي أشرقت بنور ربها على حياة الأمة، فكانت منارة الإسلام وقلعته الحصينة على غرار المدن الجزائرية الأخرى[1] منذ الفتح الإسلامي للجزائر، مثل تلمسان الفخورة بعلمائها، وأدبائها وفنونها الأصيلة، وبجاية وقلعة الحماديين ورقيها العلمي، وتاهرت العاصمة الرستمية ومنجزاتها الحضارية العظيمة التي ضاهت الحضارة الإسلامية في المشرق العربي وفاقتها، فصارت بغداد لها ظلا، وهناك من الآثار الباقية الدالة على التقدم العلمي والحضاري للجزائر، فبونه (عنابة) تحفظ أمجاد الزيريين ولتبسة بصمات تذكر في تاريخ الجزائر، ومعالم الحضارة بارزة في بسكرة ووادي سوف وغيرها. وقد خلد ما بنته يد الإنسان وعبقريته في الجزائر، وكان نفعه عاما، كما نوه بجهود العلماء،فهذا يوبا الثاني [2] يؤسس بشرشال جامعة، وأبولوس[3]الطبيب الماهر والعالم الخبير، والأديب الكبير، والقاضي المقتدر وغيرهما كثير، وفي ذلك تخليد للحضارة الإنسانية التي كانت للجزائر يد طولى فيها[4]. وتأتي الدوائر على الأمة الإسلامية فتنحط، ويلفها أخطبوط الجهل، وينحرف أبناؤها عن طريق أسلافهم فيتحسر مفدي على هذه الحال راسما لها تلك الصورة القاتمة، ساعيا إلى تحسيس الأمة بواقعها المأساوي الأليم، حاثا أبناءها على الاقتداء بالغرب في تحصيل المعارف النافعة لتطوير نهضتهم مصورا لهم فرنسا العدوة بأنها بلد العلم والجد والفكر، فهي مقصد طلاب العلم والمعرفة في وقت صار أبناؤها يتشبثون بالخرافات، ويؤمنون بالتفاهات، ويتفاخرون بأمجادهم الماضية،بينما تقدمت

---

(1) ينظر مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 49.

(2) يوبا الثاني: ولي عرش الأمازيغ بشرشال، كان عالما كبيرا وسياسيا ماهرا ، وعسكريا مظفرا، اتخذ من شرشال ضرة لروما، وزينها بالمعالم الفاخرة، والقصور والمعابد والمسارح، وأسس بها جامعة كبرى للعلوم والآداب والفنون وجلب إليها كبار الأساتذة، من اليونان، وألف دائرة معارف شاملة في كافة العلوم، وهو أول من وضع جغرافيا لجزيرة العرب.

(3) أبو لوس: ولد بمداوروش، أجاد اللاتينية واليونانية، تخرج من قرطاجنة في الحقوق والآداب والطب، وامتاز بمخبر للتجارب والتركيب والتشريح، وكان شاعرا وخطيبا، للمزيد من المعلومات راجع إلياذة الجزائر، ص: 41 (الهامش).

(4) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمم كانت متخلفة وصارت كعبة القصاد طلاب المعارف مثل فرنسا، كما تمكن اليهود من العلوم التكنولوجية الحديثة.

من هنا غدا تقديس الشاعر للعلم عظيما، وصار في عينيه رمزا للحياة نفسها[1] فالنفوس بالعلم تحيا وتسعد، إنه أساس العز، وسر هداية الناس، ومنبع سعادة الأفراد والأمم، به سمت الأمم فطارت في السماء بما أبدعته في مجال الصناعات، المختلفة كالطائرات والمراكب الفضائية وقلصت المسافات بين الناس في كل مكان بما تم ابتكاره من وسائل عامية متطورة كالقطر، والبواخر والمواصلات السلكية واللاسلكية إلى غير ذلك من الابتكارات الحديثة التي لا تعد ولا تحصى في مختلف ميادين الحياة، الأمر الذي جعل العقول حائرة أمامها.

لذلك يدعو قومه إلى الأخذ بأسباب النهضة العصرية، عن طريق التبحر في العلوم المختلفة لاعتلاء مقعد السياسة بين شعوب العالم اليوم، وعدم اجترار الماضي، فيقول ممجدا العلم، حاثا أمته على طلبه وتعمير دوره في إطار من الأخلاق والفضيلة[2]:

هو العلم، روح العز، سر هدايه ... وإكسير أفضال، ومنبع إسعاد
هو العلم، أعطى للجمادات منطقا ... حكيما، وأسرى في السماء بأعواد
هو العلم، أجرى بالبخار على الثرى ... ثعابين تستدني فراسخ أبعاد
وأرسل في اليم الخضم سفائنا ... يظللها من أفقها ألف منطاد
وبث على الأسلاك معجزة الورى ... فدانت لها طوعا عوالم أضداد
وأخرج للدنيا خوارق حكمة ... يحار النهى في كنهها دون تعداد

---

(1) حمو العياضي، الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة عين شمس 1992 ص41.

(2) مفدي زكرياء، جريدة النور، الجزائر، ع 48 (1932/08/30م).

كفـــى شرفا يا قوم، بالعلم فانهضـــوا، وروووا بعلـــم غلـــة الوطن الصادي

إلـــى م الرضا، بالدون، والعلم صارخ بنـــا نعتلـــي للعـــز مقعـــد أسيـــــاد

ويرى أن امتلاك العلم وتحقيق غاياته لا يكون إلا في ظل الحرية والانعتاق من سلطة المستبد.

ومن خلال الدعوة إلى العلم وتنوير العقول يشيد بملتقيات المسلمين لما فيها من نفع عميـــم، كملتقيـــات الفكر الإسلامي، ومؤتمرات القمة العربية، مبرزا آثارها الإيجابية على الصحوة الإسلامية، لما يقدم مـــن فكر إسلامي صحيح يصدر عن علماء أجلاء، فقهاء بالشريعة الإسلامية، فتتجلى للجميع قدسية الإســـلام وتكون هذه الملتقيات منبع نور وإشعاعا تنير الأجيال بما دعا إليه الإسلام، فيقول[1]:

ويـــا ملتقـــى فكـــر إسلامنـــا ومجلـــى قداســـة إيماننـــــا

ويا منبـــع النـــور مـــن وحيينـــا وبـــرج أصالـــــة إشعاعنـــا

ويا حجـــة لرســـــــالات أر ض الجزائـــر تسمـــو بأمجادنـــا

تغنى مفدي زكرياء بالجانب المادي للحضارة الإسلامية، كما أشاده بالجانب المعنوي الذي تجلى في كل ما أبدعته يد الإنسان، من عمارة، وحدائق، وحمامات، وصناعة، وزراعة، وكان المسجد فـــي مطلع هذه المعالم الحضارية الإسلامية التي مازالت شاهدا جليا على حضـــارة إســـلامية عريقـــة فـــي الجزائر[2].

وفي تغنيه بها لا يحفل بالمظاهر الخارجية، بل يتعدى إلى تصوير دورها في الحياة كمؤسســـات تربوية... تشع بنورها لإضاءة الطريق للمهتدين، فجامع **كتشاوة** رمز المجد والجلال لهذه الأمة يعود إلى دوره بعد أن حوله المستعمرون المسيحيون إلى كنيسة خلال الحقبـــة الاســـتعمارية، وذاك جـــامع

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص111.

(2) عبد الكريم لام، جريدة الخبر اليومية، الجزائر، ع 1874 (1997/01/12م)، ص19.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأزهر في مصر يناجي كتشاوة في الجزائر فيستنجدون بأسلافنا لإزالة ما حل بهم من محن فيقول[1]:

وجامع كتشاوة المستعاد، أما انفك رمزا لإجلالنا ؟

يناجيه في النيل أزهرنا فيستنجدون بأسلافنا

ويقف عند معالم الحضارة في عهد الزيانيين فيصور تلمسان عروس الدنيا، وحلم الليالي، وسلوى المحب، فقد هام بها الولي الصالح أبو مدين، وأبدع الروم ساقيتها المعروفة بساقية الرومي، وبني أبو حمو موسى الثاني مشورها، فكانت لؤلؤة زمانها، إليها ينتهي طواف الزوار مهما زاروا من روائع لأنها عديمة الشبه في الدنيا، فلا يضاهيها عمران، إذ قد تكون اختطفت من العالم الآخر، عالم الكمال والمثل[2]:

ومن آيات تيهرت مضاهاتها لتلمسان بعلومها وفنونها وحدائقها، فالعلوم انتشرت، والجنات أزهرت والناس بمناظرها الساحرة انبهرت، فيجمع في صورة رائعة بين العلم والفن، مبرزا بذلك قيمة الحضارة الإسلامية واهتماماتها بالعلوم والفنون.

كما أن حدائق البليدة والمدية وقصر البخاري تباهي مدن الشام الخلابة بحدائقها وأشجارها الجميلة ويضفي على مدينة المدية أروع الصور، لما تتمتع به من حسن البنيان، وجمال المنظر، تصل حد تصديق الأسطورة(*)، وذلك في أسلوب خبري جميل فيقول[3]:

ملائكة الله... هل نقلوها؟؟ أجل... من راء حسنها صدقا

كما أشاد بما بلغته الحضارة في مجال ركوب البحر، ومعرفة الجزائريين والمسلمين بصناعة السفن وسيطرتهم على البحر، فكانت لهم مكانتهم المرموقة بين الشعوب المتوسطية.

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص91.
(2) المصدر نفسه، ص51.
(*) يزعم البعض أن المدينة بنيت في مكان آخر وهي قديمة عتيقة، ثم نقلتها الملائكة إلى هنا.
(3) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكذا في مجال الصناعة والزراعة، فصور بحس شاعري كيف قام الجزائريون - بعد أن خرجوا منهكي القوة من حرب إبادية طويلة- بعزيمة قوية يبنون المصانع، ويشيدون اقتصاد البلاد، ويزرعون أرضهم، لتوفير وسائل العيش للناس، منتهجين الأساليب العلمية في ثورتهم الصناعية والزراعية معتمدين على أنفسهم في نهضتهم، في إطار قيمهم مع الاستفادة من خبرات غيرهم، دون التقليد الأعمى والذوبان في الآخرين، فيقول ممجدا نضال قومه في اعتزاز وفخر(1):

فقُمنا نُشيد اقتصاد البلا ... دِ، ونُعلي المصانع فيها ونبني

ورُحنا نوفر للكادحين ... الرغيف الشريف، بعلم وفنٍّ

ويزرعُ فلاحُنا أرضه ... بذوب الشرايين لا بالتمني

ونصنعُ من صُلب واقعِنا ... مذاهبنا ... رافضينَ التبني

إذا كان مفدي زكرياء قد أشاد بمعالم الحضارة الإسلامية، فإنه قد أشاد في الوقت نفسه بمن صنعوها فكانوا مصابيح مضيئة أنارت الطريق للأجيال المتعاقبة.

كما حيّا أصالة الجزائر التي تُجلّ علماءها الأفذاذ الذين كانت لهم بصمات خالدة في النهضة العلمية الحديثة، أمثال أبو حمزة، والأخضري ومروان(*)، وغيرهم من عباقرة الجزائر والعالم، لما قدموه من خدمة للإنسانية، في الرياضيات، والفلك، اعترف به علماء الغرب الحديث ودرسوه في جامعاتهم.

ويشيد بالشيخ محمد طفيش فقيه الجزائر وعالمها الفذ، مصورا إياه بقطب الأئمة خلقا وفكرا، إذ وهب حياته لخدمة أمته، فقد جادت قريحته بما يربو عن ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم، وشق بالعلم طريق المجد، فبعث في النفوس الميتة روح الحياة، فعصفت بالظلم والظالمين، تلك صورة مشرقة لحياة الرجل انعكست على روح مفدي فأشعّت ضياء، وسطعت على الكون نورا فيقول(2):

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص87.

(*) للمزيد من المعلومات عن هؤلاء، انظر إلياذة الجزائر، ص94-95.

(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص95.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طفيـش سُقيــــاك... قطــبَ الأئمــه ومــن عاش بالفكـرِ يصنــعُ أمّــه

ومــن شــقّ بالعلــم ـدرب الحيــــا ةِ، وصــان لنيــل الرسالاتِ حُرمــه

وأنصــف من خالفـــوه اجتهـــادا وصـــان عن الجدليـــاتِ عِلمــه

والشاعر عندما يدعو إلى النهضة العلمية، فإنه يريدها أن تكون متوجة بالأخلاق الفاضلة، حتى يرتفـع بها النشئ إلى الدرجات العليا[1].

إذا كان للرجل دور بارز في البناء الحضاري للأمة، فإن للمرأة كذلك رسالة عظيمة أدتها جنبا إلى جنب مع الرجل، وتركت بصماتها في مختلف جوانب الحضارة الإنسانية مادية كانت أم معنوية، حققت بها مجد الجزائر، وللمرأة هي الأخرى دورها في البناء الحضاري للأمة بما قدمته من جليل الأعمال فقد كانت في الصف الأمامي مجاهدة إبان الثورة التحريرية، ومربية للأجيال، ومساهمة في البناء الوطني بعد الحرب، جاعلة من نفسها شمعة تحترق لتمد الآخرين بنور الحياة، وتفتح لهم طريق المستقبل الزاهر حلم الآباء والأجداد.

هكذا ربط مفدي من خلال تمجيد الحضارة العربية الإسلامية حاضر أبناء الأمة بماضيهم العريق، الذي تجلّت فيه أصالتهم، وسمت حضارتهم، لأن " الحضارات الإنسانية إنما تتقدم وتتألق وتسمو بالتحديات يبشر بها ويعلن عنها المفكرون العباقرة، والشعراء الأفذاذ،والسياسيون العظام،وتحققها الشعوب المؤمنة بنفسها الواثقة من أصالتها، المتمسكة بأسباب الحياة " [2].

لذلك وقف مفدي وهو يشيد بالحضارة الإسلامية عند العلوم والفنون كمقوم أساسي من مقومات الحضارة الإسلامية، لأنه آمن أن العبقرية العلمية التي حقق بها المسلمون الأولون هذه العجائب

[1] حواس بري، شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير، مخطوط ، ص105.

[2] محمد مزالي، في دروب الفكر، الشركة التونسية لفنون الرسم، 197، ص21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والإنجازات في شتى ميادين العلم والمعرفة كانت تصدر عن أفق منير ملتزم بالإيمان بالله تعالى وبمثل الإسلام النيرة..." (1)،التي جعلت غايات العلم هي تحقيق خير البشرية وسعادتها لا شرها وشقاءها.

ثانيا: الدعوة إلى الإسلام وتحرير الأوطان:

1- إبراز قيم الإسلام والدعوة إلى إصلاح قضايا المجتمع

أ- إبراز قيم الإسلام ونقد المفاهيم المنحرفة:

الإسلام شريعة السماء الخالدة صالحة لكل زمان ومكان، جمعت بين السياسة والدين، فلما تمسك بها المسلمون صاروا سادة على ملوك الفرس والروم[2]، ولولا الفتن التي فرقت كلمة المسلمين ما كان يستعصي عليهم بلد من بلدان العالم، ولعمّ الإسلام كل المعمورة[3].

وقد تغنى مفدي زكرياء بالإسلام ومبادئه، وبيّن كيف ترعرع في الجزيرة العربية وحطّم الأوثان، وهزّ أركان الظلم، ثم انتشر في الأمصار بسرعة لتعلق الناس بما يدعو إليه من قيم سامية، فراحوا يدافعون عنها، وبذلك بسط الإسلام جناح العطف والعدل والرحمة بين أبناء هذه الأمصار، فتآخوا وتحابوا وأصبحوا ملوكا أعزة، وبنوا للمجد صرحا، فيقول على لسان الإسلام[4]:

نزلتُ وكان الناسُ أعداءً شيعا   وهم بين دهْرِي، وعابد تمثالِ

بسطتُ جناحَ العطفِ عدلا ورحمةً   وقلّدتُ تاج العالمين بإجلالِ

وأصبحَ أبنائي ملوكًا أعزةً   تساموا صروحَ المجد من بعد إذلالِ

هذا هو الإسلام الذي جاء ليهدي الناس ويبصرهم باليقين، ويحثهم على طلب العلم والمعرفة، وينهاهم عن الظلم في جميع صوره، ظلم الأنفس والأبدان، والملك والحرمة الشخصية، وعن الفحشاء والمنكر وعن كل ما لا يرضي النفوس ويستقبحه العرف في المجتمع لتحقيق الأمة المؤهلة للاستخلاف في

---

(1) أنيس الأبيض، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جروس برس، طرابلس لبنان، ط1،1994،ص05

(2) أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، ص69.

(3) موهوب مصطفاوي، المثالية في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص313.

(4) محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص153.

الأرض، وتحقيق شرع الله فيها، لأن رسالة الأمة الإسلامية هي الدفاع عن قيم الإسلام، والكفاح في سبيل العدل ودفع الظلم، والاعتداء، من أجل بعث روح الأخوة الإسلامية، وربط أبناء المجتمع ببعضهم، رباطا يسمو فوق رابطة القلب، وأخوة الدم، إنه رباط المبادئ، وأخوة الأهداف والغايات المشتركة[1]، التي ينشدها المسلمون متى كانوا وأين وجدوا، وقد تحققت أيام ازدهار الحضارة الإسلامية مبادئ العدل والمساواة، والتضامن، والإخاء بين الناس، فعم الرخاء والهناء بين جموع المسلمين في ظل حضارة راقية، إلى أن ولى هذا الزمن، واضطهد المسلمون في ديارهم وأفسدت عقيدتهم عندما تسلط عليهم عدوهم، وسلبهم كرامتهم، وحياتهم، فانحرفوا عن جادة الصواب، وقد بلغ الانحراف الديني في الجزائر أقصى ما يمكن أن يطمع إليه أعداء الإسلام، والشعب حين ذاك يتخبط في مآسيه تحت حكم مستبد، وأدعياء يستنزفون عقله وعرضه وماله باسم الدين، حيث خدّروا الناس بالأوهام وملأوا العقول بالخرافات والادعاءات التي ليست من الدين الحنيف في شيء، فتعلق الناس بالطرقيين، وابتعدوا عن الدين[2]، فكان خطر هؤلاء على الإسلام والمسلمين أشد؛ ذلك لأنهم طعنوا الدين باسم حماته ودعاته منطويين تحت لوائه، والإسلام منهم براء، فقد امتلأت قلوبهم حقدا وكراهية وسُخِّروا لقتل روح الأمة همهم مصالحهم ، إلاههم مادتهم، يرون السعادة في شقاء أبناء شعبهم ورضى أسيادهم.

صور مفدي زكرياء هذا الموقف الأليم وهو يدافع عن الإسلام بروح ثائرة، وعاطفة إسلامية قوية داعيا شعبه المسلم إلى النهوض من هذا السبات العميق، وترك الاستسلام والكسل، والتعلق بالحياة وامتلاك أسبابها، والتبحر في العلوم المختلفة لنيل مبتغاه، فيقول[3]:

لطّخوا الدّين والكرامة والعـ ... ـلم، بخزي وقحة وعناد

سدّدوا ضد شرعة الله كابو ... سا أليما وضد كلّ سداد

وانطووا تحت هيكل الدّين ظلما ... فغدا الدين عنهم في ابتعاد

---

(1) عمر محمد الشيباني، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص274.
(2) أحمد حمو العياضي، الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير، مخطوط، ص25.
(3) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع 62 ، بتاريخ 23-12-1927.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نداء يردد فيه اسم الله كثيرا يدعو الناس إلى بر الإيمان فيستنكرونه، فما أقبحهم من قوم ملحدين جعلوا شهواتهم عقيدتهم، وعادوا الله في سرّهم وعلانيتهم فيقول[1]:

وازعج قوما أذانُ الصلاة يجلجل في القمم الضارعاتْ

فليقي له السمع قلبٌ شهيد تموج به القمم الصالحاتْ

وحيٌّ الدرابك في كلّ فجّ تُصبُّ على أهله اللعناتْ

وقرعُ الطبول، ونفخ المزامير، لم يُزعج المهجَ الفاجرات

ولانم يخجلُ إبليسُ منها ويرشح زقومها بالهنات

أيطربكم، في الحي ناعق وتستنكرون آذان الصلاة ؟

وفوق المآذن صوت الإله يقود الشراع لشاطئ النجاة

لقد نبعت هذه الأبيات من روح إسلامية مفعمة بحب العقيدة، متطلعة إلى إنصاف الإسلام في دياره من طرف أبناء الأمة المتخلقين بأخلاقه، ومواجهة المنحرفين منهم عقائديا، الذين يضمرون له كل العداء ونقف إلى جانب سمو المعاني في الأبيات على ضعف القافية التي ألزمتها شيئا من الضيق نحسه عند نطق حرف الروي، الذي هو حرف التاء فنستثقله، ولو اختار رويا آخر لكان أخف وقعا، وأحسن أثرا في النفس.

هكذا ثار مفدي زكرياء وغيره من رجال الإصلاح وشعرائه ضد المنحرفين، وراحوا يدافعون عن الإسلام، ويبينون للناس أن الإسلام في جوهره وفي حقيقته يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال، وعما انتهى إليه أمره بعد أن أقحم عليه ما ليس منه، فاتجهوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام، وما خالطه من معتقدات مفسدة، ليقدموه للناس في صورته الصحيحة، وليبينوا لهم أن الإسلام

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص112.

أيها الناس والنوائب جلّى أنهوضا، أيقظة من رقاد

لذلك صارت محاربة من سخروا المعتقدات الإسلامية لحاجاتهم أمرا مفروضا على المسلمين [1].

وينتقد مفدي أولئك الذين لا دين لهم ولا مبدأ نقدا لاذعا؛ لأنه وجدهم يتقلبون مع الظروف ويتلونون بلون الحرباء، يبيعون ضمائرهم للشاري بأبخس الأثمان، فلا كرامة، ولا عرض، ولا عزة لهم، أخلاقهم نذالتهم، إلاههم دينارهم ودرهمهم، وهو سلوك لا يخرجهم عن طبعهم اللئيم، فالذي لا دين ولا مبدأ له، لا موقف حق ثابت له، يبيع كرامته، ويستعبد نفسه، ويسجن روحه في نذالة يشعر فيها هو بعلوّ مقامه وسمو أخلاقه، مع أنه في الحضيض، لذلك يصرخ مفدي عاليا في وجه من فسدت طباعهم في مجتمع يدين بالإسلام قائلا[2]:

إذا أفلس المرءُ في دينه يدور مع الفلسِ أيّان دارا

وإن سفّه الفجرُ أحلامه تعلم في دينه الإتجارا

كانت فلسفة الشاعر في فهم الأخلاق مستمدة من فهمه العميق للإسلام ذاته، لأنه يراه أداة قوية لمقاومة الأجنبي، فكان لا بد للفرد من أن يكتسب قوته من داخله، بما يتحلى به من أخلاق فاضلة، واعتزاز بأصالته، وإيمان قوي بحقه[3]. ويستخف الشاعر بالذين عارضوا الآذان بمكبرات الصوت في المساجد ويهاجمهم بشدة مستغربا من انزعاجهم من نداء يدعو المؤمنين إلى الفلاح، فتردد قمم الجبال صداه ويرتاح إليه الشهداء في قبورهم، في وقت لا تقلقهم أصوات المزامير والدرابك في السهرات الليلية المائعة الماجنة، المنتشرة في أحياء المدن يخجل منها إبليس، فيخاطبهم بأسلوب فيه تقريع، ولوم وتوبيخ موازنا لهم بين ما يقام في الملاهي والأعراس من منكرات فيطربون لها، وما يعلو المآذن من

(1) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1980، ص88.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص110.
(3) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980 ص164.

سهل يسير، بعيد كل البعد عن التعقيد، وأخذوا يهاجمون البدع والأدعياء الذين يستغلون الدين ويتاجرون باسمه(1) .

لقد اختلطت المفاهيم، واهتزت القيم، وذهب الناس مذاهب شتى في مجتمعاتنا ممّا فتح الباب واسعا أمام المتربصين بالمسلمين من أعدائهم الطبيعيين، ومن نحا نحوهم من أبناء الأمة ونفخ في أبواقهم قصد غرس الشك في النفوس الضعيفة للطعن في الدين، ومحاربته بأهله وفي دياره، مبتعدين في ذلك عن روح الإسلام، وعن القيم السلوكية التي ارتضاها لنا لبناء المجتمع المتماسك، الخالي من الحقد، والكراهية، والتبعية للغير.

ويصور مفدي زكرياء ما لحق بالإسلام والمسلمين في الجزائر على أيدي الصليبية الحاقدة على أنه قمة الوحشية والهمجية التي عرفتها البشرية، إذ مست المسلمين في عقيدتهم، ولغتهم وحريتهم، وأعراضهم، وممتلكاتهم، جرائم ترفضها الديانات جميعا بما فيها المسيحية فيقول(2):

وتأتون الجرائم، سافراتٍ فضائحَ، تهتكون بها الوقارا

قد (أحمرَّ الصليب) لها حياءً وضجَّ لها ابن مريم والنصارى

ويؤكد بشاعة الصورة حين يرمي هؤلاء الحاقدين على الجزائر بالشماتة لتماديهم في معاداة أبناء الأمة وغدرهم بهم، وزرع بذور الشر والفتنة والعداوة والبغضاء بينهم، حتى صار المسلم يقاطع أخاه المسلم وينعم الدخيل بما لذ وطاب، مخالفين ما نصت عليه شريعة الإسلام.

وبعد أن رسم الصورة الكلية لمعاناة الجزائريين، ومأساتهم اليومية ومآلهم المستقبلي في حال استمرار وضعهم الذي لا يصلح أمره إلا بهم، يتوجه إليهم بالدعوة الملحة لتدارك حالهم وإصلاح أمورهم والعودة إلى ينابيع دينهم، والاستقامة في أعمالهم، والاسترشاد بما في كتابهم، لمواجهة أعدائهم وتحقيق الوثبة المطلوبة(3).

---

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج01، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط03، 1972، ص320.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص154.

(3) المصدر نفسه، ص282-283.

لذلك يشيد بأبناء الجزائر المتشبثين بأصالتهم، المدافعين عنها، الرافضين لكل محاولات المسخ والتشويه لمقومات شخصيتهم، الساعين إلى إزالة ما علق بعقيدتهم من شوائب اعتقدها الناس من الإسلام، ويهاجم دعاة الإدماج والتجنيس من الفرنسيين وأذنابهم في الجزائر، فيقول على لسان الشعب الجزائري مؤكدا الهوية الوطنية لمجتمعنا[1]:

فلسنا نرضى الإمتزاجا ولسنا نرضى التجنيسا !

ولسنا نرضى الاندماجا ولا نرتدُّ: فرنسيسا !

رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهّالَ تدنيسا!

إن فكرة الاندماج نشأت في وسط المتجنسين الذين أصبحوا يرغبون في رؤية كل الجزائريين متجنسين ليتخلصوا من وضعهم الشاذ في مجتمعهم[2]، وقد تصدت جمعية العلماء المسلمين إلى الاندماجيين فسفهت أقوالهم ودحضت أفكارهم وحاربتها؛ لأنها كانت تؤمن إيمانا قاطعا بأن سياسة الإدماج والامتزاج هدفها تشييع جنازة الإسلام في الجزائر، لذلك أنبرت لها بالقول والفعل، فاعتمدت اليقظة الفكرية اساسا للنهوض بالمجتمع نهضة تستمد أسسها من الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح، وقد أحسّ الاندماجيون بخطورة دور الجمعية على مشروعهم التدميري لمعالم الشخصية الوطنية العربية الإسلامية، خطورة تمتد فتأتي على السيادة الفرنسية نفسها إذا لم تقبر وهي في مهدها، فانذروا بالخطر وسخروا كل وسائلهم للقضاء على مشروعها الإصلاحي، لأن ابن باديس لا ينظر إلى القضايا الدينية نظرة منفصلة عن قضايا الدنيا وملابسات الحياة[3]، بل ينظر إلى كل منهما نظرة واحدة، لذلك ندّد مفدي زكرياء بهذا التعدي السافر على المقومات الروحية لشعبنا، مبرزا روح المقاومة التي يتحلى بها للدفاع عن عقيدته ومقدساته، ولم تُجْدِ فيهم كل الأساليب المنتهجة، من إغراء، وتحبيب المسيحية المحرّفة

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص105.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص240.

(3) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص88.

لأبناء المسلمين، موضحا كيف صار أبناء المسيحيين بعيدين عن تعاليم المسيح، بل هم في أشد الحاجة إلى التبشير فيهم بالإسلام ومثله العليا، وفي ذلك يقول[1]:

وأعيا المبشرَ عمقُ العقيده فلم تجد فينا المساعي الحميده

وأحرى أن نبشر فيكم بإسلامنا، والمبادئ الرشيده

تطغى على الأبيات النبرة الخطابية والمباشرة بدل الإيحاء والتصوير الذي هو روح الشعر، مع صفاء اللغة وعذوبة الألفاظ، لأن مفدي " يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام " [2].

لقد كانت المدرسة التبشيرية هي الوجه الذي يخفي الغرب تحته كل مقابح النفس الاستعمارية ومفاسد الغرب، إذ لم تكن مهمتها محصورة في التبشير ونشر المسيحية، بل حملت معها روح التفرقة والفساد والتشكيك في كل ما هو خيري ونافع للأمة[3]. وهو ما جعل مفدي زكرياء يتصدى لكل محاولة تهدف إلى النيل من مقومات الأمة، داعيا إلى التماسك، ومواجهة أعداء الإسلام بكل وسيلة، خاصة الإرساليات التبشيرية التي زرعت بذور الفساد الروحي والانحراف والتضليل في كثير من أبناء الأهالي النجباء لأن السياسة التبشيرية الاستعمارية الرهيبة يهمها أن تكسب أطفالا أذكياء فيهم من النجابة والحيوية والعبقرية ما يمكنهم من السيطرة على زمام الأمور السياسية أو التوجيه الروحي لا أن تكسب جمهورا غير واع ولا متفتح[4]... لا يحقق لها هدفا.

هكذا سعى المسيحيون لضرب الإسلام بأبنائه، والقضاء على كل ما له صلة بالعقيدة: من مساجد، وزوايا، ولغة وغيرها... وألصقوا الشوائب بالإسلام وتحريفه، كما عرفته دياناتهم ليجعلوا الإنسان المسلم غريبا عن أصالته، يسير في طريق غير طريقه، وقافلة غير قافلته[5].

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص103.
(2) أبو القاسم الحسن الأمدي البصري، الموازنة بين ابي تمام والبحتري، ص11.
(3) خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د-ت،ص07.
(4) يوسف العظم، أين مخاض الجيل المسلم، الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة-الجزائر-1989،ص25 و34.
(5) محمد عادل الهاشمي، الإنسان في الأدب الإسلامي المعاصر، ص29.

لذلك كان البلاء المنصب على الشعب الجزائري كما يقول سعد فهمي: " مصدره جهتان: الاستعمار الفرنسي المادي المعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في أوساطه، المتجرون باسم الدين المتعاونون مع الاستعمار... "[1].

لقد وضح الإسلام معالم وحدود ومساحات، وألزم المسلمين بها كي لا يقعوا في الحرام ويلتصقوا بالمستنقعات، ويسيروا في طريق العفن والتفسخ والفساد، ويدفعوا الناس إليها، فالإسلام بهذا المفهوم نور يهدي الله به من يشاء من عباده إلى طريق الحق المبين، ويبعده عن طريق الخطأ والضلال. لذلك يثور مفدي زكرياء في وجه الذين لا يثقون في شعوبهم، ويفرضون عليهم التبعية لغير الإسلام، والسعي إلى نسف المبادئ الأصيلة لأمتهم، وإشاعة الانقسامات لإضعاف روح المقاومة عندهم، والصمود في وجه أعدائهم، داعيا أبناء مجتمعه إلى التمسك بالإسلام، وجمع الشمل والاتحاد لتحقيق أهدافهم، لأن في الجزائر خصوصا والمغرب العربي عموما، الإسلام ليس دينا وعقيدة فحسب إنما هو بالأساس هوية وانتماء[2] ، فيقول[3]:

واسخروا بالتبعيات التي   تصنعُ الأصنامُ للفوضى سناما
وعلى نسفِ المبادى في الدّنا   والأصالات... تشيع الإنقساما
إن في الإسلام ما يهدي الورى   في المتاهات، وما يُرسى النِظاما

فالذي جعل الإسلام يغزو القلوب، وتتضاءل أمامه الأديان المنحرفة هو ما امتز به من عدل، وتسامح ورحمة، جسدها المسلمون في واقعهم المعيش فيما بينهم، ومع أهل الكتاب في الأمصار المفتوحة[4].

من هنا كان مفدي زكرياء حريصا على تمجيد قيم الإسلام، وإبرازها صافية نقية كما ارتضاها رب الخلق لعباده، لبناء صرح الأمة التي ينشدها القرآن الكريم، مشيدا بأخلاق المسلمين وسلوكاتهم في

---

(1) حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، دار الرحاب للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط01، 1983، ص76.

(2) عبد الباسط دردور، العنف السياسي في الجزائر، وأزمة التحول الديموقراطي، دار الأمين للنشر والتوزيع القاهرة ط01، 1996، ص08.

(3) مفدي زكرياء، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد ا ، سنة 1973، ص63.

(4) محمد سعد الدين، الجيزاوي، أصداء الدين في الشعر المصري الحديث، ص22.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم،ناقدا المفاهيم الخاطئة التي ألصقها دعاة الهزيمة والمرتدين بالدين، حيث دنسوا قدسية الإسلام، وحرفوا مبادئه، وشوهوا صورته، باسم دعاة العقيدة، في وقت لم يكونوا فيه سوى خدّم للصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، وداعيا إلى نصر الإسلام والتصدي لأعدائه.

2- الدعوة إلى محاربة الفساد وإصلاح قضايا المجتمع :

عانى المجتمع الجزائري والعربي الإسلامي في العصر الحديث كل أصناف المظالم، والتعسف والقهر، والاستبداد، من استعمار همجي طبق عليه كل أساليب الاستغلال البشعة، وسعى إلى النيل من القيم الروحية للأمة، ومن عاداتها وتقاليدها لطمس معالم شخصيتها المتميزة، وبذلك ساد الجهل وانتشر الفساد، وعم الانحراف، فآمن الناس بالخرافات والبدع التي لا علاقة لها بالدين، وانبهر شباب المسلمين ببريق المدنية الغربية ومنجزاتها العلمية الكبيرة، فوقفوا منها موقف المعجبين، وتأثروا بمظاهرها الإيجابية والسلبية، لكن تأثرهم كان أكثر في تقليد السلوكات المنحرفة، والانحلال الخلقي الذي صاحب النهضة الغربية نفسها، وتخلفوا عن مجاراة الغربيين في الاغتراف من مناهل العلم وامتلاك وسائل التقدم، وذلك تحت ضغط المعاناة التي فرضتها ظروف التسلط الاستعماري.

تلك الأمراض التي عملت لسنين طويلة على تحطيم القيم الروحية والمادية للمجتمع، وإحلال مفاهيم أخرى للحياة محلها تقوم على السلب والنهب والاستغلال، ومجردة من كل شعور إنساني[1]، لذلك اقتنع المفكرون في الجزائر وبلاد المسلمين بضرورة توحيد العمل من أجل تغيير واقعهم تغييرا إيجابيا يستجيب لتعاليم دينهم، وتحقيق مطالب شعوبهم، وكان هذا الإحساس دافعا قويا للسير في طريق النهضة بحثا عن أقوم السبل للخروج بمجتمعاتهم من دنيا التخلف إلى دنيا الحياة، دنيا الحضارة، بل إلى آفاق الحرية والكرامة الإنسانية والأصالة. وقد اختلف رجال الفكر والسياسة في وسائل تحقيق الأهداف المرجوة؛ فآمن قوم بالجهاد وسيلة، والبعض الآخر بالسياسة منهجا، وآمن البعض الآخر بإصلاح

[1] سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د-ت، ص32.

أوضاع المجتمع، فكان وكان من أولئك وهؤلاء، فالتقت المشاعر والأحاسيس، وتوحدت الرؤى، وسرت في نفوس تلك الشعوب روح الحياة، ولاح بريق الأمل لديهم، فحملوا لواء الدفاع عن تعاليم دينهم وإصلاح قضايا أمتهم. وكان في مقدمتهم هؤلاء الأدباء والشعراء منهم مفدي زكرياء الذي تسرى في شعره المرتبط بالقضايا الاجتماعية الروح الإسلامية التي تمنحه خصوصيته المتميزة، الهادفة إلى محاربة الفساد بأشكاله وألوانه المختلفة، وإزالة عوامل الانحراف والتخلف والجمود، ونشر الفضيلة التي هي أساس نهضة الشعوب والأمم.

ومفدي زكرياء كغيره من الشعراء العرب، قد أدرك دناءة المستعمرين وأعوانهم الخونة الذين كانوا سببا في حرمان الشعب العربي المسلم وتجويعه، ونشر عوامل الفساد بين أبنائه، فتحمل رسالة توعية المجتمع، وغرس روح مسؤولية التغيير بين أبنائه حتى يستطيع أن يضع أحلامه، وأمانيه الغالية موضع التحقق في أرض الواقع، لأن المطامح تنبت في تربة الوعي، وبها تتبلور الأماني، وتضيع الحقوق، وتموت الأنفس، وتهدر الكرامات في تربة الجهل والظلم [1]، وفيها تنبت الرذائل وتنمو، وبذلك نجده في قصيدته " إلى الريفيين "، يحذر الريفيين من الميل إلى الجمود، والتقاعس والتواكل على الغير والجهل، والاستهتار بالأمور، والإيمان بالخرافات، والتشبث بالبدع والضلالات التي توغل الناس في التخلف، فيقول بصوت الناصح الواعظ[2]:

(بني الريف) إياكم والجمود فإن النجاح حليف السهر

فليس الفلاح بنقر الدفوف ودعوى الضريح وخط الزبر

ولا بالتواكل عند البلاء ولا بالكؤوس، وضرب الوتر

ويرسم صورة المجتمع الجزائري المتردي في ظل الاحتلال وما يقاسيه، وكيف استذلت رقاب الشعب، وصار القوم يجوعون ويعرون في أرضهم المعطاءة، الغنية بمواردها وزراعتها التي تدفقت

---

(1) مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، ص181.
(2) مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب، تونس، بتاريخ 06 ماي 1925م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منتوجاتها على ذوي الجاه والسلطان.

ونلمح من خلال هذا التصوير الدقيق والبارع دعوة صريحة إلى استنهاض الهمم، وتعبئة النفوس، لتغيير ما حل بهذه الأمة المسلمة التي لا يمكن أن يتغير حالها إلا بإرادتها وعزمها، مصداقا لقوله تعالى: " إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسِهِمْ " (1). فيقول(2):

عـاث فيها الطغـاة، عـسفًا وظلمًـا ... ورماهـا البغـاة، جهـلا وفقـرا

واستذلـت رقابهـا، فتراهـا ... وهـي في أرضها، تجـوع وتعرى

واستبيحت أرزاقهـا، ليـس إلا ... (قيصـر) بملك الحياة، و(كسـرى)

وهي الصفات التي غرسها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، مدعيا تمدين الإنسانية، وصاحب تمثال الحرية.

وقد اعتبر محمد البشير الإبراهيمي سمات المستعمر الفرنسي في الجزائر صفات من جهنم فقال: " في الاستعمار الفرنسي في الجزائر صفات من جهنم، منها أن من ابتلي به لا يموت ولا يحيا... لقد جرد الجزائريين من أسباب الحياة وتركهم حفاة، عراة، جياعا، مسجلا عليهم عبودية سوداء للسادة الأوروبيين، يعملون ليلا ونهارا لفائدة الدخلاء، ولا ينالون من عملهم سوى ما يسدون به رمق الحياة(3).

ونتيجة لهذه الأوضاع المتردية في المجتمع، وما صاحبها من حملات التنفير، والمسخ الموجهة ضد أصالة الشعب، فقد استشرى الفساد بشتى مظاهره وألوانه، وكان رد فعل مفدي زكرياء قويا لمحاربته وإبراز فضائل الإسلام وقيمه العليا، فتعالت صيحاته هنا وهناك، لإيقاظ المجتمع وقلع جذور الفساد، وإبراز سلوك السلف الصالح، وخلق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فتصدى لمظاهر الفساد فشخصها وبين مخاطرها على حاضر الأمة ومستقبلها، فقد صور أعمال المستهترين الذين تنكروا لقيم الإسلام، وانتهجوا نهج الغربيين فهتكوا الأعراض والعفاف، وسعوا في طريق الرذيلة ونشروا الفساد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) سورة الرعد، الآية: 11.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 281.
(3) أحمد حمو العياضي، الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري الحديث، ص25.

وابتعدوا عن تعاليم الإسلام بتقليد سلوك غير المسلمين، حيث تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال فتفاخر الرجال بإطالة شعررهم، ولبس الحلي، وتعليق القلائد مثل الفتيات، وصار الفخر بالموبقات من شيمهم، فهم يرقصون سكارى كالطير الذبيح، لا يعيرون أي اهتمام لما ينتظرهم من عقاب الله، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولم يتعظوا برحيل قوافل البشر يوميا إلى الدار الآخرة، تلك أخلاق الصهاينة التي مسخوا بها أخلاقنا الطاهرة النقية، فسرنا لهم تبعا فقال[1]:

ومستهترون أضاعوا الثنايا وشاع تنكرهم للسجايا

وقالوا: التقدم خلعُ العذا ر، وهتك العفاف، ونشر الخطايا

وجدل الشعور، ولبس الحلى وحمل القلائد، مثل الصبايا

ويفتخرون بشرب الخمو ر، وفي الكأس ترسُبُ كل البلايا

إن انبهار بعض أبنائنا بحضارة الغرب وتأثرهم بسلوكات منافية لقيمنا الأصيلة جعلهم يتنكرون لدينهم وساروا في قافلة غير قافلتهم، وقد صورهم يوسف القرضاوي بقوله: " إن فئة من أبناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها من تراثها كله باسم التطور، يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشرعية والتحلل من الفضيلة... انهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب، من عقائد وأفكار. وقيم وموازين، وأنظمة، وتقاليد، ومثل وأخلاق "[2]، في وقت كان ينبغي أن تطبع قيم الإسلام حياتهم، لأن طبائع الجزائريين صالحات جليلة تعاف انحلال النفوس الذليلة، وترفض رجولتهم كل أنواع الابتذال والانسلاخ عن أصلهم، وتقليد الآخرين تقليدا يفقدهم شخصيتهم، فترى الفرد يتباهى بما ليس من صفاته، وتلمس في الرجال روح التخنث والميوعة وحب الانحلال والتعلق بالرذائل والآثام، ومنافسة النساء في أنوثتهن وسلوكاتهن ولباسهن، حتى أنك تكاد لا تميز بين الجنسين إلا بالنهود التي هي خاصية من خصائص النساء.

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص98

(2) الخصائص العامة للإسلام، شركة الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، 1988، ص233-234.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويزداد تأثر الشاعر حيث يصور عمق معاناة المجتمع نتيجة شيوع الشذوذ بأوسع معانيه، وانتشار المخدرات التي هي أساس الانحرافات الأخرى التي مست فئات كبيرة من الشباب، فصارت كالقاذورات تبث رائحتها في كل مكان فتقرف الأنوف. وصار من الصعوبة بمكان القضاء عليها وتخليص الأمة منها.

وهنا يصرخ الشاعر مذكرا بأصالة هذا المجتمع، وفحولة رجاله، صانعي مجد الأمة عبر تاريخها القديم والحديث، موبخا المتخاذلين الجبناء، الذين فرطوا في حرمات البلاد وتركوها لعبث ابن آوى، ونعيق الغربان التي تدمر البلاد فيقول: [1]

طبائعنا، صالحات جليله   تعافُ انحلال النفوس الذليله

وتأبى رجولتنا الابتذا   ل، وأحلاسه، والشعور الطويله

ونافس آدم حواءه   دلالا، وغنجا، وذبح فضيله

ولولا النهود، لما كنت تفرق   بين جميل وجميله ! ![2]

وشاع الشذوذ، وذاع الحشيش   وأصبح للموبقات وسيله

وأرض الجزائر أرض الفحو   ل ! فأين الشهامة؟؟ أين الرجوله؟؟

ومن لم يصن حرمات البلاد،   ويذر النفايات... قد خان جيله !

ويصور مفدي مظاهر الانحلال والتفسخ في المجتمع الإسلامي، وكيف صار الناس يتسارعون إلى الموبقات متحدين تعاليم الإسلام، مسجلين عصيانهم لخالقهم، إذ صاروا يعبثون بآيات الله، ولم يصغوا إليها في عناد وتحدّ، فعاملهم الله بقدر أفعالهم، وصب عليهم غضبه، كما حدث في زلزال الأصنام بالجزائر، إذ رأى دعاة الفساد والرذيلة في الزلزال أعمالهم، وأخلاقهم المنافية لشرع الله، علهم يعودون

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص90.
(2) علق الشاعر على هذا الوصف بأنه واقع العالم الإسلامي، بل ربما دونه بكثير، إذا فلا مبالغة فيه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلى رشدهم فيقلعون عن أفعال السوء، ويتوبون إلى الله توبة نصوحا، وفي ذلك يقول[1]:

هـو الإثـم، زلـزل زلــــزالهـا فزُلـزلـتِ الأرضُ زِلزالهـــا[2]

وكـم أمـمٍ غيّــــرت مـا بهـــا فغيـــرتَ يـا ربّ أحـــوالهـــا

وزلّـت بأعـمــالــهـا فــغــدتْ تـرى فـي الزلـــزال أعمالهـــا

عـسـاها تتـــوب إلـــى رُشـدها فأولــى لهـــا، ثـم أولــى لهـا

ومن أخطر ما عرفه المجتمع من انحراف كان على أيدي دعاة الثقافة الحديثة، الذين تنكروا لأصالتـــهم وثقافتهم وتراثهم الحضاري العريق، وتشبثوا بقشور الحضارة الغربية، فـــهم يرفضـــون كـل أصيل ويرمونه بالنقص والقصور، حتى ولو كان ذلك من العلوم التجريبية التي لا يصبو إليها الشك.

والأدهى والأمر من ذلك كله هو اعتبار الثقافة الأصيلة آفة في مجتمعاتنا، بل وسببا من أسباب تخلفنـــا عن مسايرة ركب الحضارة الإنسانية المعاصرة، ولهذا يندب الشاعر واقع أمته ويرى مصيبتـــها فـــي متقفيها، فيقول بعاطفة تمزقها الحسرة ويلفها الحزن[3]:

وما قـــرر العلــــم، والضالعــــون رمتـــه، وقالـت: حديـثُ خرافـه

ويفشـــو الفـــراغ، بهـم والضيـــاعُ فيعتبــــرون الأصـــالـــة: آفــــه

قرامطـــــةٌ كالحجـــــارة غُلـــفٌ فيـــا لمصيبتنـــــا فـــي الثقافة ! !

إن هذه الفئة الضالة من متقفينا المجردة من قيم الأخلاق النبيلة، والتي تعاني الفراغ الروحـــي الرهيب، والضياع في عالم القيم، باعت ضميرها، وعاثت في المجتمع فسادا باسم التقدم، فصارت لعنـة الإلحاد عندها مفخرة العصر، تسعى لغرسها في نفوس ناشئتنا بشتى الأساليب، قاعدتها الطعن في قيـــم

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص273 و 274.
[2] العبارات والمعاني أخذت من سورة الزلزلة.
[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص101.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأخلاق، لإرساء القيم الجديدة المنافية لنظام حياة الشعوب الإسلامية، لأن الأخلاق أساس قيام الحضارات، ودوام استمرارها وتواصلها، وبدونها تنحط الأمم وتسقط في مهاوي التخلف والاندثار.

وفي هذا المجال يقول مفدي زكرياء(1):

باسمِ التقدم، كم قد عاث مرتزقٌ   فيها، وأفحشَ مأجورٌ ومحتالُ

وأصبحتْ لعنةُ الإلحادِ مفخرةً   يُغري الشبابَ بها وغدٌ ودجّالُ

والطعنُ في قيم الأخلاقِ مكرمةً   بها يُبشّر سمسارٌ ودلاّلُ

ولم تكن الإساءة إلى القيم على أيدي الملحدين فقط أعداء الإسلام الطبيعيين الذين يسعون ليل نهار للإساءة إلى الإسلام، والطعن في مبادئه وأحكامه، بل كانت كذلك على أيدي أولئك الذين نصبوا أنفسهم دعاة وهداة للأمة، في وقت هم أشد ضررا بها وخطرا على رسالة الإسلام من غيرهم، إذ نجد أن معاناة كثير من الشعوب الإسلامية من المآسي كان بفعل هؤلاء الدعاة الذين جنوا على الإسلام، إما بجهلهم أو استغلالهم من عدو الأمة، لذلك يشتد مفدي زكرياء حنقا فتنبعث من أعماقه زفرات الأسى والألم، معبرا عن موقفه الثائر ضدهم فيقول(2) :

وكثيرٌ من الهداةِ جناةٌ   وكثيرٌ من الدعاةِ أعادي

وأمام هذا الوضع الفاسد، والركود التام، يسجل الشاعر سلبية بعض رجال أمته وتقاعسهم أمام التيار المسيحي، والإلحادي، الذين يفتكان بالشعب ويقتلان ضمائر الأجيال، فيدعو لهذا المجتمع الخائر الذي تعيش الرجال فيه كالدمى بالهلاك فيقول(3):

وتبا لمجتمع خائر   تعيش الرجال به كالدمى ! ! !

يموت ويقبر فيه الضميـ   ـرُ، ويحمى البريء به المجرما !

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص128.
(2) مفدي زكرياء، (فتى المغرب)، جريدة المغرب، الجزائر، ع15 بتاريخ 09 سبتمبر 1930م.
(3) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص105.

وبالمقابل يدعو أولئك الذين تتقد نار الغيرة في نفوسهم للدفاع عن الأعراض، وقيم المجتمع، إلى التضامن والاتحاد، ليكونوا يدا واحدة، وقوة فاعلة رادعة لمن يمد يده لتلطيخ عرض المجتمع ومقدساته الطاهرة.

ويلح على استعمال القوة وسيلة لحماية أخلاق الأمة، ومحاربة كل عوامل الفساد مؤكدا لهم عدم بلوغ هدفهم بغير القوة، ويرفض طلب تحقيق الصلاح كما تحققت المعجزات الإسلامية منذ العهد الأول للإسلام بدافع من العجز والقعود، لأن الله يمد يد العون لمن عمل واستعان به، لذلك فلا مجال للدعاء بالتغيير مع الجمود.

وينفي نفيا مطلقا صلاح الأمة وسلامة بنيان نهضتها ما لم ترس أُسُسَهُ ضمائرُ مخلصة صادقة في عملها، مؤمنة بما تسعى إليه، لا يستهويها طمع ولا جشع، فلا تباع ولا تشترى[1].

أولئك الرجال الذين يريدهم مفدي زكرياء قادة للأمة وساستها، ومناط آمالها، بصدقهم، وأخلاقهم، وإخلاصهم في العمل، لتجسيد صورة المجتمع المطلوب. إن الدعوة إلى رسم معالم صورة المجتمع الإسلامي لا تعني الحجر على سلوك الناس وضبطهم في قوالب مسبقة، إنما هي دعوة لتوضيح الأبعاد التي يتيحها الإسلام لحركة الإنسان داخل العالم، وداخل المجتمع وداخل نفسه، لتحقيق النسبة القصوى من طاقته لإرساء دعائم الحضارة ومقومات السلوك[2].

لقد وجه مفدي نشاطه الإصلاحي لمحاربة الفساد، والنهوض بالمجتمع، متخذا من الإسلام أحد المقومات الرئيسية في دعوته النهضوية، ومواجهة التحدي الصليبي الإلحادي المفروض على المسلمين، وإزالة ما ألصقوا بالدين من شوائب، كغيره من رجال الإصلاح.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص121.

(2) عماد الدين خليل، في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1984، ص20.

لذلك خاطب جريدة وادي ميزاب طالبا منها أن تهنئ رجال الإصلاح على جليل أعمالهم ، وتبلغهم بأن للأمة المسلمة ربا يحميها من العسف وظلم المفسدين، أصحاب الشرور، فقد حماها الخالق ورضى عنها وأعزها،ومكن لها في الأرض تمكينا. فيقول[1]:

قولي: اهنأوا " فتية الإصلاحِ " إن لنا   ربا، إذ عاثَ ذيبُ العسف يحمينا

الله راض؟ ومن يرض الإله به،   حباه في خلقه عزا وتمكينا ! ! !

لقد قاوم رجال الإصلاح في الجزائر وبلاد المسلمين الفرق الضالة،والطرق المبتدعة في الإسلام ومختلف عوامل الانحراف الديني والخلقي، وحاربوا الجهل، لإيمانهم بأن انتشاره هو شر يصيب الشعوب عبر تاريخها، وقد سعى الاستعمار في البلدان الإسلامية التي احتلها إلى نشره بين الناس ليطول مقامه بينهم، كما حدث في الجزائر، حسب أبي القاسم سعد الله، إذ يقول: ...استخدمت فرنسا المرابطين الخرافيين لإصدار فتاوي إسلامية لصالحها، وبذلك استغلت الأهالي باسم الدين[2]، فراحوا ينشرون في الناس ما ليس من عقيدتهم، بل لقد وقف هؤلاء في وجه الدعاة والمصلحين يثيرون الناس عليهم خدمة للمستعمر، وضربا للأصالة، وطعنا في الدين. لذلك يصورهم مفدي زكرياء على أنهم ذوو وجوه رسم الشر عليها علامات السواد، وقد امتلأت قلوبهم حقدا، وسلوكاتهم طغيانا وزورا على رجال الإصلاح والخير والدين، وامتلأت بطونهم سحتا، متخذين الدين وسيلة لافتراس الغافلين الجاهلين فكانوا بذلك معاول هدم لا معاول بناء في مجتمع أحوج ما يكون إلى طاقات أبنائه، للنهوض من كبوته، وإصلاح حاله، للسير في طريق التقدم، فيقول داعيا لهم بالتشويه والهلاك[3]:

يالحَا الله أوجُهًا رسم الشرّ   على صحنِها هنات السواد

وقلوبًا أُفعمْن حقدًا وطغيانا   وزُورا على دُعاة الرشادِ

(1) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع29 جويلية 1930.
(2) الحركة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج2، ط03، 1982، ص246.
(3) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع62 بتاريخ 23-12-1927.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبطونا مُلئن سُحتا وطاغوتا، وبالدّين، شبكةُ الاصطيادِ

ورُؤوسا قد عشعش الجهلُ فيها فاستوى الحرُّ عندها بالجمادِ

وكان خصوم الإصلاح دعاة الجمود والتخلف والانحطاط، يجعلون المساجد منابر لدعواتهم الهدامة فينادون فيها بالإثم بدل استغلالها في توجيه الأفراد والجماعات إلى واقعهم المري،ر وتحريك هممهم للذود عن قيم مجتمعهم، وتجسيد مثل الإسلام في حياتهم، إلى جانب سكوتهم وعدم تهجمهم على ما يسري في جسم الأمة، وينخر عظامها، من شرب خمر، وموبقات تستدعي إعلان الجهاد في سبيل إزالتها من حياة المجتمع الإسلامي، ووضع حد لأولئك الذين يعبثون بكرامة الأمة، وبكل ما هو أصيل وفعال، يؤدي إلى سعادة الشعب وتقدمه فيقول[1] :

يتنادون في المساجد بالإثـم، ولله أجـرُ ذاكَ التنادي

غير أنّ السكوتَ عن نُدماءِ الـ خمر والموبقات روحُ الجهادِ

لقد تجند المصلحون بأصنافهم لمعالجة هذا الداء الخطير، وإصلاح أوضاع بلدانهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتقوية الغيرة الإيمانية في النفوس، لإحلال الصلاح محل الفساد، لكون رسالتهم عظيمة، وجهادهم مضمون النتائج، ولأن نتائج التخاذل وخيمة، وهذا ما صوره أبو الأعلى المودودي بقوله: " فمتى ترك العلماء وأولوا الأمر واجبهم الحقيقي وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعادوا يحتملون وجود الشر والفساد، فإن الضلال والانحلال الخلقي يأخذ في الانتشار بين أفراد الأمة، ويجعل الغيرة الإيمانية فيهم تضمحل وتتلاشى، حتى تفسد البيئة الاجتماعية كلها، ويصبح جو الحياة صالحا للفساد، وغير صالح للخير والصلاح، فينفر الناس من الحسنات، وينجذبون إلى السيئات بدل أن ينفروا منها، وتتقلب القيم الأخلاقية رأسا على عقب، فتعود المعايب محاسن والمحاسن معايب " [2].

---

[1] مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع 62 بتاريخ 23-12-1927م.

[2] نحن والحضارة الغربية، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1988، ص 26 و27.

ومن القضايا الاجتماعية المهمة التي شغلت المصلحين في القرنين التاسع عشر والعشرين وكانت أساس جهادهم الطويل الشاق، وتضحياتهم الجسيمة، ومعاناتهم القاسية، وساهم مفدي زكرياء في معالجتها بشعره الاجتماعي وبروح إسلامية هي:

أ- الدعوة إلى النهوض بالمجتمع من خلال العناية بالتربية والتعليم:

لقد ساءت حالة التعليم في العالم العربي عامة والجزائر خاصة، في القرنين الأخيرين نتيجة السياسة الاستعمارية الفاسدة التي استهدفت الأنظمة التربوية، وأفقدت التعليم روحه، إذ حاربت الثقافة الأصيلة المرتبطة بتراث الأمة وتاريخها المجيد، لأن الاستعمار يدرك تمام الإدراك أن العلم سيف قاطع، وأن الشعوب المتعلمة عسيرة الهضم، تقاوم الظلم، وتدافع عن الحق، وتسعى لنصرته وإعلاء كلمته دون أن تبالي بجسامة التضحيات التي تقدمها في سبيله، لذلك سعت إلى تطبيق سياسة تجهيل الأمة، وابتكار الأساليب الناجعة لإفناء العنصر الإسلامي فيها، سواء بالتفقير، أو بالتجهيل أو بالتنصير، أو بغيرها من الأساليب الهادفة إلى إذابة المجتمع وإزالة آثار الإسلام من حياة الشعوب المتدينة به.

وقد لاقت المؤسسات التعليمية في الجزائر منذ أن حل الغزاة بأرضها إلى تاريخ استقلالها بما فيها من مساجد وكتاتيب وزوايا ومدارس، كانت منتشرة في أنحاء الوطن قمعا كبيرا لم تعرفه مثيلاتها من المستعمرات في العالم والتي تعرضت لاحتلال من أمة أخرى، سواء بالغلق أو منع التدريس فيها، خاصة ما يتعلق بالثقافة العربية والتاريخ الإسلامي، ولم يسمح بفتح أبواب المدارس أمام أبنائنا إلا عام 1883م، لكن البرامج المقررة كانت فرنسية لغة ومحتوى، واعتبرت اللغة العربية أجنبية في موطنها، واقتصر التعليم على إعطاء الأطفال معارف بسيطة تزيل عنهم أميتهم، وتجعلهم يدافعون عن قيم فرنسا وثقافتها ومجدها أكثر من دفاع أبنائها أنفسهم.

وحتى هذا التعليم لم يكن موجها للجميع، إذ خصّوا به أبناء الخونة وموالي الاستعمار، فكان من نتيجة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

زمنا طويلا، لكن الأمة الجزائرية لم تبق مكتوفة الأيدي أمام هذه الوضعية، بل أخذت تبني المدارس العربية الإسلامية الحرة بجهودها الضئيلة " تحت إشراف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "[1]، التي أنشأت ثلاثمائة مدرسة في المساجد[2] تعلم اللغة العربية وتحفظ كتاب الله، وتدرس مبادئ الإسلام وإليها يعود الفضل في بقاء اللغة العربية حية تذكر في الجزائر إلى اليوم.

وقد أشاد مفدي زكرياء بجهود الجمعية في الدفاع عن الإسلام والوطن، ومحاربة أساليب تجهيل الشعب وتفريغه من محتواه العقائدي، وثقافته العربية الإسلامية، إذ صار الأمل معلقا عليها دون سواها من الذين خاب أمل الأمة فيهم لسلبيتهم، ودعا إلى بناء المدارس في كل مناطق البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، لإعداد النشء إعداد وطنيا أصيلا، تمهيدا للثورة على مغتصب البلاد، ومستعبد العباد، لأن التعليم وسيلة نهضة الأمة في مختلف مجالات الحياة، وإرساء دعائم حضارتها من جديد[3].

ويربط مفدي زكرياء بين الدعوة إلى استعادة مجد الإسلام في عصوره الزاهرة يوم أن ارتقت العلوم على أيدي رواد النهضة العلمية والفكرية أمثال جابر بن حيان التوحيدي، يوم كانوا منارة تشع بنورها على العالم، وبين الدعوة إلى بناء المدارس والمستشفيات، وخوض سبيل الحياة لتحصيل العلوم والآداب، للسير بالأمة نحو العصر الجديد، عصر العلوم والتكنولوجيا الحديثة، فيقول مخاطبا البطل الليبي سليمان الباروني[4]:

أعد إلى الدين مجدا كان مزدهرا   في عصر (جابر) حتى نجمه غرُبا

وابن المدارس والمستشفياتِ وخُضْ   بحرَ الحياةِ وعزَّ العلم والأدبا

وسرْ بأمتك الغراء في سُبُل الـ   ـعصر الجديد إلى عليائها خببا

---

(1) محمد بن عمرو الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص263.
(2) أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص44.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص268.
(4) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع12 بتاريخ 17-12-1926.

ويلح على قادة الشعب أن يلجوا بشعبهم سبل العصر الجديد، بامتلاك وسائل التقدم، في مقدمتها المعارف العلمية المتطورة بسرعة، لأن الوقت لا ينتظر ولا يرحم، وأقوم السبل لنيل المنى هو بناء المدارس لتربية النشء المتشرد، الهائم على وجهه في الطرقات، تربية صحيحة، غايتها الخير والفلاح لبني البشر، " والتربية المنشودة ليست شيئا سهلا، إنما هي معاناة وجهد يقوم به المربي والمربي معا وتشترك في تحقيق النتيجة عناصر أخرى كالبيت والبيئة والسلطة، كما يشترك الماء والشعاع، والحر والبرد في انفتاح الثمار "[1].

وهنا يتوجه الشاعر بالخطاب إلى طلاب العلم والمعرفة، فخر الجزائر وروح الأمة وقلبها النابض، يدعوهم فيه إلى الانتفاع بالعلم، والمجاهدة في سبيله، وعدم الخضوع للغير، والقعود عن العمل وتحصيل المعارف لمسايرة تطور الحضارة الإنسانية المعاصرة.

والدعوة إلى العلم مقرونة بالدعوة إلى العمل والجهاد في إطار من الأخلاق والفضيلة التي ترفض القعود وتنبذ الكسل وإضاعة الوقت، لذلك يخاطب أبناء الجزائر ورواد نهضتها يدعوهم إلى الاغتراف من المورد الصافي " كتاب الله " فيقول[2]:

فأنتم بنوها وروّادها، وليس فتى السعي كالمقعدِ

فعبوا نهير المعارف عبًّا من المنهل الصافي المورِدِ

إن العناية بقضايا التربية والتعليم في الجزائر تعود في واقع الأمر إلى عمق مشاعر الجماهير الشعبية التي أقامت مؤسساتها الثقافية وعلاقاتها الاجتماعية على أساس تعاليم الدين الحنيف[3]، الذي أعطى للعلم صبغة مقدسة، فجعل طلبه فريضة على كل مسلم. ووضع التعليم لا يكاد يختلف فيه بلد عربي عن آخر آنذاك، إلا من حيث قوة التأثير، إذ كانت غاية المستعمر إفساد الأنظمة التربوية، بإفساد مناهجها وتوجيهها وجهة لا تخدم الوطن، وإنما تخدم مصالح المستعمر، ويكون الأعوان كالآلات في يده، وفعلا

---

[1] محمد الغزالي، مشكلات الحياة الإسلامية، رئاسة المحاكم الشرعية والدينية، قطر، 1402هـ، ص49.

[2] مفدي زكرياء، جريدة النور، الجزائر، ع26 جويلية 1932.

[3] النصوص الخاصة بقطاع التربية، الجزائر، 1992.

جعلها لا تعمل على إعداد رجال متضلعين في العلوم والفنون يرفعون قدر الأمة بما يكشفون من أسرار الكون، وما يخترعون في مجال الصناعات، كما جعل المدارس الموجهة لتعليم الأهالي تفتقد إلى أبسط طرق تهذيب الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة، بالتربية الدينية[1]. لذا رأى الشاعر وجوب العودة إلى الأصالة بوساطة ثورة ثقافية تستمد مقوماتها من أصالة الأمة وإرثها الحضاري فكانت هذه المعركة العظيمة لتعليم الشعب، والرقي به إلى أعلى درجات المعرفة، وتربية النشء تربية سليمة، وإمداده بطاقة إيمانية فعّالة تجعله يجسد إرادة الأمة، ويمحي بها أثر الجهل والتخلف في المجتمع، فيقول[2]:

إذا ما انتصرنا بحرب الخلا ... صِ، فثورتُنا اليوم حربُ أصالـه

نهدنا لمعركةِ المستوى ... نربي النفوس ونغزو الجهالـه

لكل هذا وغيره اهتم المصلحون بالإصلاح التربوي تمهيدا للثورة على المظالم التي انتشرت في المجتمع الإسلامي على أيدي أعداء الأصالة، دعاة التغريب والإلحاد، لأنهم أيقنوا بأن إيقاظ المسلمين لا يكون إلا بتعليمهم وتثقيفهم بالمعارف الحديثة موصولة بأصالتهم، مرتبطة بعقيدتهم، فيحققوا الوثبة المنشودة، والنهضة المأمولة، ليحيوا حياة العز في الدنيا فينعموا بالسعادة، وفي الآخر بالخلود في جنّة الرضوان.

ب- قضية المرأة:

كانت قضية المرأة من أهم القضايا الاجتماعية تناولا من طرف المصلحين ودعاة التحرير، كتاب وشعراء وفقهاء إلخ ... لكونها قاعدة الأساس في الأسرة، ومدرسة الحياة، منها يولد النوابغ وفي أحضانها يتربى المجتمع، وقد جعل الإسلام بينها وبين الرجل مودة ورحمة، عن طريق رباط شرعي من أسمى الروابط هو الزواج، تلك الرابطة المقدسة التي تجمعهما روحا وفكرا وبدنا، في بيئة مكانية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص155.
(2) مفدي زكرياء، اللهب المقدس؟ الإلياذة الجزائر، ص89.

وزمانية تضمن لهما تكوين أسرة تحفظ للبشرية استمراريتها[1].

وقد أرجع الباحثون من غير المسلمين سبب المحافظة على الروح الإسلامية في المجتمع الجزائري مثلا إلى الدور الفعال للمرأة التي كانت وفية لقيم دينها، وتقاليد مجتمعها، متحدية كل الصعاب التي فرضت على أمتها.

وقد أشاد مفدي زكرياء بالمرأة الجزائرية المسلمة رمز الطهارة والوفاء والتدين، فخاطبها خطاب المعجب بأخلاقها، المعتز بأصالتها وعفتها، التي شرفت بها جنسها ورجال قومها، فصانت شرفها بين حثالة المجتمعات، ذئاب البشرية، لالتزامها طريق الصلاح، وتحكيم العقل النير، فكان منقذها من الضلال، ومبعدها عن الزلل، فطبع حياتها الحياء، فجملت به حياتها وحياة الأمة بأكملها، فخلدت مجد الجزائر والمسلمين، بعد أن عافت حياة الابتذال التي انغمس فيها الأنذال، فكانت بحق جديرة بالتمجيد والتعظيم، لأن من يصنع مثلها الجيل الصالح، ويرعى اعتداله واستقامته في الحياة يسمو بأمته فوق قمم المجد، فيخاطبها بعاطفة إسلامية تنم عن مشاعر متدفقة بالاعتزاز والفخر قائلا[2]:

وحاشاك، حاشاك بنت الأصاله ... ومن شرفت جنسها ورجاله

وصان شبابك بنت الحلا ... ل، كما صنت عرضك بين الحثاله

سلكت الطريق القويم المبين ... فجنبك العقل سبل الضلاله

فمثلك من يصنع الجيل شهما ... ويرعى استقامته، واعتداله

تلك صورة المرأة المسلمة الأصيلة التي أنجبت القادة والأبطال، ومثلت المجتمع الأصيل في أروع صوره.

وبالمقابل يرسم للمرأة الفاسدة المنغمسة في الموبقات المتحللة من القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، فهي رمز العار والخزي في المجتمع، لتفسخها مظهرا وباطنا، مظهر بكشفها عوراتها، إذ صارت

---

(1) عبد الله أودادي، جريدة الخبر، بتاريخ 19-10-1992، ص09.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص107.

تمشي بين الناس عارية السوءة كالعنزة بين القطيع، فتثير نفوس الدخلاء فهي لا تدري من أمرها شيا بعد أن ضلّت طريقها السوي، كالساري في الليل بلا دليل، أو كالمخمور الذي فقد السيطرة على نفسه فراح يترنح يمنة ويسرة، يتخبّط كما يتخبّط من أصابه المس، أو طار منه عقله، وتكشف ساقيها متحدية كل القيم والمشاعر، كأن القيامة قامت لقبر الفضائل وهي حية ترزق، ويربط الشاعر بين المظهر الخارجي لزي هذه المرأة وما في أعماقها من معتقدات فجلابيبها القصار الطويلة مظهر التبرج، صورة لمداركها وعقلها القاصر، وبصيرتها كنظرها المترنح الذي لا يثبت على حال، وأخلاقها مزيفة كصورة وجهها المشين الممتقع، الذي لا إشراقة فيه ولا نضارة، شاحب لا يجلب نظرا، ولا يدخل مسرة على الأنفس.

أما جسدها فحدث عنه ولا حرج، فهو كقطع الغيار، كل ذلك نتيجة زوال حيائها، لأن في جفاف ماء حياء الأنثى زوال الموانع الرادعة لها، فتنحرف عن خط الأصالة، وتسير في طريق الفساد والانحلال وتهوي بالمجتمع في أعماق الرذيلة.

لذلك يصرخ مفدي زكرياء بأعلى صوته في نقد لاذع للمرأة المبتذلة المنحرفة، الخارجة عن إطار الدين وتقاليد المجتمع قائلا[1]:

ومنهنَّ كالعنْزِ بادي الرذيله … يُدلّلن بالعار بين القبيله

يُشمّرن ذيلا عن العورا … تِ، يثرن فضول النفوس الدخيله

ويسلُكْنَ عبر الطريق السّو … يِّ، كخابِطِ ليلٍ أضاع دليله

خنافسُ، يكشفْنَ ساقًا كأ … نّ القيامةَ قامتْ لوأدِ الفضيله

وأخلاقهنّ كوُجوهِهِنَّ … بواسرُ، ممتقعات، عليله

وأجسادهن قطاع غيار … فكل القطاعات يكفي بديله

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص106.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذا جـــفَ مـاءُ الحيــاءِ بأنثـــى   فلِمَ لا تجـفُ الطّبـــاعُ الأصيلــه !

وبهذا خرجت المرأة المنحلة على ما سنه الإسلام لها من آداب وسلوك، وألزمها أن تتمسك به، مدعية التحرر وتقليد الغربيات في مظاهرهن، وفجورهن، لأن جوهر تحررها في الإسلام هو تمكينها من أداء وظيفتها كأم وزوجة، أو أخت، أو بنت، وفي المجتمع كفرد يقع عليها عبء تمليه طبيعتها كأنثى... لكن الدعوة إلى تحريرها على أن تكون رجلا آخر بدل المرأة فذلك ليس من مقتضيات الإسلام، وضد طبيعة المرأة نفسها، بل ضد التطور الاجتماعي ذاته[1].

هذا وكانت للدعوات الهدامة في المجتمع الإسلامي عامة، والجزائري خاصة آثارها البالغة في تهديم الأخلاق، عن طريق إفساد المرأة، لأنها أساس صلاح الأمة أو فسادها وتمييعها.

لذلك كان من أخطر المعضلات التي واجهها أعداء الأمة الإسلامية هو ثبوت المرأة المسلمة على دينها، وتمسكها بأصالتها في كل الأوقات والظروف، فاختلقوا فكرة المناداة بتحريرها.

ومن أخطر ما خطط له هو تغيير وظيفتها... وكان المبشرون والشيوعيون الملحدون وأعداء الإنسانية قد أولوا اهتماما كبيرا بالمرأة لأنها مدار الحياة، فانطلقت جحافل من الأخوات ينفخن في آذان المرأة المتأصلة في كل مكان، عبر الإذاعات والمجلات، واللقاءات المباشرة، ويمهدن لهن طريق اللهو لينطلقن عاريات متبرجات، ليعرضن زينتهن في الشارع، ناسيات قيمهن وأصالتهن، متبعات ما توحي به من أفكار مسمومة المدارس اليهودية المعادية لرقي الكائن الإنساني[2].

من هنا تبدو الصورة عند مفدي زكرياء قاتمة يطبعها السواد، خاصة عندما يرى المرأة الجزائرية المسلمة تغرق في وحل الخطايا، والأخطاء الجسيمة، فيشبهها بحواء التي أخرجت آدم من الجنة عندما دلته على الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، لكن حواءنا بلعت التفاحة

(1) محمد البهي، الدين والحضارة الإنسانية، ص30.

(2) سليمان حمري، جريدة الشروق، الجزائر، العدد 145 فبراير 1994، ص25

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأبدلت المسلم بالعلج الغريب عن دينها ومجتمعها، وتكبرت عن الفحول والشجعان من رجال قومها فيدعو لها بالسحق واللعنة لأفعالها المشينة التي تترك آثارها في الأجيال، فيقول: [1]

وتفاحـــة أخـرجـــت آدمًـــا ... مـــن الخلـــد، مُذ لعنته السّمـــا

ولكـــن حـــواءنـــا بـلعتهـــا ... وبالعلـــج أبدلـــت المسلمـــا[*]

فسحقـــا لبنـت تزيّـــف جيِلا ... وتلعـنُ فيها الدمـــاء الـدمـــآ...

فمن خلال نقد الشاعر لهذه السلوكات المنحرفة عن الدين تبرز تلك الوعظية السلفية التي تدعو المرأة إلى التقيد بحدود الدين، وعدم الاختلاب بفتنة الحضارة الغربية المضمرة للأخلاق، وعليها أن تتطور من الداخل، وتعمق إنسانيتها كما كانت تفعل نساء الرسول (ص) وبناته[2]. وقد التقى في دعوته هذه بتلك الدعوات التي تردد صداها في العصر الحديث في المجتمع العربي الإسلامي، والتي نادت بإصلاح أوضاع المجتمع من خلال تربية المرأة على الفضيلة وحب الخير، لأنها مصدر الخير إن صلحت، ومنبت الشر إن فسدت وتردّت في مهاوي الانحراف والرذيلة، يقول حافظ إبراهيم[3]:

الأمّ مـدرســـةٌ إذا أعـــددتهـــا ... أعـــددت شعبـا طيّـب الأعـراقِ

ربّـوا البنـاتِ علـى الفضيلـةِ إنها ... فـي الموقفيـن لهـنّ خيـر وثـاقِ

وعليكـم أن تستبيـــن نساؤكـــم ... نـور الهدى، وعلى الحيـاء الباقـي

إن تعثر المجتمعات الإسلامية سببه سوء تربية المرأة، وعدم إعدادها لرسالتها في ظل قيم الأمة وتعاليم الإسلام، وسد منافذ العلم في وجهها بدل تنويرها بالمعارف والأخلاق التي تيسر لها أداء مهمتها التربوية في الأسرة والمجتمع.

وقد تردد هذا الصدى أيضا في الجزائر على أيدي رجال الإصلاح، فهذا محمد العيد آل خليفة

---

(1) مفدي زكرياء، اللياذة الجزائر، ص105.

(*) إشارة إلى انتشار زواج المسلمات بغير المسلمين.

(2) إيليا الحاوي، أحمد شوقي أمير الشعراء ج03 دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط03، 1983، ص41.

(3) حافظ إبراهيم، ديوان حافظ ابراهيم، ج01، طبع بيروت، 1969، ص283.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شاعر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يصيح في المجتمع بأعلى صوته، طالبا من النساء الجزائريات النهوض من كسلهن، والتحرك لأداء الأعمال والمساهمة إلى جانب الرجل في خوض غمار الحياة، وصيانة أعراضهن، ويدعوهن إلى ملازمة البيت، وعدم إهمال شؤون الأسرة، زوجا وأولادا فيقول: (1)

قمنَ من رُقدةِ الكسلْ   وتحرّكنَ للعمَل

يا نساء الجزائر

صُنَّ أعراضكُنَّ عنْ   كلَّ ريبٍ وكلِّ ظَنٍّ

يا نساء الجزائر

قَرْنَ في البيتِ إنّه   يقتضيكنّ فنّه

يا نساء الجزائر

ويرى مفدي زكرياء أن كمال التربية لا يتم إلا بتعليم الأبناء والبنات علوم الدين وعلوم الكون والاقتصاد، إذ لا يستطيع أي مجتمع أن يرتقي ويتقدم إلا بالعلم والمعرفة، وأن تأخذ المرأة حقها منهما كاملا كما أوصانا ديننا الحنيف، بل وفرضهما على كل مسلم ومسلمة، فيقول: (2)

علموا الابن والبنات علوم الدّ   ين والكونيات والاقتصاد

" إن للعلم في الممالك سيرا   مثل سير الضياء في الأبعاد "

إن الإهابة بالأمة أن تحرص كل الحرص على تربية الفتاة، غايتها تكوين الأم الصالحة النافعة، الهادية لشعبها، الدافعة له نحو العلا والسؤدد، لبلوغ غاية المجد الذي تطمع إليه في ظل شريعة الإسلام، التي أساسها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دون تقليد للنساء الأوروبيات المتميعات.

إن موضوع المرأة عامة وفي البلدان العربية الإسلامية خاصة أسال حبر كثير من الكتاب والشعراء في القرن التاسع عشر والعشرين، لأنها مشكلة إنسانية، ومن تم لا يكون حلها بمجرد تقليد ظاهري لأفعال

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) محمد العيد آل خليفة، الشهاب، الجزائر، ج09، المجلد 14، 1938، ص155.

(2) مفدي زكرياء، (فتى الوادي) جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع62 بتاريخ 23-12-1927.

المرأة الغربية التي ظهرت في مظهر لا يخاطب في نفس الفرد إلا غريزته، وساهم في زوال معاني التقديس للعلاقات الجنسية، وبذلك فقدت وظيفتها كوسيلة لحفظ الأسرة وبقاء المجتمع، وهو ما لا يريده المجتمع الإسلامي الذي أضفى دستوره قدسية على العلاقات الأسرية، ورسم للمرأة والرجل إطارا خاصا لكل منهما يؤديان عملهما في ظل الحرية التي أرادها لهما الإسلام، ولم يبح أن تقذف المرأة إلى أتونِ المصنع والمكتب... لأجل العمل في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشؤومة ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، فتفقد وهي مخزن العواطف الإنسانية، الشعور بالعاطفة نحو الأسرة، فيتشابه دورها بدور الرجل، فلا هي امرأة بقيت، ولا رجلا صارت[1].

لذلك يصور مفدي زكرياء دور المرأة والرجل في معركة البناء والتشييد، في مجتمع تحكمه الأخلاق ويسوده الحياء بعد أن زالت غشاوة الجهل عن الأذهان، فها هي المرأة تسير جنبا إلى جنب مع أخيها وشقيقها الرجل، تربي الأبناء تربية أصيلة، وتعلمهم ما ينفعهم، وتبني صرح مجد الأمة، وتسمو بالبناء إلى أعلى الدرجات، فيقول مشيدا ومفتخرا بها بعد أن أشرقت في نفسها معاني الحب ومثالية الأخلاق والوفاء لقيم الإسلام، وتقاليد المجتمع، فانعكست إشراقتها على نفسية الشاعر [2] :

فسارت في اتحاد واحتشام — تُربي الجيل، جهدا واحتسابا

وتبني، جنب آدم صرح مجد — وتقرع للعلا، بابا، فبابا

ومع هذا السرد الوصفي لدور المرأة، البعيد عن التركيب الشعري، لخلوه من الإيحاء والرمز والتصوير، فإني أرى بأن مشاركة المرأة الجزائرية في مختلف جوانب الحياة كانت نسبية انطلاقا من مفهوم المجتمع لدورها، الذي يكاد ينحصر عند الأغلبية في السهر على شؤون البيت وتربية الأبناء، لا للاستنقاص من قيمتها، ولو أن تواجدها بمؤسسات العمل صار أمر واقعا خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي، بل وفي تقدم مستمر.

---

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، د-ت، ص144 وما بعدها.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص61.

- تحصين الشباب وتقويم أخلاقه :

عالج مفدي موضوع الشباب الذي تمرد البعض منه على تقاليد مجتمعه، متأثرا بحضارة الغرب، فابتعد عن أخلاق الإسلام، وتحلّل من قيود الفضيلة التي هي من صميم عقيدته، فصور المفاسد الخلقية، والآفات الاجتماعية التي تردى فيها هؤلاء الشباب في العصر الحديث، وبين كيف تميعت أخلاقه وتلاشت مبادئه، ودنس طباعه الأصيلة التي تحفظه من الذوبان والتلاشي، كما قال شوقي(1):

كذا الناسُ: بالأخلاقِ يبقى صلاحُهمْ ... ويذهبُ عنهمْ أمْرُهُمْ حينَ تَذْهَبُ

فكيف تتصور شبابا يصون أصالة مجتمعه وهو يبيعها بأبخس الأثمان؟ بل وكيف ينير طريق مستقبل الأمة ويحقق تقدمها وقد طمس الرجس فيه روح الشهامة، والنبل، والعفة، التي جعلتها شريعة الإسلام أساس بناء المجتمع السليم، فيقول مصورا هذا المرض الخطير الذي ينخر جسم الأمة بعاطفة إسلامية حزينة، داعيا إلى تداركه قبل فوات الأوان واستعصاء علاجه(2):

تفسّخَ هذا الشبابُ وماعا ... وخرّبَ أخلاقَه وتداعى

فويلَ الجزائرِ والمسلمينَ، ... إذا دنّس النشءُ هذي الطّباعا

وكيف يصون الأصالة نشءٌ ... وقد ساوموه فباعا ؟

وكيف يُنيرُ الطريقَ شبابٌ ... وقد طمس الرّجسُ فيه الشعاعا؟

هو الخطرُ الجارفُ المستطيـ ... ـرُ، فإن تهملوه.. الوداع.. الوداعا ! !

ومن التقاليد الفاسدة التي كان لها الأثر السيئ في حياة شبابنا، والتي تتنافى مع المفاهيم الصحيحة للإسلام، هي غلاء المهور المعرقلة لبناء الأسر، وتحقيق طموح الشباب في الزواج من بنات ملته والمرغبة له في الأوروبيات، لما يلاقيه عندهن من تسهيلات لا تتحكم فيها التقاليد البالية.

---

(1) أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، ج01، دار الكتاب العربي، بيروت، د–ت، ص44.

(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص97.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما نساؤنا فقد صرن كالسلع في السوق تباع لمن يدفع أكثر دون مراعاة للمودة والرحمة اللتان هما أساس العلاقة الزوجية في الشريعة الإسلامية، وهو ما تسبب في خراب الكثير من البيوت العامرة وأمام هذه الظاهرة السلبية صار شبابنا المهاجر لا يعود إلى وطنه إلا بقرينة أجنبية مشركة، نهانا الإسلام عن الارتباط بها.

لذلك ثار مفدي على هذه التقاليد المبتدعة، داعيا المجتمع إلى تيسير سبل الزواج وتبسيط شروطه كما بسطها الإسلام، وسار عليها سلفنا الصالح، ودعا بالويل على الجزائر إذا لم تثر على هذا الواقع فتدكه دكا، وتقضي على آثار العادات السيئة التي ألفها المجتمع، وصارت جزءا من نظام حياته، رغم خطورتها على حياة الأمة فيقول: [1]

وأجلى الشبابَ غلاءُ المهُور فلاذَ -على حبّه- بالنَفورْ

وفضّل ماري على مريمٍ وريتا على زينبٍ والزّهورْ

كأن البنات، بضاعةُ سوقٍ تُباعُ وتُشرى... فتُقْضَى الأمورْ

فويلُ الجزائر، جيلا فجيلا إذا لم تُحطّم غلاءَ المهورْ

إن هذه التقاليد والقيود المكبلة للشباب في مجتمعاتنا الإسلامية، والمانعة من بناء الأمة بناء سليما عن طريق الزواج الشرعي، زعزعت ثقة الكثير من شبابنا في أنفسهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم ومثلهم السامية، فقدسوا قيم الآخرين وسلوكاتهم وأساليب حياتهم، ورأوا فيهم القدوة والمثل، لما يتصفون به في علاقاتهم من سهولة ويُسرٍ، ولو أنها لا تحكمها قيم، ولا تضبطها ضوابط خلقية.

وقد زاد في فساد شبابنا وانحرافه أخلاقيا، وعقائديا، التيار الفكري الإلحادي الوافد إلينا عبر قنواته المتعددة، والذي وجد من يُشيعه بين شبابنا من الحركيين (*) أعداء الأمة، فشككوه في كل ما هو أصيل سواء كان فكرا، أو لغة، أو أخلاقا، ويرتبط بتراثنا الثقافي والحضاري العظيم.

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص108.

(*) الحركي، المواطن العميل للاستعمار، وحركي الثقافة والفكر، هو عدو أصالته، وحامل ثقافة الاخرين الهدامة.

من هنا وقف مفدي موقف الواعظ الناصح، يخاطب بُناة الجزائر، ويحثهم بإصرار على رعاية أمر الشباب وعدم تركه بين أيدي ذئاب البشرية، وكذا عدم إهمال شأن طلاب العلم والمعرفة، لأنهم مناط أمل الأمة وساعدها القوي، وقلبها النابض، وفكرها الثاقب، وعصب حياتها، بهم يستقيم أمر البلاد، وبدونهم تغدو البلاد خرابا.

ويلح على رجال السياسة، والفكر، والتربية، أن يجعلوا الهدف الأسمى من نضالهم لأجل تثبيت أركان المجتمع هو حسن رعاية النشئ، وتربيته وتحصينه من كل غزو دخيل يشوه معالم فكره للنيل من أمة الإسلام، فيقول[1] :

بناة الجزائر صونوا الشبابا ... ولا تأمنوا في الشباب الذئابا

ولا تهملوا أمر طلابنا ... فقد أصبح العقل فيهم يبابا

فكم شوه المسخ فيهم عقولا ... وكم أمعن المسخ فيهم خرابا

وحرف من زاغ إسلامهم ... وأفقدهم وعيهم والصوابا

وفي مسعاه لإنقاذ الشباب من محاولات المسخ والتشويه التي تلاحقه، يدعو القائمين على أمره إلى العودة به إلى احتضان أمجاد أمته الماضية والحاضرة، عن طريق ترسيخ المفاهيم الصحيحة في ضميره، ليستيقظ، وإزالة ما علق بالأذهان من شكوك بثّها فيه الملاحدة لإبعاده عن طريق الصواب وينهل من عقيدته ما يعينه في حياته، ويجعله يوصل ماضيه بحاضره، فيكون بذلك رجاء الغد المأمول، ليكون قاعدة انطلاق نحو المستقبل الزاهر، حفاظا على عهد الأجداد والآباء صانعي مجد الأمة، والذي لم يرع هذا العهد يكون أكبر خائن لهم، وبذلك يذبح كرامته ويسيء إلى رسالته التاريخية فيجسد الخيبة الملعونة لنفسه ولبني ملته.

وكثيرا ما يلح الشاعر على دور الأخلاق في بناء صرح الأمة والسمو بها إلى ذرى المجد

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص99.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والتي لا تتحقق بغير الأخلاق، فيقول مخاطبا رجال الإصلاح، مبينا لهم طريق نجدة الشباب: (1)

دعوا الأمجاد تحتضن الشبابا وتوقظ في ضميرهم الصوابا

وتُنسفُ من مداركهم شكوكاً وتكْسَحُ عن عقولهمُو الضبابا

إذا ذُكر الشبابُ، رأيت فيه رجاءَ غدٍ، إذا قرأ الحسابا

وأُشربِ من عقيدته مَعيناً وأُلهِمَ من أصالتِه اللبابا

ويرى أن الشباب الذي لا تسمو به، رجولته ولا تكون له شخصيته المتميزة، يصبح خزيا ووصمة عار في جبين أمته، كما أنه لم يعد لثقافته معنى إذا لم يبلغها على سنن الإسلام وتعاليمه المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تكون عندئذ وسيلة خراب ودمار، لأن العلم الذي لا يصدر عن عقيدة إيمانية قوية قد يصبح كزبد الماء الذي لا نفع فيه، أما المتنكر لماضيه وأصالته فقد حاد عن جادة الصواب وضل طريقه إلى طريق قافلة غير قافلته فقال: (2)

شباب اليوم، إن لم تسمُ فيه رجولتُه غدا خزيا وعابا

ثقافته، إذا لم ينتهجها على سنن الهدى، كانت خرابا

ونبعُ العلم، إن لم يرع فيه أصالته، جنى منه الحبابا

وإنْ دمُه الجديدُ، أبى امتزاجا بماضيه، أشاع به اضطرابا

وفي حرصه على الشباب والدعوة إلى رعايته يؤنب أولى الأمر على إهمالهم له، وتركه يقبل على الآثام والمفاسد الضارة، فيقبر فيه الضمير الحي، وتهتك أعراض الأمة ومقدساتها.

ولولا بريق أمل يربط الشاعر بالحياة تمثل في المراكز الإسلامية ودور الفكر الأصيل، ووجود رجال يواجهون المصاعب لتحقيق تعاليم الإسلام، وإصلاح شأن المجتمع، والسمو بأخلاق شبابه نحو الفضيلة

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص143.
(2) المصدر نفسه، ص61

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والخير، لتمنى الموت حتى لا يلتصق به ما حل بالأمة من خزي وعار، فيقول في أسلوب إنشائي تطبعه الحسرة والتعجب، يقرع به القائمين على شؤون الشباب[1]:

أمليون من الشهدا بأرض... لتنسكب الخمور بها إنسكابا

أأرض الثورة الكبرى ؟ وحشد إلى الآثام ينصب انصبابا

وينحدر الضمير إلى حضيض ويكشف عن مباذله النقابا

على ما في الوصف من واقعية لما أصاب بعض شبابنا، لكن فيه مبالغة كبيرة لأن أغلب شبابنا كان ومازال متمسكا بالإسلام، لا يؤثر فيه فكر إلحادي ولا نعيق غراب، أصيل الطباع، قويم الأخلاق شديد الإيمان برب العالمين.

د-معالجة مشكلة الفقر:

ومن القضايا الاجتماعية الأساسية التي تناولها مفدي زكرياء في شعره الإسلامي مشكلة الفقر والحاجة، تلك الآفة التي أثرت على حياة الناس، وساعدت على انتشار الفساد في المجتمع، بسبب الاستغلال الاستعماري البشع لمواردنا الاقتصادية التي استأثر بها دون أهلها، فلم يقف الشاعر منها موقفا سلبيا، بل صاح في وجه المعتدين، مؤكدا لهم أن أرزاق الجزائر هي لأبنائها وحدهم، لأن قسام الأرزاق بين عباده لم يشرك معهم أحدا، مؤكدا إصرار الجزائريين على أخذ حقهم، وإرغام عدوهم على الاستجابة لمطالبهم اليوم أو غدا، سواء اعترفوا بها أم لم يعترفوا، فيقول في تحد وعزة نفس: [2]

أرزاقنا وقف على أبنائنا لم يعطها لسواهم القسام

وحقوقنا، اعترفوا بها أم أنكروا فطريقنا لبلوغها الإرغام

وبعد ان صور كيف عاث الطغاة في الجزائر عسفا وظلما، وأفقروا شعبها، واستذلوا رقابه حتى صار يجوع ويعرى في أرضه، رغم وفرة أرزاقه التي أبطرت بطون أعدائه، يثور على الجماهير العربية الإسلامية التي مازالت تغط في سبات عميق، يلفها الجهل، ويطبع حياتها الجمود والكسل واللامبالاة

---

[1] محمد ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ط02، ص227.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسلامية التي مازالت تغط في سبات عميق، يلفها الجهل، ويطبع حياتها الجمود والكسل واللامبالاة داعيا إياها إلى العمل وبذل الجهد والتضحية في سبيل تغيير حالها، وتحسين أوضاعها الاجتماعية والقضاء على آفة الفقر التي تصيب الشعوب، فتنتقل فيها معاني الإباء، والعزة، والعفة، التي هي من صميم العقيدة، لذلك يحث شعبه على خوض معركة البناء والتشييد، وتعمير البلاد، وفلح الأرض لضمان الكرامة والعيش السعيد، فيقول[1]:

واصعد، وخُضْ يا شعبُ معركة البناء   فالعـزُّ من عـرقَ الجبينِ يُشادُ

هكذا ربط مفدي عزة النفس وسعادة الحياة بالعمل المنتج المفيد، وسوء المعيشة وتعاسة الحياة وذلها بالكسل، والقعود عن العمل، ومد اليد إلى الغير أعطوه أو منعوه.

ويرسم بريشته الشاعرية كيف قام الشعب يشيد اقتصاد بلاده، ويبني مصانعه ومؤسساته، فيعلي البناء بواسطة نهضة علمية وفنية، لتوفير الخبز الشريف، وتحقيق التقدم والازدهار، من موقع الأصالة فيقول: [2]

فقمنا نشيد اقتصاد البلا   دِ ونُعلي المصانعَ فيها ونبني

ورُحنا نوفّر للكادحين،   الرغيف الشريفَ، بعلم وفنِ

ويزرعُ فلاَّحُنا أرضه   بذوب الشرايينِ لا بالتمني !

ونصنعُ من صُلبِ واقِعنا   مذاهبنا... رافضين التبني ! !

فأنت لا تجد الفن المطلوب في المقطوعة الشعرية بقدر ما تجد نظما، فيه وصف واقعي لما يجري في الحياة، تبصره العين، وتسمعه الأذن... جاء في شبه نثرية كوسيلة لنقل التجربة إلى الجماهير بأسلوبها البسيط، مضحيا بجزء من سماته الفنية، مع بروز حسه الاجتماعي، وتوجهه الملتزم بشكل قوي[3]

[1] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص25.
[2] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص87.
[3] عادل جاسم البياني، التجديد في لغة الشعراء الإحيائيين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1984، ص 58.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نلمسه من خلال عاطفته الصادقة، وتطلعه إلى نهضة حقيقية، علمية واقتصادية واجتماعية، تحقق حلم الشهداء في أرض الجزائر المسلمة، لذلك نراه يشيد بالعمل، والدعوة إلى توفير مصادره ووسائله لبعث عجلة التنمية في المجتمع، لتحقيق قفزة نوعية في مجال الصناعة، والزراعة، والتجارة والاجتماع، كما يشيد بالذين كانوا يدا مساعدة على توفير العمل لرعيتهم، فهم أجدر بالشكر والتقدير.

الإشادة بالتكافل الاجتماعي:

ومن وسائل محاربة الفقر وتيسير سبل العيش للمحتاجين التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة وتآزرهم واسترزاق فقرائهم من أغنيائهم عن رغبة وطيب خاطر، وهو مظهر من مظاهر الأخوة التي أساسها التواد، والتعاون، والتراحم، التي دعا إليها الإسلام.

لذلك نراه يستمطر المعروف، ويستعطف أهل الخير، مستثيرا نوازع الخير في نفوسهم بتصوير أحوال المنكوبين ومعاناتهم التي تثير الشفقة والإحسان فيقول[1] :

ذوي المالِ، مدُّوا أكُفَ السّمآ   تخفف عن القوم(*)، أوحالها

ففي الحي، قوم عراةٌ حفاةٌ   جياع، تصارع آجالها

هم فقدوا كلّ شيء سِوَى   محاجرَ، تدبُ أطلالها

هياكلُ، حتى السمآ أرسلتْ   تطاردها -اليوم- هطّالها(**)

نلمس في الأبيات روح الشاعر وعاطفته الخيرة، في غياب أية لمسة فنية، لأنه في موقف التوجيه والإرشاد والاستعطاف.

وقد مجّد الشاعر صفة الكرم وروح التضامن، التي تطبع حياة الناس في مجتمعنا الإسلامي، وروح الإيثار التي تملأ نفوسهم، وتحرك مشاعرهم، وتنمي أحاسيسهم بالتعاون والنجدة، ومساعدة المحتاجين عند الضرورة.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص276.

(*) سكان مدينة الأصنام الجزائرية. عندما هزّها الزلزال العنيف عام 1954.

(**) صاحب الزلزال فيضان شديد زادهم هما على هم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما دعا الميسرين إلى التسابق في الخيرات، وبسط اليد بالجود والكرم إلى الفقراء، خدمة للأمة، وإعلاء لشأن الإنسان المسلم فيها. وحذّر من البخل والشح في المال، لأن آثاره وخيمة على نظام حياة المجتمع، فينتج عنه الجهل، والفقر، والتشرد، فيفسد الناس، ويتردّون في مهاوي الضياع.

تلكم قيم الإسلام وتعاليمه في معالجة قضايا الأمة ومشكلاتها الأساسية ليكون أفرادها، خير أمة أخرجت للناس، ويسعون إلى الصلاح، ويحاربون الفساد، وينصرون الحق، ويعملون به، ويجاهدون الباطل، ويتجنبونه، وبذلك تتجسد إرادة الله وحكمته، من استخلاف الإنسان في أرضه، يعمرها كما أراد له ربه، ويمشي في مناكبها، ويأكل من رزقه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

3- الدعوة إلى الوحدة لتحقيق أهداف الأمة:

يرجع مفدي زكرياء ما أصاب الإسلام وأهله على أيدي عدوهم إلى ضعف فيهم، مصدره تمزقهم وتطاحنهم فيما بينهم، وسيبقون على ضعفهم ماداموا على خلافاتهم، إلى أن يجمعوا صفّهم ويوحّدوا مواقفهم، فتقوى شوكتهم، ويرهبهم عدوهم.

لذلك ينطلق في دعوته إلى الوحدة والتماسك من عقيدته الراسخة المستمدة من وحدانية المولى عز وجل، وتوجيهات رسوله الكريم (ص)، لأنها مصدر قوة المسلمين، وضمان بقائهم في عالم لا يفلح فيه الواحد، مشيدا بدور الوحدة مستلهما العبرة من تاريخ المسلمين وسيرة الرسول الأعظم (ص) فيقول[1]:

عقيدتنا في الورى (وحدة) -وأسمى العقائدُ- وحدانيه

(محمد) أبقى لنا عبرةً من الذئب والغنم القاصيه[2]

فالشاعر حريص على وحدة شعبه، يريدها أن تكون لحمة بين الإخوان في الجزائر أولا، ثم بين المسلمين ثانيا، لذا تراه ينفر المسلمين من الشقاق، ويحذرهم من عواقبه، ويبين لهم وشائج القربى وروابط الأخوة، المتمثلة في العقيدة والدم والمآسي والآلام، لأن الشقاق يضعف قوتهم أمام أعدائهم

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص349.
(2) الحافظ أبي محمد المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج01، ص221.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويجعلهم يميلون عليهم ميلة واحدة، وعندها سيسيئون إلى الإسلام، ويدكون عرشه، ويشيّعون جنازته فيخاطب بني الريف بعاطفة إسلامية ملؤها الغيرة على الإسلام فيقول: [1]

بنـي الريـف إياكـم والفـراق ! فـإن التـفرّق يعمـي البـصرْ
أمـا بالتفـرّق -لا سمـح الله- أضحـى لوا المصطفـى يُحتقـرْ
أمـا بالتفـرّق-لا سمـح اللهُ - أصبـح ديـنُ الهـدى محتضـرْ
أمـا بالتفـرّق والـوعتـاه! سالـت دِمـا المسلميـن هَـدَرْ

وكان هذا الشعور وهذا الإحساس بضرورة الوحدة الوطنية يملأ نفوس الجزائريين على درجات متفاوتة دون شك[2].

فلقد وقف أغلب الجزائريين موقف الرفض من سياسة الاندماج والامتزاج بفرنسا بقيادة الزعيم الروحي عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذي دعا إلى الوحدة، ونوه بدعاتها من قادة الأحزاب، ورواد الفكر والإصلاح، واستمرت الدعوة إلى أن تحققت الوحدة برغم المفرقات نتيجة العوامل القوية التي تشد أواصر الأخوة بين أبناء الشعب، من وطن، ودم، ودين، ولغة، وعادات وتقاليد، ومآس، وآلام، ومحن، وآمال مشتركة يتطلع إليها الجميع. لذلك دعا الشاعر أبناء وطنه إلى نبذ كل ما يفرقهم ويصدع صفهم، والالتفات حول ما يوحدهم ويشد أزرهم، ويقيهم شر ما يخطط لهم من قبل أعدائهم.

ويصور مفدي وحدة الأشقاء في البلدان المغاربية بأنها قائمة إلى حد الامتزاج والانصهار، فشعوبها شعب واحد لن يستطيع المغرضون أن يفصلوها عن بعضها، وقد فشل السابقون في تمزيق هذه الوحدة، لأن المغاربة واجهوا -بهذه الروح الإسلامية - كل المخططات التي كانت تستهدف وحدتهم للنيل من مقومات شخصيتهم.

(1) مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب التونسية بتاريخ 06-05 -1925م
(2) سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص27.

وكانت الوحدة ركنا من عقيدة مفدي تغنى بها يافعا، وكهلا، وشيخا، لإيمانه بأن وحدة المغرب العربي هي طريق إلى وحدة المسلمين، فهي تشكل بالنسبة إليهم قوة روحية ومادية وبشرية، تضمن تماسك الأمة، وتفرض هيبتها في مجتمع التكتلات.

هذه الوحدة لن تكون ثابتة إلا إذا علقت بالنفوس، ورسخت في الأذهان، وتجسدت في سلوك أفراد المجتمع قبل أن تقررها دساتير الحكومات[1].

فالدعوة إلى الوحدة العربية مقرونة بالعقيدة، لا دعوة قومية بعيدة عن الإسلام، كما نادى بها دعاة القومية العربية، كما يشير أحد الباحثين بقوله: " ثم لا يخفاك أيها القارئ الكريم غربة الإسلام اليوم وقلة أنصاره والمتحمسين لدعوته، وكثرة المحاربين له والمتنكرين لأحكامه وتعاليمه السمحاء فالواجب على أبناء الإسلام بدلا من التحمس للقومية ومناصرة دعاتها، أن يكرسوا جهودهم للدعوة إلى الإسلام وتعظيمه في النفوس، والسعي لنشر محاسنه، وإعلان أحكامه وتعاليمه صافية نقية من شوائب الشرك والبدع والخرافات المضللة، وغرسها في قلوب الناس لإعادة ما ضاع من مجد أسلافهم وحماستهم للإسلام، وتكريس قواهم لنصرته وحمايته والرد على خصومه بشتى الأساليب الناجحة وأنواع الحجج والبراهين الساطعة[2].

والوحدة العربية لا تكتمل كذلك إلا بوحدة إسلامية شاملة ترعاها عناية الله، وتتحقق فيها قيم الإسلام التي تسمو فوق الخلافات والخصومات والانقسامات التي تطبع ساحاتها اليوم، بعد أن امتدت إليها يد التقسيم والتشتيت فيقول: [3]

فيا لك من عصر قضي بجريمةٍ   على أمةِ الإسلام يقطعُها قَطْعَا
لقد قسّموها ويلتاه، مذاهبًا   وما عرفتْ غير الكتابِ لها ضرْعا

---

(1) محمد مزالي، في دروب الفكر، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1979، ص155.
(2) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، طبع الرئاسة العامة للدراسات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط05، 1983م، ص16.
(3) مفدي زكرياء، (فتى المغرب)، جريدة المغرب، الجزائر، العدد 08، بتاريخ 15-07-1930م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقــد مزقوهـــــا في البسيطـــة أضلعا   ولم تك تـــدري غير إسلامها ضلعا

نلمس في الأبيات هذه الروح الإسلامية المشوبة بعاطفة حزينة متحسرة متأسية لحــال المســلمين، أراد مفدي أن ينقلها إلى المخاطب بأسلوب مباشر، غايته إصابة المعنـــي وإدراك الغــرض بألفــاظ ســهلة مستساغة، سليمة من التكلف، لا تزيد على قدر الحاجة ولا تنقص نقصا يقف دون الغاية[1].

ثم يتوجه باللوم إلى أبناء الأمة السلبيين في مواقفهم يوضح لهم بأن المجد لا يتحقق في ظل الفوضـــى والتقاطع، بل في ظل التعاون والتناصر، وأن إرهاب إسرائيل بوحدة المسلمين لا تستند علــى قــاعدة سليمة، فهم متخاصمون، لا يجمعهم جامع، لأنهم تركوا العمل بالإسلام، وساروا في غير طريقهم.

من هنا دعا إلى لم شمل المسلمين لتحقيق غاية الإسلام وأهداف الأمة، لأنه لم يعد هناك مجال للتــهاون ومعاداة الأفراد والجامعات بعضهم لبعض، وأخذ الأمور مأخذ الجد، لأن التاريخ لا يرحم، ويسجل إمــا للمسلمين أو عليهم.

لذلك لا مناص من الاتحاد والتراص في صف كالجدار لمواجهة أعداء الأمة، لاستعادة الذات الإسلامية المفقودة، لأن قوة السلاح لا تنفع مع انقسام الصفوف، فيقول بأسلوب الوعظ الأمين[2] :

ليـــس الرصاص بنافـــع... وصفوفنا   يـــوم القصــاص، تؤزهـــن ريـــاح!

فـــذروا الخوالـــف،والخلاف ووحدوا   هـــذي الصفوف، فما يبـــاح مـــزاح!

كما دعا إلى ضم تلك الصفوف المنقسمة التي بث فيها العدو الصليبي الحاقد سمومه المفرقـــة، لأنـــها الوسيلة الفعالة الواقية من الضياع في متاهات الحياة بين الأمم، حاضرا ومستقبلا.

ومن أكثر الوسائل فاعلية في توحيد الأمة العربية الإسلامية هي اللغة العربيـــة التـــي صمـــدت أمـــام هجمات أعدائها الذين تفننوا في محاربتها، كونها لغة العقيدة، فاعتبروها سبب تخلف المســـلمين وعـــدم

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) أبو القاسم الحسن الامدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ص380.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص117.

مسايرتهم لركب الحضارة الإنسانية المعاصرة، وهنا يصرخ مفدي زكرياء في وجوههم بكل فخر واعتزاز، مبرزا دورها في المجال الحضاري للأمة فيقول [1]:

الضـــاد، في الأجيـــال خلّــد مجــدَهَا والجـــرحُ، وحّـــد في هواها المنزَعَا

لقد كانت العربية، لغة الحضارة والعلم، وكانت رباطا قويا يجمع الأمة إلى جانب عوامل أخرى لها أثرها في حياة الناس، كالدين والعروبة، والتاريخ، والمصير المشترك[2]:

لحمـــــة الضـــــاد، والعروبـــة والتا ريــخ والديـــن: أيِّ ربِّـــك كُبْـــرى

هكذا أشاد مفدي زكرياء باللغة العربية، وفي إشادته دعوة للحفاظ عليها، حتى لا يقضي عليها، لتزداد لحمة الأمة بدل تفرقها، لأن الاستعمار الثقافي لم ييأس من تحقيق مشروعه، وأن عداوته للإسلام ولغته لم تفتر، وعزمه على محاربتها ثابت ... إنه يريد القضاء على الإسلام، وأيسر السبل إلى ذلك القضاء على لغة الضاد وقواعدها وآدابها[3] ... لذلك سخر كل إمكانياته ودهائه لتضليل المسلمين، وتشويه صورة الإسلام ولغته في الجزائر، بتشجيع الدروشة، والطرقية، وترسيخ مفهوم أن الدين مجرد شعار لا علاقة له بالسياسة ونظام الحياة، وأن اللغة العربية ليست لغة حضارة وتقدم.

وأمام تردي أوضاع المسلمين، يجد الشاعر نفسه مشدودا بروح إيمانية إلى رسول الله (ص) يخاطبه شاكيا ومستجيرا، طالبا منه الشفاعة لجمع الصف، وتوحيد الأمة، فتتدفق عاطفته الخاشعة الموقنة بالاستجابة، تدفقا ينبع من أعماق تلك الروح التي ذابت شوقا إلى الإسلام وتاقت إلى الموت في سبيله فيقول: [4]

أيرضيـــك أن نبقـــى شـــتاتا موزّعًــا ونحـــنُ (بوحدانيـــة) الرَّبِّ، آمَنَّا ؟؟

لقد توحد الشعب الجزائري توحدا جعل منه جسدا واحدا تصدى للمؤامرة ومحاولة القضاء على

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص60.
(2) المصدر نفسه، ص283.
(3) محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص95.
(4) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقومات الشخصية الوطنية، فكان النصر حليفه، بفضل وحدته، ومازال الأمل قائما لتجسيد وحدة مغربنا وأمتنا العربية الإسلامية لتحقيق الوثبة المنشودة لبناء حضارة مزدهرة من جديد، يعود بها مجد الإسلام أقوى مما كان.

4- الدعوة إلى الجهاد في سبيل رفع راية الإسلام:

من باب الدفاع عن الإسلام، الدعوة إلى الجهاد لنجدة الإسلام والذود عن الأوطان، وهو فرض عين على المسلمين حين يحل بهم الظلم والاعتداء، وقد يختلف مضمون الجهاد وهدفه من جيل إلى جيل، لكن جوهره لا يتغير، وهو النضال من أجل الحرية، حرية الإنسان من قوانين الظلم وتشريعات العبودية والقهر والاستغلال، وحرية بلا قيود من الغزو الأجنبي، والاحتلال والهيمنة والنفوذ الغريب على روح المواطن والوطن والأمة والإنسانية [1]، حرية تضمن للإنسان كرامته، وتحفظ له مقومات شخصيته.

من هنا كان هدف الجهاد في الإسلام هو دفع تربص الأعداء بالأمة، ورد العدوان عليها، وإقرار عدالة السماء في الأرض، وإعلاء كلمة الحق في المجتمعات الإنسانية.

ونظرا لما حل بالجزائر على أيدي الصليبية الفرنسية التي ألحقت بالإسلام والمسلمين ما ينافي تعاليم المسيح عليه السلام، فقد قاموا يدافعون عن أنفسهم وعقيدتهم ووطنهم، لأن القتال فرض عليهم بدليل قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" [2].

وكان مفدي أحد الداعين إلى الجهاد، والساعين في طريقه، حيث امتلأت نفسه غيرة على ذات أمته المداسة، فصاغ شعورها وموقفها التأثر العازم في إصرار على رد المثيل والاقتصاص من عدوها باللغة التي يفهمها، في قصائد شعرية حارة تعبر عن موقف شعبه التأثر الرافض لمحاولات التدمير الاستعماري لوطنه وعقيدة أمته، فيقول داعيا شعبه إلى التضحية في سبيل الحرية ورفع راية الإسلام [3].

---

(1) غالي شكري، كتاب محاورات اليوم السابع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط01، 1980، ص07.
(2) سورة البقرة، الآية: 190.
(3) مفدي زكرياء، جريدة لسان الشعب التونسية، عدد 06-05-1925.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فكونــوا الفــــداء وكونــوا الضّحايا   ليحــي الهــــلالُ ويبقــــى الأثــرْ

لأن الاستعمار الفرنسي حاول قلع جذور الأصالة في المجتمع الجزائري، فوظف جميع الوسائل واتبـع كل الطرق، وتفنن بمختلف الأساليب الحديثة لجعل الجزائر المسلمة أرضا مسيحية إلى الأبد، لكنه لـم يفلح أمام شدة تعلق الشعب بوطنه وبعقيدته اللتين امتزجتا في مفهومه، فأعلن سـخطه جـهادا مقدسـا وفي هذا المجال يقول محمد البهي: " إن الجزائر في حربها ضد الاستعمار الفرنسي، لم يكن لـها مـن دافع على هذه الحرب وعلى الاستمرار فيها، سوى الإيمان بالله والإيمان بالإسلام... وإن هذا الإيمـان بالإسلام لولا أن نقله شيوخ الجزائريين إلى الشباب لما انفجرت الثورة ولما كان لـــها اسـتمرار، لأن الفرنسيين فعلوا ما وسعهم الفعل لطمس مقومات شخصية الأمة فحاربوا اللغة العربية وتعليمها، ومنعـوا دخول المساجد والتعبد فيها، وأوصدوا الأبواب في وجه المواطنين حتى لا يطلعـوا علـى تاريخـهم العربي الإسلامي المجيد والتأثر بأحداثه، وبث في المدارس التــي أنشـأها مسـخا شـنيعا للإسـلام ولتعاليمه، وتمجيدا لإنسانية فرنسا المسيحية ومدنيتها ... ومع ذلك لولا الإيمان بالله وبالإسلام لما قـامت هذه الحرب فضلا عن أن تستمر[1].

وقد عبر الشاعر عن موقف شعبه وتحديه لقوى الشر الفرنسية المدعمـة بـالحلف الأطلسـي وتهديداتها للعرب والمسلمين شرقا وغربا، مؤكدا لها قوة الإرادة الشعبية، وروح الشـجاعة والبطولـة التي يتمتع بها الجزائريون في مواجهة عدوهم، خاصة إذا تعلق الأمر بعقيدتهم ووطنهم وكرامتهم التـي فيها حياتهم، مهددا إياها بالخسران إذ لا ينفعها استنجاد بالصليب، أو تفنـن فـي التنكيـل والتعذيـب والترهيب، فزنزانات العذاب والموت هي مصدر حياته وبعثه من جديد فيقول:[2]

نحـنُ ثـرنا، فـلات حيـنَ رجوعٍ   أو ننـال استقلالنـا المنشـــودا

---

[1] محمد البهي، الدين والحضارة الإنسانية، ص234.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يا فـرنسا، أمطـري حديـدا ونارا   وأملـئ الأرض والسـماء جنـودا

واجعلـي " بربروس" مثوى الضحايا   إن فـي بربروس مجـدا تليـدا !!

آمن مفدي زكرياء بالجهاد وسيلة لدفع الطغيان والاعتداء منذ شبابه، وحرص دوما على بعـث الأمـة وتعبئة الروح الجهادية في نفوس أبنائها، بتصوير فظائع الأعمال الإجرامية التي مارسـها المستعمر ضد شعبه المسلم، غايته الكبرى خلق تجاوب روحي عميق بين أبناء وطنه وأمته طبقا لما يمليه الواقـع التاريخي والعقائدي للأمة الإسلامية المهددة في وجودها.

هذا التجاوب مصدره الإيمان بالله، ورسالة محمد (ص) الذي أوقف الشاعر جهاده عليه، ولولا النضـال في سبيل الله، لما أقبل عليه، ولما دعا الناس إلى خوض غماره فيقول: [1]

نهضـتُ علـى ذاتِ الإلهِ مناضلاً   وليـس لغيـر الله سعـي وإقبالـي

ثم ينقل هذا الإحساس إلى بني قومه للتأثير فيهم، مصورا قيمة الحرية في الحياة وثمنها الباهض الـذي هو رؤوس الأبطال وأرواح المجاهدين الأخيار.

" ... ولقد كانت المبادئ الإسلامية السامية التي انطلقت منها الثورة التحريرية واعتمدت عليـها طيلـة قيامها، من الأسباب القوية التي أقنعت الشباب ورغبته في تبنيها... فتحمسوا لها وازدادوا تشبثا بها لمـا كان يتجسد فيها من مطابقة الأقوال للأفعال... فكانت المحرمات محرمة، والمنكرات تغير بـاليد قبـل اللسان والقلب... والوعود تنجز والعهود توفى، والواجبات تؤدى إن طوعا أو كرها، وكـانت العدالـة والنزاهة في كل ذلك تسود كل سلوك... " [2].

ومن هذا المنطلق فإن حرب الجزائر لم تكن ككل الحروب، بل كانت جـهادا هدفـها تحريـر الإسلام وانتصار المسلمين[3]، لأن الطغاة تجاوزوا في هذه الحرب كل معاني الإنسانية، فأجرموا فـي

[1] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص153.
[2] أحمد بن نعمان، مجلة الأصالة، الجزائر، ع ، نوفمبر 1974، ص163.
[3] العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص57.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حق أبنائها جُرما سجله التاريخ بحروف من دم، فقد سلبت أرزاقهم وجوّع أطفالهم، وديست مقدساتهم وقتل الأطفال أبشع قتل، وشقت بطون الحوامل، واقتطعت أثداء المرضعات، وانتهكت أعراضهن وارتكبت الفواحش مع زوجات الأشراف من الرجال أمام أعينهم، وهم مكبلون لا يقدرون على دفع المنكر، صور لمأساة شعبه يندى لها جبين الإنسانية، من أمة تدّعي الحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان، وهو ما ألهب مشاعر الجزائريين وجعلهم يعلنونها ثورة إسلامية في أول نوفمبر 1954م فكانت بالنسبة إليهم ليلة قدر جديدة، فصلت بين الحق والباطل، والهدي والضلال، بل كانت حدا فاصلا بين الشك واليقين، وبين الخضوع للظلم، والاستكانة للهوان والذل، والدفاع عن الحق، واسترداد السيادة المسلوبة، والكرامة المفقودة، والغرة الموؤدة، وقد صور مفدي زكرياء انطلاق ثورة التحرير الكبرى في 1954 بأنها جهاد أذِن به الله لدفع الظلم، وإزالة الاستعمار، إذنا استلزم الاستجابة، فلباه الشعب وطوى السنين، فكان وكان من شعب ورب جهادا غير مجرى الحياة، فلاح الأمل إيذانا بعهد الحرية[1]:

تأذن ربّك ليلة قدرٍ وألقى الستارَ على ألفِ شهرِ

نوفمبر غيّرتَ مجرى الحياةِ وكنتَ -نوفمبر- مطلع فجرِ!

وذكّرتنا -في الجزائر- بدراً فقمنا نُضاهي صحابةَ بدرِ

لقد مجد مفدي الثورة الجزائرية تمجيدا لا يخلو من مبالغة على الرغم من عظمتها وقداستها، ونبل اهدافها، خاصة عندما يضفي على نوفمبر صفة الجلال التي هي من صفات الخالق، موظفا الألفاظ توظيفا لغويا خاليا من الدلالة الإسلامية، وهي استعمالات كثيرة في شعره، غير أن ما نلاحظه هنا أنه اتخذ من الأحداث الإسلامية وأيام الله المشهودة مناسبة لذكر حالة الجزائر التي تئن تحت أبشع استعمار عرفته الإنسانية، رابطا أحداث الجزائر بأحداث التاريخ الإسلامي، قديمه وحديثه. كما تقف له على سلالة اللفظ وقوته، وحسن التركيب واختيار الروي المناسب للتأثير في الملتقى.

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص69.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولم يكن الجهاد مقصورا على الرجل، بل كان للمرأة دورها فيه، فنالت شرف تحقيق المعجزات وصارت مضرب المثل في النضال. فها هو مفدي يرسم صور جهادها الناصع بقوله [1] :

شاركــتْ فــي الجهــاد آدمَ حَــوا ه، ومــدت معاصمًــا وزُنُــــودا

فكانت أما وممرضة، وطبيبة، وفدائية، ومقاومة، فحازت شرف الجهاد والأمومة، والوطنية، والأصالة.

أن ما ارتكبته فرنسا من جرائم يتنافى وتعاليم المسيح عليه السلام، التي تقر الكرامة الإنسانية، وتدعو إلى تحقيق الأخوة بين البشر.

لهذا كان جهادنا فريدا في مقاومة العدو، ومثالا للشعوب المضطهدة اقتدت به في سبيل انعتاقها.

لذا يصرخ مفدي في فخر واعتزاز، مشيدا بجهاد الجزائريين الذي هو أحق بالاقتداء من بقية الشعوب الظامئة إلى الحرية والسؤدد فيقول [2] :

فكــان مثــالا للشعــوب جهــادنا   وصــدق خطانا في مسيرتنــا الكبرى

وكــان مثــالا للأشقــاء عــوننا   ونجدتنا، في غفــوة الأنفس الحيرى!

ولم يكن هذا الجهاد بمحض الصدفة، أو نتيجة نزوات وأحقاد، إنما كان دفاعا عن شرف أعزه الإسلام وأوجب على المسلمين حمايته والذود عنه، فسرت تلك التعاليم في النفوس، وعلمتها كيف تصمد في الملمات وتتحدى المصاعب في شموخ وتعالٍ تكسبها مناعة وعزة وفخرا، هي عزة الإسلام وفخر انتصار المسلمين، لذا يقول مفدي زكرياء: [3]

ثــورة الإسلام تســرى في الحنايا   علمتنــا، كيف نُــزري بالــرزايا

ألــهمتنــا كيــف نرتــادُ المنايــا   كيــف نســري فوق جسر من ضحايا

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص15.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص120.

(3) المصدر نفسه، ص190.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هكذا استطاع شعبنا المسلم أن يلهم المسلمين كيف تكون الثورة من موقع الأصالة، لبعث روح الحياة في الأمة، واستلهام العبر من دروس معاناتها من عدوها العنيد، والتطلع إلى استعادة مجدها الذي تسمو فيه القيم الإنسانية النبيلة، ويتحقق فيه خير البشرية جمعاء.

هكذا كان مفدي زكرياء يستلهم من ثورة الجزار وجهادها ملاحم البطولة والفداء، كما يستلهمها من نضال السلف في دفاعهم عن العقيدة والأوطان، حين خاضت جحافلهم معارك التحرير، وأقحمت حصون الشرك، واندفعت لتحرير الإنسان واستعادة الأرض.

وكثيرا ما كان الاستشهاد بالمعارك الأولى والحرص على استنباط الموعظة من المواقف الشجاعة التي فيها مأثرة من المآثر المشهورة، ومجالا من مجالات بث الثقة في النفوس، وترسيخ قواعد الإيمان في القلوب، وتأكيد عدالة الحق في مجال التاريخ... وهي في كل موقف تضرب مثلا في الجرأة والاقتحام والصبر والمجالدة... [1].

تلك صورة الجهاد الوطني ضد الغزو الفرنسي لعبت فيه التعاليم الإسلامية دورا أساسيا.

والشاعر لا يفصل بين جهاد الجزائريين وجهاد الأمة العربية التي تربطها بها أواصر الأخوة والدين واللغة والمصير، ويرى كل واحدة منهما صورة للأخرى، في معاناتها وتطلعها نحو مستقبل زاهر لذلك اتجه صوب تاريخ أمته وأحداثها، حلوها ومرّها، يستلهم من أيامها المشرقة معاني الشموخ والمجد، ومن أيام النكسة العبرة والمثل.

فها هو يسمع نداء إخوانه العرب فيلبي الدعوة، وينجدهم نجدة الأخ المسلم فيقول: [2]

سمِعنا النداء نداء الدمآ فقمنا نلبي نداء السمآ

فقمنا نسوق بحرب المصير ركاب المنايا، ونسبي الدمى !!

ونُنجد إخواننا في الوطن كما يُنجد المسلمُ المسلما

[1] نوري حمودي القيسي، شعراء إسلاميون، مكتبة النهضة العربية، ط02، 1984، ص76.

[2] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص187.

مجد مفدي البطولة العربية الإسلامية وأشاد بصانعيها عبر العصور، لأن شعبنا لا يُبعث عن طريق الأساطير والأوهام، وإنما يبعث عن طريق المبادئ والمثل البطولية التي يؤمن بها، فيثور على الظلم ويقيم في عالم الواقع المبادئ التي آمن بها[1].

ولما كان الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين العربية في مقدمة القضايا العربية الحديثة الشائكة، كونه ينبع من أنه استعمار عنصري استيطاني انفرد بالسيطرة على الأرض الفلسطينية الطاهرة، وطرد أهلها انطلاقا من معركة كسبها ضد أمتنا العربية سنة 1948م[2] .

لذلك يقف مفدي من قضية فلسطين موقف المندّد الثائر ضد اليهود محملا العرب والمسلمين مسؤولية ضياع فلسطين، وتركها فريسة في أيدي الصهاينة، فيخاطبها بروح يملأها الأسى ويمزقها الحزن: [3]

فلسطينُ... يا مهبط الأنبيآ ويا قبلة العرب الثانيه

فلسطينُ والعربُ في سكرةٍ قد انحدروا بك للهاويه !

وصبّ بكِ الغربُ أقذارهُ ورجس نفاياته الباقيه

ويالكِ من قبلةٍ كدّسوا بمحرابها الجيفَ الباليه... !!

نلاحظ أن الشاعر يدقق في رسم صورة فلسطين المغتصبة، ويضفي عليها من أحاسيسه، عندما يجعلها واقفة تبكي في حائط المبكى بكاء المستضعف، بعد أن تخلى عنه أهله، وتآمر عليه أعداؤه.

إن اليهود نجّسوا حرمة القدس بأعمالهم المنافية لقيم الإسلام، وأخلاق الأنبياء الذين كانت القدس قبلتهم والأقصى جامعهم ليلة الإسراء والمعراج.

تلك صورة حية من شعر مفدي لانتهاك الصهاينة حرمة الإسلام ومقدسات المسلمين في فلسطين العربية، في غفلة المسلمين واستسلامهم للأمر الواقع، يذرفون الدموع ألما وحسرة على ما ضاع منهم

(1) محمد عادل الهاشمي، الإنسان في الأدب الإسلامي المعاصر، ص168.
(2) الشورى، مجلة الفكر القومي التقدمي، المؤسسة العامة للصحافة لّيبيا، السنة الثانية العدد 06 سبتمبر 1975، ص82.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص336.

وما حل بمقدساتهم، في وقت استأسد فيه شذاذ الطرق، وصفقوا طربا لانتصارهم على المسلمين، فيقول مصورا دناءة أخلاقهم ومخالفتها لدعوات موسى وعيسى، داعيا المسلمين إلى الذود عن حوض الدين ورمزه المسجد الأقصى، بروح بطولية تعيد إلى الأمة صورة بطولة ومجد السلف: [1]

أيهتـــك باســـم موسى، قدس طه؟ وهـــل يرضـــى المسيـــحُ، وفيه غابا؟
قـــد أحمـــر الصليـــبُ لها حياءً كمـــا اصطـــخب الهلالُ لها اصْطخابا
وازعجتْـــمُ الكليـــمَ، فهل أباحتْ رسالتُـــــه لأمتـــــه اغتصابـــا ؟
ومـــــن للقـــدس غيرُك يا إلهي ؟ ألـــم تـكُ مـنْ -إذا خـذلوا- أجابا ؟
ومـــــن للمسجـــد الأقصـــى، إذا ما شكـــــاكَ المسجـــدُ الأقصى المُصابا ؟
فأيــــن -ابن الوليـد- لها- وسعـد؟ ومـن بالـــقـادسيــــــة عنـك نابا ؟
فـــدعْ (حِـــطيـن) تُبعـثُ من جديد فتتـــــرك (حائـــــط المبكى) يبابـــا
وكـــن للمسلميــــــن كيـــوم بـــدر وواكـــب جنـــدكَ الأُسْـدَ الغِضَابَـا

لذلك يطمح الشاعر إلى تحرير فلسطين ويدعو العرب إلى التحلي بالروح البطولية التي اتسم بها علي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وعمر بن الخطاب، وغيرهم من قادة فجر الإسلام، ومن قادوا الفتوحات العظيمة، الذين رفعوا راية الإسلام، وحققوا للبشرية خيرا كبيرا، ويربط بين الإيمان وبين استرداد فلسطين السليبة، لأن الإيمان بالقيم الإسلامية في نظره، هو السبيل إلى المحافظة على فلسطين[2] التي ليست بلدا عاديا بقدر ما هي رمز الإسلام ومقدساته.

وأمام قعود المسلمين عن نصرة فلسطين الذبيحة، يثور مفدي زكرياء، موبخا العروبة وقادتَها الذين لم يحركوا ساكنا نحو إخوانهم، وقد فضلوا نعم الحياة وترفها، ولهوها، عن الدفاع عن قداسة فلسطين

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص62.
(2) عبد الله الركيبي، خليفى، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، ص64.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والإسلام، متغافلين وجود إسرائيل التي تهدد كيان الأمة، فيقول متعجبا من سلبيتهم ومتحسرا على فلسطين: [1]

ويحَ العروبة.. كم ديست قداستُها ! وسامها الخُلْفُ، إفلاسًا وخُذلانا !

وعاكفين على النُّعمى..يُهَدْهِدُهُمْ صَفْوُ الليالي ... ومارَقوا لبلوانا

ناموا ... وفي الدار (إسرائيل) ترصُدنا وأغمضوا دون (إسرائيل) أجفانا

فالسلبية طبعت المواقف العربية من قضية فلسطين، فلا تسمع إلا خطبا جوفاء، أو أشعارا حماسية تؤجج المشاعر.

لذلك يتوق مرة أخرى إلى عز أيام المسلمين لتحقيق قوة الإسلام اليوم، لضمان انتصار الفلسطينيين كما تحققت هذه القوة على يد صلاح الدين الأيوبي، في حطين، وفي معركة أنطاكية، وليُبعث أبطال كأمثال خالد، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهما شجاعة وإقداما. وهنا تتحرك في نفس الشاعر عاطفة الغيرة على مقدسات أمته التي تهان، وعلى كرامتها التي تداس، فيخاطب العرب لإثارة نخوتهم ويحرك مشاعرهم ليبعث روح الجهاد في نفوسهم، ليدافعوا عن مقدسات الإسلام، ويحرروا أرض فلسطين الطاهرة، وبيت مقدسها من عبث اليهود، ويصحو ضمير الأمة العربية فتتحمل مصير فلسطين، وتأخذ طريقها إلى الثأر بعد أن طهر الإيمان قلوب أبنائها فيقول على لسانها[2] :

تيقظ فيَّ، الدم العربيُّ، وطهرني -اليوم- إيمانه

لئن نام -من قبلُ- فيَّ الضميرْ وأخلد للموت، إحساسُه

مصيرك، آخذُهُ بيدي وأدعو -إلى الثأر- إخوانيه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص293.

[2] المصدر نفسه، ص346،347.

هذا هو الموقف الذي يريده زكرياء ويحييه كما حيت منظمة فتح أبطالها بعد قيام الثورة الفلسطينية عام 1964 بقولها: " لقد أثبتّم يا أبطال -فتح- الآن أنكم عاصفة مدمرة للوجود الإسرائيلي ... وأثبتم للعروبة والعالم أنكم تحسب لهم عصابات إسرائيل ومجرموها ألف حساب...

تحية لكم يا أبطال العاصفة... يا من رفعتم رأس العروبة والإسلام بعد سلبية مقيتة دامت حوالي 20 عاما، ونحن أبطال العروبة على أرض فلسطين معكم بكل ما نملك كما كنا مع أبطال الجزائر... فسيروا أيها الأبطال المغاوير الشرفاء على طريق النصر والكرامة والحياة، طريق العزة، ولا تدعوا لأولئك المارقين ... من أبناء فلسطين فرصة للتأثير على إيمانكم، فأولئك الذين خانوا قضية فلسطين وباعوا شرف العروبة... بما تدفعه لهم الدوائر والمؤسسات الأمريكية والغربية من ثمن ... " [1].

وفي ثورة نفسية عارمة يدعو مفدي زكرياء العرب والمسلمين لاستعادة عزهم ومجدهم، بإعلانه جهادا إسلاميا مقدسا لتطهير قبلة الإسلام الأولى من اليهود الذين لم يستقروا في موطن، ولم يأوهم مكان، فقد لفظتهم الدنيا بأسرها، فجمعهم الاستعمار في فلسطين، فكانوا رجسا في مقدساتها الطاهرة، وأقام لهم موطنا بغير حق في أرض الميعاد، فيقول: [2]

ولتزْحفِ الهبواتُ يدفعُ سيْلَها للقبلةِ الأولى الدّمُ الفوّارُ
ولتخسفِ الأرضُ الجريحة بالألى لم يأوهم في العالمين قرارُ
لفظتهم الدنيا، فجمع رجسهم كشهادةٍ عن زورٍ، استعمارُ
وغدت فلسطين الذبيحة دِمنة في قدسها، تتراكم الأقذارُ

لقد مجد الشاعر عظماء الإسلام، وأشاد بجهودهم وببطولاتهم، لأن غمطهم حقهم في الذكر والتمجيد إجحاف ونكران وجحود لأفضالهم على الأمة، مدحهم بأفعالهم، كما فعل مع الملك فيصل بن عبد العزيز، عند أدائه لفريضة الحج عام 1973 والتقائه به، كونه صانع مجد الأمة وخادم الحرمين الشريفين

(1) حركة فتح الفلسطينية، كتاب معركة الكرامة، عدد 04 أفريل 1968، بغداد، ص65 وما بعدها.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص43-44.

فهو غيور على الإسلام، قوي العزيمة، يقتدي بالرسول (ص) في أقواله وأعماله، فهو منقذ الأمة وناصرها، ومحقق فخرها كما حققه صلاح الدين من قبل فيقول [1] :

سألت المجد عن قيم الرجال   وعن حرم القداسة والجلال
ومن كانت بطولته مثالا   يكن مثلا ليعرب في الكمال
ومن كان الرسولُ له إماما   يَسِرْ قُدمًا، ويسخر بالمُحَال
فيا أمل العروبة في الدياجى   وحامي المسلمين بلا جدال
ويا ثاني صلاح الدين فينا   وخالد في البطولة والنضال

إنه القائد المسلم الذي لا ينثني أمام الصعاب، عظيم من أبناء الأعاظم، ساس البلاد بعقل، وحلم، وأدب وحقق للعروبة فخرا وعزا ومنعة،وللإسلام نصرا، لقد مدحه بالدين لا بصفات الأقدمين فحسب، لأنه رأى فيه شمائل الرسول التي جسدها في واقع الحياة اليومية للمسلمين.

ومع هذه التراكيب الشعرية الجميلة وحسن تأليفها وقوة تأثيرها في السامعين، فإن المبالغة في المدح أبعدتها من روح التجربة الصادقة.

وفي إشادته ببطولات أبناء الأمة ومجودها لتحفيز الناس وشحذ هممهم للدفاع عن حياض المسلمين أمام الزحف الصليبي التبشيري والإلحادي الهدام، يبرز الدور البطولي لأولئك القادة الذين يرجع إليهم الفضل في زرع بذرة الجهاد، وبث الوعي في المجتمع الجامد، أمثال الأمير عبد القادر، بطل مقاومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، فكان بطلا مغوارا،ساس شعبه بحكمة ودراية، وحارب عدو الإسلام فناجاه ربه في سره وعلانيته وكان له نصيرا.

وقد صور مفدي هذه البطولة بقوله: [2]

أيا عبد قادر ... كنت القديرا   وكان النضال طويلا عسيرا

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص101 و 105.
[2] مفدي زكرياء، الياذة الجزائر، ص55.

شرعت الجهاد، فلباك شعب وناجاك رب، فكان النصيرا

وعبدتَ للشعب، درب الفدآ وما خست، مذ خطفوك أسيرا

إن تمجيد البطولة هو صورة من صور الدفاع عن الإسلام، " وإن اهتمام مفدي بتمجيد البطولة، إنما يعود إلى اقتناعه بأن ذلك يعد رمزا من الرموز في الحياة العربية. وما يشكله البطل من قيمة معنوية في روح الأمة، لهذا لم يغفل... هذه الناحية المهمة في قصائده، لإيمانه الشديد بأن سقوط أي بطل عربي شهيدا فوق الأرض العربية يعني تأكيد الرفض الشامل للإنسان العربي لكل أنواع العبودية والسيطرة الاستعمارية " (1).

وإذا كان تاريخ الأمم والشعوب يخلد نضال أبطاله، فإن تاريخنا أحق بتخليد أبطالنا الذين ضربوا للإنسانية أروع الأمثال في التضحية والنضال من أجل استعادة مجدهم الضائع.

وفي تصوير جانب من بطولة الأمير عبد القادر يجنح مفدي زكرياء إلى المبالغة المفرطة، حين يصور الزمان يخر ساجدا لذكر بطولة الأمير، وإذا كان هناك من خلد من الزعماء في الدنيا فإن الأمير الزعيم الوحيد المخلد، لأنه سطر للأحرار هدفا عبدت طريقه الأرواح فكانت بطولته مضرب الأمثال ومصدر تقديس الشعب لقائدهم الذي ظلت بطولته قصة ترويها الأجيال.

وهنا تتدفق شاعرية مفدي زكرياء في هالة من التقديس لبطولة الأمير عبد القادر، مجسدا فيها أحاسيسه ومشاعره نحو البطل قائلا: (2)

إذا ذكر التاريخُ أبطال أمة يخرّ لذكراك الزمان ويسجد

وإن تذكر الدنيا زعيما مخلدا فإنك في الدنيا الزعيم المخلد

فالشاعر حين يرتبط تاريخنا الماضي بحاضرنا فإنه يهدف إلى استخلاص العبر لنقوى بها اليوم

---

(1) حسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، ص134.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص173.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

روحيا ومعنويا، وننجح في وثبتنا نحو النهضة المأمولة، وفي سعينا لبناء حياتنا الجديدة[1].

الإشـــادة بتضحيـــات الشهـــداء:

كلف الجهاد الإسلامي ضد الاحتلال الأجنبي في الجزائر وبلاد المسلمين الأمة ملايين الشهداء، دفعوا أرواحهم فداء للحرية، لأنهم آمنوا بالجهاد وسيلة لدفع الظلم، وذلك " لأن الإيمان بالله في صورته الكاملة وفي مفهومه الحقيقي الصادق حرارة تجري في الدم وتحمل صاحبها على التضحية والبذل والفداء، وتبعث في نفسه الأمل في النصر، والاستبشار بالجنة. لذا فإن المجاهد في صورته الكاملة قوة تستمد طاقتها من قوة المولى سبحانه وتعالى، فلا يستعظم القوي، أو يخشى الموت الذي لا بد منه، فلا يرى أمامه سوى النصر أو الشهادة " [2].

لذلك فقد أقسم الشعب الجزائري أن يموت شهيدا فخورا بموته في سبيل وطنه وعقيدته، وراح يسبح للعليا على دمه، ويتسابق في التبرع بالأرواح الغالية، وكم هي كثيرة قوافل الشهداء التي استرخصت النفس من أجل الحرية والاستقلال، والدفاع عن قيم الإسلام، ونصرة الحق، فهذا مفدي يخلد تضحياتهم من خلال مخاطبة **" زبانا " و " رفاقه "** قوافل الشهداء الذين عاشوا كالوجود مدى الدهر، فهم القدوة والمثل للآخرين، فكل الجزائريين أضحوا **" زبانا "** وتمنوا أن ينالوا شرف الشهادة في ميدان المعركة، لأنهم قربان شعب، ووسيلة بعثه لاعتناق الحياة، وبعث مجده من جديد، فيقول[3]:

يا "زبانا" ويا رفاق " زبانا "   عشتم كالوجودِ، دهرا مديدا

كلّ من في البلاد أضحى " زبانا "   وتمنى بأن " يموت" شهيدا !!

أنتم يا رفاقُ، قربان شعبٍ   كنتم البعثَ فيه والتجديدا !!

---

[1] أنيسة بركات درّار، أدب النضال في الجزائر من 1945 حتى الاستقلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص66.

[2] محمد الصالح الصديق، صفحات من جهاد الجزائر، شركة الشهاب، الجزائر، (د–ت)، ص156.

[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص19.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن صورة الشهيد وصرخاته استمد الشاعر معاني الفداء والوطنية والبطولة [illegible] بركانا ألهب مشاعر الأبطال، فتدفقوا سيلا جارفا ليطهر البلاد من أرجاس الكفرة، إيمانا منهم برسالة الجهاد التي يؤدونها، وهي صورة لتلك القلوب العامرة بحب الله، لذلك لا يهابون الموت فهم يسخرون من أعدائهم، ويهللون بمقدمه. لأن الاستشهاد طريق الحياة الدائمة والخلود الأبدي في نعيم الآخرة.

فالشاعر لم يتحدث عن الشهداء من باب التصوير الخيالي، بل عانى التجربة واقعيا ووجدانيا في آن واحد، ذلك أنه رأى بعينيه كيف يؤخذ المجاهدون والأبطال إلى المقصلة فتقطع رؤوسهم وهذا ما جعله يحسن الربط بين القضية وبين الاستشهاد من أجلها كما يبدو ذلك في الصورة المأساوية لمجازر 20 أوت 1955 بمدينة سكيكدة (*) التاريخية، حين يقوم بعملية الإسقاط فيسكب عليها من روحه الثائرة، فتغمرها هي بهذا الفيض من المشاعر الملهمة فتتحول لديه دماء المذابح في ساحات المدينة إلى مباخر مسك، تعطي سحرا للوجود. وتمد الثوار بطاقة خلاقة تدفع قوافل الشباب إلى الالتحاق بإخوانهم في الجبال، واستبسالهم في المعارك للظفر بالنصر، وتسجيل ملحمة الجهاد الإسلامي في القرن العشرين، لتكون قصة شعب أبيّ تخلد مجد الجزائر والمسلمين فيقول: (1)

سكيكدة الثائرين أعيدي ... علينا فظائع يوم عهيد
أغسطس عشرون... لم ينسها ... ويذكرها السيف سيف الشهيد
وعطر المذابح في سوحها ... نوافيح (**) تلهم سفر الخلود
وتحكي لهذا الورى قصة ... مخضوبة عن جهاد الأسود

ذلك هو الجهاد، وتلك روح التضحية في سبيل العقيدة والمبادئ، وصورة من صور الدفاع عن الإسلام وأوطان المسلمين، والذي أثمر أزهار الحرية التي سقيت بدماء الشهداء، ولولاها لما عاد للوطن حريته، وللشعب كرامته، " لأن الشعوب التي تحررت وحققت لنفسها حياة كريمة [illegible]

(*) سكيكدة مدينة بالشمال الشرقي الجزائري، وقعت بها أكبر مجزرة في عهد [illegible] 20 أوت 1955 [illegible]
(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص [illegible]
(**) نوافيح: مباخر المسك والعنبر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هي التي بذلت العرق، والدموع، والدماء، ومدت إلى الحرية جسرا من الجماجم والأشلاء، إنهم أصحاب الرؤوس المرفوعة، والجباه العالية، والقلوب القوية، والإيمان الوطيد، أن تستقل الجزائر، أو أن يسبلوا أعينهم على آخر شعاعه من نور الدنيا ونفوسهم مغتطبة لأداء الواجب المفروض مطمئنة للقاء الله تعالى "[1]. هكذا صور مفدي زكرياء طريق الشهادة في سبيل الإسلام والوطن، غايته تحريك المشاعر الكامنة في أعماق الشباب ليثور على المستعمر، لانتزاع حقه المغتصب، وحريته المسلوبة.

هكذا نخلص إلى أن مفدي زكرياء، عمد من خلال تمجيده للحضارة العربية الإسلامية إلى الإشادة بمقوماتها الأساسية، من عقيدة، وشعائر تعبدية، وأخلاق ومعاملات، وعلوم، وفنون، مبينا أثر الإيمان في حياة الناس، وكيف تعلقوا بالمبادئ السامية للإسلام والتي وحدت قلوبهم، فصاروا إخوة متحابين متراحمين، إلى أن تخاذلوا وتفرقوا فضعفوا وتمكن منهم عدوهم، فأذاقهم تعاسة الحياة، وسعى إلى طمس معالم الشخصية الإسلامية في الأمة، وإفساد المجتمعات، لذلك راحوا يطلبون المجد الذي ضاع مع أفول الحضارة العربية الإسلامية.

وقد أبرز سمو رسالة الإسلام، ودعا إلى إصلاح أوضاع المجتمع والسير به في طريق الأصالة.

كما دعا إلى الجهاد لرفع راية الإسلام وتحرير الأوطان، واستعادة المجد الضائع، وامتلاك وسائل النهوض والتقدم، لمسايرة الركب الحضاري المعاصر، وكان في ذلك كله يربط بين الأحداث الماضية وواقع المسلمين اليوم، قصد استثارة الهمم، وشحذ العزائم، لتحقيق الوثبة المنشودة.

---

(1) محمد الصالح الصديق، صفحات من جهاد الجزائر، ص41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

أدوات التشكيل الشعري

أ- المعجم الشعري:

- ألفاظ ذات مدلولات إسلامية.
- البنى التركيبية.
- خصائص اللغة الشعرية.

ب- الصورة الشعرية:

- مفهوم الصورة الشعرية وطبيعتها.
- أنواع الصورة الشعرية.
  - الصورة البلاغية.
  - الصورة الرمز.

جـ- الموسيقى الشعرية:

- مفهوم الموسيقى الشعرية.
- أنواعها.
- طبيعتها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث:

أدوات التشكيل الشعري:

إذا كان الأدب عامة والشعر خاصة تعبيرا صادقا عن حياة الناس كما يحسها المبدع من خلال وجدانه، وتصويرا دقيقا لانعكاسها على نفسه، ومؤثرا فاعلا في مشاعر غيره، فإن أدوات التعبير عن روح التجربة الشعرية هي الكلمات المعبرة والصور الموحية، والنغمات الموسيقية المؤثرة.

والكلمة كمفردة قاموسية لا يكون لها أي أثر في النفس ما لم تصغ صياغة فنية ملائمة، تعطي للبنية الشعرية روحها، وتحقق لها قيمتها التعبيرية في النسق العام، وبذلك تكون لها القدرة على نقل التجربة " وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية، وليست القيمة الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره وأن تنقله إلى جميع مشاعر الآخرين " [1].

لذا كان المضمون الشعري وشكله متلاحمين متلازمين في تجربة الشاعر، إذ لا فضل لأحدهما عن الآخر، ولا أسبقية لهذا على ذلك، ولذلك على هذا.

وكان هذا الموضوع محور كثير من الدراسات النقدية المختلفة التي تناولته في القديم والحديث وتباينت وجهات نظر النقاد حول أساسيات البنية التعبيرية، أيعود الفضل فيها إلى اللفظ أم إلى المعنى[2]، غير أن الواقع يدفعنا إلى القول: إنه " لا يتصور أن يحصل المرء على المعنى أولا، ثم يبحث له عن الألفاظ الدالة عليه، إذ أن الألفاظ – من حيث هي ألفاظ– لا تطلب بحال، وإنما تطلب من أجل المعاني في الصياغة والسياق... " [3].

من هنا يصبح الشعر عبارة عن تعامل خاص مع اللغة، سواء في مفرداتها أم في تراكيبها، لأن اللغة

---

(1) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط04، 1980، ص19.

(2) الجاحظ، كتاب البيان والتبيين،تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار التأليف، الحلبي، القاهرة، ط03،1968،ص76

ومحمد بن احمد بن طباطبا، عيار الشعر ،تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول، المكتبة التجارية، القاهرة،1956، ص04.

وعبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، ط01، 1993، ص06.

(3) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة والعودة بيروت، 1973، ص272.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بمفرداتها وتراكيبها، تأخذ في القصيدة وضعا خاصا، وتؤدي وظيفة معينة، بل الأكثر من هذا أن لكل شاعر بالضرورة طريقة تعامله الخاص مع اللغة، ومن ثم يمكن الحديث عن معجمه الشعري الخاص به، وعن مميزاته الأسلوبية.

كما أن المعجم الشعري والتراكيب اللغوية في الشعر تتأثر إلى حد بعيد بنوعية التجربة التي يعبر عنها الشاعر، أو لنقل بنوعية رؤيته، لأن الرؤية الفنية في الشعر تقتضي نوعا خاصا كذلك من التعامل مع المعجم، ومع الأبنية اللغوية والتراكيب، حتى يحقق شرط الفن في التعبير، إلى جانب الموقف الملتزم[1].

لذلك فإن دراسة المعجم الشعري عند مفدي زكرياء تقودنا إلى ضرورة معرفة أصالته موقفا ورؤية، وصياغة فنية، وتدفعنا بالتالي إلى العودة إلى الأصول الأساسية لشعره الإسلامي، لأنها أصول قوية متجدرة، ترتبط بالكتاب والسنة والتراث والبيئة الإسلامية المحافظة، والتي كانت عوامل قوية في تشكيل شخصيته المتميزة بأصالتها فكرا وفنا، فجرت فيه هذه الطاقة الشعرية ببعدها الإسلامي[2].

إن الدارس لشعر مفدي زكرياء يجد عددا قليلا من القصائد ذات الموضوعات الإسلامية مقارنة بالكم الهائل المنشور في دواوينه، وفي الصحف والمجلات المختلفة مثل: " وقفنا رسول الله وقفة خاشع " و "حنانيك " و "وداع الحجيج " و " أمانا رسول الله " و " ربيع العمر " والتي نلمس فيها وحدة الموضوع الإسلامي، لكن تكاد لا تخلو قصيدة من شعره من الأثر الإسلامي لفظا أو معنا أو تصويرا، لذلك سأقف بالتحليل والنقد عند أدوات التشكيل الشعري التي استخدمها مفدي زكرياء وهي:

- **المعجم الشعري**
- **الصورة الشعرية**
- **الموسيقى الشعرية**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) عز الدين إسماعيل. الشعر المعاصر في اليمن. بين الرؤية والفن. دار العودة بيروت، ط1، 1986، ص242 وما بعدها.
(2) يحياوي الطاهر. البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري. ص49.

- المعجم الشعري :

من سنن الحياة أن لكل عمل أدواته ووسائله الخاصة بتحقيقه، وبدونها لا يتجسد في أرض الواقع، فإذا كان للصياد بندقيته، وللفلاح جراره، وللبناء والحداد الصائغ أدواتهم ووسائل عملهم، فإن للأديب أو الشاعر أدواته كذلك لبناء عمله الفني، وفي مقدمتها اللغة، حجر الزاوية في العملية الإبداعية.

فالشاعر المبدع لا يلقي بالألفاظ ويصوغها عفويا، بل يختارها اختيارا، ويصوغها صياغة شعرية تكسبها طاقة من المشاعر والدلالات المعبرة الموحية، فتصبح بالتالي خلية حية لا مجرد ألفاظ معجمية جامدة لا تثير المشاعر، ولا تحرك الوجدان، ولا تلهب العواطف، فاللغة هنا " هي المفتاح الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق " [1].

لهذا فإن التعامل مع اللغة بطريقة فنية، ومهارة فائقة يجعل الشاعر يبدع صورا جديدة من خلال رؤية ذاتية، تثير وتدهش المتلقي أو القارئ، لأنه لا يتعامل مع اللغة الشعرية بوصفها وسيلة تعبير وتبليغ، وإنما لغة إبداع وتأثير، وتبليغ في آن واحد [2] .

فاللغة الشعرية ألفاظ، لأن اللفظ أساس التركيب الفني، فهو بمنزلة الوحدة الأساسية التي يتم بواسطتها التناسق والترتيب والتركيب ... وأن اللفظ بكل مقوماته هو جزء من التركيب الكلي... ومن ثم يمكن اعتبار مزايا اللفظ المختلفة هي مواد بناء التركيب الفني ... وأن هذه المزايا الإيجابية للفظ هي في حد ذاتها مزايا العبارة الناجحة، وأن نجاح العبارة الشعرية إنما يكون بمدى تفاعل الألفاظ وتكاملها وتعاملها مع بعضها البعض في سياق شعري يولد الشحنات الوجدانية، ويفجر الطاقات الشعرية ويجعل العبارة حاوية للمضامين الفكرية التي تنطوي وراء الصور والظلال والأجراس والإيقاعات[3]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الثقافة، بيروت، ط03، 1981، ص174
[2] أحسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، ص158.
[3] يحياوي الطاهر، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري، ص73.

وينتج ذلك كله عن مدى قدرة الشاعر على صياغة تجربته، لأن الصياغة الشعرية الجيدة أساس البناء الشعري لما تتميز به من قوة الربط بين عناصر البنية التعبيرية، لتجعلها أكثر انسجاما وجمالية: صوتا وتعبيرا وصورة، وبذلك تكون للقصيدة قيمتها الفنية، ويحدث التأثير المطلوب في المتلقي، وبناء على هذا التحليل فإن عناصر الجملة إذا لم تتكامل مع غيرها في سياق تام ومنسجم، فإنها تظل شحنات وطاقات شعرية وفنية أو مضامين فكرية قاصرة عن احتواء التجارب النفسية وتمثيلها تمثيلا كاملا لأن أساس البناء الفني المتكامل يكون داخليا وخارجيا على صعيدي الشكل والمضمون [1]. وللوقوف على خصائص البنية التعبيرية في شعر مفدي زكرياء، لا بد من الرجوع إلى شعره واستنطاق النصوص.

أولا: ألفاظ ذات مدلولات إسلامية :

اتسم شعر مفدي زكرياء الإسلامي كشعر غيره من الإحيائين والإصلاحيين، بجزالة اللفظ ورصانته، وهو أمر طبيعي ولده رد فعل شعراء جيله على هجمات أعداء الأمة العربية الإسلامية وعلى المغتربين من أبنائها، فتشبثوا بأصالتهم لغة وفكرا، وعادات وتقاليد، وتمسكوا بتراث أجدادهم وتجندوا لبعث ماضيهم المجيد في حاضرهم المتردي، وركزوا على اللغة لكونها إحدى مكونات شخصيتهم، ووعاء فكرهم، وعقيدتهم، وهذا أمر طبيعي أيضا يتفق مع رسالة الشعر الإصلاحية التي استهدفت بعث الشعور العربي، والمحافظة على مادته الأدبية، وصوره الفنية، التي كان عليها في عصور ازدهار النهضة العربية الإسلامية وقوتها.

وكان مفدي على نهج هؤلاء في بعث لغة الأجداد والمحافظة عليها، بل زاد في ذلك شوطا، إذ لم يبق حبيس الماضي رغم تعلقه به، وارتباطه الوثيق بالتراث، فقد لون في أسلوبه وفي تشكيل مادته الأدبية تشكيلا يتفق وطبيعة تجربته النفسية، وطريقة أدائه المتميز في الألفاظ والتراكيب والصور، والنغم الموسيقي المؤثر.

---

[1] يحياوي الطاهر، المرجع السابق ص73.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من ذلك أنه وظف الألفاظ اللغوية التي أعطاها الإسلام مدلولات جديدة في قصائده توظيفا خاصا عكست رؤيته ومواقفه من قضايا أمته، هذه الألفاظ يمكن تقسيمها إلى:

أ- ألفاظ ارتبطت بالعقيدة والعبادات:

لقد أكثر في قصائده من الألفاظ المرتبطة بالعقيدة والعبادات، فهو يربط بين ما ترمز إليه مظاهر الطبيعة في بلاده من دلائل القدرة على الخلق والإبداع وتصريف حركة الكون، وبين ما توحي به نفسه المطمئنة، ويهفو إليه قلبه العامر بالإيمان[1]، فيذكر: الله، الإيمان، ليس له ثان، التقوى، العقيدة. ويدعو من خلال إشادته بمراكز الإشعاع العلمي والإسلامي في الجزائر وبلاد المسلمين، إلى صيانة عقيدة التوحيد، والحفاظ على القرآن الكريم، لتستمر إشراقة نور الإسلام على الخلق أجمعين، فيذكر العقيدة، الكتاب، الإسلام، فيقول: [2]

ومن إشراقة الإسلام صُونوا بساحتها العقيدة والكتابا

ارتفع مفدي في البيتين السابقين إلى مستوى تعبيري جيد، حيث ربط فيه بين إيمانه بالخالق، وتعلقه بوطنه وأصالته، والدعوة إلى الحرص على العقيدة الإسلامية، وهو بهذا يسعى إلى غرس معاني الإيمان والخشوع والتقوى في نفوس أبناء أمته التي هي أحوج ما تكون إليها، كما استخدم الألفاظ المتعلقة بأركان الإسلام والعبادات بدلالات جديدة، كألفاظ: العبادة، الصلاة، القرآن، الزكاة الصيام... إلخ، وما تعلق بالأماكن المقدسة وأماكن العبادة، كالمسجد الأقصى، القدس، مكة، الكعبة عرفات، الصفا والمروة، زمزم، قبر طه، العيد، الواد المقدس، المولد النبوي الشريف.

ب- ألفاظ ارتبطت أصلا ببداية الدعوة:

كما نقف في شعره على ألفاظ ارتبطت أصلا بفجر الإسلام مثل: الشرك، الكفر، الضلال الجهل، الأصنام، النار، إبليس، الكذب، النفاق، الآخرة، الجهاد.

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص102، وإلياذة الجزائر، ص77.
(2) مفدي زكرياء، من وحي الأطلس، ص144.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعلى عادته لم يأت بالألفاظ عبثا أو لاجترار التراث، بل غايته ربط أحداث ماضي الأمة بحاضرها لأجل بناء المستقبل المأمول، لأن الواقع متردٍ بسبب عملية التدمير التي تعرض لها المجتمع على مستوى القيم والأخلاق ومقومات الحضارة، والتي أعادت الناس إلى جاهلية معاصرة.

جـ- ألفاظ ارتبطت بالغيب وأخرى بنظام حياة المسلمين:

فالألفاظ التي ارتبطت بالغيب كثيرة كالملائكة، الروح، قصص الأنبياء، سدرة المنتهى، الموت البعث والنشور، القيامة، وغيرها من الألفاظ التي عرفت بمجيء الإسلام وارتبطت بالدعوة الإسلامية وصارت لها مدلولات خاصة عند المسلمين.

وقد ضرب لنا المولى عز وجل الأمثال في حياتنا " ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما هو غيب عنا... ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها... وجعلنا نحسها ونراها... وأشياء أخرى اقتضت حكمته.. أن تظل غيبا عنا كاختبار وامتحان إيماني... لذلك لم يطلعنا عليها، وإن أخبرنا بها "[1]، لأن الإيمان بالغيب كما يقول سيد قطب هو: " العتبة التي يجتازها الفرد فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أشمل وأكبر من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ... "[2].

وأما الألفاظ التي ارتبطت بنظام حياة المجتمع الإسلامي فهي مثل: العدل، الحق، المساواة الشورى، انتخاب، الأمام، الرحمة، العطف، الأخوة[3] ... إلخ.

وقد منح هذه المفردات دلالات جديدة أعطتها بعدا واقعيا حيث انطبقت على الواقع المعاصر لأمته، وعالجت أحداثه، ووجهت أموره[4]، وبذلك تأثر بها، ووظفها توظيفا فنيا، أخرجها من دلالاتها القاموسية، أو التراثية لتعبر عن التجربة الجديدة، لكونها صارت قطعة من نفس المبدع، تحمل روحه وفكره، كقوله في تصوير دور الملائكة في حرب التحرير التي أرسلها الله لنصرة المجاهدين تشبيها

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، مطبعة أمزيان، الجزائر، (د-ت)، ص21.
[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الأول، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية العاشرة، 1982، ص39.
[3] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص153.
[4] صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، الجزائر 1985، ص68.

لها بما حدث في معركة بدر الكبرى في بداية الدعوة الإسلامية، لأن الجيشين في الحالتين كانا قلة أمام ضخامة عدد وعدة جيش المشركين[1] :

مـــلائــــكُ، بالفـواتـــكِ نـازلاتٌ بـــإذن الله، أرسـلـهـــا خـطـابـــا

فجيش الملائكة لا يحارب الكفرة فيهزمهم ويتركهم يفرون كما تفر الجيوش المنهزمة، بل يفتك بهم لأن المعركة في الجزائر هي معركة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر.

إن الشاعر يتعامل مع هذه الألفاظ تعاملا خاصا فيوظفها ليعالج من خلالها قضايا المجتمع الملحة كالألفاظ المرتبطة بإدارة شؤون الأمة المستمدة من مبادئ الشريعة الإسلامية، هذه الشريعة التي تدعمها القوة، ويحكمها العدل، وتنتصر للحق الذي يعلو ولا يعلى عليه، ويُعطي لكل ذي حق حقه، فلا ظالم ولا مظلوم في مجتمع الإسلام.

كما وظف أسماء المعارك الخالدة بين المسلمين والمشركين، غايته إدارة وجه المسلمين نحو ماضيهم المشرق، ومفاخرهم الحافلة بالبطولات والأمجاد، لاستلهام العبر من كل ما هو عظيم من تاريخ أمتهم[2].

د- ألفاظ تتصل بالرسول وسيرته:

صور الرسول الكريم بصفاته الخلقية النبيلة التي جعلت منه نموذجا للكمال البشري، بما انضوت تحته نفسه الكريمة من سمو الأخلاق، وحسن المعاملة، وحب الخير للمجتمع، وفتح باب الاجتهاد أمام المسلمين لتسيير شؤون حياتهم، فوظف عبارات: رؤوف، حليم، وفي، المصطفى، إنارة الكون، رسالة الإسلام، تحرير الأمة من الظلم والعبودية، تحطيم الأصنام، وتسطير نهج العدالة وإنصاف الكادحين، نهج الرسول وهديه، إنارة العقول، رسول الله، جعل الأمر شورى بين الناس

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص31.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص117

تحطيم الضلالة، العصف بالجهالة، وردت في قصائد: " وقفنا رسول الله وقفة خاشع " و " أماننا رسول الله " و " ربيع العمر " و "حنانيك " و " توبة صوفية " وغيرها[1] منها قوله [2]:

أيرضيكَ أن نشقى، وفينا محمدٌ رؤوف حليمٌ، لا يريد لنا كسْفَا

إن مفتاح البيت استفهام استعطافي له دلالته في التركيبة الشعرية، تثبت العلاقة القائمة بين المستعطف والمستعطف، فيها تصريح دون اللجوء إلى قرينة دالة لإظهار مضمون البيت، يتمثل في تعدد صفات السمو الأخلاقي، الرؤوف، الرحيم، الذي لا يرضي لأمته الكسف، وهي صفات ترمز إلى شخص رسول الهدى وما يتصف به من أخلاق في أمته، وقد أبرز الشاعر هذه الصفات ليقابل بين نقيضين فأنزل الأول منزلة المغضوب عليهم إذ خذلهم ربهم فسلط عليهم عدوهم عقابا لهم، ورفع الثاني إلى قمة درجة الكمال الإنساني بخلقه العظيم، وتفانيه في نشر تعاليم الإسلام في المجتمع.

لقد أحالنا زكرياء من خلال هذا التوظيف إلى أحداث تعيشها أمته المعاصرة وتفاعل معها بروح المسلم، وهذه الإحالة تتعدى مجرد الإخبار عن حال الأمة العربية الإسلامية والاستشفاع لها بالرسول الكريم ، بل دعوة لها لتعود إلى طريقها القويم، فتقتدي بأخلاق سيد المرسلين ليغير الله ما بها. إن ألفاظ البيت ليست غريبة عنا، وإنما جمالياته تكمن في حسن صياغة التركيبية الشعرية، وفي الإيقاع المناسب الذي أفرزه بحر الطويل بحيث " تتزاحم في النفس تلك الانفعالات التي تفرزها الإمتدادات المتتالية لدى ترديد هذا الإيقاع " [3]، وبذلك تمكن الشاعر من خلق هذا النص المتكامل معنى ومبنى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، من ص234 إلى 240.
(2) المصدر نفسه، ص235.
(3) عبد المالك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1990، ص37.

هـ- ألفاظ ارتبطت بتاريخ الدعوة الإسلامية :

وظف زكرياء ألفاظا إسلامية جديدة كأسماء الصحابة والتابعين، وقادة الفتوحات الإسلامية وأبطال المعارك والإعلام، مثل " أمير المؤمنين، الإمام، عمر، خالد، عقبة، حسان، وابن نصير وطارق، وسعد ... إلخ.

إن استخدام الألفاظ الإسلامية ليس مجرد عملية لغوية يوردها الشاعر في سياق تعبيري معين إحياء للتراث، وإنما أن يجعل منها أداة تواصل واستمرار، وربط ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها، لذلك نرى الحنين يشده إلى عظماء الإسلام، فيرى شخصياتهم ماثلة أمام ناظريه بعظمتها وقوتها وإخلاصها لنصرة الإسلام، فذاك خالد بن الوليد العظيم وهؤلاء قادة الفتح الإسلامي في مصر، وإفريقيا والأندلس، فلم لا يكون الاعتبار بأعمالهم، والاقتداء بشخصياتهم.

وقد تجسد هذا الإحساس واقعيا عندما أقبل الشعب الجزائري على الشهادة بدافع الحب، استجابة لنداء الجهاد في أول نوفمبر 1954 ، كما استجاب أجدادنا في بداية الدعوة، وحققوا النصر المبين[1].

إن العودة إلى تراثنا الحضاري، وتاريخنا الإسلامي الحافل بالبطولات والأمجاد، هي من السمات البارزة في الشعر الإسلامي، لذلك نجد زكرياء في شعره الإسلامي يسير على نهج شعراء الاتجاه المحافظ في اختيار الألفاظ، متأثرا بالثقافة السلفية التي استقى من نبعها في الجزائر، وتونس فطغت على إنتاجه.

غير أن ما يميز اللفظة عنده، أنها تستمد حياتها من دنيا الشاعر، ومحيطه، وخبراته، ومعاناته الشعورية التي هي انعكاس لمعاناة شعبه المسلم، المضطهد في وطنه، المحروم من حقه في الحرية والحياة، ومن السياق العام للتركيبة الشعرية، فتصبح اللفظة فيه عبارة عن خلية نابضة بالحياة، لا مجرد لفظة معجمية لا حياة فيها.

---

(1) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 14.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا إلى جانب التوظيف المكثف للألفاظ ذات الدلالات الإسلامية مثل: الشهادة، الشهداء، النبوة، المهدي نعيم الخلد، شرعة الله، الإسراء، المعراج... [1]، كما استخدم ألفاظا جاء بها الإسلام ونفر منها كالجحيم، النار، جهنم، الشيطان، الوسواس الخناس، الزور، الفجور، كقوله يصف تردي أوضاع المجتمع الجزائري[2] :

بلعتنا الخمور وانفش الفُجور   نيران الشرور فينا شعالة

ثانيا: التراكيب اللغوية :

مادامت اللفظة تستمد حياتها من ذاتية الشاعر، ومن السياق التعبيري، فإن الألفاظ لا تعطي مدلولها الكامل إلا في ظل العبارة الشعرية المتناسقة التراكيب المتناغمة الإيقاع، ومن الصور والظلال التي تشعها الألفاظ موحية بالمعاني الذهنية والشعورية، وبذلك تتعانق المعاني والمباني مشكلة تجربة الشاعر الفنية.

وإذا كان مفدي زكرياء لا يختلف عن غيره من شعراء الجيل المحافظ في بعث التراث وإحياء قيمه الفنية الأصيلة، من خلال استيعابه للألفاظ بدلالاتها القاموسية، وإيقاعها الموسيقي، وظلها الذي تلقيه في الخيال، فقد أقبل يستوعب التراث اللغوي، ويحيط بمفرداته، ويتمرس بأساليب البيان، حتى تحقق له من القدرة ما لم يتحقق لكثير من شعراء جيله.

وقد تميزت لغته الشعرية بحلاوة اللفظ وخفته ومطابقته لمقتضى الحال، مع سهولة فهمه، لذلك اتصفت العبارة الشعرية عنده بالوضوح والصفاء، ودقة الألفاظ وإيحائها في معظم شعره[3].

أما النسق التعبيري عنده فقد برز بشكل يؤكد قدرته الفنية على صياغة تجربته الشعرية كقوله في مقطع " توبة صوفية " [4] :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص65 و 324.
(2) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص234.
(3) نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص247 وما بعدها.
(4) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص114.

فيا ربّ قد أغرقتني ذنوبي   وأنت العليم بما في الغيوب

أتوب إليك باليائتي   عساها تكفّرُ كلّ ذنوبي

لقد تفجرت أحاسيسه من خلال هذا الموقف الشعوري الذي ينمّ عن معاناة الشاعر وإحساسه بالذنب، متضرعا إلى الله تائبا إليه، آملا في الرحمة والغفران، وهو موقف تناسبه الكلمة الخاشعة والعبارة الرقيقة اللينة، والجملة التي تناسب المقام، وتشعر بالخضوع للخالق والانقياد له، والإحساس بالمذلة أمامه، مع إيحائها بالاستعطاف كقوله: أتوب إليك باليائتي، تعفو على المسرفين، ولولا صفاتك رب غفور، رحيم، ضاقت علي دروبي، إلى غير ذلك من التراكيب، فالعبارات كما نلاحظ ونحس رقيقة الألفاظ ،عذبة، مستساغة، سهلة الفهم، متناسقة في تركيب متين، تنساب معانيها انسيابا، موحية بدلالتها المعنوية، ومن ثم لا أثر فيها للغموض ولا للغرابة والابتذال.

ولا نعدو العبارة الشعرية كوسيلة بناء فني عند زكرياء، دون إبراز العلاقة المتينة بين التعبير كألفاظ متناسقة متناغمة، وشعور المبدع الذي به يتحقق الصدق الفني.

لذلك نقف على هذه الشحنة المتفجرة من المشاعر، وهو يطلق هذه الزفرات في وجه الصليبية الفرنسية، محترفة تجارة الموت والدمار، مهددا، متوعدا، مؤكدا عظمة الجزائريين، وقوة إرادتهم ضاربا الأمثلة بصلابة الآباء مع المشركين فيقول: [1]

إن كنتم تجار حرب إن من   أجدادنا من باع فيها واشترى

سنشهها (عمرية) (سعدية)   سنثير رملتها قتاما أغبرا

فالبنية التعبيرية للبيتين توحي بوجود عالمين، أحدهما في مواجهة الآخر، يحتل الأول فيهما درك الانحطاط بامتهانه حرفة تجارة الموت والدمار والخراب، ويحتل الثاني حيز الرفعة والسمو، والمقاومة المصحوبة بالتجلد والصبر، والعزم على تحقيق الأمل الذي يبصره الشاعر في وجه المستقبل[2].

---

(1) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، ص141.

(2) عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ص92-93.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أورد ذلك في صيغة أسلوب شرط جازم، محددا موقف شعبه من الفرنسيين، فإذا كانوا سماسرة وتجار حرب، ومصاصي دماء، ظلما وعدوانا (إن كنتم تجار حرب)، فإن صيغة جواب الشرط كانت توكيدية توحي بمنطقية المواجهة ووجوبها، بنفس بطولة عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، وعدم الاستسلام، لأن ذلك ليس من صفات الأجداد الذين كانت نفوسهم تقطر على حد السيوف في ساحات الجهاد " إن من أجدادنا من باع فيها واشترى ".

إن التعبير عن مثل هذه التجربة يقتضي أسلوبا خاصا يتلاءم وطبيعة الموقف، بحيث ينسجم مع عاطفة الشاعر، فاختيار الألفاظ، وتناسق العبارات، وقوتها وفخامتها، ومدلولاتها، وإيقاعها الصاخب يلائم عاطفة الشاعر ونفسيته المتأججة نارا على المعتدي، ويبعث النخوة في نفوس أبناء الأمة، فألفاظ عباراته (كنتم تجار حرب)، (سنشنها عمرية سعدية)، (سنثير رملتها قتاما أغبرا) اتسمت بالجزالة ومتانة الأسلوب، وقوة السبك، وهو ما جعلنا نقف على مدى التوفيق الذي حققه الشاعر من خلال الالتحام بين تجربته والتعبير عنها لفظا ومعنى وإيقاعا تعبيرا يناسب موقفه الحماسي، ويوائم عاطفته الثائرة [1] ، محققا بذلك الصدق الفني المطلوب في الشعر، وهو يتفق مع ما ذهب إليه أحد النقاد بقوله: "فهذا شعر فيه صدق قوي، وعاطفة متقدة، وفيه سبك وجزالة لا تتكرران وفيه حماس ووضوح، وفيه طلاوة رائعة، وموسيقى دافقة " [2].

إن العبارة الشعرية في قصيدة زكرياء الإسلامية كانت الصوت الخارجي للمعاناة الداخلية، فإذا خصّت موضوع الحماسة، واشتدت العاطفة، كانت جزلة فخمة عالية النبرة، متينة التركيب، وإذا سما الشعور ورقت العاطفة، لان التعبير، ومالت إلى السهولة واليسر والرقة، وعندها تنساب العبارات انسيابا هادئ النبرات، رقيق النغمات [3]، وهي سمات ميزت أسلوب زكرياء وخلقت له عالما يسبح فيه يحمل طابعه الخاص به، جعله متفردا في ذوقه وإحساسه، وقوة شاعريته، لأن الأسلوب هو الذي يميز

---

[1] نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص250.

[2] يحياوي الطاهر، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري، ص[illegible].

[3] نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص[illegible].

طابع الشاعر وعالمه الفني، إذ يقوم أساسا على ذوق الشاعر المرهف الحساس، وجماليته المتفردة التي تضع القالب الشعري الملائم لمشاعره وأفكاره، والذي يحتضن طاقاته الشعورية ومنازعه النفسية التي تبرز إلى حيز الوجود بفضل الأسلوب... " [1].

من هنا يمكن القول: إن مفدي زكرياء تأثر بالألفاظ اللغوية التي ارتبطت مدلولاتها بتاريخ الدعوة الإسلامية كمصطلحات جديدة في مجالات العقيدة والعبادات، ونظام الحياة، بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ووظفها بمعانيها القاموسية تارة، وبدلالات جديدة استوحاها من واقع الحياة اليومية تارة أخرى، فجاءت التراكيب متينة، قوية السبك، محكمة البناء، بعد أن غمسها في وجدانه فحملت روحه وأحاسيسه التي تفجرت في أعماقه، فانعكس صداها في نفوس أبناء أمته، وبذلك أكد قدرته على صياغة تجربته الشعرية صياغة مزجت عالميْه الداخلي والخارجي، فكان الإلتحام التام بين التجربة والتعبير عنها شكلا ومضمونا، وهو ما جعل لغته تطغى عليها بعض الخصائص التي صارت سمة بارزة في شعره، كخاصية الاقتباس، والتضمين، وأساليب العطف والتكرار وغيرها.

خاصية الاقتباس والتضمين [*]:

كان للبيئة الإسلامية التي نشأ فيها زكرياء والمصادر الأساسية الذي استقى منها أصوله الفكرية، وثروته اللغوية أثرها الكبير في شعره، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم الذي شغف به حبا ولازمه في حله وترحاله، فامتلأ قلبه نورا، واستقام لسانه.

كما تأثر بالحديث النبوي والتراث الأدبي العربي، وقد بلغ به هذا التأثر حد الاقتباس والتضمين شكلا ومضمونا، وصار خاصية أسلوبية ميزت شعره.

---

(1) يحياوي الطاهر، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى المصري، ص...

(*) الاقتباس والتضمين: وسيلة فنية اعتمدها الكتاب والشعراء لإثراء إنتاجهم الفني وإعطائه قيمة علمية، بحيث يقوي بنية النص، خاصة عندما يحسن اختيار النص المقتبس وتوظيفه، وهذا لا يصبح جيدا كما يرى البعض، إذ يعتبرون النص الجيد هو ما قام بنفسه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن ظاهرة الاقتباس والتضمين صارت وسيلة فنية في شعر مفدي، حيث يقع عليها بصرك، وتلمس سمعك في كل لقاء يجمعك بقصائده، سواء كان النص المقتبس قرآنا، أوأدبا، أو شعرا، لفظا كان أم معنى، أم كليهما كما أبينه فيما يلي:

1- القرآن الكريم:

أ- تضمين اللفظ القرآني دون معناه:

يحسن مفدي زكرياء توظيف القرآن الكريم في شعره معنى ومبنى، حيث يأخذ اللفظ أو المعنى أو هما معا ويستخدمهما بالقدر الذي يوضح فكرته، حتى ليصعبُ على من لا يحفظ الآيات المستعملة أن يميز بين الألفاظ القرآنية والمفردات الأخرى، لأن لغة القرآن أصبحت " تداخل لغته الشعرية تعبيرا وتصويرا مما جعل هذا التوظيف طابعا يكاد يتميز به شعر زكرياء ويدل عليه، وقد استطاع بموهبته الشعرية أن يستفيد من هذه اللغة المتميزة بموسيقاها ودلالاتها الفنية والتصويرية "[1].

لقد وظف مفدي زكرياء اللفظ القرآني دون معناه كقوله[2]:

خُلِقْنَا بحكمِ الهوَى إخوةً فتبّت يدا[3] كلّ من فرّقا

عاد الشاعر في هذا البيت إلى سورة المسد، فاقتبس منها لفظتي (تبّت، يدا) دون معناهما المشار إليه في القرآن الكريم، إذ خص بالهلاك الواقفين في طريق الوحدة، الساعين إلى تفرقة شمل الأمة، في حين دلالة اللفظ يخص بالهلاك أبا لهب الذي حارب الدعوة الإسلامية، وآذى الرسول (ص) فهو لا يختار اللفظ فقط، بل الأحداث كذلك التي يستوحي منها المعاني البعيدة والقريبة، ليوظفها في خدمة قضايا الساعة التي تخدم شعبه، ورغم ما يختص به لفظ الآية من دلالات زمانية ومكانية ودينية بعيدة عن واقعنا المعاصر، فإن الشاعر يجد تشابها بين الأحداث، يكمن في خطورة كل من أبي لهب والمشتتين للوحدة الإسلامية، فكان أن اقتبس لفظ (تب) ليسقطه من ذاك على هذا، واختار صيغة

---

(1) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص110.
(2) مفدي زكرياء، جريدة تونس الفتاة، عدد (25-12-1936).
(3) سورة المسد، الآية: 01.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن الماضية دون تغيير، دلالة على أن حدوث الهلاك لهؤلاء واقع لا محالة، ثم اختص اليد بالهلاك دون غيرها، مع أن هؤلاء يفرقون الأمة بأفكارهم لا بأيديهم، كما حمل أبو لهب وزوجته الأشواك ووضعوها في طريق الرسول (ص)، والسبب في ذلك أن اليد هي وسيلة الفعل والقوة، استعملت مجازا لكل عمل تخريبي ولو كان فكرا.

ومن خلال إبرازه لدور العلوم في نهضة الأمم، والدعوة إلى النهل من منابعها الغزيرة يعطي مثلا لذلك بتعليم الخالق عز وجل للبشرية ابتداء من آدم عليه السلام، حين علمه الأسماء كلها، لكنه يأخذ الألفاظ ليعطيها دلالات جديدة من خلال السياق العام، فيأتي النص متكاملا شكلا ومضمونا فيقول[1]:

لو لم يكن للعلم أعظم حرمة   ما كان علّم آدم الأسماء

ومع هذه الدقة في استعمال التراكيب إلا أنها أميل إلى النظم منها إلى الشعر، لطغيان عاطفة الوعظ والإرشاد على مضمونها الذي استلزم المباشرة في التعبير، وهي السمة الغالبة في الشعر الإصلاحي، لأنه يوجه إلى الجماهير عامة، لا إلى جماعة المثقفين فقط، ويقف القارئ على هذا التضمين في كثير من قصائده بسهولة[2].

ب- تضمين التعبير القرآني:

إذا كان قد وظف اللفظ دون معناه، فإنه كذلك وظف التعبير القرآني بلفظه ومعناه، حسب المواقف والأحداث التي تضطره لاقتباس آية أو بعض الآية فيضمنها شعره في براعة كبيرة، وانسجام تام بين عناصر البنية التعبيرية، فيجعلك لا تلحظ نبوّا في شعره، ولا انفصاما بين تجاربه وأفكاره الشخصية، وبين ما يضمنه إياها من مضامين ومعان قرآنية[3]، فهو لا يكتفي بالألفاظ مجردة، وإنما يتعداها إلى اقتباس المعاني الدالة عليها وتضمينها لتصبح هي الجزء الأساسي في البيت. كأن تكون

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة الأمة الجزائر، ع43 بتاريخ 24-09-1935م.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص37 و 344، وإلياذة الجزائر، ص26، 59، 60.
(3) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص371.

أحد شطريه كقوله يشيد بالرئيس التونسي **الحبيب** بورقيبة، ويؤكد سداد نهجه السياسي في مجال العمل [1] :

مـن بنـاة الـمـجـد، إلا أنـه أدهـش (البانيـن) فيمـا أبدعـا

فاشتراكيتـه البيضـاء: " أنْ .. ليْـسَ للإنـسانِ إلاّ مَـا سعَـى " [2].

إن تضمين الآية هنا ليس لمجرد الصدفة وتجميل نصه، وإنما أراد أن يستغل ما في الآية الكريمة من إقناع يجري مجرى المثل، ومن تصوير يجسد المعنى المراد تبليغه إلى الملتقى، جاء ذلك في عبارات ذات طاقة موسيقية لذيذة [3].

فاشتراكية بورقيبة بيضاء (إسلامية)، وهي نقيض (الاشتراكية الحمراء)، الشيوعية، استمدها من واقعه العربي الإسلامي، ومن أصالة امته، فهي لا شرقية ولا غربية، وهو بذلك يوجه نقدا لاذعا للنظم السياسية في المجتمعات العربية الإسلامية التي اعتمدت الأنظمة الاشتراكية الشيوعية منهجا لها.

فالتضمين هنا مناسب، ذلك أن " التعبير دقيق في صياغته، جليل في معانيه، متين في أدائه، قوي في تأثيره... فلا حشو فيه ولا تطويل، ولا إطناب ولا إسهاب، وهو في ذلك قد حقق نجاحا فنيا من خلال توضيح الفكرة وتناسق العبارة مدلولا وإيقاعا.

إن إيجاز العبارة كان من إيجاز القرآن المعجز الذي يجسد المعاني والإيحاءات لتشخيص المواقف، فلكل كلمة موضعها ودورها ودلالتها في التعبير [4] "

وبالنظر إلى تركيبة البيت الثاني نلاحظ أن الشاعر جاء بالضمير المتصل – اشتراكيته- لضرب من الاختصار، وظيفته الربط بين عناصر الجملة، فيخضع اللاحق للسابق،لأن نظام الإسلام ينبذ روح الاتكال، ويشجع العمل والاستثمار، فلكل ما سعى، ولكل ما كسب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) **مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص96.**

(2) **اقتبسها من سورة النجم، الآية: 39.**

(3) محمد ناصر ، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص127.

(4) صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، ص122 وما بعدها.

ونقف على التضمين في قصائد زكرياء كما في قصيدة " ألا إن ربك أوحى لها " التي ضمنها عبارات قرانية كثيرة كقوله [1]:

ألا إن إبليس أوحى لكم   إلا إن ربك أوحى لها !

من خلال تأملنا للبيت نقف على تضمين تعبير قرآني من سورة الزلزلة، وجد فيه الشاعر وسيلة تعبيرية عن حالته النفسية تجاه الحادث، فصورة الزلزال فظيعة تثير فينا الرعب، والخوف والحزن، والمرارة، والأسى، لما سيعقبه من يتم وتشرد وإعاقات ... من جهة، وهي من جهة أخرى ترسخ فينا قناعة وعد الله بمعاقبة الآثمين، وقد استخدم الصيغ القرآنية ليجعل المعاني مطلقة لا يحدها الزمان أوالمكان، فمتى كانت مخالفة أوامر الله حق العذاب.

إن الألفاظ المعجمية الواردة في هذه القصيدة باختلاف أقسامها: من أسماء، وأفعال، تصور لنا حالات ومعان، لكن هذه المعاني آلت إلى أن تصبح تاريخا مسرودا معبرا عنه بأفعال ماضية " زلزل" " قال "، " أوحى ". وهذا البناء النحوي إلى جانب المادة الصوتية حدد جزءا من المعنى، وعكس سلبية المجتمع[2] الغارق في أوحال الآثام والفجور والعصيان، لأن الإيقاع هنا تجاوز الوظيفة الجمالية الخالصة، إلى وظيفة أخرى أعمق غورا، وأبعد مدى، هي الوظيفة الدلالية التي تجعل من الإيقاع مجرد وسيلة لا غاية شعرية باردة فارغة، لأن الهاء في هذه التراكيب حرف حلقي عميق يكاد يخرج من أعماق الجهاز الصوتي، ويحمل دلالة أخرى هي التعبير عما يكمن في النفس من مشاعر الحزن والفزع، والألم، والشقاء [3].

لقد وظف زكرياء الهاء رويا لتجسيد الأمر الواقع الأليم، وهو الآثام التي اقترفها السكان في حياتهم العامة، والعقاب المسلط عليهم، وقد زاد هذا الصوت الهائي عمقا ما أشبع به من امتداد مفتوح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص273.

(2) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط02، 1986، ص205.

(3) عبد المالك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " ابن ليلاي " لمحمد العيد آل خليفة، ص154.

ليرتفع الصوت ويبلغ مداه ليؤثر في النفوس، فإلى جانب ما يمثله من حزن وألم على ما حل بالأصنام يمثل بعدا آخر هو التخويف، لذلك لم يعتمد الشاعر جانبا واحدا، بل اعتمد توظيف كل مكونات اللفظ معنى، وصوتا، وإيقاعا، دلالة على الحال، وتهويلا للموقف، وتحذيرا من عقاب الله لمن ينحرف عن جادة الصواب، ويرتكب المعاصي.

ورغم صعوبة اعتماد هذا الحرف رويا لما يتطلبه من صنعة وحسن اختيار، فإن العفوية وعدم التكلف تبدو في بنية النص الخارجية ممثلة في حرف الروي المناسب، الذي أدى وظيفة نفسية بفضل هذه الطاقات الكامنة فيه، والقادرة على احتضان الحزن والحسرة بشكل لا تؤديها غيرها من الوحدات المنتهية بغير الهاء لو أبدلت بها في هذا الموقف (1).

والعائد إلى دواوين الشاعر يلمس هذا التضمين المكثف للقرآن الذي زاد مضامين النصوص الشعرية عنده قوة وسموا، وأسلوبه عذوبة، وخياله خصوبة، وموسيقاه جمالا.

أما الصياغة العامة للقطعة الشعرية فتنم عن براعة الشاعر في بناء قصائده، فأنت تراه في هذا الموقف المهول يعدد صيغ التراكيب، من فعلية وإسمية متحدة تارة في الزمن والدلالة بالنسبة للجمل الفعلية، كـ " زلزل " و "أوحى "، ومختلفة تارة أخرى كـ " قال " و" يسائل "، والتنويع في الجمل الاسمية كـ" هو الإثم " و " إلا ابن إبليس "، حيث أفادت الأولى السببية لأنها تحصر سبب الزلزال في الآثام المرتكبة، وتفيد الثانية توكيد فعل العقوبة نتيجة العصيان، واتباع أمر الشيطان، وبذلك كانت الجملتان في سياق مضموني واحد .

وما يزيد النص قوة وتأثيرا في النفس هو هذا التنوع في الأسلوب ما بين الصيغ الخبرية والإنشائية، فالخبرية كجملتي البيت الأول، والإنشائية ممثلة في الاستفهام في البيت الثاني، والتعجب في البيت الثالث، ويبلغ قمة التعبير التصويري باستخدام هذا الأسلوب الحواري الهامس بين الإنسان والأرض " يسائلها "، والذي هو من سمات الرومانسيين يوحي لنا بالدهشة والاستغراب والحيرة، لكن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) المرجع السابق، ص165.

يأتي الجواب في البيت الأخير ليزيل الشك بتوكيد الحدث، وتوضيح السبب، بواسطة أداة التوكيد " إن " المكررة، فتبرز معالم الصورة الكلية معبرة عن موقف الشاعر من الحدث.

2 –توظيف الحديث النبوي الشريف:

تعلق زكرياء بالحديث النبوي وضمنه في بعض أشعاره حسب المواقف، من ذلك قصيدته " فلسطين على الصليب " التي يقول فيها [1]:

عقيدتنا في الورى (وحدةٌ) وأسمى العقائد وحدانيه
(محمد) أبقى لنا عبرةً من (الذئب، والغنم القاصيه)[2]

نلمس في البيتين روح الناصح الأمين الذي ينبذ الفرقة، ويدعو إلى الوحدة التي هي مصدر قوة المسلمين متى كانوا وأينما حلوا، فلا يجد أسلوبا ولا مثالا أفضل من حديث رسول الله (ص)، فالبيتان اتصفا بسمو المعنى، وسلامة اللغة، ودقة الألفاظ، مع الإيجاز الإيجابي الذي يمثله أسلوب الحديث وقوة الدليل الذي جسدته نصيحة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام.

وكعادته يبدو زكرياء هنا فنانا ماهرا في التعامل مع اللغة وتشكيل النص الشعري الجديد وفق رؤيته الذاتية، فيخرج النص قطعة من روحه وصورة من خياله.

3– توظيف التراث الأدبي:

لم يكتف زكرياء بتضمين شعره القرآن والحديث، بل امتد إلى التراث الأدبي لأمته الذي كان عاملا قويا في تكوين شاعريته، فاستلهم منه معانيه وأفكاره، وتأثر ببلاغة أسلوبه، فجاء شعره مرآة عاكسة لهذا التراث، يظهر ذلك في تضميناته الكثيرة لألفاظ وتراكيب الشعر العربي، إذ يلجأ إلى النص فيقتبس منه اللفظ أو المعنى، أو كليهما، وقد يضمن القصيدة شطر البيت، أو بيتا كاملا، أو صورة،أو صوتا،مستخدما نفس المعجم الشعري للشعراء العرب المحافظين، في مقدمتهم رواد مدرسة الإحياء في

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص349.
(2) – الحافظ أبي محمد المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ص 221.

الشعر العربي، أمثال أحمد شوقي، فيأخذ النص المقتبس ويصوغه صياغة فنية تلائم رؤاه وتطلعاته.

فمن تضمينه شطر البيت شكلا ومضمونا قوله في تحديد موقفه من الشرف الذي هو أساس بناء شخصية المسلم، والذي يستوجب الدفاع عنه بكل غال ونفيس حتى ولو كانت الروح ثمنا له، لأن الحياة بلا شرف، موت للإنسان: [1]

" لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى" [2] حتى تُغسلَ بالدماء بطَاحُ

وأما تضمين البيت كاملا بمعناه ومبناه قوله يشيد بالأخلاق الفاضلة، ويدعو الشباب الأصيل إلى التحلي بها كما تحلى بها رسولنا الكريم[3]؛ إذ بالأخلاق تسمو الأمة ويعلو شأنها بين الأمم، فهي أساس الحضارة والرقي والملك فيقول: [4]

هي الأخلاق في الدنيا دليلٌ إلى دربِ العُلا يحدُو الشّبابا

" وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا " [5]

كما قلد شوقي في إبراز عوامل الوحدة الوطنية، المتمثلة في اللغة، والدين، والعروبة والتاريخ، والمعاناة، والمصير المشترك، فيقول: [6]

نحن في هذه الجزائر، إخوا نٌ، جراحاتنا الثخينة (حمرآ)

لحمةُ الضاد، والعروبة، والتا ريخِ والدّينِ: آيُ ربّكَ كُبْرَى

فقد استوحى مضمونها وبعض ألفاظها، والصورة العامة من قول شوقي [7]:

نحن في الشرق والفصحى بنو رحِمٍ ونحن في الجُرح والآلام إخوانُ

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص117.

[2] أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص571.

[3] خاطبه ربه بقوله: " وإنك لعلى خلق عظيم " سورة القلم، الاية: 04.

[4] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص143.

[5] أحمد شوقي، الشوقيات، ج01، المكتبة التجارية القاهرة، ط01، 1982، ص64.

[6] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص283.

[7] أحمد شوقي، الديوان، ج02، مصر 1948م، ص125.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالتأثر واضح في الألفاظ والمعاني، نحن إخوان، بنو رحم، الجراح، الضاد إلـــخ... فــهو لــم يكتــف بتضمين المعنى، بل عمد إلى الألفاظ كذلك، بحيث صارت واضحة لا تحتاج إلى تأويل.

وبتأمل بسيط في الأبيات السابقة نقف على أسلوب شوقي ومعانيه.

وما يلاحظ على هذا التضمين هو توظيفه للمعاني القديمة توظيفا فنيـــا يتماشـــى مـــع واقـــع الأحداث، الأمر الذي جعل جمله متميزة، لأن "داخل شكل الجملة، تقيم اللغة علاقاتها الجديدة، وتتحـــرر الكلمة من الكثير من مسبقاتها، وتصبح جزءا لا يمكن فهمها بذاتها... الكلمة بمعنى آخر تشكيل لمعـــان محتملة، والسياق وحده هو الذي يؤكد على العناصر التي يجب تغليبها في هذا الاحتمال " [1]

وما يمكن قوله هنا، هو أن زكرياء رغم وقوعه تحت تأثير مدرسة المحافظين، وتشربه للثقافــة العربية الإسلامية، فإنه لم يتعامل معها كقوالب جاهزة، بل سكبها في وجدانه فجاءت صورة لمشـــاعره معبرة عن آلام وآمال شعبه بكل واقعية، في أسلوب واضح، ومعان ســـهلة الإدراك، قريبـــة الصـــور جميلة الإيقاع، قوية السبك، شديدة التأثير في السامعين، وهو ما يجعلنا نؤكد تـــأثره القـــوي بـــالتراث والتراثيين في معجمه الشعري قرآنا، وحديثا، وأدبا، نثرا وشعرا، كما بدا لنا ذلك من خلال وقوفنا عنـــد البنى التعبيرية التي مرت معنا، والتي بدا لنا فيها زكرياء شاعرا قديرا يشكل تحفة من عناصر مختلفـــة الأشكال والألوان فتأتي صوره مجسدة لعبقريته، لما يضفيه عليها من حسن تنظيم، و تجميـــل، جامعـــا بين اللفظ والمعنى.

وبالرغم مما توحي به الصيغ التعبيرية المضمنة من مادة التراث، إلا أنك تجد تناســـقا كبـــيرا وانسجاما تاما بين المعاني، والمباني، الأمر الذي يجعلنا نستبعد سلبية التضمين، ونطمئن إلى فاعليتـــــه في النص المضمن متى أحسن توظيفه.

---

[1] إلياس خوري: دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، ط01، 1981، ص67.

*** – خاصية العطف:**

العطف: من عطف عطفا وعطوفا إليه، مال، وكلمة على أخرى اتبعها إياها بحرف عطف[1]، وبتعبير آخر هو الربط بين كلمتين أو أكثر[2] أسماء كانت أو أفعالا، أو جملا، أو أشباه جمل، بواسطة حرف من حروف العطف المعروفة، ولكل حرف دلالته الخاصة به، أهمها، ما يفيد اشتراك المتعاطفين في اللفظ والمعنى، مثل الواو، الفاء، ثم، حتى، [3] ... إلخ.

ورغم التوظيف المكثف لأسلوب العطف بحيث صار ظاهرة متميزة عنده، إلا أنه لم يكن الأول في هذا الاستخدام، بل جارى فيه القدماء والمحدثين لكنه سما عليهم بحسن توظيف العبارات والربط بينهما، فأنت تجد إلى جانب لغته التراثية وأسلوب المحافظين، لغة لا تختلف عن لغة قصائد الشابي عاطفة وخيالا، وبناء،... من ذلك قوله يصور أثر الجمال في نفسه: [4]

أنا من هِمْتُ بالجمال قديما وتغنيتُ بالعيون الفواتِرْ
وعشقتُ الأصيل، والنهر والواحة، والرمل، والمها، والجئاذرِ
والصباح الرضيع، والورد والشاطئ والليل، والنجوم، الزواهر
منذ عرفتُ الجمال... آمنت بالله وآمنت بعده بالجزائر

من خلال الوقوف على الأبيات نحس هذا الأثر اللغوي الهامس الذي ينبعث من أعماق الشاعر عبر التراكيب المختلفة المشكلة لبنية النص، والمستوحاة من عوالم الرومانسيين وما يشع في أجوائهم من التعابير الحالمة متأثرا بلغة صديقه الشابي، مستخدما أسلوب العطف المكثف، باعثا في التركيب هذه الإشعاعات التي تحمل نفس المشاعر وروحه.

---

(1) الويس معلوف، المعجم في اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت، (د-ت)ص512.
(2) عزيز خليل محمود، المفصل في النحو والإعراب، ج02، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر. 1987 ص232
(3) السيد أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د-ت) ص297.
(4) مفدي زكرياء، مجلة الثقافة، الجزائر، أكتوبر- نوفمبر- 1975.

لقد نوع أسلوبه باستخدام عطف الجمل، وعطف الألفاظ، فالجمل كقولـــه " همــت "، "تغنيــت" اللتان توحيان بقمة التعلق إلى درجة التمازج والذوبان من جهة، والتعبير عن أثر هـــذا التعلــق بلفــظ التغني أداة الطرب المعبرة بقوة عما في النفس من فرح، وابتهاج ومسرة من جهة ثانية.

وقد دلت صيغة الفعلين على الزمن الماضـي، وجاءت الجملتان خبريتين فاتحدتا فـــي الصيغــة والخبرية، وهو أمر مستحسن في العطف، كما تطابقت لفظتا " آمنت " الواردة في شطر البيت الأخـــير لفظا ومعنى. موحية بعمق إيمان الشاعر من خلال الترتيب في مدلول اللفظتين.

أما عطف الألفاظ وهي كثيرة في النص، فقد ربطها بحرف " الـــواو " دلالـــة علـــى اشـــتراك المتعاطفين في المعنى والمبنى، مثل : الأصيل، والنهر، الواحة، الرمل، المـــها، الجئـــادر، والصبـــاح الرضيع، إلخ... وكلها أسماء، وهو ما جعل هذا البناء الشعري المتماسك يولد قوة إيحائية ناتجـــة عـــن حسن الصياغة، فتولدت المعاني بعضها من بعض، لتعطي في النهاية صورة ناصعـــة لـــهذا العشـــق الصوفي المتولد في نفسه، فالهيام بالجمال، والتغني بالعيون الفواتر، تملأ النفس ارتياحا، يتبعها عشـــق الأصيل بإشراق نوره الوضاء، فالنهر والواحة، الرمل... وما أوحت بـــه مـــن دلالات مردهـــا تعـــانق المعاني والمباني من خلال التنسيق العجيب بين عناصر الجملة من جهة، وفواصله المختلفـــة القصـــر والطول من جهة أخرى.

لقد فجرت هذه التراكيب المعطوفة في الكلمات طاقة إيحائية عبرت عن عالم الشاعر الداخلـــي من خلال تشخيصه لمظاهر العالم الخارجي، فقد جسد المعنوي، وأضفى على تعابيره حركية، فهو يـــهيم بالجمال، ويعشق الأصيل، والنهر، والرمل، والصباح الرضيع، الموحي بالإشـــراق والأمـــل، والـــورد رمز المحبة والهناء، والليل رمز المعاناة الذي لا بد أن ينجلي.

فالطبيعة ملاذ الرومانسيين يناجونها ويشكونها همومهم، لكن شاعرنا يوظفها بطريقة إيجابيـــة حيث يستمد منها قوته وإيمانه، ليتجاوز حاضره إلى غده المشرق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فعناصر النص توحي بعظمة الخالق وقدرته على الخلق والإبداع، ومن ثم كانت أحقيتـــه فـــي التفرد بالربوبية وهو جوهر ما يقصد إليه زكرياء.

ونلمس أسلوب العطف بصورة مكثفة في شعره، جملا ومفردات، كما في قصائد " أمانا رســول الله " ، و" توبة صوفية " و" من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه " ... إلخ [1] .

وفق الشاعر في استعمال أسلوب العطف، واستطاع أن يجمع بطريقته الفنية البارعة بين ســمو المعنى وجمال المبنى، فلا أثر للضعف رغم كثرة العطف، فلكل لفظة مدلولها في السياق، تؤديــه مــع سابقتها ولاحقتها بشكل جعل هذا الأسلوب سمة بارزة في شعره، إذ تكاد لا تخلو قصيدة واحدة منه قلــة أو كثرة، ولعله تأثر برائد الشعر العربي الحديث بدر شاكر الشباب الذي استعمله بشكل مفــرط حتــى سمي الواو باسمه إذ " ... التقط الشعراء الشباب واو السياب بسرعة مذهلــة فانتشــرت فــي شــعرهم انتشارا يلفت النظر، حتى أصبحت ميسم بدر الأكثر وضوحا في بناء القصيدة في فترة الخمســينات ... وأنه لينذر حقا أن نجد شاعرا من شعراء هذه الفترة نجا من هذه البصمة في شعره " [2]. كما أن كــثرة حروف المد واللين أكسب شكل الأبيات وموسيقاها جاذبية ووقعا مؤثرا.

إن الاستعمال المفرط لحروف العطف في البناء الشعري يضعف العبارة ويفقدها قوة دلالتــها إذا لم تُصغ صياغة بارعة، لأن التجربة عندئذ تصبح عبارة عن جمل متراكمــة ذات معــان مكــررة أو مترادفة، فتقتل في القصيدة روحها النابضة بالحياة، وتطبع الأبيات بطابع الرتابة والملل، لأن الشــاعر المبدع حقا هو ذاك " الذي لا يستخدم اللغة بدلالاتها الإشارية المحدودة، بل له تعــامل خــاص معــها فإنها لديه تتجاوز العادي المألوف لتسبح في عوالم أخرى جديدة وغريبة... ويفجر فيها طاقــات كامنــة وقدرات هائلة فينتقل بها من التعبير العادي إلى التصوير الفني الرقيع، وأن يتقلهم مــن لغــة حديثــهم اليومي، إلى لغة موسيقية ترفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري[3] ".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، من ص236 إلى 240. وديوان اللهب المقدس، ص263 وما بعدها.
(2) محمد الجزايري، ويكون التجاوز . دار الحرية للطباعة، بغداد، ط1، [illegible]، ص265.
(3) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط[illegible]، [illegible]، ص[illegible].

***- خاصيـــــة التـكـــــرار :**

يعد التكرار من الظواهر الأسلوبية المستعملة في الشعر، لتأكيد فكرة أو إثارة انتبـاه، أو تقوية معنى، أو زيادة تأثير، أو كشف حقيقة معينة، أو توضيحها للغير، وذلك حسب متطلبات الموقف.

لذلك فإن للتكرار دلالات فنية ونفسية... لأنه يدل على الاهتمام بموضوع ما يشغل البال، سـلبا كان أم إيجابا، خيرا أم شرا، ويستحوذ على حواس المرء وملكاته[1].

والشاعر مفدي زكرياء من الشعراء العرب المحدثين الذين افتتنوا بالتكرار، فقد اعتبره وسـيلة فنية ناجحة، واستخدمه في قصائده بطريقة بارعة، ساهمت في إغناء نصوصه الشعرية.

وقد تنوع أسلوب التكرار عنده بتنوع الأفكار وما تحتاج إليه من أدوات ووسائل، لإيصالها إلـى الملتقى، في سياق تعبيري متكامل، والأمثلة الآتية توضح لنا طريقته في استخدام هذا الأسلوب.

- أ -

سنثـأرُ للـبيتِ الـذي كـان آهـلاً   فرجّـتْ به الألغامُ تسحقُـه سـحقَـا

سنثـأرُ للـبنتِ الـتي ديس قُدسُـها   ودنـس أحلامُ الخنا عِرضَها الأنقى

سنثـأرُ للـطفل الرضيـعِ وقد غـدا   وفي فمه الـرشاش يحسبـه رِزقـا[2]

- ب -

وفي الجزائـر، للتنكيـل مـدرسةٌ   تعلّـمُ الفتكَ بالشّعـب، الـشياطينـا

وفي الجزائـر، للتقتيـل مجـزرة   راحـت بها المهجُ الـحرّى قرابينـا

وفي الجزائـر، نيـران مؤججـة   تذرو المساكِـنَ لم تُعـف المساكينا[3]

---

[1] عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل لبنان، ط01، 1980، ص67.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص200.
[3] - المصدر نفسه، ص 150.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ شعبا على العروبة والإسـ لام قد شبّ لا يطيق فصاما

إن تربا مضمّخا بدماء من جدود لا يستطيع اعتزالا

إن جنسا مقدّسا عربيّا ليس يرضى أن يستحيل خيالا(1)

في ضوء الأمثلة السابقة التي تمثل ظاهرة التكرار في شعر مفدي زكرياء يتضح لنا أنّه يسعى إلى إعطاء دلالات معينة لمضامين نصوصه، نتيجة ما يوحي به كل لفظ من الألفاظ داخل البنية التعبيرية للمقاطع.

فتكرار الجمل الفعلية في المقطع الأول " أ " " سنثأر " له دلالته الخاصة، فهو يوحي بالحركة وعدم السكون، وبالانفعال والتوتر، لأن غايته الانتقام من العدو، لذلك راح يلح على الفكرة مرارا كثيرة وتكرار صيغة الفعل المضارع المسبوق بحرف السين دلالة على أن أمر الثأر واقع قريبا لا محالة لأن فظاعة الجرم لا يمكن السكوت عنها، وغض النظر عن المجرمين الذين فجروا البيوت، ودنسوا الأعراض، وقتلوا الرضع، وأحرقوا المداشر والقرى.

إذا بدا الفعل مكررا في ظاهره، فإنه في حقيقة الأمر يوحي بدلالات عديدة، فهو هنا عنصر تكثيف الدلالات، فما توحي به عبارات الانتقام من مفجر البيوت غير ما توحي به عبارات الانتقام من مدنس العرض، وكذا الثأر من قاتل الرضيع بصورة بشعة لا يقبلها عقل عاقل، إذ يقتل برشاش يتلهف إليه الصبي معتقدا إياه ثدي أمه، إنها صور متنامية في المقطع، توحي كل صيغة بفظاعة أكبر، وبالتالي انتقام أكبر.

وفي المقطع الثاني "ب" يكرر الشاعر شبه الجملة " وفي الجزائر" في مطلع الأبيات حتى تبدو لنا وكأنها لازمة، أو هي مركز الثقل في النص، فهي لم ترد من باب الضعف اللغوي، وإنما أوحى بها الموقف، فلفظ " الجزائر " هي محور الأساس، وما بقي من عبارات وجمل فهي تسير كلها في فلكها

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة الشباب التونسية بتاريخ [illegible]
[illegible]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فتقديم شبه الجملة يفيد التخصيص والقصر، لأن ما يجري في الجزائر أمر فظيع لم تعرفه الشعوب المستعمرة والمستعمر عبر تاريخها الطويل، لذلك ركز على " في الجزائر" وأحلها صدارة التعبير، إذ في الجزائر دون غيرها مدرسة للتنكيل تعلم الفتك بالشعوب، أساتذتها مجرمون لا يرحمون أحدا ودون تمييز في السن أو الجنس، أو الدين، وفيها أيضا مجزرة، ونيران مؤججة، تأتي على البلاد والعباد.

فصيغة العبارة المكررة واحدة، لكن إيحاءاتها مختلفة، غاية الشاعر إبلاغ الرأي العام بالأساليب الجهنمية المطبقة في الجزائر من قبل مجرمي القرن العشرين، على مرأى ومسمع المجتمع الدولي، لإحداث التأثير المطلوب، وهذا تأكيد لهمجية فرنسا المعاصرة تنفي تبريرات قادة الاستعمار لاحتلال الشعوب قصد تمدينها وتطويرها.

وفي المقطع "جـ" عمد إلى استخدام الجملة الاسمية المثبتة للتعبير عن فكرته التي أكدها بحرف التوكيد " إن " المكرر في بداية المقطع قطعا للشك، وتأكيدا لإصرار الشعب الجزائري على المحافظة على خصوصيته، كشعب عربي مسلم، متمسك بأصالته، يرفض أن يذوب ويزول، أو يندمج في أمة غير أمته، تحمل خصوصية غير خصوصيته، ويسير في قافلة غير قافلته كما يقال.

لقد أراد زكرياء في المقاطع السابقة أن يجعلنا نشاركه التجربة من خلال استخدام أسلوب التكرار بمختلف صيغه وأدواته، لأنه كان يهدف إلا تبليغ شعوب العالم رسالة الشعب الجزائري المسلم الذي يئن تحت تسلط الهمجية الاستدمارية الفرنسية المعاصرة، ليكسب مساندتها، وليبين لهم أن الثورة شعبية، وأن المعركة تعدت أن تكون حربا بين دخيل وأصيل، وإنما تجاوزت ذلك لتكن حربا حضارية بين المسيحية والإسلام، لذلك كان حجم الإجرام بهذه الفظاعة.

وتكرار هذه الصيغ يجعل السامع يتساءل عما يحدث في الجزائر، ودوافعه، ليصل إلى الحقيقة اليقينية، وهو ما كان فعلا، وبلغ الصوت آذان المجموعة الدولية، وصارت إحدى مواضيع اجتماعها السنوي، إلى جانب التأثير في المتلقي الجزائري ليزداد إيمانا بالقضية، وحماسا وشجاعة وإقداما على

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التضحية، ومازلنا نحس هذا التأثير في نفوسنا اليوم عند سماعنا هذا الشعر، وبهذه الصيغ المكررة، بل من منا لا يعجب بشعر زكرياء، ويتأثر عند سماع مقاطع من شعره يرددها هو بنفسه، كما في الإلياذة أو يرددها آخرون حتى ولو كثر التكرار فيها، رغم أنه يعتبر ضعفا لغويا عند غير المقتدرين.

كما نحس بتلقائية تسم تعابيره لخلوها من التكلف، بسبب قدرته على خلق الانسجام بين هذه الصيغ وبين غيرها، فجاءت منسجمة مع النص الشعري، زادها قوة وتأثيرا في النفس ذلك الإيقاع المناسب الذي تميز به كل مقطع.

إلى جانب ما ذكرناه من صيغ التكرار عند زكرياء، فقد كان مولعا أيضا بتكرار بعض التراكيب اللغوية والأدوات، كصيغة الأمر، والنهي، والنفي، والاستفهام، والشرط، والدعاء، والظرف وغيرها ... [1].

ومن التكرار الإيجابي الذي لمسناه في قصائده، هو التكرار بالاستهلال بصيغة النداء، كقوله يشيد بالرسول الأعظم، ويبين أثر دعوته في الناس، حيث ثقف العقول، وهذب النفوس وقضى على المظالم [2]:

يا ربيعا ملء العالم بشرى　　يا وليدا أودع الأكوان سرا

يا نبيا بث فيك الغيب أمرا　　فصدعت الغيب والأفلاك حيرى

وأنرت العقل والأحلام سكرى　　وأزحت الظلم والويلات تترى

إن هذا التكرار يشبه إلى حد بعيد القافية الاستهلالية لأن كليهما يعطي مدلولا بلاغيا ونفسيا ينتج عنه مردود إيقاعي جميل، لأن المستوى الصوتي الناتج عن هذا التكرار يأخذ منحى تصاعديا ثم يتطامن مع تكرار الصيغة للمرة الأخيرة[3]، فيولد هذا التعاضد بين الشكل والمضمون، فيتكامل النص

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص105-108-109. وديوان اللهب المقدس، ص45، 58. وإلياذة الجزائر ص97-113.

(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص237.

(3) صلاح يوسف عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، شركة الأيام، الجزائر، 1969، ص165.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويبلغ قمة تأثيره في نفس المتلقي، فصيغة النداء شدّت الانتباه، ثم راح يلقي بالفكرة الجامعة لعدة أوصاف تحلى بها الرسول، ونشرها في أمته، معتمدا صيغ الزمن الماضي، مع دوام استمرارها في المستقبل، لأن صفات الرسول وما جاءت به رسالته من قيم ومثل عليا، تخرج عن محدودية الزمان والمكان.

فالتكرار الذي لاحظناه في بدايات الأشطر الشعرية " هو تكرار استعادة، وتجاوز، لا يحتفظ بالجملة كما أعطيت للمرة الأولى بل ينقلها إلى مستويات مختلفة " [1] من التعبير والدلالات كما سبق القول.

ففي الأبيات السابقة يستهل الحديث بمناداة ربيع الأول الذي أنجب الرسول، إنه رمز تاريخي وبشارة خير للإنسانية جمعاء، ثم تتمدد العبارة وتنتقل إلى مستوى أعلى في البيت الثاني، حين تتحقق البشرى عندما يبث فيه الغيب أمره، ويحدد رسالته، ثم تتطور العبارة إيجابيا لتثمر نورا يغشى قلوب الناس ويثقفهم، وينير بصيرتهم، ويحقق عدل السماء.

وقد نجده في بعض الأحيان ينساق وراء الفكرة فيكرر عبارات لا تحس فيها بإيحائية، بل تجد فيها روح الواعظ المرشد كما في قوله من قصيدة " من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه " يدعو الأغنياء إلى العطاء والبذل لتخفيف متاعب الحياة على الناس: [2]

يا جيـــرة الله مُـدّوا للعطـاء يـدا   يا جيـرة الله في سبيل العلا جودوا

يا جيـــرة الله، لبّـوا صوت أمتكـم   يا جيـــرة الله، عن أوطانكـم ذودوا

تكرار أثقل البنية الشعرية، وحولها من التعبير الشعري الموحى إلى أسلوب تقريري تطغى عليه السطحية، فيه نصح وتوجيه، غايته استعطاف القلوب الرحيمة، فجاءت خالية من ملامح الفن ومن الأثر الجمالي الذي ينبغي أن تتميز به العبارة الشعرية، كما رأينا سابقا.

---

(1) إلياس خوري، دراسات في نقد الشعر، ط01، ص103.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص271.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن التكرار السلبي أيضا عند زكرياء، ما نجده مجسدا في بعض مبالغاته، كنثر الأوصاف على ممدوحيه، فيلجأ إلى تكرار صيغ بعينها غايته إقناع السامع بما يلقي إليه فيتقبلها كقوله بمجد خصال الملك محمد الخامس، ويسقطها على ابنه الحسن الثاني في قصيدة " خالد أنت " [1] :

وأرى في خلائق الحسن الثا ني، سجاياه، مشرقات حيالي

وأرى وجهه الصبوح مشعّا مشرقا فيه، كالحظوظ الغوالي

ويرى الشعب م أرى " فيوفي اللّـه، شكرا ... ويقتدي بالمثال

فقد كرر صيغة رأى بدلالتها الماضية ثلاث مرات وبصيغة المستقبل مرة واحدة لتأكيد فكرته وهي أن هذه الخلال حقيقة واقعة توارثها الابن عن الأب، غير أن ما نلاحظه هنا هو أن الشاعر احتفظ بالجملة كما أعطيت للمرة الأولى، ولم ينقلها إلى مستويات مختلفة كما فعل في المقطوعات السابقة، فلا نجد ذلك التنامي المطلوب في البنية التعبيرية، فالرؤية للخلائق والسجايا المشرقات في البيت الأول، والوجه المشرق في البيت الثاني، ورؤية المجموع لما رآه المادح في البيت الثالث كلها صفات واحدة لشيء واحد، لا تولد لاحقاتها لأولاها جديدا لمضمون الأبيات.

مما سبق يمكن للتكرار بمختلف صيغه أن يغني المعنى لا أن يضعفه، بل يرفعه إلى مرتبة الأصالة إذا تمكن الشاعر من السيطرة عليه، وإخضاعه لتجربته، واستخدامه في موضعه، وإلا فليس أيسر من أن يتحول ... بالشعر إلى النقطة المبتذلة [2].

من هنا كان مفدي زكرياء يدرك أهمية التكرار في البنية الشعرية، وما يعطيه من دلالات لغوية، ونفسية، وصوتية، وهو ما جعله يميل إلى استخدامه كأداة فنية قادرة على تحقيق التأثير المطلوب، خاصة وأن شعره يتسم بطابع الانفعال؛ لأن معظم شعره وطني وثوري موجه إلى الجماهير على اختلاف شرائحها منذ 1925 إلى تاريخ وفاته عام 1977م، سواء في مرحلة التعبئة الوطنية، أو أيام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص112.
(2) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط07، 1983، ص263 وما بعدها.

الثورة التحريرية، أو في عهد الاستقلال، فنجد الروح الوطنية والثورية تسريان في قصائده، إنها ثورة على الواقع وما أفرزه من ظلم واستغلال، واستذلال، وفقر، ومرض، وجهل، وانحراف، فهو شعر قضية وفن أصيل.

لذلك نلمس الانسجام الكبير في لغته الشعرية، فيمزج بطريقته البارعة بين مختلف العناصر المكونة للنص الشعري، لفظا ومعنى وإيقاعا، فتخرج القصيدة في حلة رائعة تجعله يحقق هذا النجاح.

وبهذا صار التكرار ظاهرة متميزة في أسلوب زكرياء، وأداة فنية ناجحة في نقل تجربته إلى الآخرين.

***- النبرة الخطابية في أسلوبه :**

النبرة الخطابية في البنية الشعرية هي الأسلوب التقريري المباشر الذي يتخذه الشاعر وسيلة فنية للتعبير عن تجربته، ينهج فيه نهج الخطبة، فيستخدم الأدوات المستعملة في الخطب عادة كالأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، وصيغ التعجب، والقسم ... وما إليها من الصيغ المعروفة في أساليب اللغة العربية الإنشائية[1]، وقد استعمله مفدي زكرياء لتبليغ رسالته الشعرية إلى المجتمع، بل إن النبرة الخطابية تطغى على معظم شعره، لذلك فهو ينطلق في عمله الشعري من قناعته بأن الشعر الحق هو الذي يوجه لخدمة قضايا مجتمعه، وقضايا الإنسانية كلها، وبالتالي كان شعره موجها إلى الجماهير العريضة التي تقرأه أو تستمع إليه في مختلف المناسبات، غايته استنهاض الأمة من غفلتها، وإصلاح أمرها، للثورة على واقعها المتردي، فجاء حماسيا ومباشرا في معظمه بحيث يكاد يختفي الإيحاء والرمز، ولو أنه يتوفر على صدق العاطفة، ووضوح الهدف، وبساطة التعبير.

يستحضر زكرياء وهو يقوم بعملية تشكيل النص الشعري، الأدوات التي تكثر في فن الخطابة ويستخدمها بصورة مكثفة، كالتكرار، وأدوات الاستفهام، والنداء، والتعجب، والتوكيد، والقسم، وغيرها وقد ميزت هذه الظاهرة شعر المسيرة الجهادية، والشعر الاجتماعي، وشعر النصح والإرشاد، وكان

---

(1) أحمد حمو العياضي، الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري الحديث، ص250.

هذا التوجه من الشاعر هو استجابة لمتطلبات المرحلة، وتماشيا مع المستوى الثقافي لأغلبية أفراد المجتمع الذين يعلق عليهم آماله في التغيير، حتى يتمكن من إيصال أفكاره إليهم، وإقناعهم، عن طريق الحجة والبرهان الواضحين.

وتبرز النبرة الخطابية في معظم قصائده، سواء الحماسية منها أو الهامسة، كقوله يؤكد محافظة مسلمي بلده على دينهم صحيحا نقيا من كل الشوائب كما جاء على يد المصطفى صلّى الله عليه وسلم[1]:

وقِفْ بجوار المصطفى يا حبيبه   وأبلغه: أنا مسلمون، كما كنا
نجدد دنيانا على ضوء ديننا   فلم نختصر -فيما شرعت- ولا زدنا
ولم نبتدع فيه... ولم نغلُ مثلما   غلا فيه قومٌ، لا نُقيمُ لهم وزنا
وما كان هذا الدّينُ وقفا لفترة   من الزمنِ المحدود، وأوضاعُه تفنَى

وظف الشاعر هنا جملة من عناصر التأثير، كاستخدام أسلوب الأمر، التوكيد، النفي، النداء.

ومع هذا التنوع في استخدام الأدوات الكثيرة في القطعة الشعرية وسمو المعاني التي تناولتها فإن الأسلوب كان بسيطا، اتسم بالوضوح والمباشرة الخالية من التلميح وتوليد المعاني عن طريق الاستخدام الجيد للصور الموحية والبنى المعبرة بدلالتها عن عمق التجربة.

إن القطعة صورت لنا عواطف الشاعر في صدق، وترجمت عن مشاعره النبيلة بدقة، ذلك أن زكرياء في هذه القصيدة كان يصور فكرة سامية، ويهدف إلى غرض نبيل، يكون أجمل وقعا، وأحسن تأتيا، وأقوى أثرا، وأدخل إلى النفوس والقلوب[2].

لقد اعتمد أسلوب إثارة العواطف والأحاسيس لدى المتلقي المسلم بإبراز صور المسلمين الملتزمين بشرع الله المجسدين لقيمه في واقعهم المعيش.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص153.
(2) محمد إبراهيم الجيوشي، بين التصوف والأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د-ت)، ص52.

إن المزاوجة بين الأسلوبين الخبري والإنشائي في هذا النص، وتغلب الأسلوب الخبري، هو منهج الخطب السياسية التي تهدف إلى إثارة العواطف لدى الفرد، فهو قريب جدا من التعبير المباشر الذي يقرر الحقائق الواقعية.

فالمتأمل في القصيدة كلها لا يعتبر نفسه أمام قصيدة، بقدر ما هو أمام خطبة، وما يميزها عن النثرية هو هذه الموسيقى الجميلة التي يرن وقع رويها في مسمع المتلقي فيستسيغها لتمكن الشاعر من حسن اختيار قافية الأبيات، وقدرته على التقاط الألفاظ المعبرة عن عاطفته الصادقة، إذ كان عمله منصبا على المضمون مع سلامة اللغة الشعرية، ولم يقصد إلى الجانب الفني وما يتطلبه من إيحاء وزمر، وصورة، مقتربا في ذلك من الخطبة، تماشيا مع المناسبة وتحت تأثير إلحاحها.

وقد عبر مفدي نفسه عن هذه الظاهرة فقال: (لم أعن في " اللهب المقدس " بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية، وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة... والشعر الحق - في نظري- إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة ... سيجد فيه (الشعراء الناس) صلة رحم وثقى بعز أمجادهم وتجاوبا صادقا مع مشاعر العروبة الزاحفة في كل بلد عربي يقدر ما لكلمة " عروبة " من عظمة وجلال " [1] .

وكان للتكرار دوره في هذه التقريرية، وقد اعتمده الشاعر لترسيخ مضمون الفكرة التي يلح عليها، كما يتجلى ذلك في قصائد عديدة، خاصة التي تناول فيها موضوعات العقيدة، والعبادات والإصلاح، ومسيرة الجهاد الوطني.

ومع سقوطه أحيانا في نثرية واضحة لا تقنع المتلقي، ولا تؤثر في وجدانه التأثير المطلوب لاعتماده الأساليب المباشرة، نجد له صفات تميز شعره وتحليه، كالصدق في التعبير عن التجربة وجودة السبك، وجمال العبارة وبساطتها، وعمق المعاني، وسهولة الفهم، لانتقائه التراكيب القادرة على تأدية المعاني في سهولة ويسر، ومن أقرب الطرق، وهي سمات يشترك فيها مع بعض الشعراء

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس ، ص04.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصلحين الإصلاحيين [1]، خاصة في شعره الإصلاحي، فيبدو في ثوب الناصح المرشد، غايته إثارة عواطف المتلقي للتمسك بلغته، معتمدا في ذلك اللغة السليمة الفصيحة، لغة العز والكرامة والمجد، ذات الفواصل القصيرة ومن ثم لا جدة في لغته الشعرية هنا، والتي تميزها الصفة المباشرة، حيث تبدو معانيها في ألفاظها، لأنه شاعر يحافظ على أساليب العربية نقية صافية كنقائها في عهدها الأول، عهد نزول رسالة السماء، حتى لا يقضى عليها من طرف المستدمر المتربص بها، وبالرسالة التي كانت لسانها، وبالمنافحين عنها والمبشرين بمبادئها، ولأنه كذلك يرى في هذا التراث وفي هذه المبادئ والقيم ذاته العامة والخاصة، يراها في ماضيها المجيد، وحاضرها الأليم، ومستقبلها الواعد، والتي يجب أن تبعث من جديد عن طريق التضحية بكل غال ورخيص، وبالمهج الغالية.

ومع سلامة لغته وفصاحتها فإن معجمه الشعري لا يخلو من عثرات فكرية ولغوية.

فالعثرات الفكرية أعتقد أن سببها يعود - كما رأى غيري - إلى الظروف القاسية التي عاشها في ظل الاحتلال الفرنسي، والعقوبات التي تعرض لها هو وشعبه حيث مكنته من الالتحام بقضاياه إلى حد الانصهار ونكران الذات، حتى كاد يكفر بكل شيء سوى وطنه الغالي وشعبه العزيز.

لذلك نراه يفقد توازنه عند تصوير هذه الأحداث المأساوية، فتأخذه اللحظات التعبيرية اللاواعية، فإذا به ينزع نزعة جديدة تخرجه عن المعتاد، كشاعر إسلامي له اتجاهه ومبادئه، تبلغ به حد الانزلاق الفكري خاصة حينما ينسى نفسه وينساق وراء الأحداث في زحم الانفعال الحاد، ليمتزج بها دون مراعاة لهذه القيم والمبادئ التي نادى بها في كل موقف منذ شبابه.

وهذه النزعة هي الطريقة تتم عن رؤية فكرية وفنية جديدتين اعتمدتا استثمار ما في اللغة من طاقات، كما تسم العمل الشعري بطابع الجدة والابتكار على طريقة الشعراء الوجدانيين الذين لا يهتمون

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال السيوف، ص34،35،36.

بالتراكيب التراثية، وإنما يختارون الألفاظ التي تحقق الانسجام الطبيعي بين ما يحسونه وجدانيا ويعانونه واقعيا[1].

لذلك نهج زكرياء نهجهم، وصار يتعامل مع الألفاظ اللغوية التي يستمدها من الواقع المعيش ومن مشاهد الطبيعة، وعوالم الذات، بجرأة لا تقف دونها الحدود العرفية، والتقاليد الاجتماعية[2]، ولا يتحكم فيه أمر سوى الخضوع لتجربته الشعرية، ونلحظ ذلك من خلال ما أوحت به إليه مدينة قسنطينة [*] الجميلة، بمناظرها الفاتنة، وهوائها المنعش، فانعكس ذلك كله على نفسيته، فصاغ مشاعره قطعة شعرية رائعة، تحس من خلالها أنفاسه، وتلمس انطلاقه وتحرره من قيود التعبير التراثي فيقول[1]

تياهةٌ، تزدهي عُجُبًا، بشاهقة من الجبال، لها لله توحيدُ
وادي الهوا! بالهوى نشوانَ خاصرها وخاصرته، كأن الأمر مقصودُ
ونسمةٌ، مثل أنفاس الحسانِ سرتْ لطفًا، يراقصها في الروض أملودُ
ونـدوة الفجر، بالتقبيل هائمةٌ تدغدغُ الوردَ، والشحرور غرِّيدُ
مناظرٌ، من صنيع الله قد مُلئت سحرا وشعرا، بها الخلاقُ معبودُ.

استطاع الشاعر بهذا الأسلوب أن ينقلنا إلى جو رومانسي ساحر، يخلب اللب، ويحرك الوجدان، فالمدينة رائعة يتيه فيها المرء، فيخطف منه لبه، وتزيدها روعة نسمات وادي الرمال العجيب... وما يحيط به من مناظر، كلها عناصر توحي بوحدانية الخالق وقدرته وتصرفه في الكون يجعل المتأمل فيها كالواقف أمام الله في محراب العبادة، غير أن المتأمل في طريقة توظيف الألفاظ والتعابير يقف بوضوح عند الدلالات الجنسية التي توحي بها، فهو لم يتردد في استعمال ألفاظ الهوى خاصرها، خاصرته، أنفاس الحسان، يراقصها، التقبيل، وهو ما يرفضه المجتمع الإسلامي لا سيما

---

(1) الطاهر يحياوي ومحمد نواحي، شعراء وملامح، ص57.
(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص334.
(*) عاصمة الشرق الجزائري، المعروفة بجسورها المعلقة، وطبيعتها الخلابة.
(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص264 و 265.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صدورها من شاعر كبير كمفدي زكرياء.

وعلى هذا النحو، وبهذه الجرأة يمضي في كثير من قصائده[1] الوجدانية، كقوله وهو يحث أولى الأمر على إقامة مراكز الإشعاع الإسلامي في ربوع الوطن لتشع بنورها على البشرية جمعاء[2]:

مراكز شيّدوها، وازرعوها ... بصدر الشعب، تكتسح الرّحابا

ومن إشراقة الإسلام صونوا ... بساحتها العقيدة والكتابا

ومن ينبوعها، صبّوا شرابا ... إذا الحانات أغدقت الشرابا !

فما الذي دعا الشاعر إلى استخدام هذه المقارنة التشابهية بين مراكز إشعاع النور الإلهي لإنارة العقول وتربية النفوس، وبين الحانات مراكز نشر الرذيلة والفساد في المجتمع، فوجه الشبه بين الصورتين متناقض، إذ أنها علاقة جديدة بين مفردات اللغة نقلتها من الاستعمال القريب العادي والمألوف إلى مجالات أخرى غريبة عنا، تشعرنا بالجدة والابتكار، عن طريق استغلال كل ما في الكلمات من طاقات إيحائية تجسد تجربته الشعرية، دون إعطاء أي اعتبار لرد فعل مجتمعه المحافظ. بل الأكثر من هذا أنه تجرأ على استخدام معجم شعري يستمده من المصطلحات الإسلامية التي لها حرمة وقداسة عند المسلمين بطريقة جديدة تخرجها عن دلالتها الإسلامية المحددة إلى الشمول والشيوع مثل: يسجد، جلاله[3]، التي وظفها توظيفا يلائم موقفه، خاصة عند تصويره للأحداث العظيمة التي يتأثر بها ويندمج فيها كأول نوفمبر 1954م، الذي يحوي بالنسبة إليه كل المعاني والقيم السامية التي تمخضت عن تلك اللحظة لتعلن عن بعث الإنسان الجزائري الجديد، بل إن ليلة أول نوفمبر عظيمة عظمة ليلة القدر المباركة، لأنها بداية لنهاية عهد قديم ليحل محله عهد جديد كله نور وضياء.

إن مثل هذا التوظيف للألفاظ والعبارات ذات القدسية في الإسلام، بدلالات مخالفة للدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص30.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص144.
(3) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص67، ومحمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص325. وعثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، ص141.

ترفضه الأخلاق، والأعراف في المجتمع الذي يدين بعقيدة التوحيد، ويرى المساس بلغة الكتاب مساس بالعقيدة ذاتها، واستخدامها في غير ما اصطلحت عليه في مدلولها الإسلامي يعتبر كفرا وخروجا عن الدين.

ولعل ما يزيد قناعتنا بسلبية هذا التوظيف الذي لا يتوافق مع أصالة الشاعر ونهجه الإسلامي والذي أخرجه عن جادة الصواب، هو هذا الإلحاح الدائم المتواصل، وللبحث عن نصير ينقد شعبه من براثن العدو فيصادقه ويعقد معه معاهدة حتى ولو كان هذا النصير هو إبليس نفسه، عدو البشرية ومخرج آدم من الجنة، بعد أن حقت عليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، وقد حذرنا الله منه بقوله: " ولا تتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " [1] فيقول [2] :

في سبيل استقلالنا، نحن قومٌ -لا نبالي- بمن يلبي ندانا

لو وجدنا الشيطان، يوما نصيرا لذهبنا، نحالف الشيطانا

ويقول أيضا : [3]

وإن نحن في الشيطان نلقى مناصرا كتبنا مع الشيطان، في حربنا رقّا

كما شبه نفسه وغيره بالأنبياء والرسل، بما لا مسوغ له، إذ مهما بلغ المرء من القدرة والعبقرية والتضحية، فلن يكون شبيها بالرسل الذين خلقهم الله خلقا خاصا، لتحمل عبء رسالة السماء.

ومن الأساليب المرفوضة عقائديا، استخدامه القسم بغير الله في مواضع كثيرة، وهو محرم بالنص، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كان حَالفًا فَلْيحلِفْ بالله أو لِيَصْمُتْ " [4] وقوله: " مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَر " [5] وقوله أيضا: " مَنْ حَلَفَ بغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَك" [6].

---

[1] سورة الأنعام، الآية: 142.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص178-179.

[3] المصدر نفسه، ص203.

[4] أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم، مطبعة الفن، باتنة الجزائر، 1981، ص497.

[5] المرجع نفسه، ص497.

[6] المرجع نفسه، ص497.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو في ذلك يجاري الأحداث المهولة بعاطفة صادقة متدفقة من غير مراقبة، فراح يقسم بكل عظيمة على فرض إرادة التحدي، لانتزاع الحرية والاستقلال من عدوه.

" قسما بالنازلات الماحقات " ، " قسما بالدماء الناصعة "، " قسما بالدم لن ننس الجزائر "، " بمليون من الشهداء حلفنا " [1]، وقد يعود هذا القسم إلى ما توارثه الشاعر من الأساليب السالفة في حياتنا اليومية فلم يكن القصد منه الشرك أو الكفر وتعظيم ما لا عظمة له أمام الخالق، كالقسم بالرأس، والرسول والأولياء الصالحين، وغيرهم من مخلوقات لا يجوز الحلف بها.

ومن أكثر أساليب القسم في شعر مفدي زكرياء انتشارا ورسوخا في الذهن، مطلع النشيد الوطني " قسما " والذي تردده ملايين الحناجر على مدار السنة في الجزائر في كل مناسبة، وعند رفع وإنزال العلم الوطني في الساحات العمومية والمؤسسات الرسمية والذي يقول فيه: [2]

قسمًا بالنازلات الماحقاتْ والدماء، الزاكيات الدافقات

والبنود اللامعات، الخافقات في الجبال الشامخات، الشاهقات

نحنُ ثُرنا، فَحياةٌ أو مماتْ

هذا النشيد " الذي نظمه إبان الثورة، والذي يباشرنا فيه الشاعر بقسم غير مألوف، إنه القسم بالقنابل والمتفجرات وهو بذلك صورة حية عن الثورة التي فرضت نفسها على العالم، وفاجأته قبل أن يتوقع أوانها... [3] .

وبالرغم من هذه الأخطاء الفكرية التي وقع فيها مفدي زكرياء، إلا أنها لا تنقص من شاعريته كشاعر إسلامي شرب العقيدة حتى الثمالة، ودافع عن الأصالة ومقومات المجتمع المسلم، بل هي عثرات، وزلات لفظية ومعنوية " لأن الشاعر غير منزه عن الشبهات، والعثرات، فهو فنان إنسان قبل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص104، وإلياذة الجزائر، ص83.

[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص71.

[3] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص189.

كل شيء ونظلمه كثيرا إذا حاولنا قطع أو بتر أطراف منه ... " [1]، وهي لا تعكس جوهره، ولا تمس عقيدته، لأن حكمنا كان منصبا على ما في ظاهرها من دلالات سلبية الأثر في المجتمع الإسلامي حتى لكأني به وهو يراجع قصائده أدرك الغموض الحاصل في المعنى بدون شروحات هامشية توضح المعنى وتبعد التأويل، وإن كانت الأخطاء التي بيناها لا تعفيه من المسؤولية، ولا تبرئه أمام المحافظين لئلا يفتح الباب على مصراعيه لاستخدامات تفرغ القرآن من محتواه، وتزيل قدسية المصطلح الإسلامي، تذرعا بحرية الإبداع، واقتداء بشعراء إسلاميين كان لهم الدور الفعال في الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه.

ومع اتسام شعر مفدي بفصاحة اللغة، وبلاغة العبارة، فقد سجلنا عليه بعض السقطات اللغوية لكنها قليلة جدا قياسا بحجم الكم الشعري الذي تركه، من ذلك استحضاره لألفاظ وظفها بمعناها القديم فجاءت غير دقيقة في الدلالة، لا تعبر عن روح العصر متأثرا في ذلك بالتراث كقوله يصور قيمة السيف في المعركة من قصيدة " الإسلام يتكلم " [2] :

نهضتُ على ذاتِ الإلهِ مناضلا   وليس لغير الله سعيي وإقبالي

رأيتَ جنان الخلد تحت ظلاله   فأضحى لي الحامي بحلي وترحالي

إن السيف لم يعد وسيلة فعالة في الحروب المعاصرة، وإنما هناك وسائل أخرى جد متطورة عوضته، لكن غاب ذلك عن الشاعر فانتهج نهج الأقدمين مستعملا معجمهم الشعري للدلالة على الحاضر، رغم ما يفصلنا عنهم من بعد زماني، وفكري، وتكنولوجي.

كما نقف على بعض الألفاظ التي جاءت غير دقيقة في السياق ولا تعبر عن المعنى كقوله: [3]

– أ –

وكيف يصون الأصالة نشء   وقد ساوموه عليها فباعا ؟

[1] بلقاسم بن عبد الله ، مفدي زكرياء شاعر مجد ثورة، ص27.
[2] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج01، ص153.
[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص97.

وكيف يداوي المريض صحيحا   وفي قلبه مرض السّلّ شاعا ؟

وقوله: [1]

-ب-

إلى منبر النادي أحيي بني النادي   لتستمتع الدنيا روائع إنشادي

وقوله: [2]

-ج-

وخلوا الاتكال على ابن آوى   فقد ضاع الحِمى في الاتكال

وخلوا فلسطين، تصنع قرارا   فما تحتاج في الدنيا لوالي!

عندما نتأمل الأبيات نلمس بعض عثرات اللسان كتوظيفه لفظ "السل " في المقطع الأول، الذي يحمل معنى بعيدا عن مدلوله، إذ ينصرف ذهن السامع إلى الرئة المعرضة لأمراض السل، فهو لفظ غير شعري.

وفي المقطع الثاني لجأ إلى تكرار لفظ نادي في الشطر الأول مرتين بما لا لزوم إليه، ولولا تملكه لناصية اللغة لأدخلته في عداد الفقر اللغوي، فهي تشعرنا بعدم شاعريتها من جهة، كما توحي بضعف الصياغة، ناهيك بعدها عن إحداث أثر جمالي في الملتقي [3].

وفي المقطع الثالث كرر صيغة الأمر "خلوا " في مطلع البيتين برسمها ومعناها، وهو أمر غير مستحسن في الشعر، إذ يصبح التكرار بهذه الصورة يشبه الإيطاء، ومن العثرات الصرفية تنوين ما لا ينون كقوله في قصيدة " معجزة الرجال " يصور مدينة الرباط المغربية وانعكاس أثر جمالها في نفسه فيتلهف إلى كل ما فيه يقبله، وإلى كل ثمار أشجارها فيلتهمها مستخدما لغة شعرية هامسة ومؤثرة[4]:

والزهر يا كِرة الندى، فوددتُ لو   أنّي التهمت براعمًا وخدودا

فقد صرف لفظ " براعم " الممنوعة من التصريف لأنها على وزن مفاعل.

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة النور، الجزائر، ع 48 بتاريخ 30-08-1932.
(2) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص105.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص271، وديوان تحت ظلال الزيتون، ص129.
(4) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص123.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما كان يوظف بعض الألفاظ العامية التي ارتبطت بالعهد الاستعماري كـــالحركي(*) وأســـماء الأعلام الفرنسيين كـــ(ماري) و(ريتا) و(روجي)، والمصطلحـــات التقنيـــة مثـــل "الكـــلاص " (1) دون ترجمتها، بالإضافة إلى نظم القصائد الشعبية اهتماما بالتراث، واستخدامها وسيلة تبليغ رسالته الشـــعرية إلى أعماق المجتمع.

ما يمكنني قوله في معجمه الشعري، وبالرغم من هذه العثرات التي وقفت عندها وبينت أثرهـــا السلبي في البنية الشعرية، فإن لغته أبهى وأفصح، وأقدر على التعبير، ونقل التجربة وتوصيل مشـــاعره بحرارتها وقوتها، وبلطافتها ولينها ورقتها إلى المتلقي، في تعابير تشع بدلالاتها الواضحـــة التقريريـــة تارة، والموحية الرامزة تارة أخرى جعلته يحتل مكانة مرموقة بين شعراء العصر الحديث في عالمنـــا العربي.

- الصـــورة الشـــعريـــــة:

مفهـــوم الصـــورة وأهميتـــها فـــي العمـــل الفنـــي :

الفن بمفهومه الواسع تصوير جوانب الحياة المختلفة، سواء كان رسما، أم نحتـــا، أم غنـــاء، أم تمثيلا، أم مقالة، أم قصيدة. والشعر فرع مهم من هذه الفنون، لأنه رسم ناطق كما أشـــار إلـــى ذلـــك الشاعر الإغريقي " سيمو نيدس " (**) فهو مبني على التصوير.

وقد فطن نقادنا القدماء إلى أهمية التصوير في العملية الإبداعية، لأنها وسيلة فعالة فـــي نقـــل الأحاسيس والمشاعر التي تختلج وجدان الشاعر، والتأثير بها في نفسية المتلقي، لكن الذي تعارف عليـــه نقادنا وشعراؤنا القدماء ووظفوه في قصائدهم، أو تناولوه في دراساتهم النقدية، هي الصـــورة التراثيـــة بمعناها البلاغي المحدود، ممثلة في المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، والتي لا ترقى إلـــى الصورة بمعناها الاصطلاحي الحديث. فالجاحظ مثلا يرى أن " المعاني مطروحة في الطريق، يعرفـــها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(*)الحركي: المواطن الجزائري عميل الاستعمار.
(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص50، إلياذة الجزائر، ص100 و105.
(**)شاعر غنائي إغريقي عاش ما بين 556- 467 ق.م.

البدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج فإنما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير " [1].

أما العلامة عبد الرحمن بن خلدون فقد أعطى الخيال دورا أساسيا في عملية الإبداع بقوله: " الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله الجاري على أساليب العرب المخصوصة " [2].

فهذا المفهوم رغم تطوره مازال يحصر الصورة في مجالها القديم الضيق الذي يدور فيه الشعر العمودي والخيال العربي، وذلك تماشيا مع مقاييسهم الفنية، وعصرهم وبيئتهم.

لقد اهتم القدماء بأساليب البيان والتصوير، ومع انهم حصروا التصوير في البلاغة، فقد اهتدوا إلى ما لهذا التصوير من أثر لا يمكن نقل التجربة والانفعال بها بعيدا عن الصورة التي هي أداة فعالة في التوصيل، والتأثير، وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية: " النظم "، وأبرز نقادنا القدماء وأكثرهم اهتماما بعملية التصوير بقوله: " فالاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخيلات التي تهز الممدوحين وتحركهم شبيه بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالنقش، أو بالنحت والنقر، فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتدخل في النفس من مشاهدها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور " [3].

أما الصورة عند نقادنا المعاصرين فقد عوضت علم البلاغة عند القدماء، لأنهم لم يعودوا يهتمون بالتشبيه والاستعارة والكناية وما تحمله من صور جميلة معبرة، غالبا ما تكون مكثفة لو لم تكن تدرس في إطارها التقليدي القاصر[4]، قدر اهتمامهم بالصورة كأسلوب يجعل الفكرة تبرز إلى الوجود فتؤثر في المخاطبين، وبالتالي يشاركون المبدع إحساسه ومشاعره.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، 1938، ج03، ص131-132
(2) ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ العلامة بن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني، م02، 1960، ص1104.
(3) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق هلموث رايتر، استنبول، 1954، ص389.
(4) عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1986، ص72.

والصورة قديمة قدم الشعر وليست: " شيئا جديدا، فإن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم، ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في طريقة استخدام الصورة " [1].

فالصورة بهذا المفهوم ملازمة للشعر مادامت تنقل انفعال النفس بمختلف المؤثرات وتؤكدها عن طريق الصياغة الرائعة، التي تبهج المبدع والمتلقي في آن واحد، إذ تلقي إليه بالمجهول فيعرفه أو تزيده عمقا فيما يعرفه، وإلى هذا المعنى يشير جابر عصفور بقوله: " إن عملية النظم صياغة لانفعال النفس بمجموعة من القيم، أو محاولة لتصوير وتأكيد مجموعة من الخصال الأخلاقية؛ هذه الصياغة بقدر ما تبهج المبدع لأنها تكشف له ما كان دفينا، تبهج المتلقي لأنها تعرفه ببعض ما لم يكن يعرف، أو تزيده بما كان يعرفه، ومن هنا يصبح للصدق معناه الأعمق " [2].

أما مصطفى ناصف فيعرف الصورة الشعرية من خلال إبراز دورها الفعال في البنية الشعرية بقوله: " إن الشعر كله يستعمل الصور ليعبر عن حالات غامضة لا يستطيع بلوغها مباشرة، أو من أجل أن تنقل الدلالة الحقة لما يجده الشاعر " [3]، الذي يستخدم الصور الشعرية على نوع خاص للتعبير بواسطتها عن المطلق بالحسي فيكون بذلك وسيلة قادرة على خلق عالم جديد تتحقق فيه رؤى المبدع وأحلامه، لأن انتماء طرفي الصورة معا إلى الواقع الحسي، يقلص ظلالها، ويجعلها عديمة الفائدة لأنها تصبح حينئذ فاقدة للعنصر الإنساني الذي لن يكون الأدب هادفا بدونه، بل يصير مجرد كلام زخرفي لا حياة فيه [4].

أما الدكتور عز الدين إسماعيل فيرى أن الصورة الفنية هي عبارة عن تركيبة عقلية تميل إلى عالم الفكر أكثر من ميلها إلى عالم الواقع الحسي، فهو وسيلة للتعبير عن الفكرة ليس إلا. والشاعر لا

---

(1) إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط02، 1959، ص230.
(2) جابر عصفور، مفهوم الشعر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط03، 1983، ص44.
(3) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط02، 1981، ص217.
(4) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص318-319.

يحتفظ بهذا الواقع على طبيعته بل يشكله طبقا لتجربته ورؤيته الفكرية والفنية للأشياء من منظور ذاتي، فتكون الصورة المشكلة عندئذ هي صورة لواقعه الداخلي انطلاقا من العالم الحسي الخارجي[1] الذي ينعكس على نفس المبدع والتلقي، فيحدث التأثر والتأثير.

إذا كان النقد الحديث يعطي هذه الأهمية لعنصر التصوير في الشعر ليكسبه صفته الفنية، فقد اعتبر محمد ناصر الصورة أداة الشعر الفاعلة، والمؤثرة في المتلقي بواسطة أشكال التعبير المباحة من رمز وإيحاء مع خلوها من السطحية والتقريرية[2]، التي تقضي على روح القصيدة، وتحول الفن الشعري إلى فن نثري، لأن الصورة الرامزة الموحية توحي لنا دائما بالعديد من المعاني والظلال التي تجعل الشعر شعرا.

إن الصورة الشعرية بمعناها الاصطلاحي النقدي الحديث ليست وليدة الثقافة العربية الأصيلة بل استمدها نقدنا العربي من الآداب الأجنبية عن طريق الاحتكاك والتأثر، فتم التلاقح الفكري بين الآداب الحديثة نثرا وشعرا.

وقد أخذت الصورة من اللفظة الفرنسية **Image** والتي عرفها الشاعر الفرنسي الحديث **بول ريفردي** [*] بقوله: " إن الصورة إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنما تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة... ولا يمكن إحداث صورة بالمقارنة التي غالبا ما تكون قاصرة، بين حقيقتين واقعيتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل " [3].

فالصورة بهذا المفهوم لا يتعلمها الشاعر والناقد مادامت إبداعا ذهنيا تعتمد على مخيلة الشاعر وخصوبة فكره، وقدرته الذهنية على تمثل الأشياء بكيفية تجعل عالمه الداخلي مرآه ينعكس عليها عالمه الخارجي.

---

(1) التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت ط04، 1981، ص66.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص422.

(*) عاش في الفترة ما بين 1889 و 1960.

(3) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص70-71.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما إليزابيت درو فترى: " أن الاستعارة تكون أكثر عمقا حين تلتئم الفكرة أو العاطفة مع الصورة الحسية "[1]، ذلك أنه لا يمكن الجمع بين حقيقتين بعيدتين عن المجال الحسي، وبذلك يكون هذا الالتئام بين عاطفة الشاعر القوية، وواقعه الحسي – أي بين الحسي والمعنوي – هو ما يجسد بحق روح الشعر، ويحقق غايته كفن ابتكاري يسمو بالقيم المضمونية والجمالية للنص الشعري.

ومن التعاريف الأجنبية الحديثة أيضا ما أوردته دائرة معارف لاروس الكبير، وهو أن " الصورة الأدبية أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية تمنح الشيء الموصوف او المتكلم عنه أشكالا وملامح مستعارة من أشياء أخرى تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه[2] ".

مادامت للصورة هذه القيمة الفنية -قديما وحديثا- في البنية الشعرية فقد اهتم شعراء الاتجاه الإسلامي بإظهار أثر العاطفة الإسلامية في توجيه الخيال نحو القيم السامية التي جاء بها القرآن الكريم، فيستلهم منها مضامينه ويجسد حقيقتها، وبذلك كان الخيال من أهم أدوات التعبير عن هذه العاطفة الجياشة بكل اتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية، معتمدين على الخيال التفسيري في الغالب الذي يدرك المغزى الروحي ويفسر المناظر بعرض الأجزاء والصفات التي تتركز فيها هذه القيمة الروحية، وقد تميزت هذه الصورة بغلبة الجانب الفكري ووضوح النزعة العقلية والاعتماد على الأطراف الواضحة، والحدود الظاهرة[3]، لذلك كان يختفي عنصر الإثارة في الغالب عند هذا الاتجاه.

والصورة بهذا المعنى واعية بموقفها المضموني مع محاولة اقترابها من التلاؤم مع غيرها من الدلالات الفنية التي تسير بالعمل الشعري نحو غاية هادفة هي التأثير في الآخرين عن طريق نقل تجربة الشاعر نقلا فنيا صادقا، لأنك تجد في القصيدة الشعرية من التصوير ما هو تقليدي، وما هو في

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) الشيخ يحي صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص318 عن إليزابيت درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ص61.
(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص422.
(3) نبيل سليمان طبوشة، الاتجاه الاسلامي في الشعر المصري المحافظ، ص267 وما بعدها.

طريقه إلى الصورة الشعرية المتكاملة وما يجسد الصورة بحقها وحقيقتها، وقد تجلت الصورة القرآنية وظهر أثرها في شعر هؤلاء تجليا واضحا ... يختلف من شاعر إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، كما تجلت الصورة التراثية هنا وهناك بشكل أو بآخر، والدارس لهذا الشعر من حسان بن ثابت مرورا بالمتنبي وأحمد شوقي ومحمد العيد آل خليفة إلى مفدي زكرياء، يقف على الصورة التراثية ماثلة في إنتاجهم الشعري.

وزكرياء من أكثر الشعراء الجزائريين الذين ظهر أثر التراث العربي الإسلامي واضحا في بنيتهم الشعرية لغة ومعنى وتصويرا، خاصة القرآن الكريم، لأن اللغة القرآنية غنية بالصور الموحية فهي ملازمة للتعبير القرآني، ومن أبرز عناصر الجمال فيه، لأنه لم يسحر العرب البلغاء بمعانيه الإسلامية فحسب، وإنما سحرهم بقيمته التصويرية أيضا، فأعجزهم عن الإتيان بمثله أبدا، فوقفوا أمامه عاجزين[1].

كما كان للسنة النبوية والتراث الأدبي الأصيل وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية أثرها في تشكيل الصورة الفنية عنده، والتي تعددت أشكالها وتنوعت طرق بنيتها من واقعية سطحية إلى بلاغة فرمزية موحية، وستوضح النماذج الشعرية التي استعرضها في هذا الموضوع ملامح الصورة عند الشاعر وكيفية بنائها، ومظاهر التقليد والتجديد فيها.

واقعية الصورة الشعرية عند زكرياء:

يسعى زكرياء كغيره من شعراء الإصلاح إلى تبليغ رسالته الإصلاحية إلى أبناء مجتمعه لإصلاح أوضاعهم، وتوجيههم نحو ماضي أمتهم لمعرفته، من أجل تعبئتهم وجدانيا لمعايشة الواقع الأليم، والتفطن إلى ما يجري حولهم من مخططات تستهدف الإدماج تارة، وإذابة العنصر العربي الإسلامي تارة أخرى.

---

[1] محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص110.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لذلك خاطب الشعب بأسلوبه المناسب، وألقى إليه بعاطفته الإسلامية والوطنية المتأججة قصد توصيل أفكاره ومشاعره من أقصر الطرق، لذا جاءت معظم صوره واقعية حسية تتسم بالسطحية والوضوح في التعبير، وتصور عاطفة الشاعر وتجربته وانفعاله بهذه التجربة للتأثير في السامعين. وقد يتبادر إلى الذهن أن الصورة الشعرية تعبير مجازي صرف، والحقيقة ليست كذلك، لأنها كما ترد في تعبير مجازي يمكنها أن تجيء في تعبير حقيقي، على أن التعبير المجازي لا يكون جيد التصوير إلا إذا كان أقوى من التعبير الحقيقي في تصوير تجربة الشاعر، والقدرة على نقلها إلى المتلقي للتأثير فيه تأثيرا فعالا[1].

والصورة الواقعية هي الصورة الشعرية غير الرامزة التي ترسم موقفا نفسيا وتصفه وصفا مباشرا، وهذا التصوير لا إيحاء فيه، ولا يحمل أي دلالة نفسية خاصة، لأنه يعتمد تسجيل المشاهد كما هي في الواقع، وما يظهر فيها من دلالة يعود إلى قدرة الشاعر ونباهته في التقاط هذه المشاهد، أو تصوير الظواهر ونقلها إلينا نقلا أمينا.

والدارس لشعر مفدي زكرياء الإسلامي يلاحظ هذا النوع من التصوير في الموضوعات التي توجه إلى الجماهير لإصلاح أمرها، أو تعبئتها للجهاد، عن طريق النصح والإرشاد.

ومادام " اللهب المقدس " هو " ديوان الثورة الجزائرية بواقعها الصريح، وبطولاتها الأسطورية، وأحداثها الصارخة، وهو شاشة تلفزيون، تبرز إرادة شعب استجاب له القدر " [2]، ومادام زكرياء كذلك لم يعن في اللهب المقدس بالفن والصناعة، عنايته بالتعبئة الجهادية وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبه غمسها في جراحاته المطلولة، لأن الشعر في نظره إلهام وعفوية لا فن وصناعة[3]. فإن معظم صوره جاءت واضحة المعالم، سهلة الفهم، لا غموض فيها تستقي عناصرها من الواقع المعيش، فتشخص الظواهر وتسعى إلى علاجها، ومن أمثلة ذلك تصويره

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، ص 82.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص04.
(3) المصدر نفسه، ص04.

لأوضاع المجتمع الجزائري وما أصاب شبابه من انحلال وتفسخ سيقضي على أصالته إذا لم يتدارك الأمر، ويصلح حال الشباب فيقول راسما صورة تشخيصية لهذا الداء [1] :

تفسخ هذا الشباب وماعا وخرّب أخلاقه وتداعى

فويل الجزائر والمسلمين إذا دنس النشء هذي الطباعا

وكيف يصون الأصالة نشءٌ وقد ساوموه عليها فباعا؟

وكيف ينير الطريق شباب وقد طمس الرجس فيه الشعاعا؟

هو الخطر الجارف المستطير، فإن تلهموه ...الوداع... الوداعا

صور زكرياء في هذه الأبيات كيف تحول الشباب الجزائري المسلم من شباب أصيل متمسك بدينه وتقاليده العربية الإسلامية، وبأخلاقه الفاضلة، إلى شباب متفسخ، منحرف أخلاقيا وعقائديا، بل تجاوز ذلك إلى تصوير ما لهذا الانحراف من خطر على الأمة الإسلامية، لأن الشباب الذي ينسلخ عن شخصيته، ويسير في طريق الإلحاد تضلله الإيديولوجيات المستوردة، إلى درجة التميع والانحلال والغوص إلى الأذقان في الموبقات، لا تقوم له قائمة، أو يبني لنفسه شخصية وكيانا مستقلا أصيلا يستلهم مقوماته من قيم أمته المجيدة.

ويختم الأبيات بوعظية فيها روح المصلح المرشد، داعيا من بأيديهم أمر الشباب إلى رعايته، وإلا ستمسي الأمة في خبر كان، فالأبيات مجرد وصف سطحي للظاهرة، والصورة العامة التي رسمها للتعبير عن مشاعره نحو هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة واقعية التقطها كما يلتقط المصور منظرا طبيعيا بآلة التصوير دونما حاجة إلى وسائل فنية تبرز ما للتعبير من دلالات وإيحاءات، تجعل المتلقي يشارك المبدع تجربته، فمعاني الأبيات في ألفاظها لم تكلف الشاعر جهدا، ولا المتلقي تركيزا، لأنها صورة حرفية للظاهرة التي تفشت في المجتمع، سببها الفكر الهدام الوافد من المجتمعات الإلحادية، هي

---

(1) مفدي زكرياء، الياذة الجزائر، ص97.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صورة صريحة حاول الشاعر من خلالها أن يعبر عن موقفه نحوها، ويعالجها بمنطق وعقلانية مستدلا بالأحداث والوقائع التي يقع عليها بصر المتلقي وسمعه.

ومن ثم لا دلالة لها وراء المعنى الظاهري للألفاظ، رغم وجود بعض الاستعارات مثل خرب أخلاقه، دنس الطباع، طمس الرجس، وهذه السطحية جعلته لم يتمكن من نقل انفعاله إلينا في صورة أكثر تعبيرا وأكثر إثارة، خاصة أنه رسم لنفسه غاية، هي إيصال أفكاره إلى المجتمع من أيسر السبل وبأقل جهد، وهي سمة شعراء الإصلاح والثورة، ومع سطحيتها، فقد اعتمد على تحريك المشاعر بواسطة البنى التركيبية للنص، واختيار الألفاظ المؤثرة، كتفسخ التي توحي بالانحلال. وخرب، التي توحي بالهدم والتلاشي، دنس التي توحي بالإهانة والتدني الخلقي، طمس الرحس فيه الشعاعا الانغماس في الموبقات والمحرمات ... إلخ.

هول الشاعر هذا المشهد، وبالغ في تصوير تفسخ شبابنا بشكل تجعلنا لا نوافقه رأيه، لأن شبابنا مسلم، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وإلا كيف نفسر انحرافه اليوم، ولم ينكسر أمام الحملات والأعاصير الهوجاء لتيار الهدم الغربي ضد أمتنا عبر القرون، وقد يكون هذا التهويل خوفا من الشاعر على شبابنا، وحرصا منه على تجنيبه ما لف بعض الشواذ الذين انحرفوا عن أصالتهم، وتدارك الشاعر نفسه صلاح بعض شبابنا، والتزامهم بقيم الإسلام، وفضائل الأخلاق، فأثنى عليهم، وصورهم أسود الأمة، وحماة العقيدة فيها[1] تصويرا واقعيا يناقض به مضمون الصورة الأولى لما اتسم به هذا النوع من الشباب من ضمير حي أبعده عن الشبهات التي نهاه عنها دينه.

وتختلط المفاهيم في المجتمع الإسلامي، وتتعارض الأفكار، وتتناقض المواقف حول القيم السامية التي تنظم علاقات المجتمع، فينقل الشاعر إلينا هذا الواقع المتصارع، منطلقا من رؤية إسلامية هدفها التوجيه والإرشاد لتغيير صورة الواقع السلبي، إلى واقع إيجابي، تسمو فيه القيم الروحية على كل

(1) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص١٤٢.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القيم، فيقول مصورا بعض مظاهر الفساد، كاستنكار بعض الناس الأذان بمكبرات الصوت[1] :

أزعــــج قــوما أذان الــصـــــلاة يجلجـل فـــي القمـم الـضارعـــات
فيَلقـــــي له السمع قلـب شهيـــــد تمـوج به القيـْــم الـصالحـــات
ويصـــــدم آذان قــــوم بــــوقـر فتفجعهـــــم صـرخـات الـحيـاة
وحــيّ الداربك[*] فــي كــل فــجّ تصـــــب علــى أهلـــه اللعنــات
وأعــراس خمـــر، تـــراق علــى كساكـــس تقــرف منهــا اللهــاة
أيُطربكـــــــم فـي الحيّ ناعــق وتستنكـــرون أذان الـصـــلاة ؟
وفــوق الـمــآذن صـوت الإلـــــه، يقــود الشـــراع لشاطــئ النجاة .

لا يختلف زكرياء الإصلاحي في هذا المقطع عن سابقه من حيـــث الـسطحية فـــي تصويـــر الأحداث، إنه هنا شاعر الإصلاح الاجتماعي يبرز مظاهر الفساد الاجتماعي والأخلاقي، ويتخـذ منـه موقفا إيجابيا، إنه ظاهرة سلبية سادت مجتمعنا يوما ما، حيث ارتفعت أصوات تنادي بمنـع اسـتعمال مكبرات الصوت في المساجد، خاصة في أذان الفجر، تجنبا لإزعاج الناس في بيوتهم وهم نيـــام، فلـم يجد الشاعر صورة أوضح للتعبير عن موقفه من هذه الصورة الصريحة، مبرزا كيف انزعـــج دعـــاة الهزيمة من الآذان يردد فيه المؤذن اسم الله ورسوله، ويدعو إلى الصلاة، فيستمع إليه المؤمن ويلبــــي نداه، وتتصدم به أذان الفجرة الذين تروقهم مظاهر الفساد والفجور، وأعراس الخمـــر التـــي تطربـــهم فيستمتعون بها، في وقت يستنكرون الآذان الداعي إلى الفلاح والنجاة.

ولم يعن الشاعر هنا بالجانب الفني، قدر عنايته بالمضمون، لأنه في موقف تفسيري للظـــاهرة معللا رده على دعاة المنع بطريقته الخاصة، مستخدما الحجج الدالة على خطأ منطلقاتهم الفكريـــة، لأن غايتهم أبعد من منع مكبرات الصوت.

---

[1] مفدي زكرياء، اللهب الجزائر، ص112.

[*] تطلق على الرجل الوضيع، والدربوكة آلة التطبيل في الولائم والناسبات، تصحب الفرق الموسيقية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا جانب من التصوير الواقعي الذي اعتمده الشاعر كوسيلة للتعبير عن رؤيته لواقع أمته بلغة حقيقية خلت من التلوين المجازي، ومن استعمال الصورة الشعرية الرامزة ذات الدلالات الموحية التي تحتاج إلى ثقافة عميقة لفهم معانيها، وما توحي به من ظلال وألوان لا تقف عندها النظرة السطحية التي هي سمة الصورة الواردة في الأبيات السابقة، والتي استخدمها لنقل الظاهرة الواقعية التي مكنته من التعبير بها عما يجيش في نفسه من انفعالات وعواطف نحوها، لذلك فإن الأبيات جذبتنا إليها بمعانيها وعاطفتها الإسلامية، لا بطريقة الشاعر الفنية، لأن الصورة صريحة فاقدة لقوة التأثير في المتلقي، كونها تصور واقعا تصويرا حسيا عاما، تبرز ما يعانيه المجتمع من آفات اجتماعية خطيرة تهدد كيانه.

ومع لجوء الشاعر إلى الوصف التقريري المباشر للظواهر الحسية، والأحداث تماشيا مع الظروف التي ولدتها، ومستوى الجماهير التي يخاطبها، فقد اعتمد التصوير كأداة فاعلة في نقل التجربة والتأثير بها في المتلقين بواسطة أشكال تعبيرية مختلفة يمكن حصرها في نوعين من الصور هما: الصورة البلاغية، والصورة الرمز.

أ – الصورة البلاغية :

إلى جانب استخدام الشاعر للصورة الصريحة كأداة توصيل الأفكار إلى المجتمع وتسخير شعره لخدمة قضايا أمته تماشيا مع الظروف السياسية والاجتماعية، والاقتصادية التي عاشتها الأمة العربية الإسلامية عامة، والشعب الجزائري خاصة، والتي اعتبرها بعض النقاد وسيلة تأثير ضعيفة في أغلب الأحيان، مرجعين ذلك الضعف إلى تعلق جيل الشاعر بعمود الشعر، بالإضافة إلى ضعف ملكة الخيال وقصور موهبة التجديد والابتكار عندهم.

فقد استخدم مفدي زكرياء أدوات البلاغة في بناء صوره الشعرية الخيالية المستمدة من تراثنا الديني والأدبي والتاريخي عبر العصور، كالتشبيه، والاستعارة والتي كثيرا ما يستمدها من ذاكرته ومن المشاهد الحسية التي يقع عليها بصره، ومن المظاهر الاجتماعية التي يعانيها مجتمعه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد صار استحضاره للموروث الثقافي أمرا عاديا، بل ضروريا، في نظره مادام يمنحه قوة التعبير عن أحاسيسه، والدفاع عن مواقفه تجاه مختلف القضايا المطروحة للمعالجة عن طريق الإصلاح الاجتماعي والديني. هذا الموروث يشكل العناصر الأساسية في بناء الصورة الشعرية عنده الأمر الذي جعله يعتمد القوالب التعبيرية الجاهزة في تصوير مشاهد واقعية كما كان في رسم صورة لموقف الجزائريين من رفض المنظمة الدولية لمناقشة القضية الجزائرية في فيفري 1957، خلال انعقاد دورتها الثالثة عشر، مستوحيا تلك الصورة من أجواء صورة أبي تمام في وصف فتح عمورية مستخدما بعض ألفاظها ومعانيها فيقول : (1)

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بيانها الإبهام
والنارُ، أصدق حجّة، فاكتب بها ما شئتَ، تُصعقُ عندها الأحلامُ
إن الصحائفَ، للصفائح أمرها والحبرُ حربٌ والكلام كلامُ
عزٌ (المكاتب) في الحياة (كتائب) زحفتْ، كأن جنودها الأعلامْ

لقد شبه موقف الجزائريين من أعدائهم بموقف المسلمين في فتح عمورية، إذ لم يمنع هؤلاء إلحاح المنجمين على تأخير مواجهة عدوهم في الوقت المناسب، كما لم يمنع الجزائريين موقف المجموعة الدولية الرافضة لدراسة قضيتهم العادلة من مواصلة التحدي عن طريق الكفاح المسلح لتحقيق النصر، والحصول على الحرية والاستقلال.

فالصورة واضحة مجد فيها وسائل الدفاع ممثلة في السيف والرصاص، والجيش الشجاع المقدام، القادر على المواجهة لانتزاع النصر المطلوب، وقد شبه عظمته وقوته في زحفه على العدو بالجبال العالية التي لا تزحزحها الأعاصير،.وقد اشتركت المعركتان في صفة واحدة هي العظمة والثبات لانتزاع النصر من العدو.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص43.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونقف على التقليد إلى حد الاقتباس والتضمين بمجرد تأمل ما في الصورة من تكلف ظاهري في استخدام المحسنات اللفظية كالجناس الناقص: صحائف وصفائح، الحبر والحرب، والكلام والكِلام المكاتب والكتائب، واستعماله كذلك لوسائل غير مستعملة في الحروب المعاصرة جريا وراء الأقدمين في وصف حروبهم، وإلا فما الداعي إلى استعمال السيف في تصوير حرب الجزائر المعاصرة التي استعملت السيف فيها أسلحة فتاكة لم يكن يتصورها فكر من خاضوا معركة عمورية، لا من المسلمين ولا من أعدائهم، لقد كان تأثره واضحا ببائية أبي تمام أدى به إلى الوقوع في التكلف، فكانت الصورة باهتة، والعبارة مثقلة بالجناس، وهي صفة يمقتها النقد الحديث، لأن النقاد المعاصرين " أشد مقتا للتصنع والمعاظلة والإسراف في استخدام الحلي اللفظية في أساليب الشعر " [1]، لأنه يجعل العبارة الشعرية بعيدة عن الجمالية المطلوبة في الفن الشعري العفوي الصادق، الذي تفجره الأحاسيس القوية من خلال معايشته التجربة والتأثر بها إلى حد الانفعال القوي. ورغم ما في الصورة من ضعف فني فقد استطاع زكرياء عبر هذا السرد المثقل بالمحسنات البديعية أن يقرب الصورتين المتباعدتين، إنها صورة تتكرر بدلالتين مختلفتين زمانيا ومكانيا، فزمان تلك هو العصر العباسي، وزمان ذي هو العصر الحديث، وعمورية هناك، والجزائر هنا.

لكن وجه الشبه قريب، إن لم يكن متطابقا، فالإصرار على التحدي كان قائما، والنصر تحقق وكذب المنجمون والزاعمون هناك وهنا.

يستخدم زكرياء كثيرا الأدوات القديمة لبناء صوره الشعرية التي يستمدها من التراث، لا سيما التشبيه، لكونه أقرب إلى تصوير الواقع، والصورة التي تقوم على التشبيه ... تقوم في الغالب على نهج منطقي ينفذ من المقدمات إلى النتائج بالتفكير والإدراك من غير شعور أو معاناة[2].

وهذا ما جسده لنا المقطع السابق، لخلوه من الإيحاء الذي يفجر في أعماقنا أحاسيس ومشاعر

(1) حامد حنفي أحمد داود، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة 10 العدد 89-90، 1981، ص139.
(2) إيليا الحاوي، فن الوصف، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، 1960، ص100.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نهتز لها، وتجعلنا نشاركه تجربته.

ومن الصور التقليدية التي كررها والتي لا ابتكار فيها ولا جدة قوله في تفنيد مزاعم الفرنسيين الذي ادعوا امتلاكهم للجزائر، وإلحاقها بفرنسا دينا ودنيا، مشبها إياها بالسارق الذي يسطو على أموال الغير ويدعى ملكيتها، فهما سواء في عالم القيم: (1)

زعمت فرنسا في المحافل ضلّةً ... مُلك الجزائر... والجنون غرامُ

كاللّص يسترِقُ المتاعَ ويدّعي ... ملكًا... أيُسمعُ للّصوصِ كلامُ ؟!

رغم استخدام التشبيه لإبراز قبح أخلاق المستعمر، تبقى الصورة سطحية خاضعة للعقل، لا للخيال المبدع، حيث نقل إلينا صورة الممارسات الدنيئة لفرنسا طيلة احتلالها للجزائر، ووضعها في إطارها المناسب، إذ حولها من رائد للحرية إلى لص حقير دنيء الخلق، وقد جذبنا البيتان بالألفاظ المناسبة، والبناء المحكم للعبارة، وموسيقاها المؤثرة، وليس بالصورة.

والصورة التشبيه ترد عنده مفردة جزئية محدودة حسب متطلبات الموقف، لذلك يجعل من هذه الصورة أداة مناسبة ترسم واقعا معينا كوصفه لوثبة الشعب الجزائري ضد المعتدي الفرنسي فيقول:(2)

وثبْنَا كالكواسرِ واتّخذْنَا ... إلى استقلالنا الأرواح طُرقَا

فلا نخشى العذابَ، ولا نُبالي ... إذا وجبَ الفدآ، سِجنا وشَنْقَا

فقد شبه انقضاض الجزائريين على عدوهم بانقضاض الكواسر على فريستها في سرعة وقوة لا يتيح لها فرصة الإفلات منها، فالصورة واضحة معبرة عن المعنى المقصود مبرزة شجاعة أبطالنا وصمودهم في وجه المحتل من أجل نيل حريتهم واستقلالهم.

ويبدو زكرياء ذو قدرة على توظيف التعابير الضخمة في مثل هذا الموقف، كوثبنا، الكواسر اتخذنا الأرواح طرقا، لا نخشى، لا نبالي، الفدآ، سجنا، شنقا، فهو ينثر مختلف الأوصاف والمعاني

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص48.
(2) المصدر نفسه، ص122.

بل وفي المخيمات التي حشدوا فيها، كأنها صور أو هياكل في متحف أو مزار يقصده الزوار.

ومع تعدد هذه الصور الجزيئة واختلافها من حيث المضمون، وواقعيتها وسطحيتها، إلا أن الشاعر استطاع ببراعته أن يرسم صورة عامة للمأساة، عن طريق حسن الربط بين هذه الصور المتباعدة الدلالة بخيط شعوري واحد جعل المعنى واضحا، والتأثير في نفس السامع قويا.

فالصورة الأولى تمثل حال فلسطين الذبيحة، وكيف صارت في قبضة الصهاينة يعززهم مجلس الأمن، تشبيها لهم بالطائر الضعيف في قبضة قوي لا يرحم، ثم يتبعها بصور تمثل أبشع صور الإجرام الإنساني، فالشيخ صار شبحا، والصبية دمى، ثم تأتي الصورة المكملة لهذه التي تمثل ما أصاب الناس من بؤس وشقاء، ويزيد من قوة تأثير الصورة ذاك التشبيه القوي، والاستعارة المكنية في الصور الموالية، حين جعل الجوع يعض بنابه كما تعض الأفعى الخطيرة حيث يفزع الرأي لهذا المنظر الأليم ويشخص بصره.

وتكتمل الصورة الكلية عندما تأتي الصورة الأخيرة مؤكدة عمق المأساة، ومجسدة " لكل المعطيات التي وردت في الصور الأولى، فتقرر حال القوم وأنهم يعانون اضطهادا ، وفقرا، وعيشا ضنكا " [1]، بل لقد انتزعت منهم صفة الآدميين، وصاروا عبارة عن صور أو هياكل في متاحف يتفرج عليها الزوار كآثار لم يبق لهم سوى الذكر، وكأن خيام اللاجئين والمشردين مزارات، تزار كما تزار المقابر أو غيرها، لذلك جاءت صورة المأساة واحدة، لكنها مركبة من صور متعددة تحقق في النهاية غرضا واحدا هو تصوير موقف الشاعر والتأثير به في المخاطبين، وهي من السمات البارزة في صوره[2].

من هنا كانت الصورة الشعرية عنده وسيلة فنية جوهرية لنقل التجربة، فما التجربة الشعرية كما يرى غنيمي هلال " إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صور جزئية تقوم من الصور الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي ... وإذن فالصورة جزء من التجربة ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقا " [3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص102.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص31،33،34،234.
(3) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، 1979، ص417.

لذلك فإن نجاح الشاعر في رسم هذه الصورة والتأثير بها لا يعود إلى اعتماده على الخيال الواسع، بل يرجع إلى العناية بالصياغة وقوة السبك، فهو مازال أسير واقعه الحسي، ذلك " لأن النزعة التقليدية أشد ميلا إلى تصوير المعاني الحقيقية في صياغة خلابة " [1]، لأن أهمية الصورة كما يقول جابر عصفور تكمن في " الطريقة التي تفرض علينا نوعا من الانتباه للمعنى الذي تفرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به " [2].

وكثيرا ما نلاحظ زكرياء يغالي في تشبيهاته خاصة عندما يمدح من يحبهم، كما فعل مع ملك المغرب، حين وقف ببابه يترقب خروجه من إدارته، ترقب المسلمين لليلة القدر في شهر رمضان المعظم فيقول: [3]

وقفت ببابك السحري   أرقب ليلة القدر
وجئتُ إلى إدارتِكُمْ   مشوق القلبِ والفكرِ
أطوفُ على منابِركُمْ   لأشهدَ طلْعَةَ البدرِ

في الأبيات تصوير لا تخطئه المبالغة المستقبحة، إذ لا وجه للمقارنة بين الصورتين، فالمقارنة بعيدة بين ترقب المسلمين لتلك الليلة المباركة، ليلة القدر، وبين ترقبه لخروج الملك، ثم أية صفة تشابه تربط الصورتين ؟ فتلك ليلة نزل فيها القرآن لهداية البشر، وهي خير من ألف شهر عبادة وتقديس لله وهذه ليلة عادية يخرج فيها الملك كما يخرج غيره من الناس العاديين، وهنا يبدو قبح الصورة في تشبيه طلب وجه الخالق ومرضاته بطلب وجه مخلوق ورضاه، إلا أن الصورة نقلت إلينا موقف الشاعر بوضوح وسهولة، لأن همه كان منصبا على إيصال صوته إلى الممدوحين دون كبير عناية بالجانب الفني.

(1) أدونيس، مقدمة ديوان الشعر العربي/ ج01 منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط01، 1964، ص29.
(2) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص328 وما بعدها.
(3) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص212.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإلى جانب التشبيه اهتم الشاعر بالاستعارة كونها وسيلة جوهرية داخل البنية الشعرية، كما أنها وسيلة للإدراك الجمالي، لأنها علاقة لغوية تقوم على المقارنة شأنها شأن التشبيه[1]، لكنها تختلف عنه في اعتمادها على الاستبدال بين دلالات الألفاظ، إذ لا تعطيك المعنى مباشرة[2]، بل توحي به إليك عبر السياق التعبيري المحكم للعبارة الشعرية.

لذلك استخدم الأسلوب الاستعاري كأداة فنية لإبراز المعاني وتقريبها إلى المتلقي عن طريق العبارات الموحية القائمة على المجاز والتي هي أساسيات الصورة الناجحة.

ومن الصورة الاستعارة قوله في وصف مظاهر الجمال الخلابة لطبيعة الجزائر[3] :

وسبّح لله ما في السما   وات، والأرض. ملء شفائفِ شَفَا[*]

كأنك تصغي بها للخليلِ   وموسى الكليم، يرتل صحفا

كأن البليدة للورود تفشِي   حديث الغرامِ فتزداد لهفا

أبا الغوطتينِ يباهي الشآم،   وأغواطنا بالشآم استخفا ؟

كأن حدائقه العابقا   ت، نوافج[**] مسكٍ، تضوعن عرفا

لقد جسد المعاني وشخصها عن طريق التعبير المجازي، باستخدامه الألفاظ استخداما غير حقيقي لما وضعت له أصلا في اللغة، غايته تقريب المعاني المجردة إلى أذهان المخاطبين، كاستعماله الاستعارة المكنية في " تفشي حديث الغرام " حيث شبهها بالإنسان المغرم الذي يفشي حديث غرامه إلى الورود فيزداد شوقا وتلهفا، كذلك استخفاف الأغواط بالشام لأن الاستخفاف يصدر من كائن عاقل فذكر المشبه وهو الأغواط وحذف المشبه به وهو الإنسان وترك شيئا من لوازمه وهو فعل الاستخفاف، فكان التعبير هنا أقدر وأبلغ على رسم الصورة، ونقل التجربة إلى الآخرين، محققا بذلك

---

(1) أحسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، ص212.
(2) جابر عصفور، مفهوم الشعر، ط03، ص201.
(3) مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، ص34.
(*)شفا، يقصد بها جبال شفا بضواحي الجزائر العاصمة.
(**) نوافج: مباخر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القيمة الفنية للاستعارة نتيجة ما تحقق فيه من تفاعل وتداخل على نحو لا يحدث بنفس الثراء في التشبيه، لأن الاستعمالات المجازية في التركيبة الشعرية تمكن الشاعر من استخدام ما يشاء من الألفاظ استخداما غير حقيقي، ناقلا به أحاسيسه ومشاعره نقلا فنيا صادقا.

لذلك جاءت الصور تخيلية إبداعية عميقة الإيحاء لصدقها وشدة إيجازها.

ومن الاستعارات التي استخدمها زكرياء في إبراز مواقفه من جهاد أمته ضد عدوها الواحد (فرنسا) المجرمة وهو يحذرها من غضب الجزائريين، الذين اتخذوا الأرواح جسرا لمجدهم، فلا يردهم عن عزمهم أحد حتى يفتكوا حريتهم ويسترجعوا استقلالهم، قوله من قصيدة " وللدماء رسالات مقدسة " [1] :

ويا فرنسا أحذري شعبًا على دمه   يسعى إلى النصرِ، قَتِلاَهُ مطاياهْ

وللفدآ تخذ الأرواح معبره   وزاحمتْ شُمّه فيه صباياه

دنا من الموتِ فافتكَّ البقاء لهُ   وللكرامةِ قادتْهُ منایاهُ

عبر الشاعر في هذه المقطوعة عن موقفه باستخدام جملة من الصور البلاغية تمثلت في التشبيه البليغ: قتلاه مطاياه، تخذ الأرواح معبره، ومن الاستعارات الجميلة المجسدة للمعاني المجردة التي أضفت على الأبيات حيوية وحركة، عن طريق الاستعارات المكنية قوله: تحدوه رزاياه، وللدماء نداءات مضرجة، تذكر الشعب بلاياه، قادته منایاه، ولقد استطاع من خلالها أن يعطي لموقفه دلالات بعيدة مؤثرة في المخاطبين.

والصورة القائمة على التجسيد أو التشخيص ظهرت بكثرة في الشعر الجزائري الحديث خاصة في شعر الجهاد، وإصلاح الأمة، وهدف الشاعر من التعبير بالصورة هو إيصال ما يريد إلى سامعيه باعتماد بعث حركة مستمرة في المجردات لتصبح لها خصائص الكائن الحي المتحرك المتنامي.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص69-70.

إن تكون بعض الصور الشعرية عند مفدي زكرياء يعتمد على الخيال المبدع الملهم يتجاوز أركان التشبيه إلى الاستعارة، وقد جسد تعامله مع هذا النوع من الصور بشيء من الإيحائية الفنية للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره التي لم يستطع التشبيه أن يعبر عنها في بعض الأحيان، لأن الاستعارة تتبع منهج الخيال، وتكون الصورة بالتالي أداة معرفة تخيلية، في حين يتبع التشبيه منهج المنطق وبالتالي تكون الصورة التشبيه في القصيدة التقليدية تركيبة ذهنية واضحة تعبر عن حقائق ثابتة وتوضح الفكرة وتقويها وتؤكدها مادام يقف عند حدود الرؤية البصرية للأشياء في الغالب(1).

وما يلاحظ على الصورة الاستعارة عند زكرياء أنها متنامية يعتمد فيها على الخيال، ويبعث فيها نوعا من الحركية باستعمال صفات الكائن الحي للجمادات وللمجردات، زيادة في المبالغة والإمعان في الشيء، وهو ما يجسد نوعا من الابتكار والجدة في الصورة التعبيرية.

يرى مفدي زكرياء أن الشعر إلهام لا صناعة، ومادام تكوين الصورة الشعرية يعتمد على الخيال المبدع فإن " الإلهام يعتبر نضجا مفاجئا غير متوقع لكل ما قام به الشاعر من قراءات ومشاهدات، وتأملات، أو لما وعاه من تحصيل وتفكير... " (2) بالرغم من مجاراته للشعراء المحافظين التراثيين في استخدام الصورة البلاغية بمفهومها القديم من تشبيه أو استعارة أو غيرها.

لذلك حاول التجديد في صوره الشعرية بإعطائها دلالات وإيحاءات تبعدها عن التقليد، وإن كان التجديد عنده يعني في الغالب " تطوير التراث العربي لا الخروج عنه، ومن هذا المفهوم كان تجديده في مجال الصورة، فقد جدد فيها لا ليجعلها رمزية تتكاثف فيها الأطراف، وتتشابك الأبعاد المتعددة كما هو الحال بالنسبة للصورة الحديثة في الشعر الحديث، لكن ليجعلها تعتمد الإيجاز غير المخل والتلميح الذكي، شأن الصورة " الناجحة " في الشعر العربي القديم، فإذا كانت صوره من حيث الوظيفة تشع بالإيحاء، وترسم ظلالا للمعنى مما جعلها تحقق كثيرا من متطلبات الصورة الشعرية

---

(1) أحسن فاروق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، ص215.

(2) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص12.

وفنياتها... فإنها من حيث الشكل لا تختلف كثيرا عن صور القدماء، فأغلبها تشبيهات أو استعارات، تتم في بيت واحد، أو أبيات معدودة لينتهي وجودها باعتبارها صورة واحدة، لكنها مع ذلك تبقى أصداؤها متجاوبة مع صور أخرى في القصيدة الواحدة، ويبدو أن السبب ... إنما هو شكل القصيدة ... لأن مفدي زكرياء في محاولاته القليلة للخروج عن البحور الخليلية كان أطول نفسا في صوره[1]، بحيث أصبحت أقرب إلى الصورة الحديثة في إيحائها وشكلها معا " [2].

ومن الصور التي وفق فيها الشاعر حيث تؤثر في السامع والقارئ صورة " الذبيح الصاعد " التي تجلت من خلالها عبقريته كفنان مبدع متكامل الجوانب، يصور وينحت بأدواته الفنية، ويعزف ويغني كموسيقار عظيم.

لقد بدأ القصيدة بتصوير مشهد مثير يهتز له الوجدان، ويلهب العواطف بأسلوب رقيق عذب يكاد ينسيك طبيعة المشهد المأسوية، يتبعه تدرج في التصوير، تتصعد فيه لهجة التعبير لتصل ذروتها في نهاية القصيدة، معبرة عن موقفه من الحدث[3].

استطاع زكرياء في هذه القصيدة ببراعته الفنية أن يحقق معالم الصورة الحديثة، وأن ينزع نزعة تجديدية في عمله الإبداعي، سواء على مستوى الأفكار أو المعاني، أو على مستوى اللغة، ذلك أنه أحسن استخدام مختلف الأدوات الفنية، واستثمر ما في الألفاظ والعبارات من طاقات شعرية، عن طريق البناء المحكم للعبارة وإيحائية الألفاظ ورمزيتها، والتي مكنته من التعبير عن شدة المعاناة؛ لأنه عاش الحدث ورأى بعينيه كيف يقتاد الأبطال إلى المقاصل لتقطع رؤوسهم من أجل المبادئ والقيم السامية، لذلك اندمج في الحدث، ولم يعد يعي ما تجود به شاعريته، لقد غاب في اللاوعي، فراحت الصور تتوارد متعاقبة في سيل شعوري متدفق سلك فيه مسلك الرومانسيين، لذا كان " ... يعبر عن

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص: 124، 249، ديوان من وحي الأطلس، ص160.
(2) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص330-331.
(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص09 وما بعدها.

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحاسيسه وشعوره وعاطفته بتلك الصور الفنية المبتكرة، أو المقلدة، الأمر الذي تظهر فيه شاعريته وعواطفه وشخصيته " [1] .

فالشاعر عنون للقصيدة بما يثير فينا الدهشة منذ الوهلة الأولى " الذبيح الصاعد " فالذبيح في منطق العقلاء وواقعية الأحداث يقع على الأرض، لكن " زبانا " ذبيح المبادئ والقيم النبيلة والحرية من نوع آخر، فهو لا يسقط، بل يصعد ويرتقي إلى علياء المجد الدائم، لأنه شهيد، والشهداء أحياء لا يموتون لقول المولى عز وجل: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ " [2].

استهل القصيدة بفعل قام، والقيام هنا استعداد للشيء المراد، والاستعداد للشيء فيه اطمئنان وراحة بال يُذهب عن صاحبه الخوف والفزع والرهبة منه، إنه تجسيد لذلك الإحساس الداخلي المتعلق به، فجاء قيامه لاستقبال القضاء والقدر المحتوم، تعبيرا عن هذه الروح التي تغمرها الطمأنينة والخشوع للخالق، يصاحبه الترنح والتمايل في نشوة الفرح التي لا تعدلها نشوة الارتواء وقت الظمأ في اتئاد يردد نشيد الشهداء [3].

إنه لمشهد مثير حقا، صورة تجمع صورتين متناقضتين وحّدهما الشعور النفسي الواحد صورة المقتاد إلى الموت بعد أن عرف مصيره وما توحي به من معاني الفزع والقلق والاضطراب إلى حد التأزم، وصورة الاستعداد لهذا المصير المحتوم بنفس منشرحة، ورضى بالموت في سبيل الحق، نفس قوية الإيمان تملأها الغبطة والسرور. ثم تتوالى الصور الجزئية المترابطة، المحكمة النسج فهو باسم الثغر كالطفل الملاك، شامخ الأنف، رافل في الخلاخل المزغردة، حالم كالكليم، متسام كالروح ليلة القدر، ممتطي مذبح البطولة، ينشد المجد، متعال يتلو كلمات الهدى، يدعو الرقودا... إلى غير ذلك من الصور المثيرة بمضامينها وأسلوبها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص150.

(2) سورة آل عمران، الآية: 169.

(3) هو نشيد " اعصفي يا رياح " للشاعر نفسه، كان المحكوم عليهم بالإعدام يرددونه قبل إعدامهم.

إن البنية الشعرية عنده ذات مدلولات بعيدة ومتعددة، فشخصية المسيح أراد منها استبحاء معنى العظمة والمجد، والتضحية في سبيل المبدأ وانتصار الحق، " فزبانا " صورة لعيسى المفدى، كلاهما ضحى في سبيل المبدأ السامي، والرسالة النبيلة، وهو راض عن التضحية وراغب فيها، لقد استحضر فحوى القصة القرآنية الدالة على صلب المسيح ابن مريم، وأسقطها على البطل الشهيد " زبانا " من باب التماثل؛ لأن " زبانا " عنده لا يقل عن الأنبياء مكانة، ولا قدرا في مجالي التضحية والفداء، وتأدية الرسالة المنوطة به، كما لا يقل عنهم نبلا وطهارة وعزما على تحقيق المعجزات، فهو " يرى فيه صورة مجتمعه من روحانية المسيح، وسمو موسى، وقدسية جبريل، وطهارة محمد، وخلود عيسى "[1] عليهم الصلاة والسلام.

لذلك يقف البطل وقفة الوداع في الدار الفانية، لينقل إلى الملكوت الأعلى، فهو يستعد لاستقبال الحياة الجديدة استقبال الطفل الملاك ليومه الجديد، الذي تطبعه الابتسامة، ويملأه الأمل، لتحقيق نصر جديد بعد ليل مدهم، حياة ينعم فيها الشهيد في دار الخلود، وخلود في أمته بالذكر الحميد، كخلود المسيح.

إن العبارات الواردة في مطلع القصيدة تتقدمها صيغة أسماء الفاعلين: باسم الثغر، شامخا أنفه رافلا في خلاخل، حالما كالكليم، التي استهل بها القطعة لها دلالاتها في البنية الشعرية، لما توحي به من دوام الصفات، واستمرارية الابتسامة، والشموخ، وتحدي المستدمر الظالم في اعتزاز وفخر.

كما توحي الجمل الفعلية: تسامى، امتطى، تعالى، بسمو معاني التضحية وعظيم هذه الصفات التي رفعته إلى مصاف العظماء، بل إلى مماثلة الأنبياء.

وإذا كان الله أوحى إلى نبيه عيسى، وكلم موسى جهرا في جبل الطور بسيناء مصر، وجعله غارقا في التفكير، فقد كلم بطلنا " الشهيد " في الجزائر المجدُ.

---

(1) محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ط02، ص120.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم لم يكتف بالتكليم، بل راح يتطلع إليه مستعجلا الصعود، فلم يجد بديلا عن حبال المشنقة وسيلة تنقله إلى عالمه العلوي الجديد، الذي هو عالم الدوام والبقاء، والخلود الأبدي، بعد أن بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، كما أداها من قبل أحباء الله، ولم لا وجبريل قد عاد ليلة القدر من الدنيا إلى عالمه، بعد أ، بلغ الوحي إلى الرسول، فعمت الفرحة والبهجة الكون كله.

إن ما توحي به الصور المتلاحقة من دلالات هي في الواقع روح ما يسعى إليه الشاعر، " فزبانا " يشبه المسيح، وموسى، وجبريل في التضحية من أجل الواجب.

لقد سلك في رسم هذا المشهد استراتيجية التناص في توليد المعاني والصور، مما جعل القصيدة متنامية، متماسكة، يربطها شعور واحد، فقد استحضر أكثر من قصة، وصورة، ومشهد، وحادثة ونسجها نسيجا تعبيريا محكما شكلت تجربته الناجحة.

فالمتأمل في قوله: [1]

" واقضِ يا موتُ فيّ ما أنت قاضٍ أنا راضٍ، إن عاش شعبي سعيدا "

فلا يتبادر إلى ذهن المرء ما توحي به العبارات من دلالات، إذا لم يكن عارفا بالقرآن الكريم حافظا لآياته، وخاصة قصة النبي موسى مع سحرة فرعون، الذين أحضرهم ملكهم لتعجيز موسى أمام الملأ، وتكذيب نبوته، بإبطال معجزته بسحرهم، لكنهم انهزموا، وأعلنوا إيمانهم برسالة الحق قائلين لملكهم: " لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " [2] ولم يأبهوا بما سيسلط عليهم من عقاب وصلب في جذوع النخل، على يديه وأيدي جلاديه.

هنا يبرز وجه الشبه في القصتين: قصة سحرة "فرعون " مع ملكهم، وقصة " زبانا " مع عدوه الفرنسي، فكلاهما رمز للثبات على المبدأ والحق، وصبر على المظالم، وتضحية في سبيل المثل العليا

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص10.

(2) سورة طه، الآيتان 72 و 73.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صفات لا تتوفر إلا في مؤمن رأى الحق فآمن به، وجاهد في سبيل نصرته وتحقيقه، والباطل فجاهده وأبطله وقضى عليه.

لذلك لم يكن لجبروت فرعون أي أثر في نفوس من سرى الإيمان في قلوبهم،كما لم تجد فرنسا قوتها وبطشها في إخضاع الجزائريين وردهم عن عزمهم، لافتكاك حريتهم واسترجاع استقلالهم، وما إعدام" زبانا " إلا شعلة جديدة، ومثال حي، ودافع قوي للثورة لتسير نحو تحقيق الهدف المنشود.

فالمسيح، وموسى، ومحمد، وغيرهم من أنبياء الله اضطهدوا من قومهم، لكنهم واجهوا وقاوموا الظلم، ولم يستسلموا أو يلينوا ماداموا على طريق الحق، فالمسيح لم يصلب كما اعتقد المسيحيون، بل رفعه الله إليه كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، فهو خالد عند الله، كما أن " زبانا " خالد لا يموت فهو حي يرزق عند ربه.

فصورة التشابه قائمة هنا أيضا بين همجية النصارى في محاولتهم صلب المسيح، وهمجية الفرنسيين في محاولتهم قتل شعب بأكمله بأبشع طرق الإجرام الإنساني الحديث، لأن " زبانا " هو رمز لكل جزائري، ومع انتفاء قتل المسيح، وتحقيق قتل "زبانا " فإن الشاعر تمكن من رسم المشهد المؤثر بإبراز دوريهما، فذاك رسول الهدى، وذا رسول الحرية والانعتاق في وطنه، لم يمت هو الآخر عند شعبه، فهو خالد الذكر، تردد خصاله وبطولاته في أفواه ووجدان كل جزائري مدى الدهر، إذن فهو خالد خلود عيسى عليه السلام.

لقد أطلق زكرياء العنان لشاعريته، وراح يسبح في الخيال بعيدا ليرسم " لزبانا " صورة الرسول الجديد هناك في العالم العلوي، لينقل إلى رفاقه الشهداء تصميم شعبه على مواصلة الجهاد والوفاء بالعهد للشهداء، وهو ما يعطي لرسالته معنى التواصل والاستمرار، وهي سمة العظماء الخالدين، وفي ذلك يقول:[1]

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص 11 و 19.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يا "زبانا " أبلــــغ رفاقــــك عنــا   في السمــوات، قــد حفظنا العُهــودا!

يــا "زبانــا " ويــا رفــاق " زبــانا "   عشتــمُ كالوجـــود، دهــرا مديــدا

كــلُّ من في البــلاد أضحى "زبانا "   وتمنّــى بــأن يمــوت شهيــدا !!

حقق زكرياء بقصيدته " الذبيح الصاعد " قفزة نوعية في مجال الإبداع الفني، حيث أظهر فيـها قدرته الفنية، لغة، وتصويرا، وموسيقى، باستغلال كل ما في عناصر البنية الشعرية من طاقات تعبيريـة موحية، لتصوير هذا المشهد الحزين الأليم، فقد وظف ما يدل على الفرح، والارتيـــاح فـي مواضـع الأسى، كيختال، يتهادى، نشوان، يتلو النشيدا، باسم الثغر، شامخا أنفه، رافلا في خلاخــل، زغــردت إلخ...

ومن التعابير الشعرية المعبرة عن سعادة البطل بالتضحية من أجل الوطن والتي صور بها هـذا المشهد المفزع قوله: رافلا في خلاخل زغردت، فهو يرقص ورجلاه مقيدتان بسلاسل حديديـة تعيقـه عن الحركة، ومع ذلك يشعر في أعماقه بالسعادة الكبرى خاصة عندمـــا يسـمع أصـوات السلاسـل فتتحول في مسمعه إلى نغمات موسيقية مريحة، ومنعشة، فتنشرح لها نفسه الراضية المرضــي عنـها مادام إيمانه قويا لا يتزحزح، كما أشار إلى ذلك رب العالمين[1].

إن الكلمات والعبارات الشعرية في هذه القصيدة تحولت ضمن نسقها التعبيري المتماسـك إلـى لوحات زيتية جذابة، وتماثيل ناطقة، ومشاهد حية مثيرة، بل وإلى معزوفة موســيقية متناسـقة النغـم انسكبت جميعها في بوتقة واحدة هي هذه الصورة الشعرية المركبة الســاحرة ذات الابعـاد المتعـددة والشعور النفسي الواحد، المتأثر بالموقف المحرك للشعور والوجدان.

لقد وفق زكرياء باستعمال هذا الأسلوب في التصوير عن هـــذا الموقـف باسـتخدامه اللغـة الشاعرية الهامسة التي تتصعد في نغم هادئ حزين، فتشعر كأن كل لفظة من ألفاظ القصيدة تتفجر مـن

---

(1) في قوله تعالى: " يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي " سورة الفجر، الآيات27-28-29-30.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يا "زبانا " أبلــغ رفاقــك عنــا   في السمــوات، قــد حفظنا العهــودا

يــا "زبانــا " ويــا رفــاق " زبــانا "   عشتــمْ كالوجـــود، دهـــرا مديــدا

كــلُّ من في البــلادِ أضحى "زبانا "   وتمنّــى بــأن يَمــوت شهيــدا !!

حقق زكرياء بقصيدته " الذبيح الصاعد " قفزة نوعية في مجال الإبداع الفني، حيث أظهر فيـــها قدرته الفنية، لغة، وتصويرا، وموسيقى، باستغلال كل ما في عناصر البنية الشعرية من طاقات تعبيريـة موحية، لتصوير هذا المشهد الحزين الأليم، فقد وظف ما يدل على الفرح، والارتيـــاح فـــي مواضـــع الأسى، كيختال، يتهادى، نشوان، يتلو النشيدا، باسم الثغر، شامخا أنفه، رافلا في خلاخـــل، زغـــردت إلخ...

ومن التعابير الشعرية المعبرة عن سعادة البطل بالتضحية من أجل الوطن والتي صور بها هــذا المشهد المفزع قوله: رافلا في خلاخل زغردت، فهو يرقص ورجلاه مقيدتان بسلاسل حديديـــة تعيقـــه عن الحركة، ومع ذلك يشعر في أعماقه بالسعادة الكبرى خاصة عندمـــا يســـمع أصـــوات السلاســـل فتتحول في مسمعه إلى نغمات موسيقية مريحة، ومنعشة، فتنشرح لها نفسه الراضية المرضـــي عنـــها مادام إيمانه قويا لا يتزحزح، كما أشار إلى ذلك رب العالمين[1].

إن الكلمات والعبارات الشعرية في هذه القصيدة تحولت ضمن نسقها التعبيري المتماسـك إلـــى لوحات زيتية جذابة، وتماثيل ناطقة، ومشاهد حية مثيرة، بل وإلى معزوفة موســـيقية متناســـقة النغـــم انسكبت جميعها في بوتقة واحدة هي هذه الصورة الشعرية المركبة الســـاحرة ذات الأبعـــاد المتعـــددة والشعور النفسي الواحد، المتأثر بالموقف المحرك للشعور والوجدان.

لقد وفق زكرياء باستعمال هذا الأسلوب في التصوير عن هـــذا الموقـــف باســـتخدامه اللغـــة الشاعرية الهامسة التي تتصعد في نغم هادئ حزين، فتشعر كأن كل لفظة من ألفاظ القصيدة تتفجر مـــن

---

[1] في قوله تعالى: " يا أيّتها النّفسُ المطمئنّة ارْجعي إلى ربّك راضيةً مَرْضيّة، فادْخُلي في عبادِي وادْخُلي جنّتي " سورة الفجر، الآيات27-28-29-30.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أعماق الشاعر لتصف هذا المشهد المريع المؤثر، الذي يهز النفوس، ويوتر الأعصاب فتبلغ هذه الألفاظ المنسابة في هدوء، ما لا تبلغه الألفاظ المتشنجة الصارخة..

كما نلاحظ براعته في استخدام الصور الشعرية المتعددة التي جعل منها صورة فنية متكاملة رائعة، تحكي قصة شعب بأكمله، يناضل من أجل الحرية[1]... حيث مال إلى أسلوب التصوير، فراح يكدس الصور، لكن المتفحص فيها يجدها ذات دلالات متعددة، وليست ذات دلالة واحدة، فأنت ترى كيف يولد الصور من خلال الأحداث المتتالية، والصفات التي تظهر بها المشاهد، لذلك تأتي صوره جديدة ناقلة للتأثير، مترابطة فيما بينها تعطينا في النهاية الصورة الكبرى؛ لأن الصورة الجزئية إذا كانت وحدة قاصرة بذاتها وفي ذاتها من الناحية التعبيرية، فإن الشاعر ينتقل إلى تمثل الصورتين، أو الصور الجزئية في وحدة متكاملة تربط بينهما، إذ غالبا ما تكون الصورة المفردة غير مثيرة، أو مؤثرة بذاتها، لكن حين نتمثلها في الوحدة الشاملة نستكشف من خلالها الأعاجيب[2].

هكذا استلهم زكرياء قصة البطل "زبانا" من قصة عيسى القرآنية، لكنه لم يتلقفها مباشرة، وإنما وظفها رفق رؤيته، وسواء كانت صورة حسية أم معنوية، فهو يصبغها بصبغة وجدانية يجمع فيها بين الحس والخيال، وبذلك تخطى التصوير التقليدي أو السطحي إلى التعبير بالصورة الشعرية التي التأمت فيها العاطفة الدينية بالأحاسيس والمشاعر الثورية المتفجرة في أعماقه، فصارت الحادثة جزءا من كيانه، وصورة لنفسه الثائرة، إذ بالرغم من تباعد أطراف الصورة، إلا أنها شكلت في النهاية إطارا شعوريا واحدا، لأن في التصوير الشعوري تتجمع عناصر متباعدة في الزمان والمكان، لكنها تلتقي وتأتلف مع بعضها في إطار شعوري موحد [3].

---

(1) سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص225.

(2) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص98.

(3) المرجع نفسه، ص108.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصورة الرامزة هي الصورة الشعرية التي يعتمد في بنائها على عناصر قويـــة التـــأثير فـــي الجماهير لإيحاءاتها ومدلولاتها لا بتشبيهاتها وسطحيتها، كالرمز، والأسطورة، والخرافة، وغيرها مـــن الأشكال القادرة على التبليغ، ونقل التجربة إلى الآخرين.

وانطلاقا من تشرب زكرياء للقرآن، وتشبعه بمعانيه وتأثر بأسلوبه البليغ، وبقصصه المعجـــزة التي صارت بالنسبة إليه مضرب الأمثال في الحـــوادث العظيمـــة التـــي تـــهز المجتمـــع الجزائـــري والإسلامي، كما تأثر بالتراث العربي وبالتاريخ الحضاري للأمة، فقد وظف الصورة المســـتلهمة مـــن الكتاب والسنة والتاريخ الإسلامي على نحو مخصوص توظيفا يلائم رؤاه، ويحقق غايته، وفي مقدمتـــها قصص الأنبياء الكرام كآدم، وعيسى، وموسى، وإبراهيم وغيرهم، فيقتبس منـــها مـــا يلائـــم غرضـــه الشعري، ويوظفه بطريقة جديدة يولد من خلالها أفكارا وصورا جديدة، معتمـــدا اســـتراتيجية التنـــاص كوسيلة فعالة في هذا التوليد، كون القرآن مثله الأعلى في التعبير والتصوير، لأن " التصوير الفني فـــي القرآن الكريم هو الأداة المفضلة للتعبير بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفســـية وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، فـــهو تصويـــر باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخيل، كما أنه تصوير بالنغمة التـــي تقـــوم مقـــام اللـــون فـــي التمثيل[1].

لذلك صار القرآن مصدرا أساسيا من مصادر صوره الشعرية التي تطفح بها قصائده.

ومادام تأثره بالقرآن كبيرا، وسمة القصص القرآني الإيجاز والدقة في التصوير، فقد انعكســـت في أسلوبه، حيث وظف جزئيات القصة في غير إطناب، ولا إخلال بالمعاني التي يسوقها عبر نســـيجه التعبيري، فمع الإشارة والتلميح الموجز، تبرز الدلالات العميقة للألفاظ عند السامع الحافظ لكتـــاب الله العارف بما تشير إليه الآية.

---

(1) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط 08، 1983، ص 36، 37.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد يظهر الغموض الذي ينتج عنه سوء الفهم أحيانا عند غير الحافظين للقرآن الكريم.

ومن القصص القرآنية التي تأثر بها ووظفها في شعره الإسلامي، قصة آدم عليه السلام، فمثلا نجده يشبه ما يطمح إليه اليهود في فلسطين من دوام المقام، والاستقرار، بقصة خلود آدم في الجنة فيقول:(1)

وبمسرح الأيام، تبعث قصة أبطالها.. حواءُ والتفاحُ !

ويقول أيضا مصورا موقف الجزائريين من الاستعمار الفرنسي مستخدما القصة نفسها وبنفس التصوير: (2)

وآدم بالتفاح ضيّع خُلدَه ومَاريان(*) بالتفاح نُلقي بها البحرا

جسد لنا من خلال هذا التصوير قصة آدم وحواء في صورة قريبة كأنها تمثل أمام أعيننا على خشبة المسرح، رغم بعدها الزمني بأوجز تعبير، حتى لكأن أبصارنا تقع على الأشخاص، وتتتبع حركاتهم، فإذا الخطيئة ماثلة أمامنا، فنحس بعمق المأساة فنندمج فيها، ونتفاعل معها إيجابيا.

إذن فالحادثة تتكرر، والزمان يتجدد، فقصة آدم تذكرنا بالخطيئة، وترتبط بإبليس "فالشيطان كما هو معلوم له أكبر من حيز لعل أسوأه الخطيئة الذي يرتبط في الذاكرة الجماعية بصورة الغدر والخديعة والشرور والآثام " (3)، إنها صفات لا تفارقنا كلما تذكرنا قصة آدم، إنها جريمة جزاؤها الخلود في جهنم، جريمة تماثلها بل تفوقها جريمة اليهود النكراء التي أدمت قلوب المسلمين في أرض فلسطين، وجريمة الفرنسيين في الجزائر.

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص117.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص306.

(*) يقصد بها الحكومة الفرنسية.

(3) عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ص53-54.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد استبعد الأفعال ووظف الأسماء بكثرة، إذ لم يرد في البيت الأول إلا فعل مضارع واحد هو " تبعث"، وفي البيت الثاني فعلين وردا بصيغتين مختلفتين: صيغة الماضي المعروف، وصيغة المستقبل المجهول " نلقى"، لأن اعتماد الأسماء والصفات دون الأفعال هو إبعاد للحركية وإقرار للسكونية، فما حدث في الماضي هو ما يحدث اليوم، فالحدث هو الحدث، وإن تبدل الأشخاص وتغير المكان.

فالشاعر ينطلق في تفكيره هنا من حاضره، ليعود إلى ماضيه كإنسان، لأن الماضي بمكوناته جزء من حياة الإنسان عبر تاريخه، فقصة أدم هي قصة الإنسان حدثت في بداية الخلق، وتكررت في القرن العشرين، فالرمز هنا قريب بعيد بدلالاته الزمانية والمكانية والدينية.

وإذا كان قد صاغ لنا في البيت الأول قصة آدم في سكونية عن طريق توظيف الأسماء، فقد حاول أن يبعث فيها في البيت الثاني نوعا من الحركية باستخدام فعلين ماضٍ غايته الإخبار، ومضارع هدفه الالتفات إلى المستقبل تأملا وترجيا، بل وإصرارا على تحقيق الأمل المنشود، وبذلك حقق التلاؤم المطلوب بين الأسماء والأفعال، تجلّى بصورة واضحة في هذا الانسجام العجيب، والتظافر المثير من أجل البلوغ بنظام الكلام في البيتين إلى أبعد غايته [1].

فقد استخدم قصة آدم بدلالتها الرمزية الموحية لا لتصوير ماضي الإنسان، بل لتصوير واقعه المعيش، والنظر إلى المستقبل لأن " المبدع لا يميل كل الميل إلا إلى حاضره، ولو كان يكتب عن الماضي البعيد، والزمن السحيق " [2] مستوحيا المعنى من قوله تعالى: " ولاَ تَقْرَبَا هذه الشَّجَرَةَ فتكُونَا من الظَّالمينَ، فأَزَلَّهما الشَّيْطَانُ عنها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيهِ " [3]، لإبراز صورة نهاية الفرنسيين في الجزائر، مقارنا ذلك بإخراج آدم وحواء من الجنة بسبب مخالفتهما لأمر الله، وتعديهما حدوده مستسلمين لإرادة الشيطان، فكان جزاؤهما الخروج منها، غير أن ما يستدعي الوقوف عنده في هذا التصوير هو وجه الشبه، ذلك أن آدم ضيع خلده بالأكل من التفاح مخالفا إرادة الله، فجنى على نفسه

---

(1) عبد الملك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي " لمحمد العيد آل خليفة، ص72.
(2) عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص41.
(3) سورة البقرة، الاية26.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في حين جنى اليهود والفرنسيين على شعبين بأكملهما، فأكلا أرزاقهما، وداسا بمقدساتهما الحضارية وأذاقاهما ويلات العذاب مخالفين بذلك تعاليم كل الأديان، فمهدوا بذلك للجهاد ضدهم وجنوا على أنفسهم. وإذا كان آدم قد استغفر ربه فتاب عليه ورضى عنه، فإن ذنب اليهود والفرنسيين لا يغتفر لأنهم أجرموا في حق الإنسانية، بقتلهم للأطفال، والنساء، والشيوخ، والعجزة، وتخريب العمران وتدنيس المقدسات، وبهذه الأفعال الشنيعة كأنهم قتلوا الناس جميعا.

وكان زكرياء يرى في صور معجزات الأنبياء أروع الأمثلة لمقاومة الظلم والظلام، فأسقطها على ما يجري في الجزائر خلال حربها الكبرى ضد عدوها المعاصر، من ذلك قصص عيسى عليه السلام، كتوظيف قصة صلبه في جريمة إعدام الزعيم البطل " أحمد زبانا " في قوله: [1]

قامَ يخْتالُ كالمسيحِ وئيدًا   يتهَادَى نشْوانَ يتْلُو النّشيدا

نلاحظ أن الشاعر شبه " زبانا " بالمسيح عليه السلام، وقت محاولة صلبه، لكن المقارنة بينهما بعيدة، ذلك أن المسيح لم يصلب فعلا، لأن الله شبهه لهم في شخص آخر اعتقدوه المسيح، بعد أن رفع عيسى إليه، أما "زبانا" فقد أُعدم فعلا، لكن وجه الشبه في الصورتين هو ان كليهما على طريق واحد هو التضحيّة في سبيل المبدأ.

لقد وفق زكرياء في رسم هذه الصورة التي تشكل مع غيرها إطارا عاما لصورة البطل الشهيد في الجزائر المجاهدة.

كذلك استلهم قصة إحياء الموتى بعد وفاتهم، انطلاقا من الآية القرآنية : " فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحيِي اللهُ المَوْتَى ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَعقِلُونَ " [2] فيقول [3]:

وأنطقَ (عيسى) الإنسَ، بعد وفاتهم   فألهمنا -في الحرب- أن ننطق الصخرا

لقد استلهم المعنى المعجز الذي تحقق لعيسى النبي من خلال إقناع الناس بامتلاك قوة إحياء الموتى المسخرة له من الله عز وجل، إذ لا تتوفر لمخلوق عاجز أن يجسدها مهما أوتي من قوة عقل

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص09.
[2] سورة البقرة، الاية73.
[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص306.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعلم سلطان، فخرّ له القوم سجّدا إلا من كفر منهم، واستمر في عناده وطغيانه، ووظفه توظيفا فنيا يناسب واقعه في الجزائر، إذ أصبحت قصة إنطاق الإنس من نبي الله عيسى رمزا له أكثر من دلالة عند زكرياء، فمعجزة عيسى كانت هناك في زمن سحيق، ومعجزة الجزائر هنا في العصر الحديث فإذا كانت لعيسى قدرة إنطاق الإنس بعد وفاته مع أن النطق خاصية من خصائصه، فإن الشعب الجزائري قد تجاوز ذلك إلى إنطاق الصخر الذي من صفاته الجمود، وفي التصوير مبالغة مستقبحة دينيا رغم ما فيها من جدة وابتكار تصويريا، فاستخدام زكرياء للأسلوب القرآني ليس من باب الحكي أو الأخبار بقدر ما هو وسيلة فنية غايته بعث ماضي التاريخ ليعيش في حاضره، ويتشكل بناء على إيجابياته مستقبل الأمة.

لذلك لم يتردد الشاعر في توظيف معنى القوة الخارجة التي تشبه المعجزة لتلهم هذا الشعب العازم على النصر القوة ليحقق بنفسه المعجزة، وأن يكون أكثر قوة وأشد صلابة في النضال، حتى ينطق الأجسام الصلبة بقوة الثورة وصلابة رجالها، وبذلك تتجسد المعجزة في الجزائر، فتؤمن بقية الشعوب بعظمة الثورة الجزائرية، وتضحيات شعبها، فتقتدي بها، وتعود الثقة إلى نفوس أبنائها.

كما كانت لقصص موسى عليه السلام مكانة عظيمة في نفس مفدي زكرياء، يستلهم منها العبرة، خاصة عندما يصور الأحداث العظيمة في تاريخ شعبنا الرازح تحت السيطرة الاستعمارية فيقتبس من هذه القصة أو تلك، من المعاني ما يخدم تجربته الشعرية، ويحقق غرضه السياسي، من ذلك مقارنته بين رسالة موسى ومعجزة التكليم الرباني له، وبين الثورة الجزائرية التي يخصّها الله بنصره فيقول: [1]

وكلّم مُوسَى الله في الطور خفية   وفي الأطلس الجبّار كلّمنا جهْرا

استلهم المعنى من قوله تعالى: " فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أو جِذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

(1) مفدي زكرياء، المصدر السابق، ص306.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوادِي الأَيْمَنْ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ من الشَّجَرَة أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَــا الله ربُّ العَالَمِينَ " [1].

هكذا استمد المعنى من قصة التكليم وجاء بها على صورة المشبه به في صدر البيــت، بينمــا أخر المشبه إلى العجز إبرازا لخوارق معجزات الرسل، وإحداث التأثير القوي في السامعين.

إن التكليم معجزة، فهو رمز له دلالته في التعبير الشعري، وموسى رمز أيضا له هــو الآخــر دلالته، إنه النبي حامل رسالة السماء، مرسل لهداية البشر، وإزالة الظلم والتسلط، رســولا إلــى بنــي إسرائيل، رمز المقاومة وعدم الاستسلام، أمد الله بعونه، فهو هناك صامد في وجــه فرعــون، وفــي الجزائر موسى الثاني صامد في وجه المحتل الغاشم، وقد كلمه الله كما كلم موسى النبي.

وبالتأمل في البنى التعبيرية للبيت، نقف على دلالات ما توحي به التراكيب التي شكلت صــورة عامة من الصورتين هما: التكليم في جبل الطور وفي جبال الأطلس.

وقد استطاع الشاعر أن يجعل وحدات البيت قادرة على استيفاء الفكرة والتأثير بها من خــلال أسلوب التقديم والتأخير، فتركيب الوحدات الثلاث: كلم موسى الله، لها دلالتها التركيبية، والمعنوية، فقــد خص موسى بالتكليم دون غيره من الرسل والأنبياء على سبيل المعجزة، لأن لفظ موسى هو الأســاس هنا، وهو المحور، وكل ما حوله يدور في فلكه.

أما تركيبة الشطر الثاني فدلالتها تختلف، لأن المخصوص هو الاطلس، رمز المعجزة الإلهيــة فهي المحور والباقي يسير في فلكه، لأن الجبال هي مركز الثورة وأبطال الجهاد، منها طلــع صــوت الأحرار ينادي للاستقلال.

وكعادة زكرياء في تصوير أحداث الثورة، نلمس هذه المبالغة التي عودنا عليها، حيث شبه نــداء الجهاد في ثورة الجزائر بتكليم الله لنبيه موسى على جبل الطور لمجاهدة طغيــان فرعــون، وتصــل المبالغة أقصاها عندما يصور الخالق يكلم الثوار في قمم الجبال جهرا، بينما كلم موسى ســرّا، وهــذا

[1] سورة القصص، الآيتان29-30.

لزيادة التهويل قصد تحقيق التأثير النفسي المرغوب في المخاطبين، عن طريق استثمار ما في البنى التعبيرية من دلالات وإيحاءات.

تلك طريقته في الاستفادة من التراث، فهو هنا " لم يجد من سبيل إلى ضمان الشعور بالاستمرار عبر مختلف أحقاب التاريخ إلا باللجوء إلى الماضي " [1] من تاريخنا الإسلامي عبر هذه الصور المشكلة من حدثين متباعدين زمانيا ومكانيا، ومتفاوتين مضمونيا " لأن الصورة طريقة خاصة من طرق التعبير، ووجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصيات وتأثير " [2].

ولا يزال الشاعر يوظف القصص القرآني ليدلل على ما يريد إيصاله إلى المتلقي، لأن الثورة مازالت مشتعلة، والنضال عسيرا، والتضحيات كبيرة، لذلك يلح على ضرب الأمثلة لغرس الثقة في النفوس، لدوام استمرار الجهاد، وإمداد الثورة بكل وسائل القوة والدعم المادي والمعنوي مادام هذا الشعب يجاهد في سبيل مبدأ الحق، والخير، والحرية، وعندئذ يهون عليه كل شيء، وتلين له الأمور كما لانتّ لأسلافه أمثال النبي إبراهيم عليه السلام الذي استمر في الثبات على المبدأ حتى نصره الله على قومه، ونجاه من مكائدهم.

هكذا عودنا زكرياء كيف يأخذ اللفظ أو العبارة أو المعنى القرآني ويوظفها على نحو خاص وبدلالة جديدة، تماشيا مع الموقف الذي يتخذه من أحداث مجتمعه، ومعاناته اليومية، منطلقا من الدلالة الجزئية للقصة القرآنية إلى آفاق جديدة، بطريقة إيحائية إبداعية، تجسد الفكرة وتمثل عليها، وتوجزها إيجازا إيحائيا[3].

إلى جانب استلهام زكرياء معاني قصص القرآن لبناء صوره الشعرية، فقد استخدم كذلك الرمز كأداة فنية استمدها من تراثه وثقافته وتجاربه في الحياة المعيشة للتعبير عن رؤاه، وتصوير مشاعره

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص292.
(2) عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب 1988، ص38-39.
(3) إيليا الحاوي، أبو القاسم الشابي، دار الكتاب اللبناني، ج02، ط03، 1981، ص103.

النفسية، وذلك عن طريق استعراض قصص وأحداث ونماذج لها مكانتها في نفوس الناس وحياتهم ماضيا وحاضرا، وسواء كانت هذه الرموز ابتكارية أصيلة، أو تاريخية مثيرة، أو حضارية بالذكر جديرة، أو خيالية أسطورية، فإنها تعد من الوسائل التعبيرية الإشارية الوجيزة التي لها القدرة على التأثير في المتلقي، لأن الرموز تضفي على لغة الشاعر سمة العمق والشفافية، وتعيّن الصورة لئلا تكون تشابها بين شيئين، لأن في الإشارة معجزة تعبيرية ... والإشارة ظل لا يفسر، ولا يجلى، لأنه يكتفي بالإيحاء والتلميح، وفيه رحابة وانطلاق يدفعان بك إلى الغوص البعيد المقصود إلى المعنى وظله[1]...

والرمز كما يصوره الدكتور عز الدين إسماعيل: " وجه مقنع من وجوه التعبير بالصورة " [2] وهو بهذا المفهوم يؤدي وظيفة قريبة الشبه بالصورة حيث يعبر عن التجارب والمشاعر بطريقة فنية إيحائية، لكنه لا يبلغ مبلغ الصورة الشعرية في العمل الإبداعي، بل يحتل مكان الجزء أو البعض من الصورة المعبرة عن تجربة الشاعر.

وكان شعراء الجزائر إبان الثورة يلجأون إلى الرمز لتوصيل أفكارهم هروبا من المتابعات الاستعمارية، إلا أن هذا الرمز بسيط سهل الإدراك... لأنهم لم ينظروا إليه بوصفه صورة فنية بقدر ما كانوا يسعون لتجسيد أفكارهم في قالب أقرب ما يكون إلى الرمز، وإن شئت هو شبيه بالكتابة[3]، وهذه الرموز لا تحتاج إلى كبير معاناة من أجل بلوغ الحقيقة في التجربة الشعرية.

وقد استطاع زكرياء أن يعطي مدلولات لرموزه التراثية في شعره الإسلامي، يوظفها التوظيف الملائم، لأن التعبير بالرمز عنده هو جزء من الصورة القرآنية، أو الحديث النبوي، غايته التأثير في السامعين بواسطة القصص، أو العبارات، أو الألفاظ الإشارية التي تحمل دلالات لها بعدها الديني والأخلاقي والاجتماعي والسياسي، كما وردت ذات يوم، لاستخلاص العبر والاقتداء بالسلف، وتتحول

---

(1) درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1972، ص455.
(2) الشعر العربي المعاصر، ص195.
(3) الوناس شعبان، تطور الشعر الجزائري من سنة 1945 حتى 1980، ص201.

المعاني إلى دلالات جديدة من خلال التعبير الفني الجيد، وقدرة الشاعر على الصياغة اللفظية المناسبة للموقف، وهكذا تحولت تلك القصص إلى رموز لها معانيها الخاصة، فغدا إبراهيم رمز الصبر والتحدي والانتصار على الظلم، وعيسى رمز التضحية من أجل المثل العليا، وأيوب رمز الصبر على البلاء، ومريم العذراء رمز الطّهر والنّقاء ... إلخ.

ويأتي في مقدمة الرموز المستخدمة في شعر مفدي زكرياء الإسلامي شخصية نبي الله عيسى عليه السلام، فقد وظفها في مواطن عديدة، وبدلالات مختلفة، تماشيا وموقفه من الأحداث مضرب المثل.

فقد استوحى من القصة معنى التضحية في سبيل الواجب الأعظم، والرسالة النبيلة بقوله[1] :

قامَ يختالُ كالمسيحِ وئيدًا   يتهادى نشوانَ يتلو النشيدا

وامتطى مذبحَ البطولةِ مِعْـ   ـراجًا، ووافى السماء يرجو المزيدا

لقد استمد المعنى السامي من قصة عيسى المسيح الواردة في القرآن الكريم، وأسقطها على " زبانا " شهيد الحرية والعدل والإسلام في الجزائر.

إن المسيح رمز له دلالاته المتعددة، رسول الحق، هادي البشر، رمز التضحية في سبيل أداء الواجب.

إن إسقاطه على " زبانا " ليس من باب الصدفة، بل هو المسيح هنا كما كان المسيح هناك لم يمت، ورسالة الحق ستنتصر.

فزبانا لا يقل عظمة عن عيسى في التضحية من أجل المبدأ، وهو تعبير فيه مبالغة على عادة الشاعر في مثل هذه المواقف، دون أن يكترث بما يقوله الناس عن استخداماته لهذا التوظيف، ومع ذلك فقد استطاع بريشته الشاعرية أن يرسم لنا هذه الصورة الأليمة، معتمدا الرمز كأداة فاعلة في نقل التأثير إلى المتلقي.

---

[1] ديوان اللهب المقدس، ص09-10.

إن الصور تبدأ بقيام البطل والاقتياد إلى المقصلة، فالصورة شبيهة باقتياد المسيح إلى الصليب لكن ألوان الصورة تختلط، الموقف مفزع، لكن فيه نشوة وإنشاد، وإقبال على الاستشهاد لينتصر الحق وتسمو الفضيلة.

لقد استطاع زكرياء ببراعته أن يحول الرمز إلى دلالات، وأن يجعل منه ركنا أساسيا في بناء الصورة، وبالتالي أداة بالغة التأثير في النفس ينقل الماضي ليصير حاضرا لاستلهام العبر منه لمواجهة المستقبل، فالقصة رامزة تشير إلى حدث مرتبط بالزمن، فالماضي مضى، والعودة إليه لا تعني الحنين والاجترار، بل للبحث فيه عما يعيد الثقة بالنفس، ويحفز إلى الجهد والتجاوز، ويحفظ استمرار الأمة. على هذا الزمن إذن أن لا يبقى خادما لنفسه، فواجبه أن يكون خادما للحاضر والمستقبل[1]، وهو ما يسعى إليه زكرياء من خلال توظيف التراث.

التزم زكرياء الخط الأصيل واستعمل ما في تراث أمته بدلالاته الروحية وإشعاعاته الإسلامية فالرمز عنده وسيلة لتحقيق غاية على طريق الأصالة والمجد لأمة سماها القرآن: " خَيْرَ أمّةٍ أُخرِجَتْ للنّاسِ "[2]كما وظف قصة الإسراء والمعراج المعجزة، والتي أسرى الله فيها بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس في الليل، وكان هذا الإسراء معجزة كبرى للمشركين، آمن منهم من آمن، بعد أن حدثهم النبي عما رآه في طريقه إلى القدس، وكان مقيما معهم فلم يغب عنهم، وقد أشارت إلى ذلك الآية: " سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إنّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ " [3]

لقد أخذ الشاعر لفظة الإسراء ووظفها توظيفا ابتكاريا عبّر فيها من خلاله عن بداية الانطلاق في التغيير الجذري لواقع المجتمع الجزائري، كما حدث بعد ليلة الإسراء وما أوحى به الله لنبيه، وما فرضه على أمته من واجبات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، ص105.

(2) سورة آل عمران، الآية 110.

(3) سورة الإسراء، الآية 01.

فالمعجزة قائمة عند الشاعر هنا وهناك، رغم الفوارق الزمانية والمكانية، وهي وسيلة النصر، فكما فتح الله عز وجل على أمته عن طريق نبيه ليلة الإسراء، فتح على هذا الشعب العظيم في ليلة الفاتح من نوفمبر 1854 فيقول مخاطبا نوفمبر: (1)

تباركْتَ شهرًا بالخوارقِ طافحًا وسبحانَ، من بالشعبِ، في ليلة أسرى

كما رمز بغزوة بدر إلى ما يجري في الجزائر من جهاد حقيقي بين المسلمين وأعدائهم، وهو رمز يصور ما يجري في أرض الواقع، فلا غموض فيه، مع مبالغة الشاعر في الإيغال في التشبيه، إذ من غير المقبول تماثل المعركتين، فتلك بين الشرك والضلال، إذ انهزم المسلمون انطمست معالم الإسلام، وعاد المجتمع إلى جاهليته، وكان قائد المعركة رسول الله المسير بالوحي، وبين هذه التي هي سجال اليوم لهذا وغدا لذاك حتى يتحقق النصر لأحدهما، لكن تعلق الشاعر بوطنه ومعاناة شعبه شدّه إلى مجود أمته يستلهم منها المعاني والعبر، للوثوب إلى آفاق مستقبلية مشرقة فيقول (2):

وحدّثنا عنْ -يوم بدر- محمدٌ فقُمنا نُضاهي في جزائرنا " بدرا "

فالرمز هنا سهل وواضح، لأن مفدي تميز بالوضوح في مقاصده، فلا يميل إلى استعمال الرموز والأساطير التي تضفي على شعره الغموض، وإنما ترد استخداماته لاستخلاص العبر والعظات من الأحداث والمواقف لخدمة قضايا أمته.

ومن الرمز عن طريق استعمال العبارة الإشارية، توظيفه للحديث النبوي الشريف كقوله في قضية اغتصاب فلسطين(3) :

قل للأساطيل التي أصبحت في بحرنا الآمرة الناهيه

من أجبر الدنيا على حبّنا فاستسلمت طيعة راضيه

ونحن قومٌ عهدنا ذمّة ما لم تخنّا الفئة الباغيه

---

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص309.

(2) المصدر نفسه، ص309.

(3) مفدي زكرياء، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 96، نوفمبر، ديسمبر 1986، ص183.

فقد رمز بالفئة الباغية للصهاينة الخائنين الذين لا عهد لهم، مستلهما المعنى من حديث الرسول (ص) في وصيته لحفيده الحسين في صغره بأن قتله يتم على يد الفئة الباغية.

إن ما في الرمز من قيمة فنية هو هذا الإسقاط في الدلالة بين ماضي تاريخ أمتنا وحاضرها ففي ماضيها اغتيال الحسين، وفي حاضرها اغتيال الفلسطينيين على مرأى المجتمع الدولي من طرف الفئة الباغية، غايته استثارة النفوس، وشحذ الهمم، لتحرير فلسطين السليبة.

لقد جسد لنا مفدي هذا المعنى عن طريق الرمز دون الإشارة إليه صراحة، وهي قمة التصوير، لأن القوة في أي استخدام خاص للرمز لا تعتمد على الرمز نفسه بمقدار اعتمادها على السياق التعبيري في صوغ علاماته، بحيث يكون أداة نقل المشاعر بغية إضاءة الموقف المراد إيصاله[1].

ومن الرموز الدينية التي وظفها توظيفا فنيا بارعا قصة النبي سليمان الحكيم عليه السلام مع الجن الذين ادعوا معرفة الغيب، فأراد الله أن يؤكد لهم جهلهم التام بمعرفة الغيب، من خلال جهلهم تاريخ وفاة سليمان الذي كان متكئا على عصاه، فما استطاعوا التقرب منه، ولا معرفة ما آل إليه، حتى أكلت الدابة العصا فسقط على الأرض، فأيقنوا عندئذ بوفاته. فاستخدام العصا عند سليمان أداة لها دلالتها الوظيفية في الحياة اليومية، يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى، كما يقول القرآن الكريم، وقد رمز بها إلى ما يتكئ عليه ديغول الحاكم الفرنسي من عظمة زائفة لم تقو، ولم تصمد أمام الثورة الجزائرية الزاحفة، بل انكسرت انكسار الزجاجة الهشة، التي لا يلئم كسرها، وكان غافلا وجاهلا جهل الجن، حتى كسرت الثورة عصا فرنسا ودكت عظمتها، فلم يعد لسياستها إلا الذكر كما بقي لقصة سليمان الذكر مدى التاريخ فيقول: [2]

وما دلّنا عن موتِ من ظنّ أنّه سليمانُ–منساةٌ– على وهمها خرّا

ويقول في موضع آخر[3] :

---

(1) عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ص118.

(2) مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، ص306.

(3) مفدي زكريا، من وحي الأطلس، ص147.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سيُهزمُ الجمعُ... مهما تخ في عمه   وينجلي الصبحُ في دنيا الد[illegible]ات

سأَلوا (سليمان) والمنساة تخذله   هل دام إيوانه فوق الخيالات؟

أراد الشاعر أن يجعل رؤاه صورا تتولد من هذه الرموز وما توحي به من دلالات تاريخية وحضارية، بحيث صارت قوة ناقلة للتأثير عبر هذا النسيج التعبيري الموجز، الذي فجر أحاسيس الشاعر والمتلقي على حد سواء، فالمتأمل في قصة سليمان الواردة في البيتين يتضح له من الوهلة الأولى مضمون الرمز الذي أشار إليه القرآن الكريم[1]، ففي الأول للدلالة على التمسك بالأمور الزائفة التي لا تعكس الحقيقة ولا توصل إلى نتيجة مرضية، وفي الثانية إلى زوال الزيف وظهوره إلى الناس على حقيقته، وأن الكل إلى زوال، فما هو قائم اليوم قد يندك غدا، ولا يبقى له إلا الذكر...

وهنا قد يبدو الرمز بسيطا للسامع والقارئ، يمكن معرفته بسهولة عندما يسترجع القصة المعجزة الراسخة في ذاكرته، خاصة إذا كان حافظا للقرآن الكريم، لكن الذي يتأمل الصورة الإشارية للرمز من خلال ما يوحي به من ظلال وألوان، يقف له عند دلالات زمانية ومكانية وحضارية عميقة عمق بعدها الديني والاجتماعي والسياسي والفني، فالدلالة الزمانية للقصة قديمة، جديدة، قديمة لأنها تغوص في أعماق التاريخ الحضاري للإنسان، لا نعلم عنها إلا ما علمنا العليم الحكيم، وجديدة لأنها مضرب المثل حاضرا نعيشها في واقعنا، زمان يتكرر في لحظة وجيزة، معان تتفجر، صور تتولد وتتشابه، أولئك جاهلون الحقيقة لا يدرون ما حل برسولهم، وذا جاهل وقومه حقيقة أمرهم، وزيف عظمتهم، لا يدرون من الأمر شيئا، مع ادعاء هؤلاء وأولئك بالمعرفة اليقينية فما أشبه اليوم بالبارحة! أما الدلالة المكانية فهي بعيدة بعد المسافات والأمصار، تلك في أرض الميعاد، وهذه في أرض الجزائر، سليمان هناك، وسليمان هنا، فالأحداث تتشابه والأشخاص يتماثلون فما أشبه هذا بذاك!

---

(1) استوحى المعنى من قوله تعالى: " فلمّا قضيْنا عليْه الموت ما دلّهمْ على موْته إلا دابّة الأرْض تأكلُ مِنْسأتهُ فلمّا خرّ تبيّنت الجنُّ أن لوْ كانوا يعْلمون الغيْب ما لبثوا في العذاب المُهين " سورة سبأ الآية: 14.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأما الدلالات الحضارية فيمثلها سليمان رمز الحضارة السحرية العجيبة: تكليم الطير، تسخير الجان، تسخير الرياح، فسليمان الرمز يعني الخاتم السحري الذي لا يعسر عليه شيء، بل تلين له الأجسام الصلبة.

سليمان رمز الحكمة، ورجاحة العقل، فالحافظ للقرآن العارف بقصة سليمان يتجه فكره إلى ما تمثله الصورة الرمز من دلالات حضارية ممثلة في الحضارة اليمنية القديمة التي بلغت الذروة في عهد الملكة بلقيس[1].

من هذا المنطلق يتحول سليمان ذاته إلى قيمة حضارية، ودينية واجتماعية وسياسية، ويتحول كذلك إلى رمز لكثير من الأمور في آن واحد، تتساوق تباعا، يستشفها العقل الثابت، والمثقف البارع العارف بالقرآن الكريم وقصص الأنبياء.

أما الدلالة الفنية فهي " تلك لتي تمثلها لفظتا " سليمان والمنساة " في السياق الشعري هنا من أصالة وعمق ، سليمان النبي الحكيم، ذو الخاتم السحري أصالة مبنية على أسس روحية تضرب بجذورها في ماضينا العريق بكل مكوناته الحضارية، وعميقة لما تتسم به من بعد فلسفي مع مسحة جمالية، ذات أثر فعال في النفس، والمنساة وسيلة متعددة الاستعمالات والدلالات منذ بداية الإنسان.

لقد استنطق النص القرآني وحوله إلى رموز استثمر ما فيها من دلالات زمانية ومكانية ودينية وحضارية أثرت في المتلقي وجعلته يتفاعل مع تجربة الشاعر، لأن " النص القرآني يقرر قاعدة عامة يطلقها من قيود الزمان وملابسات البيئة ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان ومكان... "[2].

فالتصوير رائع هنا لأنه ولد فينا هذا الإحساس العميق بين زمن الأحداث وما توحي به في الحالين عن طريق هذا التوظيف الذكي والمبدع من الشاعر من خلال هذه الألفاظ المكثفة " سلوا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص71.
(2) صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في " ظلال القرآن "، دار الشهاب، الجزائر، 1981، ص170.

سليمان والمنساة "، لقد أخرج سليمان والمنساة من الزمن القديم، فهو قائم اليوم ببعض صفاتـــه، وغـــدا كما كان قائما بالأمس، أخرجه من الزمان إلى اللازمان، لأن الدلالة الزمنية قاصرة عن التعبير، تنتـهي بانتهاء الحدث، أما زمن سليمان والمنساة فمطلق لا نهاية له، قائم ما قام الحـــدث هنـــا وهنـــاك، ومـــا تشابهت المواقف، فالصورة الرمز هنا صورة إستمرارية، لأنها لا زمانية ولا مكانية.

لقد حققت هذه الصورة الفنية الرامزة الموحية من الأثر فينا ما لم تحققه الصور الخيالية، مـــن خلال ما أوحت به من دلالات بعيدة وقريبة، باستخدام عناصر تراثية استخداما فنيا جديدا يعـــبر عـــن تجربة الشاعر، وبذلك حقق الغاية فكرا وأسلوبا. ومثل هذه النماذج كثير فـــي شـــعر مفـــدي زكريـــاء الإسلامي مثلما ورد في إلياذة الجزائر، حين صور مجد الجزائر، مستخدما الرموز التراثية المســـتمدة من الحضارات القديمة، والتي أشار إليها القـــرآن الكريـــم كقصـــة: ثمـــود، عـــاد، نـــوح، وإرم ذات العماد...إلخ.

ومن الوسائل الفنية التبليغية التي اعتمدها الشاعر، الأساطير والخرافـــات التـــي تـــدور علـــى الألسنة، وتنبع من أعماق المجتمع، لما تتميز به من رموز موحية لها دلالاتها الدينية، أو التاريخيـــة، أو الاجتماعية في حياة الناس، لذلك فإن التعبير الأسطوري البدائي يجعل صاحبه ينطق كما يقـــال بـــألف لسان، ويرفع الفكرة المعبر عنها درجات تتجاوز مستوى الوقتي العابر، إلى كل ما هو حـــامل لـــروح الديمومة والاستمرار، بل والأكثر من هذا أن يجعل ما يبدو تعبيرا فرديا تعبيرا جماعيا[1].

ومن الأساطير القديمة التي استخدمها زكرياء في شعره لتوضيح رؤيته، ونقل تأثره بمظـــاهر طبيعة الجزائر الساحرة إلى الآخرين، أسطورة نقل مدينة المدية بضواحي الجزائر العاصمـــة، حيـــث استعرض القصة في أسلوب تصويري رائع إذ يقول[2] :

(1) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص224.
(2) مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عـــــلا بالمدينـــــة تـــــاج الجـــــلا   ل، تأعلـــــــي بمايانـــــــة الـــمفرقا

ملائكـــــة الله ... هـــــل نقلـــوها ؟؟   أجـــــل مـــن رأى حسنهـــا صـــدقا

لقد اختصر الشاعر القصة وعبر عنها بما يرمز إليها لابراز جمال المدينة الخلاب، حيث جعـل من هذه المدينة رمزا للحضارة وتقدم العمران الإسلامي في الجزائر، فلم يجد وسيلة للتصوير الدقيـــق أفضل من هذه الأسطورة التي يزعم فيها الزاعمون أن المدينة معناها أن البلدة قديمة عتيقة، بنيت فـــي مكان آخر غير مكانها الحالي، ثم قامت ملائكة الله بنقلها إلى هذا المكان.

لقد انسكبت روح الشاعر في مزهرية هذه الصورة فـأضفت عليـــها مســحة مــن مشـــاعره وأحاسيسه، حتى يكاد السامع يصدق ما ينقله إليه الشاعر عن طريق هذا التصوير الأسطوري الـــذي لا تخطئه المبالغة السابحة في عالم الخيال المجنح، والذي ليس له سند علمي، أو ديني، أو تاريخي، ومـــع ذلك بلغ التصوير غايته الفنية من خلال الصياغة التعبيرية الجميلة التي ميزها أسلوب المحاورة الموهـم باليقين. والحقيقة المؤثرة في نفسية السامع تكمن في بناء الصورة عن طريق التوظيــف الجيــد لــهذه الأسطورة التي جعل منها عنصر تأثير قوي.

ومن جمال التصوير الشعري عند مفدي زكرياء، قدرته على منح دلالات جديدة لـــــها علاقـــة بالواقع المعيش في جزائر الثورة كتلك التي صور بها حادث مسخ الموكـــب العرائســي فـــي حمـام المسخوطين (*) بقالمة في التاريخ القديم، وأسقطها على الفرنسيين بقوله: (1)

وقالمـــــة تـــزهـــــو بحمامـــــها   يهدهـــــد معســـــول أحلامــــــها

ويرجـــف بــــركانها ساخــــــطا   فيمســــــخ صنــــــاع آثامهــــــا

ويمضـــــي الزمـــــانُ ويأتــي الزّما   نُ، فيضحـــــك مــن ذقــن أصنامها

فيالـــــكِ أسطـــــورةٍ لـــم تَـزلْ   نسيـــــرُ علـــى هـــدْيِ إلهامـهـا

(*) حمام معدني قرب مدينة قالمة بشرق الجزائر، سمي بحمام المسخوطين.
(1) مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، ص: 73.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولقَت شرارتها أشيـ [*] ـري، وكان عدوًّا لإسلامها

إن الأسطورة قديمة جديدة، قديمة توحي بمدلولها الأسطوري المتمثل في ذلك الحفل البهيج المقام من أجل زفاف أخت لأخيها في إحدى القبائل المجاورة للحمام، بحضور قاضي البلدة، عاقد الزواج بين العروسين، فغضب الله عليهم ومسخهم أحجارا لا حركة فيها، توحي للناظرين بمشهد الموكب العرائسي إلى حدّ الساعة، عقابا لهم على إثمهم الشديد، وتعديهم حدود الله، لقوله تعالى: " تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا " [1].

فمن دلالة السخط الأسطوري المسلط على الآثمين استمد زكرياء الدلالة الجديدة عبر التركيبة الشعرية الموفقة، التي توحي هي الأخرى باقتصاص سكان قالمة من المعتدين الفرنسيين بسبب آثامهم وإجرامهم في قالمة وغيرها من أرض الجزائر، كانتهاك الحرمات، وسفك الدماء، وغيرها من مظاهر الهمجية الحديثة.

في الصورة إسقاط للموقف المجسد للخطيئة والعقاب في الأسطورة، على خطيئة الإجرام الفرنسي في الجزائر كلها، وفي مكان حادث الأسطورة القديمة نفسه وهو قالمة، حتى لكأن الأسطورة والحقيقة تعانقتا في الدلالة، وأوحتا بالموقف، من خلال هذا الشعور القوي، وهذه العاطفة الإسلامية المتدفقة إنسانية، والتي لعب التكثيف فيها دورا قويا لإبراز هذه الدلالات البعيدة القريبة. البعيدة بماضيها التاريخي، والقريبة بحاضرها أيام ثورة التحرير، وامتدادها إلى آفاق مستقبلية، حيث تكاد تخرج من دائرة المحدود إلى اللامحدود، لتنطبق على مثيلاتها من الأحداث، أو بمعنى آخر كلما كان هناك تجاوز لحدود الشرع واقتراف الآثام والمعاصي، وارتكاب الجرائم الإنسانية.

والخرافة أيضا كان لها وجود في شعر مفدي الإصلاحي، إذ استخدمها أداة غنية في بناء صوره الشعرية، حيث استقى منها بعض المعاني القديمة النابعة من عمق الحياة الشعبية، ووظفها

(*) جلاد فرنسي لقي حتفه على أيدي الفدائيين في منطقة الحمام.

(1) سورة البقرة، الآية: 229.

توظيفا إيجابيا، عالج بها بعض قضايا زمانه في مجتمعه الجزائري، كمحاربة الجمود الفكري، والجهل الذي عشعش في أفكار الناس، فراحوا يؤمنون بكل ما يلقي إليهم دون تمحيص، أو تدقيق، فاستمع إليه يدعوهم للنظر فيما حققته النهضة العلمية في فرنسا والاقتداء بها في مجال العلوم والفنون فيقول: [1]

وانظروا النهضة التي (بفرنسا) دولة العلم والذكا الوقّادِ

ودع الشامتين في برزخ الجهـ ـل، يعيشوا ويقتدوا بالجمادِ

هم على الأرض وهي في قرن ثورٍ وعلى الثور حشرُهم للمعادِ

تلك إشارة واضحة من زكرياء عبر هذا التصوير، إلى ما عاناه المجتمع الجزائري إبان الاحتلال من انحطاط، مستخدما أسلوبا مبطنا بسخرية لاذعة، استمد مضمونها مما أوحت به تلك الخرافة القديمة المتداولة في الأوساط الشعبية إلى حد التصديق بها عند عوام المجتمع؛ وهي أن الكرة الأرضية على قرن ثور منذ نشأتها إلى تاريخ فنائها، وما الهزات الأرضية التي تحدث هنا وهناك من حين لآخر إلا نتيجة لتعب الثور ونقلها من قرن لآخر.

إن الخرافة هنا تحولت إلى وسيلة احتجاج، ونقد، وتوجيه للمجتمع، لبست لباس الرمز، لأنه اجتث حدثا من أحداث التاريخ أقحمه في عالم الأسطورة لتتضاعف قدراته على الإيحاء، ويقوى تأثيره[2] في المخاطبين.

هكذا وظف زكرياء الخرافة في شعره الإصلاحي توظيفا هادفا، جعل منها أداة فنية فعالة في البنية التعبيرية، فكان لها دورها في توضيح المعنى المقصود بأوجز تعبير، وأجمل تصوير، محققة الإقناع الفكري لدى السامع، ليعيش المعاناة وجدانيا، ويغوص في عمق المأساة الاجتماعية، والثقافية في جزائر عهد الاحتلال الفرنسي، وهو في هذا التوظيف مخالف لنهج الشعراء المعاصرين الذي

---

(1) مفدي زكرياء، جريدة وادي ميزاب، الجزائر، ع62 بتاريخ 23-12-1927.
(2) عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، ص120.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يوظفون الرموز توظيفا خاصا، يضفي على بنيتهم الشعرية كثيرا من التعقيد والغموض، لأنه يوجه لفئة مخصوصة، وعلى قدر كبير من الثقافة والإطلاع، بينما شعر زكرياء موجه لعامة الناس.

والخلاصة التي نصل إليها من وراء هذا التحليل: أن الصورة الشعرية عند مفدي زكرياء أداة فنية استخدمها للتعبير عن رؤاه وتطلعاته، فهي تقوم إلى جانب اللغة والموسيقى بتجسيد المعنى المراد توضيحه ونقل تجربته إلى المتلقي تصريحا أو تلميحا.

وقد اتسمت معظم صوره بالواقعية والسطحية تماشيا مع روح الإصلاح والإرشاد من جهة، ومع روح الحماس والثورة من جهة أخرى، منتهجا نهج الأقدمين في استعمال الصور البلاغية من تشبيه واستعارة، وغيرها، متأثرا بأساليبهم اللغوية.

كما احتل التصوير القرآني مكانا بارزا في قصائده، وكانت قصص القرآن ورموزه عناصر مهمة في بناء صوره، لذلك جاءت موجزة في غير إخلال، واضحة المعالم، سهلة الإدراك لدى المخاطبين، موحية بدلالاتها الزمانية والمكانية والحضارية، فالماضي قائم في الحاضر، والحاضر مطية المستقبل، لقدرته على حسن الصياغة وتشكيل البنية الشعرية.

كما تعامل مع الواقع الشعري وتفاعل معه، فجاءت بعض قصائده أقرب ما يكون إلى الصورة الحديثة.

الموسيقى الشعرية:

تعد الموسيقى الشعرية من العناصر الجوهرية في القصيدة، لما تتركه من أثر في نفسية المتلقي بواسطة ما تنقله إليه من أفكار، وحسن اختيار الألفاظ، وجمال صياغتها صياغة تجعل الألفاظ ملائمة في حركاتها وسكناتها لما تستأنس به النفس، ويرتاح إليه البال، فيستسيغها السامع، ويشعر فيها بالمتعة والجمال، لذلك قيل: إن الشعر موسيقى ذات أفكار.

وللجمال الموسيقي أثره الكبير في نفوسنا، لذلك تتعلق به النفوس وتسعى إليه في كل مظاهر الحياة بما في ذلك جمال القصيدة الشعرية، لأن " للشعر نواحي عدة للجمال أسرعها إلى نفوسنا ما فيه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من جرس الألفاظ وانسجام في توالي المقاطع، وتردد بعضها بقدر معين، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر" [1].

فالموسيقى تذهب عن الإنسان الشعور بالملل والرتابة في حياته،اليومية التي كثيرا ما تضيق به، فيحتاج إلى ما يريحه، والقطعة الشعرية بنغماتها وإيقاعها تزيل هذا الإحساس بما تدخله على القلوب من لحن مطرب يهز النفوس، فيقع التلاحم بين الشاعر وجمهور المتلقين، وهذا ما جعل أحد النقاد يعرفها بقوله: هي "مجموعة من الأصوات التي يتألف من ضرباتها المتدفقة نغم يلمس المشاعر وفي إيقاعها لحن يهز أوتار القلوب، وفي الإنسان منذ القديم ميل غريزي فطري للألحان، وفي روحنا استجابة طبيعية لتلك الألفة التي تتحقق بين المنشد والسامع، أو التي تكون بين اهتزازات المنشد وارتعاشات في قلب السامع[2].

هذا ويكون للوزن العروضي، والقافية المتكررة وغيرها من مصادر الإيقاع دور مهم في هذا التأثير أيضا... " لأن الأثر الشعري هو في النهاية شكل إيقاعي، يسعى إلى طرح رؤية تنقل إلينا عبر جسد القصيدة، أو مادتها، أو شكلها الإيقاعي، ومن ثم فالقصيدة نغم وتعبير يجمع بين الإيقاع والمدلول ويصل بين التعبير وصاحبه وموضوعه في آن واحد، إن ثمة لذة سحرية في الحركة التقنية النابعة من إيقاع الكلمات ومقاطعها، وبهذا تصبح الكلمات والموسيقى في القصيدة الشعرية إيقاعا يصل بين النفس والكلمة، بين الإنسان والحياة " [3].

إن الموسيقى الشعرية تنتج عن توالي التفعيلات وتتابعها بصورة تؤدي إلى خلق نوع من العلاقة بين أجزاء البيت الواحد، أو القصيدة، لأن التفعيلة المنفردة لا قيمة موسيقية لها، وإن وجدت فهي جزء من كل متكامل، وإلا صارت كل لفظة على وزن تفعيلة في الكلام ذات قيمة موسيقية، وهو

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) ابراهيم انيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، ط05 1981، ص908.
(2) محمد زكي العشماوي، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص134.
(3) [illegible]

ما يتنافى مع الفن الشعري.

ومادام الشعر في جوهره فكرا وعاطفة وصورة، ولغة، وموسيقى، فإن عاطفة الشاعر مهما اتجهت لا يمكنها أن تستغني عن الموسيقى لكونها الوسيلة الفعالة لإثارة العاطفة، وإكسابها القدرة على التأثير في السامعين[1].

من هنا نستطيع القول إن الموسيقى الأصيلة في القصيدة الشعرية هي التي تتكون من جميع العناصر الفنية التي يستخدمها الفنان المبدع استخداما يجعلك تحس ذلك الأثر القوي الذي تتركه القصيدة في نفسك، وتحس كذلك بنفس الشاعر تنقل إليك عبر هذا الاستخدام المتناسق، والمتكامل لمختلف الأدوات الفنية، لأن الموسيقى الشعرية الخالية من قوة النفس، وفيض العاطفة تفسد الفن الشعري وتخرجه عن روحه الصادقة الأصيلة، وتدخله في دائرة الرنين الخالي من كل معنى، ولا ينفصل الإيقاع عن الصورة الشعرية (العنصران الأساسيان في الشعر) فهما يجريان سويا في حلبة الشعر كما يرى يحي الشيخ صالح[2].

والإيقاع نوعان حسب مصدر تشكيله:

- ما كان مصدره الوزن والقافية والمحسنات اللفظية فهي الموسيقى الخارجية.
- وما كان مصدره حسن الصياغة، وتوافق أصوات الألفاظ والعبارات وما توحي به من دلالات فكرية وشعورية فهي الموسيقى الداخلية.

ومفدي زكرياء كغيره من شعراء الجيل الإصلاحي المحافظ اعتمد في نظم قصائده على الأوزان التقليدية إحياء لتراث الأجداد، وصمودا في وجه موجة التجديد والتحرر من كل ما هو قديم وتراثي، ويرى: " أن عمود الشعر العربي " غير المغموز النسب - يبقى شامخا أمام أي تجديد في

(1) المرجع السابق، ص186.

(2) شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص295.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التعبير والتفكير في حدود الشخصية الذاتية للغة صممت في وجه الزمن " [1] متأثرا في ذلـــك بتراثنــا الشعري، قديمه وحديثه، وناهجا نهج فحول شعراء العرب في عصورهم المختلفـــة، خاصـــة شـــعراء العصر العباسي أمثال: المتنبي، البحتري، أبي تمام، المعري. ومن العصر الحديث: أحمد شوقي، أبـــي القاسم الشابي وغيرهم... ممن اقتدى بهم وظهرت آثارهم في قصائده، إذ نجده قد عزف على الأوتـــار التي عزف عليها هؤلاء ولم يخرج على البحور الخليلية التي نظموا عليها.

لقد كان زكرياء من شعراء العرب المحدثين التقليديين المكبلين بالولاء العقائدي للشعر العربـــي القديم، لكنه لم ينظر إلى الشعر على أنه عبارة عن تمارين في الوزن والتنميقات اللفظية، أو اللـــهو، أو كل ما يجعل التجارب الشعرية فقيرة الحياة، ضيقة الأفق، بل فهم الماضي فهما حسنا، وارتبط بينابيعـه الحية، وأدرك التراث إدراكا سليما يتجاوز ذلك الماضي إلى الحاضر واستشراف المستقبل، والمعلـــوم إلى المجهول، والواقع إلى الممكن وما وراء الممكن[2] .

نظم زكرياء جل قصائده على الطريقة الخليلية، فالتزم البحور الشـــعرية المعروفـــة، والقافيـــة الموحدة، ونظام البيت الواحد، مع محاولته الخروج عنها أحيانا بتنويع قوافيه، والمحافظة على الـــوزن فيها، لذلك كانت الموسيقى الشعرية عنده عنصرا أساسيا يؤكد ما تحتويه القصيدة من مضامين، ويتـــأثر بما يسيطر عليها من انفعال أساسه الحالة النفسية للمبدع.

إن شعر مفدي زكرياء يتوافر على الموسيقى الخارجية والداخلية؛ " فالأولى لا تلقـــي ضـــوءا كبيرا على شاعريته لأنها عنده مثل غيره من الشعراء الخليليين، أما الثانية فإنها -بأنواعـــها الكثـــيرة- تجد في شعره مجالا خصبا، وهي تتخذ أشكالا مختلفة، وتؤدي إلى تـــأثيرات مختلفـــة أيضـــا، وهـــذا الاختلاف لا يظهر من هذه الناحية بين شعر مفدي وشعر غيره فحسب، بل إنه يتجلـــى واضحـــا بيـــن مختلف قصائد مفدي نفســـه، تبعـــا لاختـــلاف مواضيعـــها ولحالـــة الشـــاعر النفسـية إبـــان قولـــه القصيدة،ولشعوره الخاص إزاء ما تطرحه القصيدة " [3].

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص04.
[2] محمد زكي العشماوي، الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد، ص: 25 و26.
[3] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص297.

لذلك لا بد من الوقوف عند الموسيقى بنوعيها الخارجية والداخلية من خلال استعراض نماذج من شعره الإسلامي، وتحليلها، وقبل ذلك لابد من التفريق بين مصطلحين أساسيين في الصورة الموسيقية هما: الإيقاع والوزن، كونهما متلازمين؛ لأن " دراسة الإيقاع وحده لن تفيد، لأننا لم ندرس جذر هذا الإيقاع (الوزن)، ودراسة الوزن وحده دون الإيقاع توقعنا في إطار الدرس العروضي التقليدي الذي لا يُظهر خصوصية النص، أو تميّزه بين النصوص الأخرى المشتركة في نفس الوزن " [1].

فالإيقاع بمفهومه الدقيق موسيقى ناتجة عن عدة عناصر أساسية في العملية الإبداعية عند الشاعر، من أهمها: التكرار سواء كان تكرار ألفاظ معينة أو قريبة الشبه ببعضها، أو حروف متحدة المخرج، أو متقاربة المخارج، أو ذات صفة جرسية واحدة، وقد يتكون الإيقاع من وسائل غير صوتية، كتقابل الأفكار عن طريق التضاد، أو التشابه، أو التوازي، أو غيرها، والتي لا تتحدد عن طريق البحور الشعرية المتعارف عليها، وإنما عن طريق الموضوع الشعري، والحالة النفسية للمبدع[2]

وهذا الإيقاع هو الذي أطلق عليه النقاد اسم الموسيقى الداخلية. أما الوزن فهو تلك الموسيقى الناتجة عن تكرار تفعيلات معينة في البيت الشعري التقليدي، والتي تتكرر على طول القصيدة، دون أن يصيبها تغيير، وقد تتكرر بعد عدد معين من الأبيات كما في نظام الموشحات، ويتصف هذا النوع الموسيقي بأنه ثابت لا يتغير، لارتباطه ببحور الشعر المعروفة دون أن يكون للموضوع وللحالة النفسية للمبدع أي أثر فيه، وهو ما يسمى بالموسيقى الخارجية.

الموسيقى الخارجية:

الموسيقى الظاهرة أو الخارجية كما اصطلح على تسميتها، هي أداءات نغمية يكون مصدرها الوزن، والقافية، والجناس، وكل المحسنات الصوتية التي تحسها الآذان، كالتصريع وحسن التقسيم.

---

[1] سيد البحراوي، موسيقى الشعر عند شعراء أبو اللو -دار المعارف، ط01 1986، ص20.

[2] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص294 و295.

أو بتعريف آخر عي عبارة عن وحدات موسيقية تسمي بالتفعيلات تتكرر في البيت الواحد بنسب متساوية، أو متفاوتة، وظائفها الأساسية ضبط النغم، وإحداث جرس صوتي معين، غايته نقل المضمون والتأثير به في نفس المتلقي، لأن الشعر العربي في نماذجه الممتازة إنما تشربته القلوب لأنه جمع بين الفكرة والإيقاع[1].

هذا النمط من الوحدات الموسيقية المتكررة في أبيات القصيدة هو ما يطلق على كل مجموعة منه بحرا [*] في اصطلاح العروضيين، والشاعر يختار ما يناسب انفعاله وموضوعه[**] من هذه البحور طولا وقصرا.

ومفدي زكرياء من الشعراء الجزائريين الذين كادوا لم يخرجوا عن المقياس النقدي القديم المنطلق من أن الشعر كلام موزون مقفى، لذلك ظل يحاكي القصيدة التقليدية عند فحولها، سواء في أوزانها، أو إيقاعها، ولم تحرره منها بعض القصائد التي حاول فيها التجديد وزنا وقافية، فيما أسماه " بالشعر الرصين ".

1–الوزن:

إذا كان الوزن هو الموسيقى الصادرة عن توالي تفعيلات معينة تتكرر في القصيدة التقليدية دون تغيير، ومفدي زكرياء من الشعراء الإحيائيين المحافظين، فقد التزم في معظم شعره بنظام القصيدة العربية في أيام عزها، ونظم على البحور التي نظم عليها القدماء والمحافظون من المحدثين خاصة البحور الطويلة، كالطويل، الكامل، البسيط، الوافر، المتقارب لوحداتها الموسيقية الكثيرة وامتدادتها الصوتية الطويلة التي تناسب موضوعاته، وتدفقه الشعوري، ولعل طول القصائد، وطول نفس الشاعر يوحيان لنا بمدى رغبته في الاسترسال، وترك العنان لشاعريته لتصوير هذا الموقف أو ذاك، تماشيا مع حالته النفسية، وتدفقه الشعوري الفياض، كما أن اعتماد زكرياء على البحور الطويلة

---

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص193.

[*] حدد العروضيون بحور الشعر بستة عشر بحرا، وسمي بالبحر لأن الشاعر يستطيع أن ينظم على كل مجموعة تفعيلات بحرا من القصائد.

[**] اختلف النقاد حول علاقة الوزن بالأغراض الشعرية، فمنهم من سلم بها، ومنهم من نفاها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شأنه شأن الشعراء العرب الإصلاحيين المحافظين، هو الاقتداء بالشعر القديم، فلا علاقة إذن لـــهذه الأوزان بالأغراض الشعرية، وإلا كيف نفسر تعدد الأغراض في القصيدة العربيـــة القديمـــة، مـــع التزامها نفس البحر ؟ وهو ما أشار إليه محمد غنيمي هلال بقوله: " والحقيقة أن القدماء العرب لـــم يتخذوا لكل غرض شعري من هذه الموضوعات وزنا خاصا من بحور الشعر القديمـــة " [1]، إلا أن سليمان البستاني مثلا يقر بهذه العلاقة حين يرى أن بحور الشعر مرتبطة بمواضيعه.

ولعل الحالة النفسية للمبدع وارتباطها بالحدث هي التي تحدد الوزن الذي يكون استجابة تلقائيـــة لها، لذلك نلاحظ أن بحور الكامل والرمل والطويل والبسيط، والوافر والخفيف قد استعملت بنسبة كبيرة في حين لا نعثر على البحور التي أهملت عند القدماء. ومن البحور قليلة الشأن قديما التي علا شـــأنها هنا هو بحر الرمل الذي ارتبط بالانفعالات خاصة في الشعر الثوري وصار الـــوزن المحبـــوب فـــي العصر الحالي، وهو ما جعل مفدي ينظم عليه أغلب الأناشيد الثورية مثل: النشـــيد الرســـمي للثـــورة الجزائرية[2]، وقد ذهب محمد ناصر إلى القول بأن مفدي زكرياء قلما يلجأ إلى البحور المجزوءة، ومـــا كان من شعره على هذه البحور فقد نظمها أناشيد راعى فيها ملاءمتها للتلحين والإنشاد، مثل نشيـــــد " قسما بالنازلات الماحقات "، فهو من مجزوء الرمل ... إن الإقبال على هذه المجـــزوءات فـــي هـــذه المرحلة التحريرية سواء عند زكرياء أو عند غيره، إنما يرتبط في الأغلب الأعم بالقصائد التي تنظـــم للغناء والإنشاد، وبذلك ارتبطت المجزوءات عنده بما ارتبطت به في الشعر العربي[3].

هذا وقد سما شأن الخفيف كذلك لأنه أخف على الطبع يشبه الوافر، " لكنـــه اكـــثر ســـهولة وأقرب انسجاما، وإذا جاء نظمه رأيته سهلا ممتنعا لقرب الكلام المنظوم فيه إلى القول المنثور،وليـــس

---

(1) النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة 1979، ص441.

(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص09.

(3) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص211 وما بعدها.

في جميع بحور الشعر بحر نظيره يصلح للتصرف بجميع المعاني " [1]

إن اختيار الشاعر بحرا معينا ينظم عليه قصيدة ما دون غيرها هو سعيه لتحقيق انسجام بينه وبين نفسه من جهة، وبينه وبين جمهوره من جهة ثانية.

ومهما يكن من أمر، ومن مواقف النقاد العرب القدماء والمحدثين بخصوص العلاقة القائمة بين الأوزان والموضوعات الشعرية، فقد سلم زكرياء كغيره من شعراء الجزائر المحافظين بوجود هذه العلاقة " والميل إلى ترجيح ما تتركه خواص الأوزان من إيقاعات نفسية على الشعراء، وهي التي تحدد أجواء القصائد ومضامينها أو أغراضها " [2].

فبنظرة متأنية في الوحدات الموسيقية المشكلة للبحور الشعرية التي استخدمها زكرياء في شعره الإسلامي، نجد أن البحر الطويل مثلا بوحداته الموسيقية الثمانية: فعولن مفاعيل × 2 في كل شطر يشكل حركات صوتية طويلة تبدأ أفقيا على شكل مستقيم، ثم ترتفع عموديا وتنتهي بالانخفاض وتتكرر هذه الوحدة بشكل متساوٍ في البيت الشعري لتتسع إلى هذا النفس الطويل الممتد عبر القصيدة وبذلك توافق التدفق الشعوري للمبدع، ويمكن تمثيله بيانيا على النحو التالي: فعولن مفاعيلن، كقوله في قصيدة " سنثأر للشعب ": [3]

فخبّـر بنـي الدّنيـا –نفمبـر– أنّنا   سنثـأر للشعبِ الذي لم يزل يشقى !

سنثـأرُ للبنـت التـي ديس قُدسُهَا   ودنّس أحلاس الخنا، عرضها الأنقى

سنثـأرُ للطفـل الرضيع، وقد غدا   –وفي فمه الرشاش– يحسبه رزقـا

أما بحر المتقارب بتفعيلاته الثمانية فيرسم شعور الشاعر في سيل متدفق تحسه الآذان من خلال تتابع الوحدات الموسيقية في شكلها الأفقي بأصواتها الطويلة سعيا منه للتعبير عمّا يختلج في

---

[1] عبد الله الطيب المجذوب،المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، بيروت، ج01، ط02، 1970،ص 192.

[2] أحسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث، ص236.

[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص200.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجدانه نحو فلسطين، وموقفه من تخاذل المسلمين وضعفهم أمام اليهود، لنقل هذا الإحساس إلى الغيورين على مقدساتهم والتأثير فيهم، كقوله من قصيدة " فلسطين على الصليب "[1] :

فلسطينُ ... والعُـرْبُ في سكـرة   قـد انحـدروا بـكِ للـهاويه !

وحـط ابـنُ (صهيـونَ) أنـذاله   بأرضـكِ، آمـرةَ ناهيه

ومن ربط الأوزان بالأغراض عنده كذلك ما نجده في أناشيده الثورية التي يلائمها بحر الرمل بتفعيلاته الستة كقوله في نشيد " قسما " :[2]

نحـنُ جنـدٌ، في سبيـل الحق ثرنا   وإلـى استقلالنـا، بالحـربِ قُمنا

إن هذه الصيحات المتعالية في وجه العدو في تدفق شعوري متصاعد حاد، يميزه التوتر والانفعال الشديد بالموقف، تعبر عنه هذه الموسيقى الصاخبة الواردة في شكل وحدات متتابعة متلاحقة عموديا تحمل نفس الشاعر الثائرة ضد الظلم والعدوان.

والخفيف كذلك بوحداته الستة المتعاقبة؛ فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ×2 يعبر عن الحالة النفسية للمبدع فتحسها من خلال الارتفاع والانخفاض في المدّ الصوتي، وهكذا مع بقية البحور المستعملة.

وبهذا كانت الأوزان، إحدى العناصر الأساسية في التشكيل الموسيقي للقصيدة الشعرية عند مفدي زكرياء.

هذا ولم يكتف بالتنويع في الأوزان وإنما حاول أن يتخطى نظام القصيدة التقليدية إلى نظم ما أطلق عليه اسم المذهب الرصين في الشعر الجديد، أي إلى القصيدة الحديثة المبنية على التفعيلة وليس على البحر، متأثرا بموجة التيار الرومانسي التي اجتاحت الساحة الشعرية، كما فعل في قصيدة " ادفعوها " بمناسبة العدوان الفرنسي على بنزرت في 19 جويلية 1961 فيقول:[3]

---

[1] المصدر السابق ، ص337.

[2] المصدر نفسه، ص72.

[3] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص249.

ادْفَـــعـــــوهَـــا ...

فـــي ضميـــرِ اللّيــــــلِ ، تجتـــاح السكـــــونْ

تتـــــرامـــــى كـــالقضـــــآ

وتـــدوّي فـــــــي الــفضـــآ

تُـــسمِـــــــعُ الأكـــــوانْ

قْـــصــــة الإيـــمــــانْ

ادْفَـــعـــــوهَـــا ...

فـــــي الـــوجـــود

للـــــــخلـــــود

ساخـــــراتٌ بالســـــدودْ

هازئـــــات بالــــحـــدودْ

ادْفَـــعـــــوهَـــا ...

فالتفعيلة المستعملة كوحدة موسيقية أساسية والتي بنت عليها القصيدة هـــي: فـــاعلاتن والتـــي بتكرارها ست مرات تشكل بحر الرمل، غير أن الشاعر تصرف فيها بما يناسب تدفقه الشعوري.

وهنا لا يفوتنا أن نشير إلى ولوع زكرياء بالشعر الشعبي أيضا، حيث كتب فيه بعض القصائد.

وهو بهذا يسجل خروجه على البحر الخليلي، وعلى رتابة نظام البيت، والقوافي الموحدة، إلـــى نمط آخر من الشعر، هو نظام المقطوعات والقوافي المتنوعة ، والقصائد الحرة، المبنية على التفعيلـــة كوحدة أساسية في البناء الموسيقي للقصيدة، متأثرا بالنزعة التجديدية في الشعر المعاصر تلبية لرغبـــة المتطلعين إلى الشعر الجديد من جهة، والتحرر من القيود التي يفرضها نظام القصيدة التقليدية من جهـة أخرى.

2- القافية:

والموسيقى الشعرية ليست محصورة في بحور الشعر فحسب، بل وفي القافية أيضـــــا، والتـــي رأى فيها القدماء إحدى القيم الجمالية للقصيدة، ومعيارا أساسيا في الشعر، في حين انتقدهـــا المحدثـــون لكونها تحدّ من حرية الشاعر في التعبير عن أحاسيسه بتلقائية وعفوية لا تقف أمامها الحواجز.

والقافية في اصطلاح البلاغيين هي: " من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن " [1] وهو تعريف الخليل بن احمد الفراهيدي، ويعرفها الأخفش بأنها " آخر كلمة من البيت " [2] وبعضهم حصرها في حرف الروي كما فعل الفراء[3] وغيره.

والقافية كمقطع صوتي تتكرر في آخر الأبيات الشعرية فتولد نغما موسيقيا بعد اتحادها بالوزن، فهي كما يقول إبراهيم أنيس: ليست " إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر، أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها يكوّن جزءا هاما من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية، يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمّى بالوزن " [4].

سواء سلمنا بهذا التعريف أو ذاك، فإن الذي يهمنا من كل ذلك هو إلى أي مدى استطاع زكرياء أن يجعل من القافية عنصرا مهما في التشكيل الموسيقي ؟

بالرغم من محاولات التجديد في شكل القصيدة، فقد التزم زكرياء القافية الموحدة أو المطردة في اغلب شعره، وجعل اهتمامه ينصب على المضمون أكثر من الشكل.

وبالرجوع إلى القصائد التي اعتمدت عليها لرصد البحور الشعرية لمعرفة أنواع الروي المستخدمة عند الشاعر اتضح لي أن القوافي انتهت بحروف روي يمكن تصنيفها إلى:

- كثيرة الشيوع في الشعر العربي، وهي: الباء، الدال، الراء، اللام، الميم، النون.
- متوسطة الشيوع، وهي القاف، الهمزة، العين، الفاء.
- قليلة الاستعمال وهي: الهاء، التاء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) و(2) ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وأوزانه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات دار الجيل، ج01، ط05، بيروت، 1981، ص151–152.
(3) محمد زلاقي، شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي، ص312.
(4) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص246.

هذا ولم يرد حرف واحد من الحروف النادرة الاستعمال في الشعر العربي، والتي أشار إليها إبراهيم أنيس(*).

هي تقريبا حروف الروي المستخدمة في الشعر العربي بصورة شائعة، مع بعض الاختلاف البسيط، مثل ورود التاء، والهاء، من الحروف القليلة الاستعمال.

ويرجع اعتماده على هذه الحروف في رأيي إلى ما تحدثه من جرس صوتي يناسب حالة الشاعر النفسية خلال تصويره للأحداث العظيمة، والمواقف الجليلة، فالدال مثلا حرف انفجاري، والباء جهري يتسم بالقوة، وهو ما جعل الشاعر يلجأ إلى استدعاء القوافي برويها ذي الرنين القوي.

أما استعمال اللام والميم، فلكونهما هامسين يلائمان مواضع الرقة، مع اتساعهما لاحتواء التدفق الشعوري للمبدع في سهولة ولين.

أما استخدامه لحرف الهاء كروي، مع أنه من الحروف القليلة الشيوع في شعرنا العربي فيرجع إلى مناسبته لحالات التأوه والتألم، والتمزق النفسي، وغيرها من المواقف الرافضة، التي يعبر الشاعر من خلالها عن عدم رضاه بموضوع ما، وهي كثيرة الورود في شعره، كما في قصيدة " وليد القنبلة الذرية " [1]، أو كقوله على لسان العرب من قصيدة " فلسطين على الصليب " [2] :

وقال ابن يعْرُب، لمّا تيقَّظَ -: لمْ أدْرِ -مِنْ سَكْرتِي- ماهيه؟
وفوّضتُ أمري، للحاكمين فضيّع قُدسي، حكاميه

فالحرف هنا يخرج من أعماق الشاعر في انسياب، ودون أن يحس بعناء أو بحاجز يقف في طريقه.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن زكرياء لم يخرج على طريقة الأقدمين في استعمال حروف الروي الشائعة عندهم، لأن غايته الأولى هي إحياء التراث الأصيل كغيره من شعراء الإحياء المحدثين، ونجد

(*) قسم حروف الروي إلى:
-كثيرة الشيوع: وهي: الباء، الراء، اللام، الميم، النون، الدال، السين، العين.
-متوسطة الشيوع وهي: الفاء، القاف، الكاف، الهمزة، الحاء، الياء، الجيم.
-قليلة الشيوع وهي: الصاد، الظاء، الهاء، التاء، الضاد، الثاء.
-نادرة الورود وهي: الذال، الغين، الخاء، الشين، الزاي، الطاء، الواو.

(1) مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، ص161.
(2) المصدر نفسه، ص344 و345.

لهذا سندا عند إبراهيم أنيس الذي أكد على وجود حروف شائعة أكثر من غيرها في روي قافية الشعر العربي، والتي لا ترجع " إلى ثقل في الأصوات، أو خفتها، بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة[1].

من هنا كان حرف الروي عنصرا أساسيا في موسيقى القصيدة الشعرية، والموسيقى المقصودة هنا كما يقول محمد ناصر: " ليست هذه التي تكون في الألفاظ والكلمات فحسب، وإنما هي التي تكون في البحر المختار، والروي المناسب، والشاعر الحق هو الذي يحس بفطرته الفنية، جريان الموسيقى في أبياته حين اللفظ، والكلمة، والوزن، والروي المنسجم مع موضوعه "[2]، لأن ثقل الحرف لا يظهر في أي موضع من الجملة أو العبارة الشعرية قدر ظهوره في نهاية القافية، نظرا لما لهذه القافية من قيمة صوتية موسيقية في القصيدة الشعرية.

إن التزام زكرياء نظام بناء القصيدة العربية التقليدية وزنا وقافية لم يمنعه من محاولات التجديد فيها، وذلك عن طريق التنويع في قوافيها حسب متطلبات الموقف الشعوري من الأحداث، كقوله من قصيدة " ربيع العمر "[3] :

جلّتِ الذّكرى، فهاجتْ ذكرياتِي وتعالت، فتوالت خفقاتِي

وزكَا العيدُ، بأرضِ المعجزاتِ يُلهِمُ الأفكارَ أسرارَ الحياةِ

وإذا بالوحي تسمو صلواتي

التزم الشاعر في هذا المقطع حرف التاء، وهو من الحروف قليلة الشيوع في روي القصيدة العربية، ثم نوع في روي المقطع الثاني، وروي اللازمة أيضا بما يناسب المقطع كله، ثم انتقل إلى مقطع رويه هاء السكت، وآخر رويه حرف النون، والذي يليه حرف الباء، مع تقيد كل لازمة في جميع المقاطع بنفس روي المقطع، والمقاطع كلها خاضعة لنفس الوزن وهو بحر الرمل، وتفعيلاته: فاعلاتن × 6 مرات.

---

(1) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص، 248.
(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص192-193.
(3) مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص237.

لقد اعتمد مفدي هذا الأسلوب في عدد معتبر من قصائده، أمثال نشيد "قسما "، و" إلياذة الجزائر "، و" نشيد الشهداء "، وغيرها، لاقتناعه بمدى ما تتركه القافية الموحدة والمكررة في جميع أبيات القصيدة من رتابة وملل في نفس المتلقي، هذه القضية التي تباين حولها موقف النقاد، فالقدماء رأوها أساس البناء الشعري وسر خلوده ودوامه. أما المحدثون فقد رأوا فيها عائقا يحدّ من انطلاق الشاعر وتدفق مشاعره، ومفدي في هذه القصيدة وفي غيرها يجعل من التنويع في القوافي وسيلة لإبراز المعاني التي يريد إيصالها إلى المتلقي، فتكون المقاطع بقوافيها ورويها مناسبة لحالة الشاعر النفسية، ولموضوع القصيدة، فتهمس في موقف الهمس، وتشتد في موقف الشدة.

من هنا يكون لكل مقطع معانيه الخاصة به، وموسيقاه المتميزة. وإذا رجعنا إلى إحصاء قمت به لمعرفة الأوزان، والقوافي الأكثر استعمالا في شعره(*)، نجد أن ثمانية وثلاثين قصيدة من بين اثنين وأربعين عدتُ إليها لاستخراج جل النماذج التي خضعت للتحليل، والتي تمثل في رأيي الاتجاه الإسلامي في شعره، تنتهي قوافيها بروي متحرك سواء بحركة قصيرة أو طويلة، أو بهاء الوصل ساكنة كانت أم متحركة ، وهي القافية التي اصطلح عليها العروضيون بالقافية المطلقة، وتمثل نسبة 90.47% ، بينما نجد قصيدتين فقط تنوعت قوافيها، وقصيدتين انتهتا بروي ساكن، وهي ما يطلق عليها بالقافية المقيدة، وتمثل كل منهما نسبة 04.76 %.

وفيما يلي بعض النماذج التوضيحية [1] على النسب المذكورة والغاية من استخدامها:

-فمن القافية المطلقة المتحركة الروي قوله وهو يؤكد أثر الجمال في الوصول إلى الإيمان القوي بالله: [2]

لوجهِ الجمالِ عبدتُ الإلـه، وآمنتُ بالصّانع الأكبر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(*) لمزيد من المعلومات يراجع كتاب محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص: 245 وكتاب يحي الشيخ صالح شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص297.

(1) صلاح يوسف عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، شركة الأيام، الجزائر، 1996، ص144.

(2) مفدي زكرياء، ديوان تحت ظلال الزيتون، ص122.

ومن المطلقة المنتهية بهاء الوصل قوله على لسان فلسطين وهي تتحسر على تضييعها من طرف الحكام العرب[1] :

وفوّضتُ أمري، للحاكمين فضيّع قُدسي، حكاميه

فقد أحسسنا عند سماعنا البيتين بغنة موسيقية جميلة ومحببة من هذه الراء المكسورة في البيت الأول، وأنها أكثر جمالية لوصلها بالهاء في البيت الثاني.

ومن القافية المقيدة نشيد " قسما بالنازلات الماحقات " [2].

ويتحقق الكمال الموسيقي للقافية من خلال الحركة المناسبة التي تسبق حرف الروي، حيث يذهب إبراهيم أنيس في كتابه " موسيقى الشعر " إلى اعتبار هذه الحركة أساسا للكمال الموسيقي الذي تؤديه القافية وصنّفها إلى:

- قافية مقيدة؛ سبق حرف رويها بحركة قصيرة لا تلزمها هي أقصر الصور.
- قافية مقيدة: سبق رويها بحركة قصيرة تلزمها في كامل القصيدة.
- قافية مطلقة سبق رويها بحركة قصيرة، أو واو مدّ، أو ياء مدّ في أسلوب تناوبي بينهما.
- قافية مطلقة سبق رويها بحرف مد يلزمه الشاعر في كامل القصيدة[3].

وبتوفر القافيتين الأخيرتين يتم الكمال الموسيقي في القصيدة الشعرية.

وبالنظر إلى القصائد الواردة في الإحصاء المذكور أعلاه، نجد أن أغلب القوافي التي التزمها زكرياء هي من هذين النوعين، وهو في ذلك يجاري شعراء القصيدة التقليدية قدماء ومحدثين، في استخدام موفق لصوت القافية، وهو الصوت الذي يكون بمثابة الوقفة التي ينتهي عندها النفس الشعري في كل مرة[4]، نحس من خلالها خفة على السمع ونشعر براحة النفس، وهو يدل على مهارة الشاعر

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص345.
[2] المصدر نفسه، ص71.
[3] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص269.
[4] أيمن محمد زكي العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها، دار النهضة العربية، بيروت، ط01، 1983 ص229.

وقدرته الفنية على اختيار القافية المناسبة لأحداث الأصوات المتجانسة المناسبة، والتي هي أساسية في البنية الشعرية.

إن الحديث عن القافية وأثرها الموسيقي يجعلني أقول: إن الشاعر الذي لا يلتزم بحدود القافية يسقط في أخطاء أو عيوب " وهذه العيوب متعلقة بالقيم الصوتية والموسيقية، أو بمفهوم الشعر كبناء عام يحدّد أبعاد القصيدة بطاقته التعبيرية والإيقاعية " [1].

ومن عيوب القافية: الإيطاء، والإقواء، والإصراف، والإسناد وغيرها.

وبنظرة فاحصة في دواوين زكرياء، نقف على بعض هذه العيوب منها:

-الإيطاء: وهو إعادة كلمة الروي بمعناها ومبناها في أقل من سبعة أبيات، كقوله من قصيدة فلسطين على الصليب " على لسان العرب[2]

وقال ابن يعْرُب، لمَا تيقّـ ـظَ -: لمْ أدْرِ-مِنْ سكْرتِي- ماهيه؟

ولم أتفطّن (لثالوثِها)[*] ولم أدرِ -من غفوتي- ماهيه ؟

وهي قليلة مقارنة بالكم الشعري الهائل، سواء ما تناول منه موضوعات إسلامية أو غير إسلامية... ولذلك حققت القافية برويها المناسب الموسيقي المطلوبة لنقل أحاسيس المبدع إلى المتلقي بواسطة هذه النغمات التي تحرك المشاعر، وتريح النفوس، ذلك أن جمال موسيقية شعر زكرياء ناتج عن قدرته على اختيار القافية المناسبة، والروي المناسب، وانسياب كلماتها بطريقة هي أقرب إلى العفوية منها إلى الصنعة.

الموسيقى الداخلية:

هي ذلك الإيقاع السحري المتمثل في الانسجام الصوتي النابع من التآلف بين الحروف كمقاطع صوتية، والتوافق بين الكلمات بدلالاتها الصوتية والمعنوية والذي يربط بين عالم الشاعر الداخلي

---

(1) صلاح يوسف عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، ص139.
(2) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص344.
(*) العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والكلمة المعبرة عن الموقف، بحيث تصير أولا وأخيرا استجابة للإيقاع النفسي للمبدع والمتلقي في آن واحد، لأن " للشعر صوتا داخليا مستقلا عن موسيقى الشكل المنظوم قد يوجد فيه وقد يوجد بدونه، وأن هذا الصوت الداخلي يربط بطريقة إيقاع الجمل، ومن طاقة الإيحاء التي تصدر عن تتابع الكلمات وما تجره الإيحاءات من أصداء متلونة ومتعددة " [1]. لأن الإيقاع لا ينبع من الأوزان والقوافي فقط، على الرغم من أن شعرنا العربي جعلهما أساس العملية الإبداعية، وإنما تبرز الصورة الصوتية المشكلة لهذا الإيقاع كذلك من وحدة النغم، المكونة من حركات وسكنات تترك في النفس أثرها القوي، وهو ما يؤكده محمد زكي العشماوي بقوله: " إننا نؤمن بأن موسيقى الشعر الأصيلة لا تكون إلا في هذه النبضات الحية المرتعشة التي تسبق إلى روحك قبل أن تبصر خيوطها وألوانها وقبل أن تتأمل ألفاظها ونبرات حروفها " [2]، وهو القول الذي يؤكد لنا أن الشعر كلام موسيقي تتأثر به القلوب، وتتفعل لموسيقاه النفوس، لأن الأثر الشعري هو في النهاية شكل إيقاعي، يسعى إلى طرح رؤية تنقل إلينا عبر جسد القصيدة، أو مادتها أو شكلها الإيقاعي، ومن ثم فالقصيدة نغم وتعبير يجمع بين الإيقاع والمدلول، ويصل بيّن التعبير وصاحبه وموضوعه في آن واحد " [3].

ومفدي زكرياء من شعراء العصر الحديث البارعين، استطاع بقدرته الفكرية والفنية، أن يوظف اللفظ توظيفا شعريا، ويطوع العناصر الصوتية فيها ويستثمر علاقاتها في نسيجه الشعري للتعبير عن موقفه الشعوري من جهة، وتحقيق الإيقاع المناسب داخليا كان أو خارجيا من جهة أخرى.

من هنا كان زكرياء كالمتنبي يستطيع من خلال إيقاع كلماته أن يثير الدهشة والإغراب في نفوس مستمعيه، لأن ذلك يتماشى مع إحساسه بالثورة والتفرد، كما يسعى إلى التعبير عن الموقف النفسي للشاعر، فهو يستعمل الألفاظ بدلالاتها اللغوية والاصطلاحية، كما يستعملها بدلالاتها الصوتية

---

(1) محمد زكي العشماوي، الرؤية المعاصر في الأدب والنقد، ص29.
(2) المرجع نفسه، ص187.
(3) المرجع نفسه، ص28.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فوفرة العنصر الموسيقي بشعره، واهتمامه به جعله يكاد يعطي لكل مظهر من مظاهر الحياة موسيقاه الخاصة [1].

هنا تظهر الغاية الأساسية لموسيقى الشعر، وهي إعداد المستمع نفسيا لولوج عالم القصيدة، أو بمعنى آخر التأثير في المتلقي مثلها في ذلك مثل الصورة الشعرية، وإن كانت هذه أيسر وأسهل في مجالي الإدراك والتذوق[2].

وكان زكرياء قد نوع في موسيقاه الشعرية تماشيا مع تنوعه في قصائده، وموضوعاته المختلفة، فهناك الموسيقى الصاخبة الثائرة، وهناك الموسيقى الهادئة، والحزينة الهامسة، والمرحة إلخ...

فمن النوع الأول قوله يعظم أول نوفمبر ويمجده: [3]

نوفمبـرُ غيّرتَ مجرَى الحياةِ، وكنتَ -نوفمبر- مطلع فجرِ!

وذكّرتنا -في الجزائر- بدراً فقمُنـا نُضاهـي صحابـةَ بـدرِ

وقوله من قصيدة " وتكلم الرشاش جل جلاله " في ذكرى احتلال الجزائر عام 1959 مصورا ساحة الجهاد الوطني، وكيف تحولت إلى جهنم يصلى بها المستعمر[4] :

أجهنّم هذي التي أفواهها من كلّ فجٍّ، نِقمةً تتفجّرُ ؟؟

والشّعبُ أسرع للشهادة عندما ناداه (عقبةُ) للفداءِ (وحيدرُ) !

لقد سيطر على الأبيات هذا الجو الحماسي الثوري الغاضب، والانفعال الشديد، مثلته صيغ العبارات، والحروف المشددة التي توحي بالقوة: تتفجر، الرشاش، هزت، فج، لهابة، لوّاحة، النار المبرح.

---

[1] أيمن محمد العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي، ص223-224.

[2] أحسن فارق، القومية الغربية في الشعر الجزائري الحديث، ص227 و228.

[3] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص69.

[4] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص133 و134.

هذه الصياغة، وهذه الموسيقى تلائمان نفس الشاعر الثائرة ثورة اللهيب على المستدمر الغاضب، لا تبقي ولا تذر، حتى تستقل الجزائر.

وبالوقوف عند القصيدة مرة أولى وثانية وثالثة يتضح لنا أن مضمونها كان له الأثر الفعال في استعمال الشاعر لهذا الوزن دون غيره، لأنه وجد فيه مجالا خصبا للتعبير عن تجربته، وبث روح الجهاد في قومه.

وقد مكنته قدرته الإبداعية من صياغة الألفاظ والعبارات صياغة شعرية حققت الانسجام التام مع ما صوره في تدفق شعوري قوي، وموسيقى صاخبة.

وفي قصيدة أخرى شبه ما حل بمدينة الأصنام من أهوال الزلزال عام 1954، بأهوال يوم القيامة نكالا بأهلها على ما اقترفوا من الآثام، إذ حلّت بهم لعنة الله وعذابه[1].

فالقصيدة تتضح بمعاني القوة والهول، فالأصوات قوية، والنغم الموسيقي حاد يناسب المشهد مستعملا ألفاظا دالة على الشدّة: زلزل، رجة، جحيم، أهوال، إلخ...

فهذه الألفاظ تلائمها الأجراس العنيفة الناتجة عن حركات الحروف الانفجارية كالدال، الراء القاف، وغيرها.

وكان من هذا التوظيف للألفاظ القوية أن أضفي على القصيدة جرسا موسيقيا حادا، يلائم هدف الشاعر في بعث الهلع والخوف في نفس المتلقي، من خلال عرض مشهد المغضوب عليهم من ربهم فهم يدفعون ثمن عصيانهم، حتى يمتثلوا لأمر الله، وينتهوا عما نهانا عنه. إذن فالنغمة الموسيقية شكلت مع الصورة روح مضمون النص الشعري، ولم يكن الإيقاع مجرد أصوات، أو رنين، بل كان جزءا من الفكرة والأسلوب، كان وسيلة وغاية في الوقت نفسه، لأن القصيدة أحدثت فينا تأثيرا قويا معنى وصورة وصوتا، لذلك قال بعض النقاد عن هذه الحروف: " إذا كثرت في ألفاظ الشعر ولم تكن كثرتها

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص273 و274.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مما يستقبح، أو ما تنطبق عليه ضوابط تنافر الحروف مجتمعة، أحسسنا في موسيقى هذا الشعر بقوة وعنف لا نحس بهما مع غيرها من الحروف، ذلك هو الكمال المطلق في موسيقى الشعر " [1].

وكثيرا ما استخدم هذه الألفاظ القوية في قصائده التي تفخر بمجد الأمة، وتصور بطولات أبنائها وجهادهم المظفر ضد عدوهم المتربص بهم كما في قصيدة " اقرأ كتابك " [2].

فكان لنغمها القوي تأثيره في الحالة النفسية للمتلقي الذي شارك المبدع إحساسه ومعاناته التي هي معاناة الجميع.

استطاع زكرياء في هذه القصيدة التي تبدو فيها نفسيته المنفعلة أن يعيد الإيقاع الحماسي القديم إلى بعض شعره المخلد لقيم شعبه، وهو ما يجعل السامع يشعر بالعزة والاعتداد بالذات. والسمو بالروح نحو المجد.

هكذا يبدو زكرياء مسيطرا على العناصر الصوتية للغة، وبث إحساس خاص من خلالها يتلاءم مع الموقف، أو لحظة الانفعال بالتجربة، لأنه كلما كان الوزن ملائما للموضوع، وكانت حركته من وحي الموقف كان التأثير الموسيقي أوقع وأبلغ، وأوضح في نفسية القارئ، وهذا ما كان يؤمن به الشاعر لذلك " ظل يحاكي القصيدة التقليدية في جرسها الموسيقي وضخامة إيقاعها " [3] في المواقف المرتبطة بالجهاد، والاعتداد بالذات الفردية والجماعية للأمة، بينما نجده في المواقف اللينة كموضوع التضرع إلى الله، والاستشفاع بالرسول (ص) ينتقي أرق العبارات، وأخف الألفاظ، وأعذبها وأجملها وقعا في النفوس، مبتعدا في ذلك عن الكلمات ذات الجرس المدوي، إذ لكل مقام مقال، كقوله في الإشادة بالنبي

من قصيدة " ربيع العمر " [4]:

يا نبيّا، بثَّ فيكَ الغيبُ أمرًا فصدعْتَ الغيبَ، والأفلاكَ حيْرَى

---

[1] إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر، ص43.
[2] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص57.
[3] أحسن فارق، القومية العربية في الشعر الجزائ[ري] الحديث، ص235.
[4] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص 7.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأنــرتَ العقــلَ، والأحــلام سكرى   وأزحــتَ الظلــمَ، والويــلات تترى

وجعلــت الأمر بينَ الناسِ شُــورى   ليــس فيهــم ذمم في الحيّ تُشــرى

لقد تحقق في هذه الأبيات النغم الموسيقي الخفيف، حيث توجــه زكريــاء إلــى الله بــالتضرع والابتهال، والدعاء، مستشفعا برسول الهدي طلبا لتوحيد كلمة المسلمين، وجمع شــملهم الممــزق كــل ممزق، لذلك عبرت عنها الألفاظ المناسبة: ضاقت، غضبا، لا تخزنا، أطعنا، آمنا، وحد قلوبنــا، الحــق عجّل صلاحنا، طهّر، فكل لفظة لها إيقاعها الخفيف يشكل مجموعها هذه الموسيقى الهامسة التي تــترك في النفس هذا الأثر البالغ، لحسن اختيار المفردات الملائمة لغرض الشاعر، القــادرة علــى تصويــر رؤيته ونقل تجربته إلى الآخرين، كاستعماله لفعلي لا تخزنا، وأطعنا، في البيتين الثاني والثالث، فــهما يفيدان الليونة والاستعطاف حسب الموقف الذي يتضمنه حال العبد المتوسل لينال رضا خالقه.

إذ لا يمكن للشاعر وهو يعدد صفات الرسول الأعظم وما جاء به من النور الربــاني المبيــن لإنارة حياة البشرية، يستعطف أو يستغفر أن يستخدم ألفاظا خشنة عنيفة، تخلق تنافرا مع المعنى المــراد تبليغه، لذلك فاختيار هذه الألفاظ الطافحة بالمعاني السامية الخفيفة على السمع، المرحة الدقيقــة العذبــة المستساغة من طرف السامع، تجعله يندمج مع المبدع من خلال إحساسه بهذا النغــم المناســب لمقــام المدح النبوي.

هذا ولم يستعمل أسلوب الهمس عند زكرياء في الأغراض ذات المعاني الخفيفة المرحــة فقــط بل استعمله، حتى في المواضيع ذات البعد الثوري الصاخب المدوي كما في قصيدة " الذبيح الصــاعد التي مرت معنا، وقصيدة "زنزانة العذاب رقم 73 " والتي خاطب فيها السجن بروح مفعمــة بالإيمــان والصبر[1].

ففي مخاطبته للسجن وما لاقاه فيه من العذاب على أيدي زبانيته، يستخدم لغة شاعرية هادئــة تنساب في تدفق ورفق، رغم فظاعة ما يصوره من ألوان التعذيب النفسي والجسدي داخــل الزنزانــة

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص20 و21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهي صورة للجزائريين الطامحين إلى نيل الحرية والاستقلال، الصابرين على البلاء، الراغبين في التضحية بكل ما يملكون من أجل استعادة حريتهم ومجدهم.

لقد وفق زكرياء في استخدام أدواته الفنية التي تظافرت على تفجير هذه الأحاسيس في القارئ والسامع مستغلا كل ما في الألفاظ من طاقة إيحائية صورة ومعنى ونغما، ليجعلنا نشاركه التجربة وهو غاية ما يسعى إليه(1).

فاللغة هامسة مؤثرة تخاطب معانيها القلب قبل أن تصيب الأذن بإيقاعها ، ولا شك أن هذه الأنغام الحزينة المتلاحقة تعكس نفسية الشاعر وهو في غاية الخشوع والخشية، وتصور حالة العبد الضعيف البائس الذي يبحث عن ملاذ ينقذه مما هو فيه... فقد حقق توافقا كبيرا بين الطابع الموسيقي الحزين الهامس الذي أضفاه على هذه المقطوعة، وبين المعنى الذي يطلبه، أو الحالة النفسية التي أراد إبرازها، وهي حالة الراجي الضعيف المثقل بالذنوب الذي يلتمس الشفاعة(2) ...

هكذا يبدو لنا كيف يحقق زكرياء هذا الإيقاع في شعره الإسلامي، باستعمال مختلف الأدوات الفنية، من إيحاءات فكرية، وشعورية ونسق تعبيري رائع.

وتعد القافية الملتزمة، والتكرار بمختلف أشكاله من أهم هذه الأدوات في بنائه الشعري كتكراره لحرف معين، أو كلمة، أو فعل، أو اسم، أو تركيب إلخ...

ومن أجمل ما يعكون الإيقاع الموسيقي في القصيدة حين تكون القافية الداخلية للأبيات مطلقة والخارجية مقيدة كقوله من قصيدة نشيد الانطلاقة الوطنية لحزب شمال إفريقيا: (3)

فـداءُ الجزائـرِ روحِي ومَالِـي ألا فـي سبيـل الحريّـهْ

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص323.

(2) محمد زلاقي، شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي،رسالة ماجستير مخطوط ، جامعة عين شمس 1990،ص297.

(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص104.

فالإطلاق بالنسبة للقافية الداخلية يوحي لنا بالاستمرار والاسترسال في الكلام، في حين توحي القافية المقيدة بالصمت والتوقف.

أما التكرار بأشكاله المختلفة حرفا كان أم صوتا، أم كلمة مفردة، أم جملة، أم أي نوع من الأساليب فهو عنصر مهم من عناصر الإيقاع حفلت به القصيدة الإسلامية عند مفدي زكرياء.

فمن تكرار الحرف قوله في الذكرى السادسة لاندلاع الثورة الجزائرية الكبرى[1] :

وهل ليلــةُ القدرِ التي طــالَ عُمرُها   تنفّــسَ عنها فجرُها، يصدعُ الأفقا ؟

وهــل كــفَّ هذا الدّهرُ عن غلُوائه   وأنصفنــا هذا الزمــان الذي عقا ؟

ومن تكرار شبه الجملة قوله في القصيدة نفسها يصورا موقف أمريكا من القضيــة الجزائريــة إبان الاحتلال : [2]

وفــي أمريكــا، للطغــاة (حصانة)   وفــي أمريكا، تصرع القوة الحقّا (*)

فإلى جانب تكرار الشاعر للحرف أو الاسم في البيتين من أجل تأكيد المعنى وتقويته، فقد كــان هذا التكرار أيضا تقوية للنغم الموسيقي.

ومما يستحب عند العروضيين تكرار الاسم الذي يدخل في باب التشــويق والاســتعذاب فــي المقطع الشعري.

هذا وقد أغرم زكرياء بتكرار الصوت الذي يتردد فيه صدى نفسه فتحس روح الشــاعر مــن خلال الإيقاع الذي تحدثه هذه النغمات، فاستمع إليه وهو يصور اندلاع ثورة نوفمــبر المجيــدة 1954م وكيف تجاوبت أصداؤها بين منطلقها جبال الأوراس، وجبال جرجرة بالقبائل الكبرى: [2]

ولعْلــعَ، مِــنْ (شَلَعْلَـــعَ) ذوبيــانِ   فأنْطقَ فــوق (جُرجُرة) الجعابا (**)

---

(1) المصدر السابق، ص198.

(2) المصدر نفسه، ص202.

(*) إشارة إلى الأمم المتحدة.

(3) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، ص31.

(**) شلعلع: جبل بالأوراس، ذوبيان: المدفع، جرجرة: جبال بالقبائل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويزداد الإيقاع جمالا في القصيدة الشعرية عن طريق التكرار بالاستهلال والصيغة في شطري البيت كقوله من قصيدة " أمّي وأبي " بمناسبة الجلاء الفرنسي عن القواعد المغربية عام 1961م: [1]

مغربي ... مغربي ...

أنت أرض العجب أنت شعب عربي

أرضنا نحن فداها

نحن جند في حماها نحن نبت في رباها

فيلامس هذا الإيقاع نفسية الشاعر والمتلقي في آن واحد، وبذلك تصبح الموسيقى عنصرا جوهريا في البناء الشعري.

بالإضافة إلى العناصر الفنية المذكورة وأثرها في تشكيل الإيقاع في قصائد زكرياء فإننا نجده يستخدم المحسنات المعنوية كالتقابل، والتضاد، كقوله من قصيدة " إلياذة الجزائر " في الإصلاح الاجتماعي: [2]

وجنّبَنا الغدرَ... ماءُ الغديرِ وحذَّرنا الظلَ نهج الضلالِ

وعودنا الصدقَ... راعي المواشي وعلمنا الصبرَ... صبرُ الجِمالِ...!

فقد زاوج في البيتين بين المحسنات المعنوية والصوتية، فالمعنوية ممثلة في الطباق بين الغدر الصدق، واللفظية، في الجناس الناقص: الغدر، الغدير، الظل، الضلال، والجناس التام في الصبر بلفظيه.

وبذلك استقام النغم، وقوي الإيقاع الذي إن دلّ على شيء فإنما يدل على القدرة الفنية الكبيرة للشاعر زكرياء، وفي حسن اختيار الألفاظ وتنظيمها في سبك قوي يلائم الموضوع، مع صدق الإحساس الذي نلمسه في البيتين.

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، ص160.
[2] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص36.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن المقاطع الشعرية التي يظهر فيها جمال الإيقاع عند مفدي، قوله في وصف نخيل صحراء وطنه، بأسلوب شاعري تحس فيه نفس الشاعر تذوب في مكونات هذا المشهد الرائع، وتسيل في هذا التدفق الشعوري[1] :

وَيَبهَرُكَ منها انسِكابُ النجو م، على وجناتِ النخيلِ الجميلِ

وذوبَ العراجِنِ في صدرِها على لحن جَدولها السّلسبيلِ

كأنّ عسالجها المُثقَلا تِ، الحواملَ، ينضحْنَ بالزّنجبيلِ

لقد وصف بأسلوب بارع النخلة رمز العزة، والفضل التي خص الله بها أهل الصحراء، وجعلها ملاذ مريم العذراء، ومصدر طعامها، ومظللة عيسى الوليد ومأواه في يوم مولده، وجعل من الليونة وعذوبة الألفاظ، ورقة المعاني تطغى على النص الشعري، جعلتنا نحس هذه اللذة السحرية من خلال التوظيف الجيد للألفاظ والعبرات المعبرة عما توحي به الحركة النفسية للمبدع، والناتجة كذلك من إيقاع الكلمات عبر التعبير السحري الذي أصبحت فيه الكلمات والموسيقى إيقاعا يصل بين النفس والكلمة بين الإنسان والحياة [2]. فالنجوم تتسكب، وللنخيل وجنات وصدر، وللجدول لحن السلسبيل، وعَسالجها المثقلة بالثمور تشبه النساء الحوامل تلمع كأنها مدهونة بالزنجبيل.

والخلاصة أن مفدي زكرياء رغم تقليديته، وما وجه إليه من نقد في هذا الجانب، وغيره، فقد استطاع أن يوفق في شعره وأن يجمع بين الموسيقى الخارجية والداخلية، عن طريق اختيار البحر المناسب، والقافية المناسبة، والروي المناسب أيضا، وأن يلائم بين الألفاظ والعبارات في سياق تعبيري متكامل البناء، يعبر عن التجربة في أصدق صورها، بحيث تتجاوب أصداء نفسه مع ما تحدثه التراكيب الشعرية من نغمات إيقاعية، حادة تارة، لينة رقيقة تارة أخرى، تشتد في موقف الشدة، وتلطف في موقف اللين، سواء كان أساس مصدرها نابعا من خارج العبارة الشعرية أم من داخلها، كما ورد ذلك في النماذج التي مثلت بها في مكانها من هذا البحث.

---

[1] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص75.
[2] محمد زكي العشماوي، الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد، ص29.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن مجموعة من التساؤلات التي تدور حول قيمة شعر مفدي زكريا الإسلامي، الفكرية والفنية، وأن ترصد أهم النتائج التي توصل إليها صاحبها بعد البحث والتقصي، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

كشف البحث عن الأصول الفكرية والفنية للشاعر والتي ترتبط بالتراث العربي الإسلامي تاريخا، وأدبا، وفكرا، وعقيدة، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي، الذي ظهر أثره واضحا في شعره معنى ولغة وتصويرا.

كم أبان عن جملة من النتائج أهمها :

-إسهام مفدي القوي بشعره ونضاله في ابراز الوجه المشرق للإسلام من خلال الإشادة بمقومات الحضارة العربية الإسلامية، وتبصير الناس بما جاءت به من قيم وفضائل سمت بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال البشري، والتنويه بالرجال الذين صنعوها وحملوها إلى أنحاء الدنيا لتشع بنورها على الخلق أجمعين.

إبراز مدى خطورة الانحراف الديني والاجتماعي الذي تردى في أوحاله المجتمع العربي الإسلامي، والابتعاد عن الإسلام ومقومات المجتمع الصالح، والدعوة إلى ايقاظ الناس من غفلتهم وإنقاذهم من شر الدجالين والمنحرفين أخلاقيا وعقائديا، والعودة بهم إلى أصالتهم مع تصحيح النظرة إلى الإسلام الذي هو روح الثورة على المستعمر، وإزالة ما علق بالعقيدة من شوائب ألصقها بها أعداء الإسلام.

صوغ الشعور الإسلامي لأبناء وطنه، لإبراز الوجه الأصيل للجزائر العربية المسلمة وتسخير شعره للتعبير عن قضيتهم التي هي قضيته، وتصوير آلامهم وأمالهم، وتطلعاتهم إلى غد مشرق، ينعمون فيه بالحرية والسيادة، فكان له أبلغ الأثر في نفوسهم، فتفاعلوا معه ايجابيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واستجابوا لدعوته.

ربط المفاهيم الدينية بقضايا المجتمع على طريقة شعراء الاتجاه الإسلامي المحافظ في المعالم العربي، والدعوة إلى إصلاحها خاصة التربية والتعليم، المرأة، الشباب، العمل، ومحاربة مختلف الآفات ومظاهر الفساد.

الدعوة إلى الوحدة لتقوية الصفوف، ومواجهة التحدي المفروض على المسلمين من أجل افتكاك حريتهم، وتحرير بلدانهم، ورفع راية الإسلام.

تخليد انتصارات المسلمين، وتمجيد بطولاتهم والإشادة بتضحيات شهداء الأمة للتأثير في النفوس، وتحريك مشاعر وأحاسيس الأبناء المخلصين لزرع الثقة في نفوسهم، فيزدادوا إقبالا على التضحية والفداء، اقتداء بأبائهم، في سبيل الوطن والدين.

الإيمان بالقضية والالتزام بالموقف من منطلق إسلامي هو منطلق الإبداع عند مفدي زكرياء وهدف رسالته الشعرية، فقد التزم بقضايا الإصلاح والحرية والدفاع عن الإسلام، لأن الإسلام كان أحد العوامل الأساسية التي حركت الأحداث على الساحة الوطنية، ودفعت المواطنين إلى الجهاد ضد الاستعمار الصليبي الحديث لإفشال مخططاته. لذلك لم يهتم بالقضايا الفنية اهتمامه بالمضمون فاتصف بالصدق في التعبير، والواقعية في الطرح، وتسخير فنه الحياة لا غير، وهو عين ما يدعو إليه الإسلام، لذلك يغلب على شعره الاسلامي الأمل، ويخلو من النظرة السوداوية واليأس والقنوط. لهذا كان تجديده على مستوى المضامين أقوى لاهتمامه بقضايا أمته المعاصرة.

أما من الناحية الفنية فيمكن إبداء الملاحظات التالية :

التزام الشاعر بنظام القصيدة التقليدية في طريقة بنائها، وفي بناها التعبيرية، وصورها، ورموزها وموسيقاها.

فقد تميز معجمه الشعري بالمحافظة على اللغة التراثية وأساليب القدماء، فاستعمل بعض

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ألفاظهم وتعابيرهم للتعبير عن تجربته مع بعض التطور في نصوصه الوجدانية.

وقد ظهر أثر القرآن واضحا من حيث المفردات الأدبية، فجاءت لغته سليمة من الأخطاء تمتاز بحلاوة اللفظ وخفته ومطابقته لمقتضى الحال، كما أسمت العبارة الشعرية بالسهولة في الإدراك والوضوح في القصد، مع متانة السبك، وجمال الأسلوب.

وقد استطاع بقدرته الفائقة أن يطوع اللغة لينقل إلينا تجربته نقلا أمينا، معبرا بها عن روح العصر، والتأثير بها في السامعين، بالرغم مما شاب لغته من تقريرية ومباشرة تغلب عليها النبرة الخطابية، وبعض العثرات التي نقدتها في مكانها من البحث.

أما صوره الشعرية فقد استمدها من التراث، وواقع الحياة اليومية، ومظاهر الطبيعة، فجاءت حسية واقعية، تتسم بالسطحية في معظمها، تعتمد على التشبيه والاستعارة، الرمز البسيط، وما يظهر فيها من دلالات يعود إلى قدرة الشاعر ونباهته في التقاط الظواهر ونقلها إلينا بطريقته الخاصة المؤثرة.

وتجديده في هذا المجال يكاد ينحصر في تطوير التراث وليس الخروج عنه على عادة الإحيائيين.

كما استطاع أن يحقق الإيقاع المطلوب بواسطة الجمع بين الموسيقى الداخلية والخارجية باختيار العناصر المناسبة، من بحر، وقافلة، وروي، القادرة على إحداث التأثير المرغوب، سواء كان مصدره خارجيا أم داخليا. وبذلك حقق تكاملا بين عناصر الأداء في شعره، لغة وفكرا وتصويرا وإيقاعا، وقدم للجزائر وللعربية والإسلام خدمة جليلة تسجل في تاريخ العروبة والإسلام.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث المتواضع، أرجو أن أكون قد حققت بها الغاية المرجوة منه، وأضفت جديدا إلى من سبقني في هذا الجانب وأن يكون هذا الجهد مسعى في طريق بعث تراثنا التاريخي والأدبي الذي ما زال مغمورا بين طيات المخطوطات والدوريات في أدراج الخزائن هنا وهناك.

المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر والمراجع:

أولا-المصادر:

- آل الشيخ، مفدي زكريـــاء، ديــوان اللـــهب المقــدس، الشــركة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع الجزائــر 1983 م.
- آل الشيخ، مفدي زكرياء، ديوان من وحي الأطلس، مطبعة الأنباء، المغرب،1976 م.
- آل الشيخ، مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987 م.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، الديوان الكامل، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1، 1968م.
- إبراهيم حافظ، ديوان إبراهيم حافظ، ج1، طبع بيروت، 1989م.
- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله القرطبي، ديوان ابــن زيــدون، دار بــيروت للطباعــة والنشر، بيروت، 1979م.
- البحتري، أبو عبادة الوليد عبيد، ديوان البحتري، المجلد الثاني، دار بيروت للطباعـــة والنشــر بيّروت، 1983م
- شوقي أحمد، الشوقيات، ج1، المكتبة التجارية، القاهرة، ط1، 1982م
- شوقي أحمد، الشوقيات، ج1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت
- شوقي أحمد، الشوقيات، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت،د.ت
- الشابي أبو القاسم، ديوان أغاني الحياة، الدرا التونسية للنشر، تونس، د ت
- صبري إسماعيل، الديوان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1938م
- المتنبي، أبو الطيب أحمد الحسين، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا المراجع:

- الأبيض أنيس (الدكتور) ، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جروس برس، طرابلس لبنان، ط1، 1994م.
- أحمد أبو جندي خالد(الدكتور) ، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د ت
- أحمد الهاشمي السيد، القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت
- أدونيس على أحمد سعد، مقدمة ديوان الشعر العربي، ج1، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ط1، 1964م.
- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ العلامة ابن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني، المجلد الثاني، 1960م.
- ابن رشيق، أبو الحسن القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وأوزانه ونقده، ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
- ابن طباطبا محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1956م.
- ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، د.ت
- ابن عبد الله بلقاسم، مفدي زكرياء شاعر مجد ثورة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
- إسماعيل عز الدين (الدكتور) ، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1981م.
- إسماعيل عز الدين، (الدكتور)، الشعر العربي المعاصر في اليمن، الرؤية والفن، دار العودة بيروت، ط02، 1986.

- الآمدي البصري، أبو الحسن، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عن منيل الروضة 1944.
- أنيس إبراهيم (الدكتور)، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، ط05، 1981.
- بركات درار أنيسة (الدكتورة) ، أدب النضال في الجزائر من سنة 1945 حتى الاستقلال المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- بشيشي الأمين، أناشيد للوطن، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 1998م.
- بلحيا الظاهر، تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
- بوبعيو بوجمعة(الدكتور)، موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبولو، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1995م.
- البحراوي سيد (الدكتور) ، موسيقى الشعر عند شعراء أبو اللو، دار المعارف، ط1، 1986م.
- البهي محمد (الدكتور) ، الدين والحضارة الإنسانية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط2، 1974م.
- البياني عادل جاسم (الدكتور) ، التجديد في لغة الشعراء الإحيائيين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م.
- جيدة عبد الحميد، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، لبنان، ط1 1980م.
- جابر الجزائري، أبو بكر، منهاج المسلم، مطبعة الفن، باتنة، الجزائر، 1981م.
- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق هلموت وايتر، أسطنبول، 1954م.
- الجزائري محمد، ويكون التجاوز، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

• الجابري محمد الصالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس1900-1962 الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م.

• حركة فتح، كتاب معركة الكرامة، بغداد، العدد 04 أفريل 1968م.

• الحاوي إيليا، أحمد شوقي أمير الشعراء، ج3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1983م.

• الحاوي إيليا، أبو القاسم الشابي، دار الكتاب اللبناني، ج2، ط3، 1981م.

• الحوفي أحمد محمد (الدكتور) ، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، 1967م.

• خرفي صالح (الدكتور) ، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1983م.

• خليل عماد الدين (الدكتور) ، في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3 1984م.

• خوريّ إلياس، دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، ط1، 1981م.

• الخطيب أحمد (الدكتور) ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحي في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

• الخالدي صلاح عبد الفتاح، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، الجزائر، 1985م.

• دحو العربي (الدكتور) ، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

• دردور عبد الباسط، العنف السياسي في الجزائر وأزمة التحول الديمقراطي، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1996م.

• الدقاق عمر(الدكتور) ، الإتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، مكتبة الشرق، حلب، ط2 1963م.

- ركيبي عبد الله خليفي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1962م.
- ركيبي عبد الله (الدكتور) ، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1981م.
- الرافعي مصطفى (الدكتور) ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1978م.
- زايد عبد الصمد، مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب، 1988م.
- سعد الله أبو قاسم (الدكتور) ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.
- سعد الله أبو قاسم (الدكتور) ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، ط2، 1977م.
- سعدي عثمان (الدكتور) ، عروبة الجزائر عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985م.
- سعيد خالدة (الدكتورة) ، حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط2، 1982م.
- سليمان طبوشة نبيل (الدكتور) ، الإتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ (1882م/1919م)، الهيئة المصرية العامة، ط1، 1990م.
- سليمان نور (الدكتورة) ، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين بيروت، ط1، 1981م.
- السنوسي محمد الهادي ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس ط1، 1926م.
- شعبان الوناس، تطور الشعر الجزائري من سنة 1945 إلى 1980م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

• الشعراوي محمد متولي، معجزة القرآن، ج1، مطبعة أمزيان، الجزائر، د.ت.

• شكري غالي (الدكتور) ، شعرنا الحديث إلى أين ؟ دار الآفاق، بيروت، ط2، 1978.

• شكري غالي (الدكتور) ، محاورات اليوم السابع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط1، 1980م.

• الشيخ صالح يحي، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1987م.

• الصديق محمد الصالح، صفحات من جهاد الجزائريين، شركة الشهاب، الجزائر، د.ت.

• ضيف شوقي (الدكتور) ، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط5، 1975م.

• الطمار محمد عمرو، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت 1969م.

• طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1992 م.

• عبده محّمد، رسالة التوحيد، دار الفكر، بيروت، د.ت.

• عبد الله بن باز عبد العزيز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، طبع الرئاسة العامة للدراسات والبحوث العلمية والإفتاء، والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط5 1983م.

• عباس إحسان(الدكتور) ، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1959م.

• عصفور جابر (الدكتور) ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2،1983م.

• عصفور جابر (الدكتور) ،مفهوم الشعر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط3،1983م.

• العشماوي أيمن محمد زكي (الدكتور) ، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1983م.

• العشماوي محمد زكي (الدكتور) ، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1979م.

• العشماوي محمد زكي (الدكتور) ،الرؤية المعاصر في الأدب والنقد دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

• العظم يوسف (الدكتور) ، أين مخاض الجيل المسلم؟ الزيتونة للإعلام، باتنة الجزائر، 1989م.

• العسلي بسام، جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م.

• العلوي محمد الطيب، مظاهر المقاومة الجزائرية (1930- 1954)، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، 1985م.

• غنيمي هلال محمد (الدكتور) ، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة والعودة، بيروت، 1973م.

• غنيمي هلال محمد (الدكتور) ، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة، 1979م.

• الغزالي محمد (الإمام) ، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، رئاسة المحاكم الشرعية والدينية قطر، 1402 هـ.

• فحلة حسن، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1 1989م.

• فضل صلاح، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978م.

• فهمي سعد (الدكتور) ، حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، دار الرحاب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

• فيدوح عبد القادر، دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، ط1 1993م.

• قطب سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط8، 1983م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

• قطب سيد، في ظلال القرآن، المجلد الأول، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية العاشرة 1982م.

• قطب سيد، النقد العربي، أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، ط4، 1980م.

• قطب محمد، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، د.ت.

• قطب محمد، واقعنا المعاصر، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، د.ت.

• القرآن الكريم، برواية ورش عن الإمام نافع، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981م.

• القرضاوي يوسف (الدكتور) ، الخصائص العامة للإسلام، شركة الشهاب للطباعة والنشر الجزائر، 1988م.

• القيسى نوري حمودي، شعراء إسلاميون، مكتبة النهضة العربية، ط2، 1984م.

• الكيلاني نجيب (الدكتور) ، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1983م.

• محمد حسين محمد، الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1982م.

• محمد سيد محمد، المسؤولية الإعلامية في الإسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1986م.

• محمد خضر سعاد (الدكتورة) ، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، د.ت.

• محمد الشيباني عمر، مقد في الفلسفة الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.

• محمد قميحة مفيد (الدكتور) ، الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط1، 1981م.

• مرتاض عبد المالك(الدكتور) ، بنية الخطاب الشعري، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1986م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

●مرتاض عبد المالك (الدكتور) ، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990م.

●مزالي محمد، في دروب الفكر، الشركة التونسية الفنون الرسم، ط1، 1979م.

●مصطفاي موهوب، المثالية في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

●معلوف ألويس، المعجم في اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت، د.ت.

●مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت ط3، 1986م.

●مهدي عبد الحميد،، ركائز الحضارة في الإسلام، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر،د.ت.

●المجذوب عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، دار الفكر، بيروت ط2، 1970م.

●المدني أحمد توفيق، حياة كفاح، ج1، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1988م.

●الملائكة نازك، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1983م.

●المندري الحافظ أبي محمد، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج1 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الشهاب، الجزائر، د.ت.

●المودودي أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر 1988م.

●الميلي محمد، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 1980م.

●نشاوي نسيب (الدكتور) ، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، مطابع ألف باء، دمشق 1980م.

- ناصر محمد (الدكتور) ، الشعر الجزائري الحديث، إتجاهاته وخصائصه الفنية والمعنوية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.
- ناصر محمد (الدكتور) ، الصحف الجزائرية (1847 إلى 1939)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط2، 1989م.
- ناصف مصطفى (الدكتور) ، الصورة الأدبية،دار الأندلس، بيروت، ط2، 1981م.
- الهاشمي محمد عادل (الدكتور) ، الإنسان في الأدب الإسلامي المعاصر، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة، العزيزية، 1984م.
- الهمامي الطاهر، كيف نعتبر الشابي مجددا ؟ الدار التونسية للنشر، 1985م.
- وزارة التربية الوطنية، الجزائر، النصوص الخاصة بقطاع التربية 1992م.
- يحياوي الطاهر، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى العماري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983م.
- يحياوي الطاهر، وتوامي محمد؛ شعراء وملامح، مطبعة أومزيان، الجزائر، ط1 1984م.
- يوسف عبد القدر صلاح، في العروض والإيقاع الشعري، شركة الأيام، الجزائر، 1996م.

الرسائل الجامعية :

- بزى حواس، شعر مفدي زكريا، رسالة ماجيستير (مخطوط)، جامعة عين شمس 1987م.
- بوسقطة السعيد، قضية فلسطين في الشعر الجزائري المعاصر (1948م- 1986م)، رسالة ماجيستير (مخطوط)، جامعة عين شمس،1991م.
- زلاقي محمد، شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي، رسالة ماجيستير (مخطوط)، جامعة عين شمس، 1990م.
- فارق أحسن، القومية العربية في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، رسالة ماجستير (مخطوط)، جامعة القاهرة، 1988م.
- العياضى أحمد حمو، الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري الحديث (1920-1962) رسالة ماجستير (مخطوط)، جامعة عين شمس، 1992م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدوريات

أولا-المجلات:

- الأصالة، الجزائر، عدد 13، مارس / أفريل، 1973م.
- الأصالة، الجزائر، عدد 13نوفمبر، 1974م.
- الأصالة، الجزائر، عدد 89 و 90 سنة 1981م.
- الآداب، جامعة عنابة، الجزائر، 1982
- الثقافة، الجزائر، عدد 29 -أكتوبر/ نوفمبر 1975.
- الثقافة، الجزائر، السنة 16 عدد 93، مارس / جوان 1986.
- الثقافة، الجزائر، عدد 96، نوفمبر/ ديسمبر 1986.
- سيرتا، جامعة قسنطينة، الجزائر، عدد 6، 1982/7.
- الشورى، مجلة الفكر القومي التقدمي ليبيا، السنة 03 عدد 06 سبتمبر 1975.
- الشهاب، الجزائر، العدد 53 بتاريخ 1926/09/20.
- الشهاب، الجزائر، ج9، مجلد 14، 1938.
- الحياة الثقافية، تونس، عدد 32، 1984م.
- الفيصل، المملكة العربية السعودية، عدد 114، ديسمبر، 1986
- المجاهد الأسبوعي، الجزائر، عدد 1354 (1986/07/18م).

ثانيا-الجرائد:

- الأمة، الجزائر، عدد 43 بتاريخ 1935/09/24م.
- الأمة، الجزائر، عدد 137 بتاريخ 1936/09/14م.
- تونس الفتاة، تونس، عدد25-12-1936م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الخبر اليومية، الجزائر، عدد 1874 بتاريخ 1997/01/12م.
- الخبر اليومية، الجزائر، بتاريخ 19-10-1992م.
- الشباب، تونس، بتاريخ 1937/03/05م.
- الشروق، الجزائر، عدد145 ، فبراير/ 1994م.
- لسان الشعب، تونس، بتاريخ 1925/05/06.
- المرصاد، الجزائر، عدد 20/01/ 1932.
- المعرفة، الجزائر، عدد 11، ماي/ جوان 1964.
- المغرب، الجزائر، عدد 15 بتاريخ 1930/09/09.
- المغرب، الجزائر، عدد 13 بتاريخ 1930/08/20.
- المغرب، الجزائر، عدد 08 بتاريخ 1930/07/15.
- النصر، الجزائر، عدد5947 بتاريخ 1993/01/03م.
- النّور، الجزائر، عدد، 12 بتاريخ 1931/12/01م.
- النور، الجزائر، عدد 1932/07/26م.
- النور، الجزائر، عدد 48 بتاريخ 1932/08/30م.
- وادي ميزاب، الجزائر، عدد 12 بتاريخ 1926/12/17.
- وادي ميزاب، الجزائر، عدد 62 بتاريخ 1927/12/23.
- وادي ميزاب، الجزائر، عدد 1930/07/19م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الـــموضوعـــات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضــــــــوع	الصفحـــــة
المقدمـــــــــــة	أ-هـ
المدخـــــــــــل	14-01
الفصل الأول: حياة الشاعر والمؤثرات الفاعلة في شاعريته	116-15
أ- حياة الشاعر وآثاره	15
ب- المؤثرات الفاعلة في شاعريته	43
- أثر البيئة	43
- أثر التراث العربي الإسلامي	50
- المؤثرات الأخرى	70
- مراحل تطور شاعريته	98
الفصل الثاني : تمجيد الحضارة العربية الإسلامية	221-117
أ- الإشادة بمقومات الحضارة في مجال :	167-118
- العقيدة والعبادات	120
- الأخلاق والمعاملات	149
- العلوم والفنون	158
ب- الدعوة إلى الإسلام وتحرير الأوطان	221-167
- إبراز قيم الإسلام ونقد المفاهيم المنحرفة	167
- الدعوة إلى محاربة الفساد وإصلاح قضايا المجتمع	175
- الدعوة إلى الوحدة لتحقيق أهداف الأمة	202
- الدعوة إلى الجهاد في سبيل رفع راية الإسلام	207
- تمجيد البطولة الإسلامية والإشادة بتضحيات الشهداء	216

الفصل الثالث : أدوات التشكيل الشعري 232-222
أ- المعجم الشعري 263-225
- ألفاظ ذات مدلولات إسلامية 226
- البنى التركيبية 232
- خصائص اللغة الشعرية 235
ب- الصورة الشعرية 308-263
- مفهوم الصورة الشعرية وطبيعتها 263
- أنواع الصورة الشعرية 273
- الصورة البلاغية 273
- الصورة الرمـز 290
جـ- الموسيقى الشعرية : 332-308
- مفهوم الموسيقى الشعرية وأهميتها 308
- أنواعها 310
- الموسيقى الخارجية 312
- الموسيقى الداخلية 323
- طبيعتها 325
الخاتمـــــة 333
ثبـت المصـــادر والمـراجـــع 337
فهـــرس المـوضـوعـــات 350

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية